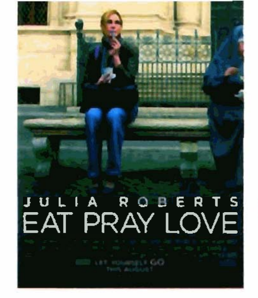
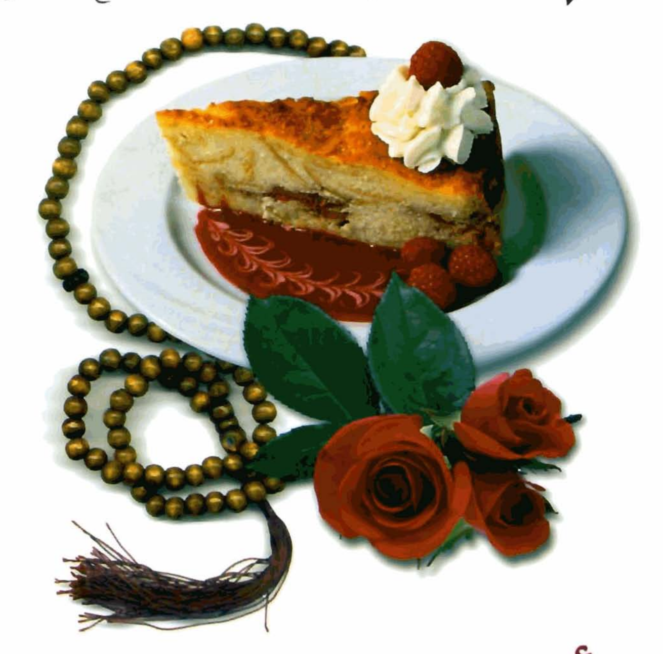




الرواية التي بيع منها أكثر من
4 ملايين نسخة حول العالم
وتحوّلت إلى فيلم سينمائي
من بطولة جوليا روبرتس

طَعامٌ.. صَلاةٌ.. حُبٌّ..



امرأة تبحث عن كل شيء

إليزابيث جيلبرت

«هذا الكتاب هو هديتي المفضلة إلى صديقاتي» جوليا روبرتس
«على كل امرأة أن تقرأه» اللي ماكبيرسون
«إنه المفضّل» صوفي داهل

طَعَامٌ.. صَلاةٌ.. حُبٌّ..

امـرأة تبـحـث عـن كل شــيء

تأليف

إليزابيث جيلبرت

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Eat, Pray, Love
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Bloomsbury Publishing Plc
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1430 هـ – 2009 م

ردمك **978-9953-87-602-3**

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

مقدّمة

أو كيف يعمل هذا الكتاب

أو الحبّة 109

حين تسافر إلى الهند، وتتجوّل في عدّة أماكن، تصادف كثيراً من الأشـخاص الذين يضعون مسابح في أعناقهم. كما ترى صوراً كثيرة لمـزاولي رياضـة الـيوغا النحيلين والمخيفين أو حتى أحياناً الممتلئين، اللطفـاء، والمـشرقين هم أيضاً يضعون المسابح. تدعى هذه المسابح بلغـتهم *جابا مالاس*. وقد استعملت في الهند لقرون من الزمن لمساعدة الهـندوس والبوذيّين على التركيز خلال تأمّلاتهم. فتُحمل المسبحة بيد واحـدة وتمرّر حبّاتها بالإصبع، ومع كلّ حبّة تكرّر المانترا مرّة واحدة. وحـين توجّه الصليبيون شرقاً في القرون الوسطى خلال حروبهم، رأوا تلك المسابح فأعجبتهم الفكرة وأحضروها معهم إلى أوروبا.

تتألّف *الجابا مالا* التقليدية من 108 حبّات. ويعتبر الرقم 108 بين الأوسـاط الأكثر سرّية للفلاسفة الشرقيين رقمَ السعد. فهو مؤلّف من ثلاثـة أرقـام ويشكّل مضاعفاً كاملاً للرقم ثلاثة، وإن جمعت أرقامه تحصل على تسعة، وهي ثلاثة ثلاثات. وبما أنّ هذا الكتاب يتحدّث عن مسعاي لإيجاد التوازن، قرّرت تقسيمه على غرار *الجابا مالا*. فقسّمت روايـتي إلى 108 حكايـات، أو حبّات. وهذا العقد المؤلّف من 108 حكايات، مقسّم بدوره إلى ثلاثة أقسام عن إيطاليا والهند وإندونيسيا،

وهي البلدان الثلاثة التي زرتها خلال ذاك العام من بحثي عن ذاتي. ويعني ذلــك أنّ كلّ قسم يضمّ 36 حكاية، ما يحمل دلالة شخصية بالنسبة إليّ، لأنّني كنت قد بلغت السادسة والثلاثين من عمري وأنا أكتب كلّ هذا.

الآن، وقــبل أن أصبح أقرب إلى لويس فرّخان هنا مع كلّ هذا الحــديث في علم الأعداد، أودّ أن أخلص إلى القول بأنّني أحببت فكرة ربــط هذه الحكايات على غرار *الجابا مالا* لأنّها شديدة الترابط. لطالما كــان الــبحث الروحــي الصادق وما زال محاولةً للتهذيب المنهجي. فالبحث عن الحقيقة ليس متاحاً للجميع، ولا حتى في هذا العصر حيث كلّ شيء متاح للجميع. وكباحثة عن الحقيقة وكاتبة على حدٍّ سواء، وجــدت أنّه من المفيد الاعتماد على حبّات المسبحة قدر الإمكان لكي أركّز على ما أحاول تحقيقه.

بأي حال، تحتوي كلّ *جابا مالا* على حبّة إضافية خاصة، هي الحبّة 109، تعلّق خارج هذه الدائرة المتوازنة المؤلّفة من 108 حبّات. وكــنت أعتقد بأنّ هذه الحبّة موجودة احتياطاً، كالزرّ الإضافي في سترة باهظة الثمن أو كالابن الأصغر في عائلة ملكية. ولكنْ، لديها علــى ما يبدو هدف أسمى. فحين تصل أصابعك إلى هذه الحبّة في أثــناء الــتأمل، علــيك الــتوقّف عن استغراقك في التأمّل لتشكر معلّميك. وها أنا أتوقّف عند الحبة 109 خاصتي، قبل حتى أن أبدأ، لأقــدّم شــكري لمعلّميّ الذين ظهروا في طريقي خلال تلك السنة بأساليب غريبة جداً.

غير أنّني أوجّه شكراً خاصّاً لمرشدتي التي كانت شديدة التعاطف معي والتي سمحت لي بأن أدرس في معتزلها خلال إقامتي في الهند. وأودّ التوضــيح هنا أيضاً بأنّني كتبت عن تجربتي في الهند من منطلق شخصي

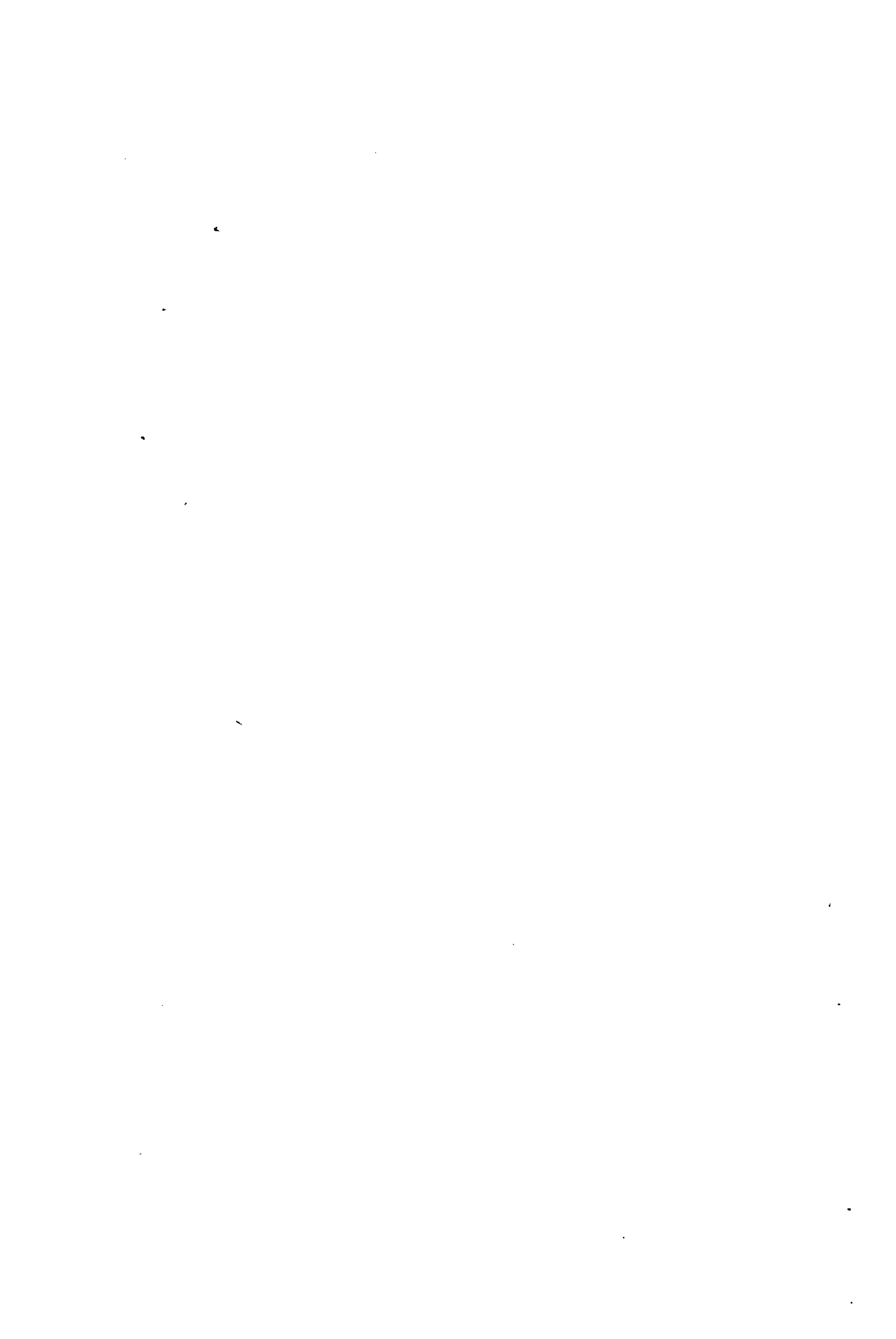
ولـــيس كطالبة أو متكلمة رسمية باسم أحد. لهذا السبب، لن أستعمل اسم مرشدتي في هذا الكتاب لأنّني لا أستطيع التحدّث عنها. فتعاليمها تتحدّث عن نفسها. كما أنّني لن أكشف اسم أو موقع معتزلها، لتبقى تلـــك المؤسسة الرائعة بعيدة عن أعين الدعاية، لعدم اهتمامها أو قدرتها على التعامل معها.

ثمّـــة امتـــنان أخير أودّ التعبير عنه: بما أنّ جميع الأسماء في هذا الكتاب قد تمّ تغييرها لأسباب مختلفة، قرّرت أيضاً تغيير أسماء جميع الأشـــخاص الذين التقيت بهم في المعتزل في الهند، أكانوا هنوداً أم غـــربيّين. وهـــذا لأنّ معظم الأشخاص لا يذهبون إلى هناك لكي يظهروا لاحقاً كشخصيّات في كتاب. (ما لم يكونوا أنا، بالطبع). غير أنّني استثنيت شخصاً واحداً من هذه القاعدة التي فرضتها على نفـــسي. فريتـــشارد الآتي من تكساس هو فعلاً ريتشارد وفعلاً من تكساس. وقد قرّرت استخدام اسمه الحقيقي لأنّه كان في غاية الأهمية بالنسبة إليّ حين كنت في الهند.

كلمـــة أخيرة، حين سألت ريتشارد ما إذا كان لديه مانع أن أذكـــر في الكتاب أنّه كان سكّيراً ويتعاطى المخدّرات، قال إن لا مانع لديه.

قال: "كنت أحاول أن أتخيّل كيفية قول ذلك، بأيّ حال".

ولكن أوّلاً، إيطاليا...



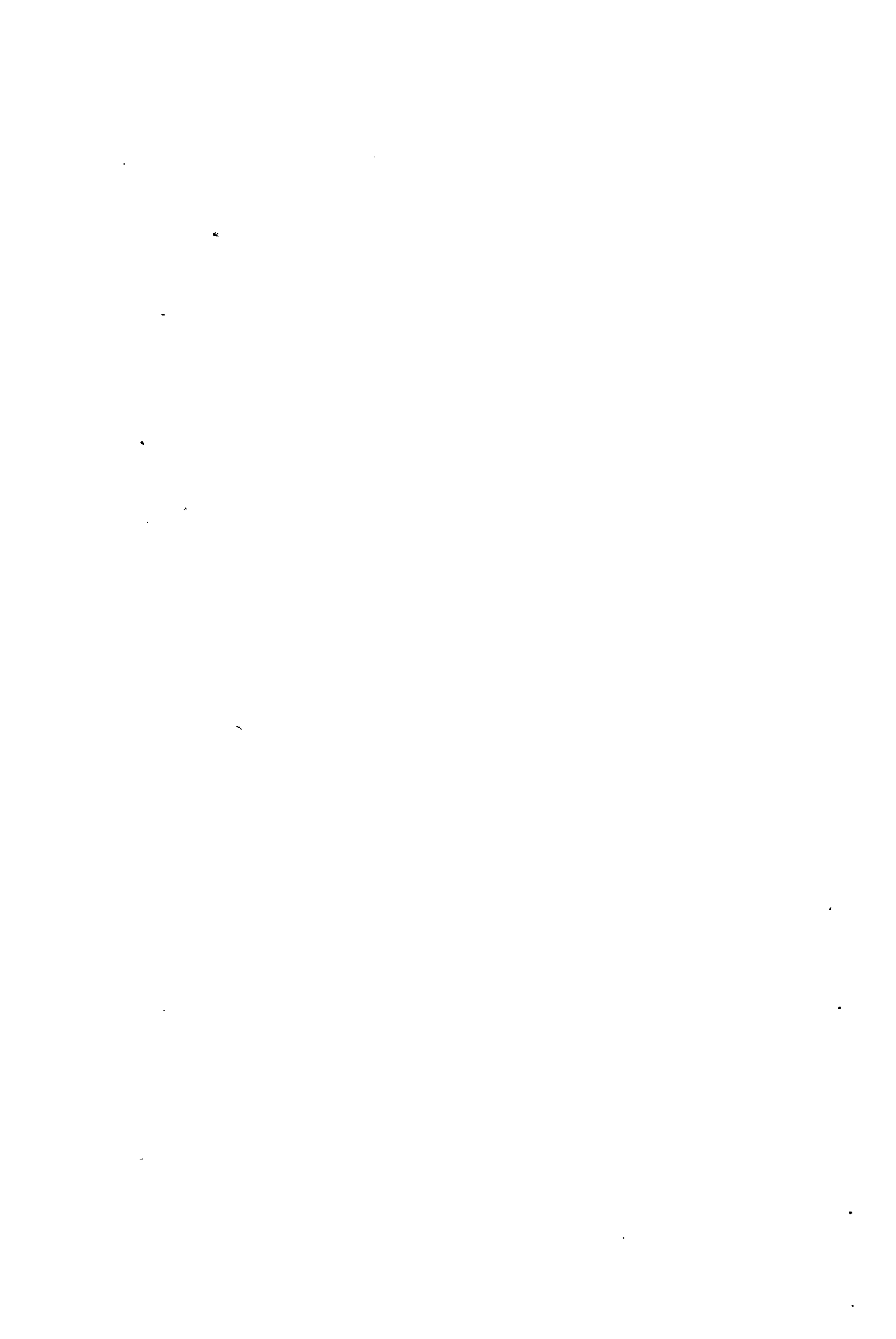
إيطاليا

أو

"قلها كما تأكلها"

أو

36 حكاية عن السعي إلى السعادة الداخلية



1

أتمنّى لو أنّ جوفاني يقبّلني.

ولكـــنّ هذه الفكرة تبدو فظيعة لأسباب عدّة، أوّلها أنّ جوفاني يـــصغرني بعشرة أعوام، وشأنه شأن معظم الشبّان الإيطاليين الذين ما زالـــوا في العقـــد الثاني من العمر، هو لا يزال يعيش مع أمّه. وهذان الأمران وحدهما كفيلان باستبعاده كشريك رومانسي لي، نظراً لكوني امرأة أميركية عاملة في أواسط العقد الثالث من العمر، خرجت للتوّ من تجربة زواج فاشلة وطلاق طويل ومدمّر، أعقبته على الفور علاقة حبّ ملتهـــبة انتهت على نحو مفجع. تركتني تلك الخسارات المتتالية فريسة للحـــزن وشعرت بأنّني هشّة وضعيفة وكأنّ عمري سبعة آلاف سنة. ومبادئي لا تسمح لي بأن أرمي أحزاني ومآسيّ عند أقدام جوفاني، ذاك الـــشابّ اللطيف المرح. هذا من دون أن نذكر أنّني بلغت أخيراً السنّ التي تبدأ عندها المرأة بالتساؤل ما إذا كان من الحكمة دعوة شابّ آخر إلى... للتغلّب على خسارة شابّ وسيم. لهذا السبب، أنا أعيش وحيدة مـــنذ عـــدّة أشهر. وللسبب عينه في الواقع، قرّرت تمضية هذه السنة بأكملها عازبة.

المراقب الذكي قد يتساءل: "ما الذي أتى بك إذاً إلى إيطاليا؟".

إنه سؤال لا يمكنني سوى أن أجيب عنه بالتالي، لا سيّما إن كنت أنظر عبر الطاولة إلى جوفاني الوسيم: "سؤال ممتاز".

جوفاني هو شريكي في التبادل الثقافي. فنحن نلتقي عدّة أمسيات في الأســـبوع هـــنا في روما للتمرّن على اكتساب واحدنا لغة الآخر. نـــتحدّث أوّلاً بالإيطالية، ويكون صبوراً معي، ثمّ نتحدّث بالإنكليزية،

وأكون صبورة معه. عثرت على جوفاني بعد بضعة أسابيع من وصولي إلى روما، بفضل مقهى الإنترنت الكبير في ساحة باربارييني، إلى الجانب الآخر من الشارع الذي تقع فيه تلك النافورة المحتوية على منحوتة لغُرنوق ماء جذّاب يرشّ الماء في محارته. وكان (أي جوفاني، وليس الغُرنوق) قد علّق لافتة على لوحة الإعلانات تقول إن إيطالياً يبحث عن إنكليزي للتمرّن معه على المحادثة باللغة الإنكليزية. وظهر تحت الإعلان تماماً إعلان آخر بالطلب نفسه، حرفياً. أمّا الفرق الوحيد فكان في عنوان البريد الإلكتروني. فأحدهما باسم شخص يدعى جوفاني، والآخر باسم داريو. ولكن، حتى رقم هاتف المنزل كان نفسه.

استخدمت قوّة حدسي، وأرسلت إلى الاثنين معاً في الوقت نفسه وسألتهما بالإيطالية: "هل أنتما أخوان؟".

كان جوفاني هو الذي ردّ بهذه الرسالة المثيرة: "بل أفضل من ذلك، توأمان!".

نعم، أفضل بكثير. توأمان متشابهان طويلان، أسمرا اللون ووسيمان، في الخامسة والعشرين من عمرهما، كما تبيّن لاحقاً، صاحبا أعين إيطالية كبيرة بنية اللون، لطالما خطفت أنفاسي. بعدما قابلت الشابين شخصياً، رحت أتساءل ما إذا كان يفترض بي ربّما تعديل القانون الذي فرضته على نفسي بالبقاء عازبة هذه السنة. مثلاً، يمكنني أن أبقى عازبة *باستثناء* الاحتفاظ بتوأمين إيطاليين في الخامسة والعشرين من عمرهما كعاشقَين. وهذا ما ذكّرني قليلاً بصديقة لي كانت نباتية باستثناء اللحم المقدّد، ولكن مع ذلك... كنت قد بدأت بوضع رسالتي إلى بنتهاوس:

في ضوء الشموع المتمايل في المقهى الروماني، كان من المستحيل معرفة يدَي مَن...

ولكن، لا.

لا وألف لا.

قطعت الحلم في وسطه. فالوقت لم يكن مناسباً للبحث عن الرومانسية، ومع الوقت، تعقيد حياتي المعقّدة أصلاً. إنّه وقت البحث عن الشفاء والسلام اللذين لا يأتيان إلاّ من الوحدة.

على كل حال، أصبحت وجوفاني بحلول منتصف تشرين الأوّل صديقين عزيزين. أمّا بالنسبة إلى داريو، الأكثر نشاطاً بين الاثنين، فقد عرّفته بصديقتي السويدية الفاتنة صوفي، والطريقة التي يمضيان بها أمسياتهما في روما تشكّل نوعاً مختلفاً تماماً من التبادل الثقافي. أنا وجوفاني كنّا نتحدّث وحسب. في الواقع، نأكل ونتحدّث. وكنّا نأكل ونتحدّث منذ عدّة أسابيع سارّة، نتشارك فيها البيتزا والتصحيحات اللغوية اللطيفة، والليلة لم تكن مختلفة. كانت أمسية وديعة طغت عليها العبارات الجديدة والموزاريلا الطازجة.

كان الليل قد انتصف والجوّ كان غائماً، وكان جوفاني يرافقني إلى شقّتي عبر تلك الشوارع الخلفية لروما، التي تتعرّج حول المباني القديمة مثل السواقي التي تتلوّى حول أشجار السرو الظليلة. وصلنا عند الباب ووقفنا في مواجهة بعضنا، فضمّني بدفء. كان قد حقق تحسّناً، ففي الأسابيع الأولى، كان يكتفي بمصافحتي. وأظنّ لو أنّني أبقى في إيطاليا للسنوات الثلاث المقبلة، فقد يرغب بتقبيلي. إلاّ أنّه بالمقابل قد يقبّلني الآن، الليلة، هنا أمام باب بيتي... ما زال ثمّة أمل... أعني نحن نضمّ بعضنا تحت ضوء القمر... وبالطبع ستكون غلطة *فظيعة*. ولكن، ما زال الاحتمال وارداً بأن يفعل الآن... بأن ينحني... و... و...

كلاّ.

ابتعد عني قائلاً: "ليلة سعيدة، ليز".

أجبته بالإيطالية: "ليلة سعيدة، عزيزي".

صعدت السلالم إلى شقّتي في الطابق الرابع، وحيدة. دخلت الأستوديو الصغير، وحيدة. أغلقت الباب خلفي. ليلة أخرى من الوحدة تنتظرني في روما. ليلة طويلة أخرى في...، ما عدا كومة من الدفاتر والقواميس الإيطالية.

أنا وحيدة، وحيدة تماماً.

حين أدركت هذه الحقيقة، تركت حقيبتي، وسقطت على ركبتيّ، وضغطت جبيني على الأرض.

...

2

وبما أنّني جاثمة أتضرّع هنا على الأرض، سأبقى بهذه الوضعية، وأعود إلى الوراء، إلى ثلاث سنوات خلت، حين بدأت هذه القصّة، كنت في تلك اللحظة على الوضعية نفسها: جاثية على ركبتيّ، على الأرض.

غير أنّ المشهد كان مختلفاً تماماً منذ ثلاث سنوات. في ذلك الوقت، لم أكن في روما بل في الحمّام العلوي للمنزل الكبير الواقع في ضواحي نيويورك والذي اشتريته مؤخّراً أنا وزوجي. كانت ليلة باردة من ليالي تشرين الثاني، والساعة قد قاربت الثالثة صباحاً. كان زوجي نائماً في سريرنا بينما كنت مختبئة في الحمّام للّيلة السابعة والأربعين تقريباً على التوالي، وككلّ ليلة، أبكي. كنت أبكي بشدّة لدرجة أنّ بحيرة كبيرة من الدموع كانت تتكوّن أمامي على أرض الحمّام، بحيرة فعلية من كلّ العار، والخوف، والارتباك، والحزن الذي استبدّ بي.

لا أريد أن أكون متزوّجة بعد الآن.

لكن كان يفترض بي أن أرغب بإنجاب طفل. كنت في الحادية والثلاثين من عمري. وكنّا أنا وزوجي معاً منذ ثماني سنوات، ومتزوّجَين منذ ستّ سنوات، وبنينا حياتنا بأكملها على فكرة أنّنا بعد تجاوز الثلاثين، سأرغب بالاستقرار وإنجاب الأطفال. كلانا توقّعنا أنّني سأملّ من السفر وسأسرّ لعيش حياة أسرية كبيرة ونشيطة، مليئة بالأطفال والأعمال اليدوية، مع حديقة خلفية وطنجرة جميلة من الطعام تغلي على الفرن. (وكون هذه الصورة هي وصف دقيق لأمّي ليس سوى مؤشّر سريع لمدى الصعوبة التي واجهتها في تحديد الفرق بيني وبين المرأة القوية التي ربّتني). إلاّ أنّني لم أرغب بهذه الأشياء كما كنت أكتشف بخوف.

عوضاً عن ذلك، ومع اقتراب سنواتي العشرين من نهايتها، راحت سنّ الثلاثين تضيّق على خناقي وكأنّها حبل مشنقة، واكتشفت أنّني لم أكن أريد الإنجاب. انتظرت طويلاً كي أشعر بالرغبة بالإنجاب، ولكنّ ذلك لم يحدث. أنا أعرف كيف يشعر المرء حين يرغب بشيء ما، صدّقني. أعرف تماماً ما هي الرغبة، ولكنّها لم تكن موجودة. كما أنّني لم أتوقّف عن التفكير في ما قالته لي شقيقتي يوماً وهي تُرضِع طفلها الأوّل: "إنجاب طفل هو أشبه برسم وشم على الوجه، عليك أن تكوني واثقة من أنّ هذا ما تريدينه قبل الإقدام على إنجابه".

لكن، كيف لي أن أدير ظهري الآن؟ كلّ شيء أصبح في مكانه. وكان يفترض بنا الإنجاب هذا العام. في الواقع، كنّا نحاول الإنجاب منذ عدّة أشهر. ولكنّ شيئاً لم يحدث (باستثناء غثيان صباحي نفسي المنشأ، جعلني أتقيّأ فطوري بعصبية كلّ يوم، وكأنّها سخرية من الحمل). وكلّ شهر أكتشف فيه بأنّني لست حاملاً، أجد

نفسي أهمس بمكر في الحمّام: *شكراً، شكراً، شكراً، شكراً لإعطائي شهراً إضافياً لأعيش...*

كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنّ ما أشعر به طبيعي، وأنّه ينتاب كلّ امرأة تحاول الإنجاب. (*تضارب المشاعر* هو التعبير الذي استخدمته، تفادياً للوصف الأكثر دقّة: *يتملّكها الخوف*). كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنّ مشاعري عادية، على الرغم من أنّ كلّ الأدلّة تشير إلى العكس، كإحدى معارفي التي التقيت بها الأسبوع الماضي والتي اكتشفت للتوّ أنّها حامل للمرّة الأولى، بعدما أمضت سنتين، وأنفقت ثروة على العلاجات التخصيبية. كانت منتشية. أخبرتني بأنّها تودّ أن تكون أمّاً إلى الأبد، وأقرّت بأنّها كانت تبتاع سرّاً ملابس للطفل منذ سنوات، وتخبّئها عن زوجها تحت السرير. رأيت الفرحة في عينيها وعرفتها. كانت تلك الفرحة عينها التي شعّت في عينيّ الربيع الماضي حين عرفت بأنّ المجلّة التي أعمل فيها قرّرت إرسالي في مهمّة إلى نيوزيلندا لكتابة مقال عن البحث الدائر عن الصبيدج العملاق. وفكّرت حينها: "إلى أن أشعر حيال الطفل بالنشوة نفسها التي ملأت كياني حيال الذهاب إلى نيوزيلندا للبحث عن صبيدج عملاق، لا يمكنني الإنجاب".

لا أريد أن أكون متزوّجة بعد الآن.

كنت أرفض هذه الفكرة نهاراً، ولكن ما إن يحلّ الليل، حتى تتملّكني مجدّداً. يا للكارثة. كيف لي أن أكون بهذه الدناءة بحيث أستمرّ بالزواج حتى هذه المرحلة المتقدّمة، ثمّ أنسحب منه؟ لقد اشترينا هذا المنزل منذ عام واحد فقط. ألم أرغب بهذا المنزل الجميل؟ ألم أحبّه؟ لِمَ أهيم إذاً بين جدرانه أنوح كلّ ليلة؟ ألست فخورة بكلّ ما جمعناه؛ منزل هودسون فالي الفخم، شقّة منهاتن، خطوط الهاتف الثمانية،

الأصـــدقاء والنـــزهات والحفلات، العطل التي نمضيها في التجوّل بين أجنحة المتاجر الفخمة، نشتري مزيداً من المقتنيات؟ لقد شاركت على نحـــو فاعل في كلّ لحظة من لحظات بناء هذه الحياة المشتركة، لِمَ أشعر إذاً بأنّ شيئاً فيها لا يشبهني؟ لِمَ أشعر بأنّني منهكة من واجباتي، مجهدة مـــن كوني المعيل الأساسيّ وسيدة المنـــزل والمنسّقة الاجتماعية ومن ينـــزّه الكلب والزوجة وقريباً الأمّ، وفي لحظات خاطفة، كاتبة...؟

لا أريد أن أكون متزوّجة بعد الآن.

كـــان زوجي نائماً في الغرفة الأخرى، في سريرنا. شعرت بأنّني أحبّه ولا أطيقه في الوقت نفسه. لم أتمكّن من إيقاظه ليشاركني بؤسي، مـــا الـــنفع مـــن ذلك؟ كان يراني وأنا أتلاشى منذ أشهر، يراني وأنا أتـــصرف كالمجنونة (كنّا متّفقين على ذلك)، وقد أنهكته. عرفنا أنّه *ثمّة خطب بـــي*، وقد بدأ يفقد صبره. إذ كنّا نكافح ونبكي وسئمنا مثلما يحـــدث مـــع زوجـــين يريان زواجهما ينهار. كانت في أعيننا نظرة اللاجئين.

في الواقـــع، إنّ الأســـباب العديدة خلف عدم رغبتي بأن أكون زوجـــة هذا الرجل بعد الآن، شخصية جداً ومحزنة جداً لأتحدّث عنها هنا. معظمها متعلّق بمشاكلي، إلاّ أنّ جزءاً كبيراً من مشاكلنا مرتبط به هو أيضاً. وهذا طبيعي، فثمّة دوماً شخصان في الزواج؛ صوتان، رأيان، مجموعتان متضاربتان من القرارات والرغبات والقيود. غير أنّني لا أجد مـــن الملائم مناقشة مشاكله في كتابـــي. كما أنّني لن أطلب من أحد التـــصديق بأنّني قادرة على رواية قصّتنا بشكل موضوعي، وبالتالي، لن أذكـــر أسباب فشل زواجنا هنا. كما أنّني لن أناقش أسباب رغبتي بأن أبقى زوجته، أو مدى روعته، أو سبب حبـــي له، وزواجي به، وعدم قـــدرتي علـــى تخيّل الحياة من دونه. لن أتطرّق إلى أيّ من ذلك. بل

سأكتفي بالقول إنّه في تلك الليلة كان لا يزال مصدر سعادتي وتعاستي بقــــدر متساو. فالأمرّ من الرحيل كان البقاء، والأفظع من البقاء كان الـــرحيل. لم أكن أرغب بتدمير أيّ أحد أو أيّ شيء. لم أرغب سوى بالتـــسلّل بهدوء من الباب الخلفي، من دون أن يكون لرحيلي أي جلبة أو عواقب، والركض من دون توقّف حتى أصل إلى غرينلاند.

هــــذا الجزء من قصّتي ليس سعيداً، أعرف ذلك. ولكنّني أودّ أن أذكـــره لأنّ أمـــراً كان على وشك الحدوث على أرض الحمّام سيغيّر مـــسار حـــياتي إلى الأبـــد. تقريباً مثل تلك الأحداث الفلكية الجنونية الهائلة، التي يخرج فيها كوكب في الفضاء الخارجي عن مساره من دون ســـبب معـــروف، ويتغيّر لبّه المصهور، فيتبدّل موضع قطبيه، ويتعدّل شـــكله جـــذرياً، بحيث تصبح كتلة الكوكب مستطيلة بعد أن كانت كروية. شيء من هذا القبيل.

ما حدث هو أنّني بدأت أدعو.

...

3

....

4

بالطـــبع، كان لديَّ وقت طويل للتفكير في آرائي الدينية منذ تلك الليلة على أرض الحمّام. إلاّ أنني في وسط الأزمة التي مررت بها في ذاك الشهر القاتم، لم أكن مهتمّة بصياغة آرائي الدينية، بل كنت أسعى إلى

إنقاذ حياتي وحسب. فقد لاحظت أخيراً بأنني بلغت حالة خطيرة من اليأس، وخطر لي بأنّ الناس في هذه الحالة يلجأون إلى الله للمساعدة. أعتقد أنّني قرأت ذلك في كتابٍ ما.

...

5

لو تسنّى لي أن أعرف بأنّ الأمور سوف تتأزّم على نحو خطير قبل أن تسوء، كما قالت ليلي توملين مرّة، أشكّ بأنّني كنت لأنام جيّداً تلك الليلة. ولكن بعد سبعة أشهر مضنية، تركت زوجي بالفعل. وحين اتّخذت القرار أخيراً، اعتقدت بأنّ الأسوأ قد فات. ولكنّني على ما يبدو كنت أجهل الكثير عن الطلاق.

رأيت في مجلّة ذا نيويوركر ذات مرة رسوماً كرتونية لامرأتين، تقول إحداهما للأخرى: "إن أردت معرفة شخص ما على حقيقته، طلّقيه". بالطبع، كانت تجربتي معاكسة. وكنت لأقول، إن أردت التوقّف عن معرفة شخص ما، طلّقيه. أو طلّقها. لأنّ هذا ما حدث بيني وبين زوجي. أظنّنا صدمنا بعضنا بمدى السرعة التي انتقلنا بها من كوننا أكثر شخصين يعرفان بعضهما في العالم إلى غريبين يجهلان بعضهما تماماً. ويعود سبب ذلك إلى حقيقة أنّ كلاًّ منّا كان يفعل ما لم يتصوّره الآخر ممكناً. فهو لم يسبق أن فكّر في أنّني سأتركه يوماً. كما أنّه لم يخطر لي في أكثر تخيّلاتي غرابة أنّه سيجعل الأمر بهذه الصعوبة عليَّ.

ظننت صدقاً أنّه حين أترك زوجي، سنتمكّن من تسوية شؤوننا في بضع ساعات بآلة حاسبة مع شيء من الحسّ العام والنيّة الحسنة تجاه

الشخص الذي أحببناه يوماً. كان اقتراحي الأوّل أن نبيع المنزل ونتقاسم جميع الأملاك، ولم يخطر لي أبداً أن نفعل غير ذلك. إلاّ أنّه لم يجد الاقتراح عادلاً. فرفعت العرض، واقترحت ذاك النوع الآخر من القسمة بالنصف: يحصل هو على كلّ الأملاك وأنا على كلّ اللوم. ولكن حتى هذا العرض لم يلقَ قبولاً. عندها أصبحت في موقف ضعيف. كيف تتفاوض بعد أن تكون قد عرضت التنازل عن كلّ شيء؟ كان عليَّ انتظار عرضه المقابل الآن. في الواقع، منعني شعوري بالذنب لتركه من التفكير في أنّ لي الحقّ بالاحتفاظ بشيء من المال الذي جمعته طيلة العقد الفائت. كما أنّ الجانب الروحاني حديث الاكتشاف لديَّ دفعني إلى تجنّب الدخول في نزاع معه. بالتالي، كان هذا موقفي. لن أدافع عن نفسي ضدّه ولن أتشاجر معه. وقاومت لأطول مدّة ممكنة استشارة محامٍ، على عكس ما نصحني به كلّ من حولي، لأنّني اعتبرت ذلك إعلان حرب. أردت أن أكون غاندي أو نيلسون مانديلا في هذه القضية. ولم أدرك في ذلك الوقت أنّ كلاًّ من غاندي ونيلسون مانديلا كانا *محاميين*.

مرّت الشهور وحياتي متوقّفة وأنا أنتظر إطلاق سراحي، أنتظر لأرى ما ستكون الشروط. كنا نعيش منفصلين (إذ انتقل إلى شقّتنا في منهاتن)، ولكن لم تحلّ الأمور. بل راحت الفواتير تتكدّس وأعمالنا تتوقّف والمنزل يتحوّل إلى خراب ولا يكسر صمت زوجي سوى اتصالاته المتقطّعة لتذكيري كم أنا مجرمة وسافلة.

ثمّ ظهر ديفيد.

أتت مأساة ديفيد لتزيد سنوات الطلاق الأليمة تعقيداً وكآبة. كان ديفيد هو الشابّ الذي أغرمت به وأنا أنهي زواجي. هل قلت أغرمت بديفيد؟ ما عنيته هو أنّني خرجت من زواجي لأقع بين ذراعي

ديفيد، تماماً كما يغطس لاعب السيرك في الرسوم المتحرّكة عن لوح القفز في كوب ماء صغير ويختفي تماماً. وتشبّثت بديفيد هرباً من زواجي وكأنّه آخر هليكوبتر ستقلع من سايغون. وعلّقت عليه كلّ آمالي بالخلاص والسعادة. وقد أحببته، نعم. ولو كنت أعرف وصفاً آخر غير تعبير *يائس* لأصف حبي لديفيد، لاستعملته هنا، ولكنّ الحبّ اليائس هو دوماً الأقسى.

انتقلت للعيش مع ديفيد بعدما تركت زوجي. كان شاباً شديد الوسامة. هو ممثّل وكاتب نيويوركي، يملك عينين إيطاليتين بنيتي اللون لطالما (هل سبق لي أن قلت ذلك؟) خطفتا أنفاسي. ذكي، مستقلّ، نباتي، بذيء اللسان، روحاني، ساحر. شاعر يوغاني متمرّد. أكبر من الحياة، أكبر من الكون، أو هكذا كان بالنسبة إليّ على الأقلّ. حين سمعتني صديقتي سوزان أتحدّث عنه للمرّة الأولى، نظرت إلى الاحمرار الذي كسا وجهي وقالت لي: "يا الله، أنت في ورطة كبيرة يا حبيبتي".

التقيت بديفيد وهو يلعب دوراً في مسرحية مرتكزة على قصص قصيرة كتبتها. كان يؤدّي دور شخصية من اختراعي، وهو أمر مؤثّر نوعاً ما. فهذا ما يحدث في الحبّ اليائس، أليس كذلك؟ في الحبّ اليائس، نخترع شخصيّات لشركائنا في الحياة ونطلب منهم أن يكونوا كما نريدهم أن يكونوا، ثمّ ننهار حين يرفضون لعب الدور الذي اخترعناه في الأساس.

على الرغم من ذلك، قضينا وقتاً رائعاً معاً في الشهور الأولى حين كان لا يزال بطلي الرومانسي وأنا حلمه الذي تحوّل إلى حقيقة. عشنا إثارة وتناغماً لم يسبق لي أن تخيّلتهما ممكنين. اخترعنا لغة خاصة بنا. ذهبنا في رحلات منوّعة. صعدنا إلى قمم أشياء، وغصنا في أعماق أشياء أخرى، وخطّطنا للرحلات التي سنقوم بها معاً حول العالم. كنّا

نستمتع في الوقوف معاً في الصفّ أمام قسم الدرّاجات النارية أكثر ممّا يستمتع الأزواج الجدد في شهر العسل. أطلقنا على بعضنا اللقب نفسه لكي لا نفترق أبداً. وضعنا أهدافاً ونذوراً ووعوداً وأعددنا العشاء معاً. كـان يقرأ لي الكتب ويغسل ثيابـي. (في المرّة الأولى التي حدث فيها ذلـك اتصلت بسوزان وأخبرتها بهذه الأعجوبة بذهول وكأنني رأيت للـتوّ جملاً يستخدم هاتفاً عمومياً. هتفتُ قائلة: "قام رجل للتوّ بغسل ملابـسي! حـتى إنّه غسل بيديه ملابسي الداخلية!" فكرّرت تعليقها السابق: "يا الله، أنت في ورطة كبيرة يا حبيبتي").

كـان الصيف الأوّل لليز وديفيد شبيهاً بمونتاج الوقوع في الحبّ لجميع الأفلام الرومانسية التي سبق أن رأيتها، بدءاً من رشّ بعضنا بالماء علـى الشاطئ وحتى رَكضنا يداً بيد فجراً عبر المروج الذهبية. في ذلك الـوقت، كـنت لا أزال أعتقد بأنّ طلاقي سيتمّ بشكل لائق، فمنحت زوجـي الصيف كلّه لنهدأ قبل أن نبحث الموضوع مجدّداً. على أي حال، كـان مـن السهل عدم التفكير بتلك الخسارة وسط السعادة التي خيّمت علينا. ذاك الصيف الذي كان كإرجاء لحكم الإعدام، انتهى أخيراً.

في 9 أيلـول 2001، التقيت بزوجي للمرّة الأخيرة وجهاً لوجه، ولم أكـن أدرك أنّ كـلّ لقاءاتنا المقبلة ستحتاج إلى وساطة المحامين. تناولـنا العشاء في مطعم. وقد حاولت التحدّث في موضوع انفصالنا، ولكنّـنا لم نفعـل سـوى الشجار. أخبرني بأنّني كاذبة وخائنة وبأنّه يكـرهني ولـن يـتحدّث معي مجدّداً. استيقظت بعد يومين، بعد ليلة مضطربة، لأجد هاتين الطائرتين المختطفتين تصطدمان بأطول برجين في مدينتي، تماماً مثلما ينهار كلّ ما يبدو ثابتاً لا يُقهر ويتحوّل إلى أنقاض. اتصلت بزوجي للاطمئنان عنه وبكينا معاً على تلك الكارثة، ولكنّني لم أذهب إليه. وخلال ذاك الأسبوع، نسي جميع أهالي نيويورك أحقادهم

احتـــراماً لتلك المأساة، مع ذلك، لم أعد لزوجي. حينها أدركنا كلانا بأنّ زواجنا انتهى تماماً.

لا أظـــنّ أنّـــني أبالـــغ إن قلت إنّني لم أعرف طعم النوم للأشهر الأربعة التالية.

اعـــتقدت بأنّني قد انهرت من قبل، ولكن في تلك الفترة (وتناغماً مع الانهيار الذي شهده العالم كلّه) تحوّلت حياتي فعلاً إلى حطام. أشعر بالخـــوف الآن حين أتذكّر العذاب الذي فرضته على ديفيد في الأشهر الـــتي عـــشنا خلالها معاً، مباشرة بعد 11 أيلول وانفصالي عن زوجي. تصوّر ذهوله حين اكتشف بأنّ المرأة الأكثر سعادة وثقة التي عرفها في حـــياته تـــتحوّل إلى فجـــوة مظلمة من الحزن. فقد عدت إلى البكاء المتواصـــل مجـــدّداً. حينها أخذ بالانسحاب، حينها رأيت الوجه الآخر لبطلـــي الرومانـــسي الشغوف، ديفيد الوحيد، البارد، الذي يحتاج إلى مساحة شخصية أكبر من قطيع من الثيران الأميركية.

ولكان البعد العاطفي المفاجئ لديفيد كارثة على الأرجح بالنسبة إليّ تحت أفضل الظروف، نظراً لكوني المخلوق الأكثر حناناً على وجه هـــذا الكـــوكب، إلاّ أنّـــني كنت أمرّ بأسوأ الظروف. كنت مكتئبة ومـــستقلّة وبحاجـــة إلى العناية أكثر من ثلاثة توائم ولدوا قبل أوانهم. وانسحابه من حياتي جعلني أكثر حاجة، وحاجتي عجّلت في انسحابه، وسرعان ما كان يتراجع تحت وقع توسّلاتي ودموعي: "إلى أين *تذهب*؟ ما الذي *حدث* لنا؟".

(نصيحة للنساء: الرجال *يحبون* ذلك).

في الحقـــيقة، لقد أصبحت مدمنة على ديفيد (وهو الذي شجّعني علـــى ذلـــك، كـــان رجلاً شديد التأثير)، والآن حين أصبح اهتمامه يتـــراجع، بـــدأت أعاني من عواقبه الحتمية. فالإدمان على الحبيب هو

العلامـــة المميّـــزة لقصص الحبّ المتيّمة. ويبدأ ذلك حين يغدق عليك موضوع هيامك بجرعة مسكِرة ومسبّبة للهلوسة من شيء لم تجرؤ حتى علـــى الاعتـــراف يـــوماً بأنّك تريده؛ هبة عاطفية من الحبّ والإثارة الجـــارفَين. وسرعان ما تنتابك حاجة ملحّة إلى ذاك الاهتمام الشديد، فتـــتوق إلـــيه بهـــوَس المدمن. وحين ينقطع عنك المخدّر، تشعر بأنّك مـــريض، ومجـــنون، ومستنـــزَف (هذا من دون أن نذكر استياءك من التاجـــر الذي كان هو من شجّع على هذا الإدمان في الأساس، ولكنّه يـــرفض الآن تزويدك بالبضاعة؛ مع أنّك *تعلم* بأنّه يخبّئها في مكان ما، عليه اللعنة، *لأنّه اعتاد على إعطائك إيّاها مجّاناً*). في المرحلة التالية، تجد نفـــسك ضامر الجسد ترتعش في إحدى الزوايا، على استعداد تامّ لأن تبـــيع روحك أو تسرق جارك لتحصل على *ذاك الشيء* مجدّداً ولو لمرة واحدة. وفي تلك الأثناء، يكون موضوع هيامك قد أصبح ينفر منك. ينظر إليك كمن لم يعرفك من قبل، فما بالك كمن أحبّك يوماً بشغف بالغ. وفي الحقيقة، لا يمكن لومه. أعني، انظر إلى نفسك. أنت في حالة مزرية، وكأنّك شخص آخر لا تعرفه.

هكذا تكون قد بلغت آخر مراحل الحب المتيّم، ألا وهي الفقدان التامّ والقاسي للقيمة الذاتية.

كَوني قادرة على الكتابة عن ذلك بهدوء اليوم، هو دليل قاطع علـــى قدرة الوقت على شفاء الجروح، لأنّني لم أكن أتحمّل ما كان يحـــدث حيـــنها. فقـــد خسرت ديفيد مباشرة بعد فشل زواجي، ومباشـــرة بعـــد أعمال إرهابية تعرّضت لها مدينتي، وخلال أسوأ أشـــكال الطلاق وأكثرها بشاعة (وهي تجربة قارنها صديقي براين بالتعرّض لحادث سيارة كلّ يوم لمدّة سنتين)... في الواقع، ما كان يحدث يفوق الاحتمال.

واصلت وديفيد حياتنا المرحة والمتناغمة نهاراً، ولكن ليلاً، في سريره، كنت أتحوّل إلى الناجي الوحيد من شتاء نووي وهو يبتعد عنّي كما بدا واضحاً لي، على نحو متزايد كلّ يوم، وكأنّني مصابة بمرض معدٍ. بتُّ أخاف الليل وكأنّه خليّة تعذيب. فقد كنت أتمدّد قرب ديفيد النائم بجسده الجميل البعيد عن متناولي، وأغرق في دوامة من الخوف، ومن الوحدة، ومن أفكار انتحارية شديدة التفصيل. كان كلّ جزء من جسدي يؤلمني. شعرت وكأنّني آلة بدائية حُمّلت أكثر بكثير من طاقتها وعلى وشك أن تنفجر على نحو يهدّد كلّ من يقف بقربها. شعرت بأنّ أعضاء جسدي تطير من صدري هرباً من هوّة الحزن التي أصبحتُ على شفيرها. وفي معظم الأيام، كان ديفيد يستيقظ ليجدني نائمة بتشنّج على الأرض قرب سريره، مكوّرة على كومة من المناشف.

كان يسأل: "ماذا حدث الآن؟"؛ رجل آخر منهك تماماً بسببي.

أظنّني خسرت ثلاثين باونداً من وزني تقريباً في تلك الفترة.

6

آه، ولكنّ تلك السنوات لم تكن سيّئة تماماً...

...

حدثت معي بعض الأمور الرائعة في ظلّ كلّ ذاك الحزن. منها أنّني بدأت أخيراً بتعلّم الإيطالية. كما أنّني وجدت غورو هندية. وأخيراً، تلقّيت دعوة من قبل عرّاف كهل للسفر إلى إندونيسيا والعيش معه.

سأشرح ما حدث تدريجياً.

أوّلاً: بدأت الأمور تتحسّن نوعاً ما حين انتقلت من شقّة ديفيد في بداية العام 2002، وعثرت على شقّة خاصة بي للمرّة الأولى في

حياتي. لم أكن قادرة على تحمّل نفقاتها لأنّني كنت لا أزال أدفع أقساط المنـــــزل الكبير في الضواحي المهجور حالياً والذي يمنعني زوجي من بـــيعه، ولا أزال أحاول تسديد جميع النفقات القانونية والاستشارية... ولكنّ الحصول على غرفة نوم خاصة بـــي كان أمراً حيويًّا بالنسبة إليّ. اعتـــبرت الشقّة وكأنّها مصحّة، أو عيادة سأمكث فيها حتى الشفاء. طلـــيت الجـــدران بالألوان التي وجدتها أكثر دفئاً، وابتعت الأزهار لنفسي كلّ أسبوع، وكأنّني أزور نفسي في المستشفى. كما قدّمت لي شقيقتي كيساً للماء الساخن كهدية (لكي لا أنام وحيدة في سرير بارد) وقد نمت وأنا أضمّ ذاك الشيء إلى صدري كلّ ليلة، وكأنّني أعالج إصابة رياضية.

كـــنت وديفـــيد قد انفصلنا نهائياً. أو ربّما لا. فمن الصعب أن أتذكّر كم مرّة انفصلنا ثمّ عدنا لبعضنا خلال تلك الأشهر. فقد كنت أقـــرّر الانفـــصال عنه إلى أن أستعيد قوّتي وثقتي بنفسي مجدّداً، إلاّ أنّ شـــغفه بـــي يتجدّد (منجذباً كالعادة إلى قوّتي وثقتي بنفسي). فنناقش بكـــلّ احترام، ووعي، وذكاء فكرة *المحاولة من جديد*، دائماً مع خطّة جديـــدة لتقلـــيص اختلافاتنا الواضحة. كنّا شديدي الالتزام بحلّ هذه المسألة. إذ كيف يمكن لشخصين مغرمَين بهذا الشكل ألاّ يعيشا بسعادة لبقـــية حـــياتهما؟ لا بدّ من أن ينجح الأمر. فكنّا نعود بآمال جديدة ونعيش أياماً أو حتى أسابيع بالغة السعادة معاً. ولكن ديفيد ينسحب في الـــنهاية مجدّداً، وينتهي بـــي الأمر إلى الانهيار مجدّداً، فيما ينتهي به إلى الرحيل.

كان ديفيد كالماء والهواء بالنسبة إليّ.

لكـــن خـــلال تلك الفترات التي انفصلنا فيها، وعلى الرغم من صعوبتها، كنت أعتاد على العيش بمفردي. وكانت هذه التجربة تولّد

فيَّ تحـــولاً جديداً. فمع أنّ حياتي كانت لا تزال أشبه بحادث سير بين سيارات عديدة على طريق نيوجيرسي في يوم شديد الازدحام، إلاّ أنّني كـــنت أتـــرنّح على شفير حياة جديدة، أنا فيها سيّدة نفسي. فحين كانت الأفكار الانتحارية حول طلاقي أو انفصالي عن ديفيد تفارقني، كـــنت أشعر بالسعادة في الواقع بسبب الوقت والمساحة اللذين أخذا يظهران في حياتي، بحيث كنت أسأل نفسي سؤالاً جذرياً جديداً: ماذا تودّين أن تفعلي، ليز؟".

في معظـــم الأوقات (وكنت حينها لا أزال مضطربة بسبب فشل زواجـــي) لم أجرؤ على الإجابة عن السؤال، بل كنت خائفة منه بيني وبـــين نفسي. وحين بدأت أجيب عنه أخيراً، فعلت ذلك بحذر كبير. فسمحت لنفسي بالتعبير عن رغبات صغيرة خجولة، مثل:

أودّ الانتساب إلى صفّ يوغا.

أريد مغادرة هذه الحفلة باكراً لكي أعود إلى المنـــزل وأقرأ رواية.

أريد شراء علبة أقلام جديدة.

ثمّ كان ثمّة جواب غريب يتكرّر دوماً، هو نفسه في كلّ مرّة:

أريد أن أتعلّم الإيطالية.

منذ سنوات وأنا أرغب بتحدّث الإيطالية، وهي لغة أجدها أجمل من الورود، ولكنّني لم أجد يوماً مبرّراً عملياً لتعلّمها. لِمَ لا أتابع تعلّم الفرنـــسية أو الروسية اللتين درستهما منذ سنوات؟ أو أتعلّم الإسبانية الـــتي تـــساعدني علـــى التواصل مع ملايين الأميركيين؟ بماذا ستنفعني الإيطالـــية؟ فأنا لا أنوي الانتقال إلى هناك. ربّما كان من العملي أكثر لو أتعلّم العزف على الأكورديون.

لكن لِمَ يجب أن يكون لكلّ شيء في الحياة وظيفة عملية؟ كنت لـــسنوات عديدة أعمل كجنديّ متفانٍ؛ أعمل، أنتج، أحترم وعودي،

أعتني بأحبّائي وبشؤوني المالية، أؤدّي واجبـي الانتخابـي... وغيرها مـن الواجبات. هل يفترض بنا أن نحيا لتأدية واجباتنا وحسب؟ وهل أحتاج في هذه المرحلة المظلمة إلى مبرّر لتعلّم الإيطالية عدا كونه الشيء الوحـيد الـذي يجلـب لي السعادة في الوقت الحاضر؟ علماً أنّه ليس بالـشيء الفاضـح أن ترغب بتعلّم لغة. فهذا ليس كمن تقول في سنّ الثانـية والثلاثين: "أريد أن أصبح راقصة الباليه الأولى في فرقة نيويورك للبالـيه". تعلّـم لغـة جديدة هو أمر ممكن. هكذا، انتسبت إلى أحد الصفوف التعليمية المستمرة (المعروفة أيضاً بالمدرسة الليلية للمطلّقات). وجـد أصـدقائي الأمر مثيراً للضحك. فقد سألني صديقي نيك مرّة: "لمـاذا تدرسين الإيطالية؟ هل تفعلين ذلك تحسّباً لقيام إيطاليا باجتياح أثيوبيا مجدّداً، ونجاحها هذه المرّة، فتتفاخرين عندها بأنّك تتحدّثين لغة تستعمل في دولتين بأكملهما؟".

غـير أنّني أحببتها. كانت كلّ كلمة كتغريد عصفور، أو كلمة سحرية بالنسبة إليّ. كنت أندفع إلى البيت تحت المطر بعد انتهاء الصفّ وأعـدّ حمّاماً ساخناً، ثمّ أتمدّد هناك وسط فقاقيع الصابون أقرأ القاموس الإيطـالي بـصوت مـرتفع، وأبعد ذهني عن ضغوط الطلاق وأحزان قلبـي. كانت الكلمات تجعلني أضحك مسرورة. بدأت أسمّي هاتفي الـنقّال "*il mio telefonino*" (أي: هاتفي الصغير). أصبحت من أولئك الأشـخاص المـزعجين الذين يقولون *تشاو* دوماً! ولكنّني كنت أكثر إزعاجـاً لأنّني كنت أفسّر دائماً مصدر الكلمة. (إن أردت أن تعرف، هـي اختصار لجملة كان يستعملها أهالي البندقية في القرون الوسطى كتحـيّة حمـيمة: *Sono il suo schiavo!* أي: أنا عبدك!) مجرّد قول تلـك الكلمات كان يشعرني بأنّني مثيرة وسعيدة. وقد أخبرتني محامية الطلاق بألاّ أقلق. فقد عمدت إحدى زبائنها (وهي كورية الأصل) بعد

طلاق شنيع، إلى تغيير اسمها قانونياً إلى اسم إيطالي لتشعر بأنّها مثيرة وسعيدة مجدّداً.

في النهاية، *قد* أنتقل للعيش في إيطاليا...

7

الأمر الآخر البارز الذي حدث في ذلك الوقت كان مغامرتي الروحانية الجديدة. وما ساعد وشجّع عليها بالطبع كان دخول مرشدة هندية حيّة وحقيقية إلى حياتي، والفضل في ذلك يعود إلى ديفيد. تعرّفت على مرشدتي في أوّل ليلة دخلت فيها شقّة ديفيد. فقد أغرمت بهما نوعاً ما. إذ دخلت شقّة ديفيد، ورأيت على الرفّ صورة مشرقة لامرأة هندية جميلة، فسألته: "من هذه؟".

أجاب: "إنّها مرشدتي".

توقّف قلبي للحظة، ثم طار، وتعثّر، ووقع على وجهه. بعدها قام ونفض الغبار عن نفسه وقال بعد أن أخذ نفَساً عميقاً: "أريد أن يكون لي مرشدة". أنا أعني ذلك فعلاً حين أقول إنّ *قلبي* هو من قال ذلك، وتحدّث من خلال فمي. فقد شعرت بانقسام يحدث في داخلي وبعقلي يخرج من جسدي للحظة، ثم يستدير ليواجه قلبي مذهولاً ويسأله بهدوء: "*حقّاً؟*".

أجاب قلبي: "*أجل، حقّاً*".

عندها سأله عقلي ساخراً: "*منذ متى؟*".

لكنّني عرفت الإجابة مسبقاً: منذ تلك الليلة على أرض الحمّام.

يا الله، لكنّني أردت أن يكون لي مرشدة. فرُحت أتخيّل على الفور كيف سيكون الأمر. تخيّلت تلك المرأة الهندية الجميلة والمشرقة

تأتي إلى شقّتي بضع ليالٍ في الأسبوع فنجلس معاً ونشرب الشاي ونتحدّث، ثمّ تعطيني واجباتٍ للقراءة وتشرح لي معنى المشاعر الغريبة التي تنتابني في أثناء التأمّل...

لكن سرعان ما تلاشت تلك الفانتازيا حين أخبرني ديفيد بالمنزلة العالمية لتلك المرأة وطلاّبها الذين يبلغ عددهم عشرات الآلاف، ومعظمهم لم يقابلها أبداً وجهاً لوجه. ولكن كان ثمّة اجتماع هنا في نيويورك، على حدّ قوله، كلّ مساء ثلاثاء لأنصار الغورو يجتمعون للتأمّل والإنشاد. قال ديفيد: "إن كانت فكرة وجودك في غرفة مع بضع مئات من الأشخاص الذين ينشدون بالسنسكريتية لا ترعبك، يمكنك مرافقتي أحياناً".

رافقته مساء الثلاثاء التالي. وعوضاً عن الشعور بالفزع من هؤلاء الأشخاص العاديّين الذين ينشدون لله، شعرت بروحي ترتفع وكأنّها شفّافة على أثر ذاك الإنشاد. وعدت إلى المنزل تلك الليلة وأنا أشعر بأنّ الهواء يمكنه اختراقي وكأنّني قطعة من الملابس القطنية النظيفة التي ترفرف على حبل غسيل، وكأنّ نيويورك نفسها أصبحت مصنوعة من ورق الأرزّ، وأنا خفيفة جداً إلى حدّ أنّني أركض فوق أسطح المنازل. فأخذت أذهب إلى جلسات الإنشاد كلّ ثلاثاء. ثمّ بدأت أمارس التأمّل كلّ صباح بالمانترا السنسكريتية القديمة التي أعطتها الغورو لجميع طلاّبها. ثمّ استمعت إلى الغورو وهي تتحدّث شخصياً للمرّة الأولى، وكلامها جعل القشعريرة تسري في جسدي كلّه، وحتى في وجهي. وحين سمعت أنّ لديها معتزلاً في الهند، عرفت أنّ عليَّ الذهاب إلى هناك بأسرع ما يمكن.

8

في تلك الأثناء، اضطررت إلى الذهاب في تلك الرحلة إلى إندونيسيا.

وقد حدث ذلك مجدّداً كمهمّة صحفية. ففي الوقت الذي كنت أشعر فيه بالأسف الشديد على نفسي لانفصالي عن زوجي ووحدتي وتعثّر محاولات طلاقي، سألتني محرّرة في مجلّة نسائية ما إذا كان من الممكن أن تدفع لي لإرسالي إلى بالي لكتابة قصّة عن عطلات اليوغا. فطرحت عليها سلسلة من الأسئلة، معظمها على شاكلة *هل البازيلاء خضراء اللون؟* وحين وصلت إلى بالي (وهو مكان جميل جداً للمناسبة) سألنا الأستاذ الذي كان يدير صفّ اليوغا: "بما أنّكم هنا، هل ثمّة من يودّ زيارة عرّاف بالي من الجيل التاسع؟" (سؤال آخر بديهي جداً لنجيب عنه)، فذهبنا جميعاً إلى منزله ذات ليلة.

كان العرّاف، كما تبيّن لنا، عجوزاً قصير القامة، بشوش الوجه، خمريّ اللون، فمه خال تقريباً من الأسنان، لا أبالغ إن شبّهته تماماً بشخصية يودا في حرب النجوم. كان اسمه كيتوت لاير. يتحدّث الإنكليزية بطريقة غير واضحة وممتعة بكلّ معنى الكلمة، ولكن كان ثمّة مترجم يساعده حين تستعصي عليه كلمة ما.

كان أستاذ اليوغا قد أخبرنا مسبقاً أنّ بإمكان كلّ منّا طرح سؤال أو مشكلة على العرّاف، وسيحاول مساعدتنا على حلّ مشاكلنا. ورحت أفكّر لأيام ماذا أسأله. كانت أفكاري الأولى غير مترابطة. *هل يمكنك أن تجعل زوجي يمنحني الطلاق؟ هل يمكنك أن تجعل ديفيد ينجذب إليّ من جديد؟* شعرت بالخجل من نفسي لتلك الأفكار: من يسافر حول العالم لمقابلة عرّاف قديم في إندونيسيا ليطلب منه التدخّل في *أمور عاطفية*؟

لـــذا، حين سألني الرجل ماذا أريد فعلاً، أجبت بكلمات أخرى أكثر صدقاً.

...

قال كيتوت إنّه يستطيع الإجابة عن سؤالي بواسطة صورة. فأراني رسمـــاً خطّه ذات مرّة في أثناء جلسة تأمّل. كان الرسم لكائن بشري يقف مصلّياً ويداه مشبوكتان. ولكن كان لذاك الكائن أربع أرجل و لم يكن له رأس. فمكان الرأس، كان ثمّة أزهار وحشائش بريّة. فيما ظهر وجه صغير مبتسم فوق القلب.

قـــال كيتوت من خلال المترجم: "لتجدي التوازن الذي تبحثين عـــنه، عليك أن تصبحي كذلك. عليك أن تقفي بثبات على الأرض وكأنّ لديك أربع أرجل عوضاً عن اثنتين. بتلك الطريقة يمكنك البقاء علـــى الأرض. ولكن ينبغي أن تتوقّفي عن النظر إلى العالم من خلال رأسك، وأن تنظري من خلال قلبك. هكذا ستعرفين الله".

ثمّ سألني ما إذا كنت أسمح له بقراءة كفّي. فأعطيته يدي اليسرى وراح يجمع أجزائي وكأنّني أحجية من ثلاث قطع.

بدأ قائلاً: "أنت تحبّين السفر حول العالم".

وجـــدت الأمـــر بديهـــياً، نظراً لكوني في إندونيسيا، ولكنّني لم أعلّق...

"أنـــت أكثـــر شخص محظوظ قابلته في حياتي. ستعيشين طويلاً ويكـــون لديك العديد من الأصدقاء والكثير من التجارب. ولكن ثمّة مـــشكلة واحدة في حياتك، فأنت شديدة القلق. أنت انفعالية وعصبية جـــداً. إن وعدتك بأنّه ليس لديك أيّ سبب للقلق على أيّ شيء في حياتك، فهل تصدّقينني؟".

أومأت برأسي، ولكنّني لم أصدّقه.

من الناحية المهنية، أنت تقومين بعمل مبدع، فنّانة ربّما، وتجنين منه مبالغ جيّدة من المال. ستجنين دوماً الكثير من المال لقاء العمل الذي تقومين به. وأنت كريمة بالنسبة إلى المال. شديدة الكرم ربّما. هنا أيضاً، ثمّة مشكلة واحدة. ستخسرين كلّ مالك مرّة في حياتك. وأعتقد أنّ هذا الأمر سيحدث قريباً".

قلت وأنا أفكّر بطلاقي: "أعتقد بأنّه قد يحدث في الأشهر الستّة إلى العشرة القادمة".

أومأ كيتوت برأسه وكأنّه يقول، *أجل، يبدو ذلك صحيحاً*. ثمّ قال: "ولكن لا تقلقي، بعدما تخسرين كلّ مالك، ستستعيدينه مجدّداً. وبعدها ستكونين بخير. تعرفين زواجَين في حياتك، أحدهما قصير والآخر طويل. وتنجبين طفلين...".

انتظرته ليقول: "أحدهما قصير والآخر طويل"، ولكنّه صمت فجأة وعبس محدّقاً إلى كفّي. ثمّ قال: "غريب..."، وهذا ما لا ترغب بسماعه لا من قارئ كفّك ولا من طبيب أسنانك. هنا طلب منّي الاقتراب من المصباح ليتمكّن من رؤية التفاصيل بشكل أفضل.

عندها أعلن قائلاً: "أنا مخطئ، ستنجبين طفلاً واحداً. لاحقاً في حياتك، ابنة، ربّما. هذا إن قرّرت... ولكنّ ثمّة أمراً آخر". عبس ثم رفع رأسه وقال بثقة تامّة: "يوماً ما ستعودين إلى بالي. لا بدّ من ذلك. ستقيمين هنا في بالي لثلاثة أو أربعة أشهر. وستصبحين صديقتي. وقد تعيشين هنا مع عائلتي وسأتمكّن عندها من التمرّن على الإنكليزية معك. لم أحصل يوماً على شخص أتمرّن معه على التحدّث بالإنكليزية. أعتقد أنّك ماهرة مع الكلمات. أظنّ بأنّ العمل المبدع الذي تقومين به على علاقة بالكلمات، صحيح؟".

قلت: "أجل! أنا كاتبة. أؤلّف الكتب!".

وافقني مؤكّداً: "أنت مؤلّفة كتب من نيويورك. إذاً، ستعودين إلى هـــنا، وتعيـــشين في بالي، وتعلّمينني الإنكليزية. وأنا سأعلّمك كلّ ما أعرفه".

ثمّ وقف وفرك كفّيه وكأنّه يقول، *لقد سوّي الأمر.*

قلت: "إن كنت جادًّا يا سيّدي، فأنا جادّة".

ابتـــسم لي فانفرجت شفتاه عن فم خال من الأسنان وقال: "إلى اللقاء قريباً".

9

في الحقيقة، أنا من النوع الذي، حين يخبره عرّاف إندونيسي من الجـــيل التاسع بأنّه سينتقل للعيش في بالي لأربعة أشهر، يظنّ أنّ عليه بـــذل كلّ ما في وسعه لفعل ذلك. وهكذا أخذت تتبلور فكرة السفر كلّها تلك السنة. كان عليّ حتماً العودة إلى إندونيسيا بطريقة ما، على حـــسابـــي الخاص هذه المرّة. كان هذا بديهياً. ولكن، كيف سأتمكّن من ذلك، في ظلّ الفوضى والاضطراب اللذين يسودان حياتي؟ (لا أعني الطـــلاق المكلـــف الـــذي لم يسوَّ بعد، ومشاكل ديفيد وحسب، بل وظـــيفتي في المجلّـــة أيـــضاً، والتي لا تسمح لي بالتغيّب لأربعة أشهر متواصـــلة). ولكـــن، ينبغي عليّ العودة. أليس كذلك؟ ألم يتوقع لي بـــذلك؟ المشكلة هي أنّني أرغب أيضاً بالذهاب إلى الهند لزيارة معتزل مرشـــدتي، والـــرحلة إلى الهند مكلفة من ناحية المال والوقت على حدٍّ ســـواء. ولزيادة الأمور تعقيداً، كنت أتوق مؤخّراً للذهاب إلى إيطاليا، لـــيس لأتمرّن على الإيطالية في مهدها فحسب، بل لأنّني كنت منجذبة إلى فكرة العيش لفترة من الزمن في أحضان ثقافة تمجّد اللذّة والجمال.

تبدو كلّ هذه الرغبات متضاربة مع بعضها، لا سيّما صراع إيطاليا/الهند. أيّ جزء منّي كان الأهمّ؟ أهو ذاك الذي أراد تناول لحم العجل في البندقية، أم ذاك الذي أراد أن يصحو قبل الفجر بكثير في عتمة معتزل ليبدأ نهاراً طويلاً من التأمّل؟ ذات مرّة، طلب الشاعر والفيلسوف الكبير، الرومي، من تلامذته كتابة ثلاثة أشياء هي أكثر ما يرغبون به في حياتهم. فإن تضارب أحدها مع آخر، حذّرهم الرومي من أنّ مصيرهم سيكون التعاسة. من الأفضل على حدّ قوله أن يركّز الإنسان في حياته على نقطة واحدة. ولكن ماذا عن حسنات العيش المتناغم بين طرفين متناقضين؟ ماذا لو تمكّنت بطريقة ما من أن تجمع بين طرفين متنافرَين في الظاهر في حياة لا تستثني شيئاً؟ حقيقتي هي في الواقع ما قلته للعرّاف في بالي بالضبط - أردت اختبار الاثنين: المتعة الدنيوية والتجاوز الروحي - المجد المزدوج للحياة البشرية. أردت ما سمّاه الإغريق التوازن الفريد للخير والجمال. فقد كنت أفتقد إلى الاثنين في السنوات الصعبة الماضية، لأنّ كلاً من المتعة والتعبّد يحتاجان إلى مساحة خالية من التوتّر يزدهران فيها، بينما كنت أعيش في مستوعب كبير من القلق المتواصل. أمّا بالنسبة إلى كيفية الموازنة بين المتعة والتوق إلى العبادة... حسناً، لا بدّ من وجود حيلة لتحقيق ذلك. وقد بدا لي، من إقامتي القصيرة في بالي، أنّني قد أتعلّم ذلك من الباليّين. ربما من العرّاف نفسه.

أربع أرجل على الأرض، رأس مكسوّ بالأعشاب، ينظر إلى العالم من خلال قلبه...

هكذا توقّفت عن الاختيار بين إيطاليا والهند وإندونيسيا. وأقررت في النهاية أنّني أودّ السفر إليها جميعاً. أربعة أشهر في كلّ منها، ما مجموعه عام كامل. بالطبع، كان هذا الحلم طموحاً أكثر بقليل من

رغبتي بشراء علبة أقلام جديدة. ولكن كان هذا ما أردته. كما عرفت أنني أودّ الكتابة عنه. إلاّ أنّ ما أسعى إليه ليس استكشاف تلك البلدان، لقد سبق وتمّ ذلك. ما أردته في الواقع هو أن أستكشف بعمق ناحية معيّنة من ذاتي في إطار كلّ تلك البلدان، في مكان أعتاد تقليدياً على إتقان ذاك الشيء. أردت استكشاف فنّ المتعة في إيطاليا، وفنّ التأمل في الهند، وفي إندونيسيا، فنّ الموازنة بين الاثنين. ولم ألاحظ سوى لاحقاً، بعد الإقرار بهذا الحلم، أنّ كلاًّ من هذه البلدان يبدأ (بالإنكليزية) بالحرف I (أي أنا). وهي إشارة تبشّر بالخير على ما بدا لي في تلك الرحلة من البحث عن الذات.

تخيّل الآن التعليقات الساخرة التي أطلقها أصدقائي الماكرون. لِمَ لا تمضين العام في إيران وشاطئ العاج وإيسلندا؟ أو حتى تذهبين في رحلة إلى الدولة الثلاثية: إيسليب، إي – 95، وإيكيا؟ أمّا صديقتي سوزان فاقترحت عليَّ تأسيس جمعية خيرية تحت اسم ***مطلّقات بلا حدود***. ولكنّ كلّ هذا المزاح كان بلا جدوى لأنّني لم أكن حرّة بالذهاب إلى أيّ مكان بعد. فعلى الرغم من مرور وقت طويل على انفصالي عن زوجي، لم أحصل على الطلاق بعد. كنت قد بدأت أضغط على زوجي قانونياً، وأقوم بأمور فظيعة، كتقديم الأوراق وكتابة اتهامات قانونية مُدينة (يفرضها قانون ولاية نيويورك) عن قسوته الذهنية المزعومة، وهي وثائق لم تترك أيّ مجال للتحاذق أو لأن أقول للقاضي: "اسمع، كانت علاقة معقّدة جداً، وقد ارتكبت الأخطاء أنا أيضاً، وأنا آسفة جداً لذلك، ولكن كلّ ما أريده الآن هو السماح لي بالرحيل".

(هنا أتوقّف لأدعو للقارئ: أتمنّى ألاّ تضطر يوماً ما إلى الحصول على الطلاق في نيويورك).

في ربيع العام 2003، بلغت الأزمة ذروتها. فبعد سنة ونصف من رحيلي، أصبح زوجي مستعدّاً أخيراً لمناقشة شروط التوصّل إلى تسوية. أجل، أراد المال والمنزل وإيجار شقّة منهاتن، كلّ ما كنت أعرضه طيلة الوقت. ولكنّه كان يطلب أيضاً أشياء لم أفكّر فيها أبداً (حصّة من إيراد الكتب التي ألّفتها في أثناء الزواج، نسبة من حقوق الاستثمار المحتمل لأعمالي في السينما في المستقبل، حصّة من حساب تقاعدي... وغيرها) وهنا كان لا بدّ من أن أعترض أخيراً. أعقب ذلك شهور من المفاوضات بين محامينا، وبدأت بوادر التسوية تظهر، إلى أن بدا بأنّ زوجي قد يقبل في الواقع بصفقة معدّلة. ستكلّفني ثمناً باهظاً، ولكنّ النزاع في المحاكم سيكون طويلاً ومكلفاً أكثر، هذا من دون أن نذكر كم سيكون مضنياً. إن وقّع على الاتفاق، فلن يكون عليَّ سوى دفع المال والرحيل. ولم أكن أرى بأساً في ذلك عندها. فبعد أن تدمّرت علاقتنا تماماً، ولم يعد ثمّة مكان للياقة والمدنية بيننا، لم أعد أريد سوى الرحيل.

كان السؤال: هل سيوقّع؟ مرّت الأسابيع، وكان يناقش في مزيد من التفاصيل. إن لم يوافق على هذا الاتفاق، فسيتحتّم علينا اللجوء إلى القضاء. والمحاكمة تعني خسارة كلّ ما تبقّى من مال في النفقات القانونية بالتأكيد. والأسوأ من ذلك هو أنّ المحاكمة تعني سنة أخرى من العيش في هذه الفوضى. إذاً، مهما قرّر زوجي (فهو ما زال زوجي في النهاية) فإنّ قراره سيحدّد شكل العام المقبل من حياتي. هل سأسافر وحدي إلى إيطاليا والهند وإندونيسيا، أم سأكون في قاعة محكمة أُدلي بشهادتي؟

كنت أتّصل بمحاميتي كلّ يوم أربع عشرة مرّة - *هل من أنباء جديدة؟* - وفي كلّ مرّة كانت تؤكّد لي بأنّها تبذل ما في وسعها وبأنّها

ستتّصل بي على الفور ما إن تُوَقّع الصفقة. كان التوتّر الذي عشته في تلك الفترة يتراوح بين انتظار استدعاءٍ من قبل المدير واستباق نتائج تحليل خزعة. أودّ لو أقول بأنّني حافظت على هدوئي وسلامي الداخليين، ولكنّني لم أفعل. بل قضيت عدّة ليالٍ أطرق بيدي على الأريكة فيما تتقاذفني أمواج الغضب، وفي معظم الوقت كنت أغرق في اكتئاب مؤلم.

في تلك الأثناء، انفصلت وديفيد مجدّداً. وبدا الانفصال هذه المرّة نهائياً. أو ربّما لا، فنحن لم نكن قادرين على التخلّي عن بعضنا تماماً. كثيراً ما كانت تغلبني الرغبة بالتضحية بكلّ شيء مقابل حبّه. وفي أحيان أخرى، كانت تنتابني رغبة مناقضة تماماً، فأودّ لو أنّ قارّات وبحاراً تفصل بيني وبين ذاك الشابّ أملاً في أن أجد السلام والسعادة.

أصبحت لديَّ الآن خطوط عميقة في وجهي، أثلام دائمة حفرها البكاء والقلق بين حاجبي.

ووسط كلّ *هذا*، كان يتمّ نشر كتاب ألّفته منذ بضع سنوات، وكان عليَّ الذهاب في جولة ترويجية صغيرة. اصطحبت معي في تلك الجولة صديقتي إيفا. كانت إيفا من عمري، ولكنّها نشأت في بيروت، لبنان. ما يعني أنّه فيما كنت أمارس الرياضة وأتعلّم عزف الموسيقى في مدرسة متوسّطة في كونكتيكت، كانت إيفا مكوّرة في ملجأ لخمس ليال في الأسبوع هرباً من الموت. لست واثقة كيف أنتج هذا التعرّض المبكر للعنف شخصاً بهذا الثبات الآن، إلاّ أنّها من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي رزانة. بالإضافة إلى كلّ ذلك، لديها ما أدعوه *بالاتصال الدائم مع الكون*، وكأنّها قناة خاصة مفتوحة على مدار الساعة.

كنّا نقود السيارة عبر كنساس وكنت في حالتي المعتادة من القلق بسبب مسألة الطلاق - *هل سيوقّع أم لن يوقّع؟* - وقلت لإيفا: "لا

أظنّني قادرة على احتمال عام آخر في المحاكم. أتمنّى لو أنّ تدخّلاً يحدث الآن...".

"لِمَ لا تفعلين إذاً؟".

شرحت لإيفا آرائي الشخصية.

أصغت إليّ إيفا بتهذيب ثمّ سألتني: "من أين أتيت بتلك الأفكار السخيفة؟".

"ماذا تعنين؟".

"من أين أتيت بفكرة كونك لا تملكين الحقّ بطلب ما تشائين في الدعاء؟ أنت جزء من هذا الكون ليز. أنت جزء أساسيّ ولديك كلّ الحقّ بالمشاركة في ما يحدث فيه وبأن تعبّري عن مشاعرك. لذا، قولي رأيك. قدّمي قضيّتك، وصدّقيني، ستؤخذ على الأقلّ في الاعتبار".

"حقاً؟" كان كلّ ذلك جديداً بالنسبة إليّ.

"حقاً! اسمعي، *لو* كتبت رسالة طلب الآن، ماذا ستقولين فيها؟".

فكّرت لبرهة ثمّ أخرجت دفتراً صغيراً وكتبت الطلب:

....

قرأتها لإيفا، فأومأت برأسها موافقة.

ثمّ قالت: "كنت لأوقّع عليها".

قدّمت لها الرسالة مع قلم، ولكنّها كانت مشغولة بالقيادة، فقالت: "كلا، لنقل بأنّني وقّعت. وقّعت عليها بقلبي".

"شكراً إيفا، أقدّر دعمك لي".

فسألت: "والآن، من كان ليوقّع عليها أيضاً؟".

"عائلتي. أمّي وأبي. شقيقتي".

قالـــت: "حسناً. ها قد *فعلوا*. اعتبري بأنّ أسماءهم قد أضيفت – في الحقيقة شعرت فعلاً بأنّهم وقّعوا عليها؛ أصبحوا على القائمة الآن – حسناً، من كان ليوقّع أيضاً؟ ابدأي بتعداد أسماء".

فبدأت بتعداد أسماء جميع الأشخاص الذين كانوا ليوقّعوا على تلـــك الرسالة. ذكرت جميع أصدقائي المقرّبين، وبعض أفراد العائلة وأشخاصـــاً عملت معهم. وبعد كلّ اسم، كانت إيفا تقول بثقة: "أجـــل، وقّـــع عليها للتوّ"، أو "وقّعت عليها للتوّ". وكانت تطلق أحـــياناً أسماء موقّعين من قبلها، مثل: "والداي وقّعا للتوّ. فقد ربّيا أطفالهما خلال الحرب. وهما يكرهان الصراعات العقيمة وسيفرحان لانتهاء طلاقك".

أغمضت عينيّ، وحاولت تذكّر المزيد من الأسماء.

ثمّ قلت: "أعتقد بأنّ بيل وهيلاري كلينتون وقّعا للتوّ عليها".

قالت: "لا أشكّ بذلك. اسمعي ليز، بإمكان أيّ شخص أن يوقّع على هذه الرسالة. هل تفهمين ذلك؟ اتصلي بأيّ كان، حيّ أو ميت، وابدأي بجمع التواقيع".

هنا بدأت ألفّق الأسماء:

"أبـــراهام لـيـــنكولن وقّـــع للتو! وغاندي ومانديلا وجميع دعاة الـــسلام. إلـــيانور روزفلت، بونو، جيمي كارتر، محمّد علي، جاكي روبنسون... وجدّتي التي توفّيت عام 1984 وجدّتي التي ما زالت على قـــيد الحياة... وأستاذ اللغة الإيطالية ومستشارتي النفسية ووكيلي... ومـــارتن لوثـــر كينغ الابن وكاثرين هيبورن... ومارتن سكورسيزي (وهـــو أمـــر لم تكن تتوقّعه بالضرورة، إلاّ أنّها كانت بادرة لطيفة من قـــبله)... ومرشدتي، بالطبع... وجوان وودوارد وجان دارك والآنسة كاربنتر، مدرّستي في الصفّ الرابع، وجيم هنسون".

هكـــذا توالت الأسماء. لم تكفّ عن التدفّق لساعة تقريباً، ونحن نقـــود عـــبر كنـــساس، فيما تعاقبت الصفحات غير المرئية للمؤيّدين لعريضتي. واستمرّت إيفا تؤكّد - *أجل، وقّع عليها، أجل وقّعت عليها* - فمـــلأني إحساس عارم بالحماية، وأنا محاطة بكلّ هؤلاء الأشخاص ذوي النوايا الطيّبة.

أخـــيراً، انتهت القائمة وانتهى معها قلقي. كنت أشعر بالنعاس، فقالت لي إيفا: "خذي غفوة قصيرة وأنا أتابع القيادة". أغمضت عيني. ظهـــر اســـم أخير فتمتمت قائلة:"مايكل جاي. فوكس وقّع للتوّ"، ثمّ غـــرقت في الـــنوم. لا أعرف كم طال نومي، ربّما عشر دقائق فقط، ولكـــنّه كان عميقاً. حين استفقت، كانت إيفا لا تزال تقود السيارة وهي تدندن أغنية لنفسها. تثاءبت.

هنا رنّ هاتفي المحمول.

نظـــرت إلى الهاتـــف الـــصغير المجنون وهو يرجّ طرباً في منفضة الـــسيارة. شعرت بالإرباك لأنّني ما زلت تحت تأثير النعاس، و لم أعد قادرة فجأة على تذكّر كيفية استعماله.

"هيّا، أجيبـــي"، قالت إيفا، التي عرفت مسبقاً.

فتحت الخطّ وهمست: آلو.

"أخبار رائعة!" أعلنت محاميتي من مدينة نيويورك. "لقد وقّع للتوّ!".

10

بعد مرور بضعة أسابيع، كنت أعيش في إيطاليا.

كـــنت قـــد تركت عملي، وسدّدت تكاليف الطلاق والنفقات القانونية، وتخلّيت عن منـــزلي وعن شقّتي، تركت مقتنياتي في منـــزل

شـــقيقتي، وحــــزمت حقيبتين. كنت قادرة على تحمّل نفقات الرحلة بـــسبب معجـــزة شخــــصية مذهلة: فقد اشترى الناشر الكتاب الذي ســـأؤلّفه عن رحلاتي مسبقاً. هكذا، وبتعبير آخر، حدثت الأمور تماماً كما توقع العرّاف الإندونيسي. خسرت كلّ مالي واستعدته على الفور أو على الأقلّ ما يكفي لأعيش لمدّة عام.

هـــا أنا الآن مقيمة في روما. كانت الشقّة التي وجدتما عبارة عن اســـتوديو هادئ في مبنًى تاريخي يقع على بعد بضعة مبانٍ فقط من فندق Spanish Steps، مخبّأ تحت ظلال الحدائق البورغيزية الأنيقة، في الشارع المتّجه من بياتزا ديل بولو، التي كان الرومان القدماء يتسابقون فـــيها بعـــرباتهم. بالطـــبع، لم يكن هذا الحيّ يشبه بشيء فخامة الحيّ النيويوركـــي الذي كنت أعيش فيه والذي كان يطلّ على مدخل نفق لينكولن، إلاّ أنّه مع ذلك، يفي بالغرض...

11

لم تكـــن الوجـــبة الأولى التي تناولتها في روما بذات أهمية. مجرّد بعـــض الباستا المحضّرة في المنـــزل (سباغيتي ألا كاربونارا) مع السبانخ والثوم المقلّى. (ذات مرّة، كتب الشاعر الرومانسي الكبير شيلي رسالة مروّعة إلى صديقه في إنكلترا عن المطبخ الإيطالي: "لن تتخيّل ماذا تأكل الـــشابات مـــن العـــائلات العريقة، الثوم!") كما طلبت قطعة أرضي شـــوكي، أردت تجـــربتها وحـــسب، فالرومان فخورون جداً بها. ثمّ أحضرت لي النادلة طبقاً جانبياً مجانياً كمفاجأة، براعم الكوسى المقلية مع قليل من الجبن في الوسط (محضّرة بعناية شديدة لدرجة أنّ البراعم لم تلاحـــظ على الأرجح أنّها لم تعد على النبتة). وبعد السباغيتي، جرّبت

لحم العجل. أوه، كما شربت زجاجة من الشراب، لي وحدي. وأكلت بعض الخبز الساخن مع زيت الزيتون والملح. أمّا التحلية فكانت عبارة عن طبق من التيراميسو.

في طريقي إلى المنزل بعد تلك الوجبة، حوالى الحادية عشرة ليلاً، تناهت إليّ أصوات من أحد الأبنية في الشارع الذي أقطن فيه، بدا وكأنّه اجتماع لأطفال في السابعة من العمر، ذكرى ميلاد ربّما؟ ضحك، وصراخ، وركض. صعدت السلالم إلى شقّتي، وتمدّدت على سريري، وأطفأت النور. انتظرت أن يبدأ البكاء والقلق، لأنّ هذا ما يحدث عادة مع انطفاء النور، ولكن كنت بخير في الواقع. أحسست بالأعراض الأولى للرضى.

عندها سأل جسدي المرهق عقلي المرهق: "أهذا كلّ ما كنت تحتاج إليه إذاً؟".

لكن لا جواب. كنت قد استغرقت في النوم.

12

في جميع المدن الكبرى في العالم الغربي، تبقى الأمور نفسها على حالها. فالرجال الأفريقيون أنفسهم يبيعون الحقائب والنظارات الشمسية نفسها للمصمم نفسه، والعازفون الغواتيماليون أنفسهم يعزفون دوماً الأغنية نفسها بقصب الخيزران. غير أنّ بعض الأشياء لا توجد سوى في روما. كبائع الشطائر الذي يناديني بعفوية "أيّتها الجميلة" كلّما تحدّثنا. *تريدين البانينو مشويًّا أم بارداً، بيلاّ؟* أو كالمحبّين الذين يعبّرون عن هيامهم في كلّ مكان، وكأنّهم في مباراة، فيجلسون في أحضان بعضهم على المقاعد ويداعبون بعضهم بلا توقّف...

هنالك أيضاً النوافير. فقد كتب بليني الأكبر مرّة: "لو تأمّل المرء في وفرة المياه العامّة في روما، المؤمّنة للحمّامات، والأحواض، والأقنية، والبيوت، والحدائق، والدارات وأخذ في الاعتبار المسافة التي قطعتها، والقناطر التي بنيت، والجبال التي خُرقت، والأودية التي حُفرت لأقرّ بأنّه ما من شيء أكثر روعة في العالم بأسره".

بعد بضعة قرون، سيكون لي بضع نوافير تُضاهي نافورتي المفضّلة في روما جمالاً. إحداها في دارة بورغيز. في وسط تلك النافورة ثمّة عائلة برونزية جذلة. أبي هو عبارة عن فون وأمّي امرأة بشرية عادية. ومعهما طفل يستمتع بأكل العنب. تمثالا أمّي وأبي يقفان في وضعية غريبة؛ يواجهان بعضهما ويمسك كلّ منهما برسغي الآخر، وكلاهما منحنيان إلى الخلف. من الصعب القول ما إذا كانا متخاصمَين أم يتمايلان بمرح، ولكنّ طاقة قوية تنبعث منهما. في كلتا الحالتين، يجلس الصغير فوق رسغيهما، بينهما تماماً، غير متأثّر بمرحهما أو خصامهما، ويمضغ العنب. بينما تتدلّى قدماه تحته وهو يأكل. (وقد ورث ذلك من أبيه).

كنّا في أوائل أيلول 2003، وكان الجوّ دافئاً ويبعث على الكسل. مرّ على وجودي في روما أربعة أيام، لم أطأ فيها عتبة دار عبادة أو متحف ولم أتصفّح دليلاً سياحياً. بل كنت أسير بلا توقّف ومن دون هدف معيّن إلى أن عثرت أخيراً على محلّ صغير أخبرني عنه سائق باص ودود بأنّه يبيع أفضل المثلّجات في روما. يدعى المكان **جيلاتو سان كريسبينو**. لست واثقة تماماً، ولكنّني أظنّ بأنّ الاسم قد يترجم *مثلّجات القدّيس المقرمش*. فجرّبت مزيجاً من العسل والبندق. ثمّ عدت لاحقاً في اليوم نفسه لتذوّق الغريفون والبطيخ الأصفر. وبعد العشاء من الليلة نفسها، مشيت إلى هناك مرّة أخيرة لشرب فنجان من الزنجبيل بالقرفة.

كنت أحاول قراءة مقال واحد في الجريدة كلّ يوم، مهما استغرقني ذلك. كنت أبحث عن معنى كلمة كلّ ثلاث كلمات تقريباً. واليوم كان الخبر لافتاً. من الصعب تخيّل عنوان مأساوي أكثر من ذلك: "

"*Obesità! I Bambini Italiani Sono i più Grassi d'Europa!*

يا الله! البدانة! المقال كان يعلن، على ما أظنّ، بأنّ الأطفال الإيطاليين هم الأكثر بدانة في أوروبا! حين واصلت القراءة، تبيّن لي بأنّ الأطفال الإيطاليين هم أكثر بدانة من الأطفال الألمان وأكثر بدانة بكثير من الأطفال الفرنسيّين. (لحسن الحظّ، لم يقارنوا وزنهم بالأطفال الأميركيين). ويعتبر الأولاد الإيطاليون الأكبر سنّاً بدينين على نحو خطير هذه الأيام أيضاً، استناداً إلى المقال. (صناعة المعجّنات الإيطالية دافعت عن نفسها). وكانت تلك الإحصاءات المثيرة للقلق قد نشرت البارحة من قبل هيئة دولية. استغرقت لساعة تقريباً في فكّ رموز المقال بأكمله. وكنت خلال ذلك آكل البيتزا، وأستمع إلى أحد الأطفال الإيطاليين وهو يعزف على الأكورديون، ولكنّه لم يبدُ لي بديناً، ربّما لأنّه غجري. ولست واثقة ممّا إذا كنت قد أسأت فهم آخر سطر في المقال، ولكن بدا لي أنّ الحكومة تتحدّث عن فرض ضريبة على البدانة، لكونها الطريقة الوحيدة لحلّ أزمة البدانة في إيطاليا...؟ أمن الممكن أن يكون الأمر صحيحاً؟ وهل سيلاحقونني بعد عدّة شهور من الأكل على هذا الشكل؟

من الأهمية بمكان أيضاً، قراءة الجريدة كلّ يوم للاطّلاع على حال البابا. هنا في روما، تسجّل صحّة البابا يومياً في الجريدة، تماماً كالطقس، أو برامج التلفزيون. البابا اليوم متعب. البارحة، كان البابا أقلّ تعباً ممّا هو عليه اليوم. غداً، من المتوقّع ألاّ يكون البابا متعباً بقدر اليوم.

كانت اللغة هنا أشبه بلغة الحكايات الخرافية بالنسبة إليّ. فبالنسبة إلى شخص أراد دوماً تكلّم الإيطالية، هل من مكان أفضل من روما؟ وكأنّ أحدهم أوجد مدينة حسب طلبي، حيث الجميع (حتى الأطفال، حتى سائقو التاكسي، حتى ممثّلو الإعلانات!) يتحدّثون هذه اللغة الساحرة. وكأنّ المدينة كلّها متآمرة لتعليمي الإيطالية. حتى إنّهم ينشرون الجرائد بالإيطالية خلال وجودي هنا، لا يمانعون في ذلك! ولديهم مكتبات *لا تبيع سوى الكتب الإيطالية*! عثرت على إحداها صباح البارحة وشعرت وكأنّني دخلت قصراً خيالياً. كان كلّ ما فيها بالإيطالية. تجوّلت فيها وكنت ألمس جميع الكتب، على أمل أن يعتقد كلّ من يراني بأنّ الإيطالية هي لغتي الأمّ. آه، كم أودّ لو أنّ الإيطالية تفتح أبوابها لي! ذكّرني هذا الشعور حين كنت في الرابعة من عمري، ولا أعرف القراءة، ولكنّني كنت أتوق إلى تعلّمها. أذكر أنّني جلست مرّة مع أمّي في صالة الانتظار في عيادة أحد الأطباء، أحمل مجلّة عن فنّ الطبخ أمامي، وأقلّب الصفحات ببطء وأنا أحدّق إلى النصّ، آملة أن يظنّ الموجودون في الصالة بأنّني أقرأ فعلاً. ولم أشعر بتلك الرغبة بالفهم منذ ذلك الوقت. عثرت في تلك المكتبة على دواوين لشعراء أميركيين تضمُّ النصَّ الإنكليزي الأصلي على صفحة والترجمة الإيطالية على الأخرى. فاشتريت ديواناً لروبرت لويل وآخر للويز غلوك.

ثمّة دروس محادثة عفوية في كلّ مكان. اليوم مثلاً، كنت جالسة على مقعد في حديقة عامّة حين أتت امرأة مسنّة في ثوب أسود، وراحت تحدّثني عن أمر ما. هززت رأسي مرتبكة وعاجزة عن الكلام. فاعتذرت بلغة إيطالية لطيفة جداً: "أنا آسفة، ولكنني لا أتحدّث الإيطالية". فبدت وكأنّها على وشك أن تضربني بملعقة من الخشب وأصرّت قائلة: "أنت تفهمين!" (وكانت على حقّ في الواقع. فقد

فهمت تلك الجملة). أصبحت تريد أن تعرف الآن أين ولدت. فأخبرها أنّني من نيويورك، وسألتها من أين هي. كانت من روما بالطبع! فصفقت كفّيّ بحماس الأطفال. *آه، روما! روما الجميلة! أحبّ روما! روما الساحرة!* أصغت إلى انفعالي البدائي بتشكّك. ثمّ سألتني ما إذا كنت متزوّجة، فأخبرها أنّني مطلّقة. كانت تلك المرّة الأولى التي أخبر أحداً بذلك، وها أنا أقولها بالإيطالية. سألتني بالطبع "*Perché?*" في الواقع... "لماذا" هو سؤال تصعب الإجابة عنه في أي لغة كانت. تلعثمت، ثمّ قلت أخيراً: "*L'abbiamo rotto*" (حطّمنا زواجنا).

هزّت برأسها، ثمّ سارت عبر الشارع إلى محطّة الباص، ولم تلتفت إليّ مجدّداً. هل غضبت منّي؟ الغريب أنّني بقيت منتظرة على المقعد لعشرين دقيقة، على أمل أن تعود لنتابع حديثنا، ولكنّها لم ترجع أبداً. كان اسمها تشيليسته.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، عثرت على مكتبة. كم أحبّ المكتبات. وبما أنّنا في روما، كانت هذه المكتبة جميلة وقديمة العهد، وكانت تضمّ باحة خلفية ما كنت لتكتشف وجودها إن نظرت إلى البناء من الشارع. كانت الحديقة عبارة عن مربّع توزّعت على أرضها أشجار الليمون مع نافورة في الوسط. هذه النافورة ستنافس نافورتي المفضّلة في روما، أستطيع أن أرى ذلك منذ الآن، على الرغم من أنّها لا تشبه أياً من النوافير التي رأيتها حتى الآن. فهي لم تكن مصنوعة من الرخام الفخم، بل كانت عبارة عن نافورة عضوية صغيرة خضراء ومكسوّة بالطحالب. كانت أشبه بأجمة من الحشائش البريّة التي تسيل منها المياه. (بدت في الواقع تماماً مثل الحشائش البرية النابتة من رأس الكائن البشري الذي يصلّي والذي رسمه لي العرّاف العجوز في إندونيسيا). وتدفّقت المياه من وسط تلك

الشجيرة المزهرة وانهمرت على الأوراق مصدرة صوتاً كئيباً وناعماً عبر الباحة بأكملها.

وجدت مقعداً تحت شجرة ليمون، فجلست عليه، وفتحت أحد الكتب التي اشتريتها في اليوم السابق. لويز غلوك. قرأت القصيدة الأولى بالإيطالية، ومن ثمّ بالإنكليزية، واستوقفني هذا السطر القصير:

Dal centro della mia vita venne una grande Fontana…

"من وسط حياتي، تفجّر ينبوع عظيم...".

وضعت الكتاب في حجري وأنا أرتعش من الراحة.

13

للحقيقة، أنا لست أفضل مسافرة في العالم.

أعرف ذلك لأنّني سافرت كثيراً وصادفت أناساً ممتازين في السفر، طبيعيين فعلاً. أناساً يتمتّعون بقوّة جسدية إلى حدّ أنّهم قد يشربون زجاجة من المياه من مجارير كالكوتا من دون أن يمرضوا. أناساً يلتقطون لغات جديدة حيث يلتقط آخرون أمراضاً معدية. أناساً يعرفون كيف يواجهون حارس حدود شرساً أو يتملّقون بيروقراطياً غير متعاون في مكتب الفيزا. أناساً يمتازون بطول ولون مناسبين بحيث يبدون عاديّين تقريباً أينما حلّوا - في تركيا يكونون أتراكاً وفي المكسيك يتحوّلون فجأة إلى مكسيكيين وفي إسبانيا قد يظنّهم الناس باسكيّين فيما قد يُعتبرون في شمال أفريقيا عرباً أحياناً...

أمّا أنا فلا أتمتّع بتلك المزايا. أوّلاً، أنا لا أمتزج بسهولة. فبقامتي الطويلة وشعري الأشقر وبشرتي الوردية، أنا أقرب إلى الفلامينكو منّي إلى الحرباء. أينما حللت، باستثناء دوسلدورف، يبدو اختلافي بوضوح. حين

كنت في الصين، كانت النساء يُشِرنَ إليّ في الشارع لأطفالهنّ وكأنّني حيوان هارب من حديقة الحيوانات. أمّا أطفالهن، الذين لم يسبق لهم أن رأوا هذا المخلوق ورديّ اللون وأشقر الشعر من قبل، فكانوا غالباً ما ينفجرون بالبكاء لدى رؤيتي. كرهت ذلك حقاً في الصين.

أنا لست ماهرة (أو ربّما كنت كسولة بالأحرى) في إجراء بحث عن المكان قبل السفر إليه، بل أذهب وأرى ما يحدث. وحين تسافر بهذه الطريقة، فإنّ ما *يحدث* عادة هو أنّك تضيّع كثيراً من الوقت واقفاً في محطّة القطار بارتباك، أو تنفق كثيراً من المال على الفنادق لأنّك لا تعرف مكاناً أفضل. فقد قمت باستكشاف ستّ قارّات في حياتي إلاّ أنّ حسّي الضعيف بالاتّجاه والجغرافيا نادراً ما أسعفني في معرفة المكان الذي أتواجد فيه في أيّ وقت من الأوقات. بالإضافة إلى ذلك، أعاني من صعوبة في الحفاظ على رباطة جأشي. فأنا لم أتقن يوماً كيفية إخفاء مشاعري وارتداء قناع يجعلك غير مرئي، ما يعتبر مفيداً عند السفر إلى أماكن خطرة أو غريبة، كتعابير الاسترخاء التامّ والسيطرة على الموقف، ما يجعلك تبدو وكأنك تنتمي إلى المكان الذي أنت فيه، حتى وإن كنت في خضمّ أعمال شغب في جاكارتا. ولكنّني لست كذلك إطلاقاً، إن كنت لا أعرف ما أفعل، أبدو أنّني لا أعرف ما أفعل. وحين أكون متحمّسة أو عصبية، أبدو متحمّسة أو عصبية. وحين أكون ضائعة، وهو أمر يحدث غالباً، أبدو ضائعة. فوجهي ينقل ما أشعر به بشفافية تامّة. وكما قال ديفيد مرّة: "الديك عكس وجه البوكر. لديك ما يشبه... مصغّراً لوجه الغولف".

هذا من دون ذكر الويلات التي جرّها السفر على جهازي الهضمي! لا أودّ في الواقع فتح هذا الموضوع، ولكن يكفي القول بأنّني تعرّضت لجميع أنواع الحالات الهضمية الطارئة. ففي لبنان، مرضت إلى

حدّ اعتقدت معه أنّني التقطت نوعاً متوسطياً من فيروس الإيبولا. أمّا في هنغاريا، فعانيت من نوع مختلف تماماً من الأمراض المعوية، غيّر إلى الأبد ما أشعر به تجاه تعبير *الجبهة السوفياتية*. إلاّ أنّني أعاني أيضاً من علل جسدية أخرى. فقد أجهد ظهري في اليوم الأوّل لي في أفريقيا، وكنت الوحيدة التي أصيبت بعضّة عنكبوت في أدغال فنزويلا، وأسألك - لا بل أرجوك أن تجيبني! - من يصاب بحرق شمس في *ستوكهولم*؟

على الرغم من كلّ ذلك، يبقى السفر هو حبّ حياتي الحقيقي. فمنذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري وسافرت للمرّة الأولى إلى روسيا بنقود جمعتها من عملي كحاضنة أطفال، شعرت بأنّ السفر يستحقّ أيّ ثمن أو تضحية. أنا مخلصة ولا أتراجع عن حبي له، أكثر من أيّ حبّ آخر في حياتي. وشعوري تجاه السفر شبيه بشعور أمّ حديثة وسعيدة تجاه مولودها الذي يعاني من المغص ويبكي باستمرار من دون أن يهدأ، فأنا لا آبه إطلاقاً للمتاعب التي يعرّضني لها لأنّني شغوفة به، لأنّه لي، لأنّه يبدو مثلي تماماً.

على أي حال، لست عاجزة تماماً بالنسبة إلى طائر فلامينكو. بل لديَّ تقنياتي الخاصة للبقاء على قيد الحياة. فأنا صبورة، أعرف كيف أسافر بحقائب خفيفة ولا أخاف من الأكل. إلاّ أنّ أثمن مواهبي في مجال السفر، هي أنّني أكوّن صداقات مع *أيّ* كان. أستطيع أن أصادق الأموات. لا بل صادقت مرّة مجرم حرب في صربيا، ودعاني لقضاء عطلة في الجبال مع عائلته. ولا أعني أنّني فخورة بذكر قاتل جماعي صربي كواحد من أصدقائي المقرّبين (كان عليَّ مصادقته لأجل قصّة، ولكي لا يؤذيني)، ولكنّني أقول وحسب إنّني أستطيع ذلك. وإن لم يكن ثمّة من أتحدّث معه، بإمكاني مصادقة مجموعة من الصخور. لهذا السبب، لا أخشى السفر إلى أكثر الأماكن النائية في العالم، وإن لم يكن فيها بشر.

وحين سألني الناس قبل سفري إلى إيطاليا: "هل تملكين أصدقاء في روما؟" كنت أنفي ذلك، ولكنّني أفكّر بيني وبين نفسي، سيكون *لي*.

في معظم الأحيان، يقابل الناس بعضهم في أثناء السفر صدفة، في القطـــار أو في مطعم أو سجن. ولكنّ هذه اللقاءات تحدث عرضاً ولا يجـــب الاعـــتماد على الصدفة بالكامل. ولمقاربة أكثر منهجية، كانت هـــنالك الطريقة التقليدية القديمة المتمثّلة في *رسالة التعريف* (هي اليوم عبارة عن بريد إلكتروني)، تقدّمك رسمياً لمعارف أحد معارفك. وهذه طـــريقة ممتازة للتعارف، إن كنت لا تخجل من الاتصال ودعوة نفسك على العشاء. هكذا، وقبل أن أغادر إلى إيطاليا، سألت كلّ من أعرف في أميركـــا ما إذا كانوا يملكون أصدقاء في روما، ويسرّني القول إنّني سافرت مع لائحة لا بأس بها.

ومـــن بين المرشّحين على لائحة أصدقائي الإيطاليين المحتملين، كنت أتـــوق للتعـــرّف على شخص يدعى... لوكا سباغيتي. لوكا سباغيتي هو صـــديق عزيز لصديقي باتريك ماك ديفيت، الذي أعرفه منذ أيام الجامعة. وهذا هو اسمه الحقيقي، أقسم بذلك، و لم أخترعه. أعرف أنّه جنوني، أعني تخيّل كيف تكون حياتك إن كان اسمك باتريك ماك ديفيت؟

على أي حال، أنوي الاتصال بلوكا سباغيتي بأسرع ما يمكن.

14

مـــع ذلك، عليَّ أوّلاً أن أستقرّ في المدرسة. تبدأ صفوفي اليوم في أكاديمية ليوناردو دا فينشي للّغة، وفيها سأدرس الإيطالية لخمسة أيام في الأسبوع، أربع ساعات في اليوم. كنت متحمّسة للدراسة، فأنا *تلميذة* مثابـــرة. جهّزت ملابسي في الليلة السابقة، كما فعلت أوّل يوم لي في

الصفّ الأوّل، مع حذائي الجلدي النظيف وعلبة غدائي الجديدة. أتمنّى أن أعجب أساتذتي.

علينا جميعاً أن نخوض اختباراً في يومنا الأوّل في ليوناردو دا فينشي، لكـي نصنّف في المستوى المناسب لقدراتنا. حين سمعت ذلك، بدأت آمل على الفور ألاّ أصنّف في المستوى الأوّل، لأنّ ذلك سيكون مهيناً، لا سيّما وأنّني درست الإيطالية لفصل كامل في مدرسة السيّدات المطلّقات الليلية في نيويورك، وأمضيت الصيف بأكمله في حفظ مفردات، كما أنّني في روما منذ أسبوع، أتمرّن على اللغة شخصياً وأتحدّث مع الجدّات العجائز عن الطلاق. المشكلة هي أنّني لا أعرف عدد المستويات في هذه المدرسة، ولكن ما إن سمعت كلمة مستوى حتى قرّرت أنّني ينبغي أن أدخل المستوى الثاني على *الأقلّ*.

إذاً، كان الجوّ ممطراً ذاك اليوم، ووصلت إلى المدرسة باكراً وخضعت للامتحان. كان امتحاناً صعباً للغاية! لم أستطع حلّ ربعه حتى! مع أنّني أعرف الكثير في الإيطالية، أعرف عشرات الكلمات، ولكنّهم لم يسألوني شيئاً ممّا أعرفه. ثمّ خضت امتحاناً شفهياً، وكان أسوأ. كان ذلك الأستاذ الإيطالي النحيل يقابلني ويتحدّث معي بسرعة برأيي، وكان يجدر بي أن أبلي أفضل من ذلك ولكنّني كنت متوتّرة فارتكبت أخطاء في أشياء أعرفها (لِمَ قلت مثلاً *Vado a scuola* عوضاً عن *Sono andate a scuola*؟ أنا أعرف ذلك!).

في النهاية، كان الاختبار لا بأس به. نظر الأستاذ الإيطالي النحيل إلى الامتحان واختار المستوى المناسب:

المستوى الثاني!

تبدأ الدروس بعد الظهر. هكذا ذهبت أتناول الغداء (الهندباء المشوية) ثمّ تمشّيت عائدة إلى المدرسة ومشيت بفخر بين جميع طلاّب

المستوى الأوّل (الذين لا بدّ بأنّهم molto stupido، حقاً) دخلت حصّتي الأولى. مع زملائي. ولكن يتبيّن لي بوضوح بأنّهم ليسوا زملائي وأنّه لا مصلحة لي هنا لأنّ المستوى الثاني صعب للغاية. أشعر وكأنّني أسبح، ولكن بصعوبة. وكأنّني أتكلّم في الماء على كلّ نفَس. كان الأستاذ شاباً نحيلاً (لِمَ جميع الأساتذة نحيلون جداً هنا؟ أنا لا أثق بالإيطاليين النحيلين)، ويتقدّم بسرعة كبيرة، يفوّت فصولاً بأكملها من الكتاب وهو يقول "أنتم تعرفون هذا..." ويتحدّث بسرعة كبيرة مع زملائي الذين يتكلّمون بطلاقة كما يبدو. فتقلّصت معدتي من الخوف، وصرت ألهث لتنفّس الهواء وأدعو ألاّ ينادي اسمي. وما إن حان وقت الاستراحة حتى ركضت خارج الصفّ برجلين مرتعشتين، وانطلقت مسرعة إلى مكتب المدير والدموع في عيني، فرجوته بإنكليزية واضحة نقلي إلى صفّ المستوى الأوّل. وهذا ما كان. وهكذا أنا هنا الآن.

هذا الأستاذ ممتلئ ويتكلّم ببطء. هذا أفضل بكثير.

15

المثير للاهتمام في صفّ اللغة الإيطالية الذي أنتمي إليه، أنّ أحداً من طلاّبه لا يحتاج فعلاً إلى أن يكون هنا. فقد كنّا اثني عشر طالباً ندرس معاً، من جميع الأعمار، ومن جميع أنحاء العالم، والجميع أتوا إلى روما للسبب نفسه؛ لدراسة الإيطالية لأنّهم شعروا بالرغبة بذلك. إلاّ أنّ أحداً منّا لم يكن لديه سبب عملي واحد ليكون هنا. لم يكن ثمّة من قال له رئيسه: "من الحيويّ أن تتعلّم الإيطالية لكي نتمكّن من إدارة أعمالنا وراء البحار". الجميع، حتى المهندس الألماني

الأنيق، يشاركني في ما اعتقدت بأنّه دافع شخصي: كلّنا نريد تحدّث الإيطاليـة لأنّنا نحبّ الشعور الذي تولّده فينا. أخبرتنا امرأة روسية حـزينة الملامـح بأنّها تأخذ دروس اللغة الإيطالية لأنّها تظنّ بأنّها تستحقّ شيئاً جميلاً. أمّا المهندس الألماني فقال: "أريد تعلّم الإيطالية لأنّني أحبّ *dolce vita*"، أي الحياة الحلوة. (غير أنّه بلكنته الألمانية القاسية، بدا وكأنّه قال "أحبّ *deutsche vita*" - الحياة الألمانية - التي أخشى بأنّه قد اكتفى منها).

كما سأكتشف خلال الأشهر القليلة المقبلة، ثمّة في الواقع بعض الأسباب الجيدة لكون الإيطالية اللغة الأكثر جمالاً وسحراً في العالم، ولعـدم كـوني الشخص الوحيد الذي يعتقد ذلك. لفهم السبب، عليك أن تفهم أوّلاً بأنّ أوروبا كانت في ما مضى مسرحاً لعدد لا يحصى من اللهجات لاتينية المنشأ التي تحوّلت تدريجياً على مرّ القرون إلى لغـات مستقلّة: الفرنسية، البرتغالية، الإسبانية، الإيطالية. وما حدث في فرنسا والبرتغال وإسبانيا كان تطوّراً عضوياً: إذ أصبحت لهجة المدينة الأبرز تدريجياً هي اللغة المقبولة في المنطقة كلّها. لذا، ما ندعـوه اليوم بالفرنسية هو بالفعل نسخة معدّلة من اللغة الباريسية للقرون الوسطى. والبرتغالية هي الليشبونية. أمّا الإسبانية فهي أساساً المادريلينية. تلك هي انتصارات رأسمالية، إذ إنّ المدينة الأقوى تحدّد في النهاية لغة البلد بأكمله.

أمّا إيطاليا، فسارت فيها الأمور بشكل مختلف. كان ثمّة اختلاف خطير، وهو أنّ إيطاليا لم تكن بلداً لوقت طويل. فهي لم تتوحّد إلاّ في وقـت متأخّـر (1861) وظلّـت حتى ذلك الوقت شبه جزيرة من الـدويلات المتناحـرة التي يسيطر عليها أمراء محلّيون أو قوى أوروبية أخـرى. فأجـزاء من إيطاليا كانت لفرنسا وأجزاء لإسبانيا، وأخرى

للكنيسة، وأجزاء لكلّ مَن أمكنه انتزاع قلعة أو قصر محليين. وكانت مشاعر الشعب الإيطالي تتبدّل بين الذلّ والفخر. معظمهم لم يحبّ أن يكون محتلاً من قبل إخوانه الأوروبيّين، إلاّ أنّه ثمّة دوماً مجموعة لا مبالية تقول: "*Franza o Spagna, purchè se magna*"، أي "فرنسا أو إسبانيا، لا فرق، ما دمنا نأكل".

كلّ هذا الانقسام الداخلي كان يعني بأنّ إيطاليا لم تلتحم أبداً كما يجب، وكذلك الإيطاليين. ليس مستغرباً بالتالي أن يكونوا قد كتبوا وتحدّثوا لقرون بلهجات غير مفهومة في ما بينهم. فكان العالِم في فلورنسا بالكاد قادراً على التواصل مع شاعر في صقليا أو تاجر في البندقية (ما عدا باللاتينية بالطبع، التي كانت تعتبر اللغة القومية بصعوبة). وفي القرن السادس عشر، اجتمع بعض المثقّفين الإيطاليين ووجدوا أنّ الوضع غير مقبول. فشبه الجزيرة الإيطالية هذه تحتاج إلى لغة *إيطالية*، مكتوبة على الأقلّ، يوافق عليها الجميع. هكذا، قام هؤلاء المثقّفون بأمر لم يسبقهم عليه أحد في تاريخ أوروبا. فانتقَوا أجمل ما في اللهجات المحلية وابتكروا بذلك اللغة *الإيطالية*.

ومن أجل اكتشاف أجمل لهجة في إيطاليا، كان عليهم العودة في الزمن مئتي عام إلى الوراء، إلى فلورنسا القرن الرابع عشر.

إنّ الإيطالية التي نتكلّمها اليوم ليست لغة روما ولا البندقية (مع أنهما كانتا المدينتين الأقويين عسكرياً وتجارياً) ولا هي فلورنسية تماماً. إنّها أساساً *دانتيّة*. وليس لأيّ لغة أوروبية أخرى نسب فنّي بهذا القدر. وربّما ليس ثمّة لغة مكرّسة بهذا القدر من الكمال للتعبير عن العواطف البشرية أكثر من إيطالية فلورنسا في القرن الرابع عشر، مثلما زيّنها أحد أعظم شعراء الحضارة الغربية.

لذا، لا عجب حقاً في رغبتي اليائسة بتعلّم هذه اللغة.

16

لحـــق بـــــي الاكتئاب والوحدة بعد عشرة أيام من وجودي في إيطاليا. كنت أمشي في فيلا بورغيز في إحدى الأمسيات بعد يوم سعيد قـــضيته في المدرسة، وكانت الشمس الغاربة تلقي بأشعّتها الذهبية على بازيليك سان بيتر. شعرت بالسعادة أمام ذلك المشهد الرومانسي، وإن كـــنت بمفـــردي، فيما كان جميع مَن في الحديقة إمّا يداعب حبيبه أو يلعب مع طفل يضحك. ولكنّني توقّفت واستندت إلى الدرابزين أشاهد غـــروب الشمس، ورحت أفرط في التفكير، ثمّ توالدت أفكاري، وهنا أدركاني.

تقدّما نحوي بصمت وتهديد وكأنّهما المحقّقان بينكرتون، وأحاطا بـــــي؛ الاكتئاب عن يميني والوحدة عن يساري. لم يكونا بحاجة إلى إبـــراز شارتيهما، فأنا أعرفهما جيداً. نحن نلعب لعبة القطّ والفأر منذ سنوات. مع ذلك، أقرّ بأنّني تفاجأت لرؤيتهما في هذه الحديقة الإيطالية الأنيقة عند الغروب. فهما لا ينتميان إلى مكان كهذا.

قلت لهما: "كيف عثرتما عليَّ هنا؟ من أخبركما بمجيئي إلى روما؟".

قال الاكتئاب، الأكثر مكراً: "ماذا، ألست سعيدة بلقائنا؟".

قلت: "ارحلا عنّي".

قالـــت الوحدة، وهي أكثر حساسية: "آسفة سيّدتي. ولكن كان عليَّ تعقّبك طيلة سفرك. إنّها مهمّتي".

قلـــت لها: "أفضّل حقاً لو أنّك لم تفعلي"، فهزّت كتفيها معتذرة تقريباً، ولكن لتقترب أكثر.

ثمّ أفـــرغا جيوبـــــي مـــن أيّ فرح حملته معي إلى هناك. حتى إنّ الاكتـــئاب صـــادر هـــويّتي، ولكـــنّه يفعل ذلك دوماً. ثمّ بدأت الوحدة

تــستجوبني، وهــذا ما يثير رعبـــي، لأنّها تستمرّ لساعات. هي مهذّبة ولكـــنّها لا تـــتعب، وفي النهاية يزلّ لساني دائماً. تسأل إن كان لديّ أيّ ســبب لأكون سعيدة. تسأل لِمَ أنا وحيدة تماماً الليلة، مجدّداً. تسأل (مع أنّـــني خضعت لهذا الاستجواب مراراً من قبل) لِمَ لا أنجح في الحفاظ على علاقة عاطفية، لِمَ دمّرت زواجي، لِمَ أفسدت الأمر مع ديفيد، لِمَ أفسدت الأمـــور مـــع كلّ رجل عرفته. تسألني أين كنت ليلة بلوغي الثلاثين ولِمَ ســاءت الأمـــور بهذا الشكل منذ ذلك الحين. لِمَ لا أستطيع لملمة شتات نفسي ولِمَ لست في البيت أعيش في منـــزل جميل وأربـــي أطفالاً ظرفاء كمـــا تفعـــل أيّ امرأة محترمة من عمري. تسأل لماذا بالضبط أعتقد بأنّني أســتحقّ عطلة في روما بعد أن عبثت بحياتي على هذا النحو. ولماذا أعتقد بأنّ هربـــي إلى إيطاليا كتلميذة مدرسة سيجعلني سعيدة. تسأل أين برأيي سينتهي بـــي الأمر في كبري، إن واصلت العيش بهذه الطريقة.

عدت إلى المنـــزل، على أمل أبعادهما عنّي، ولكنّهما لحقا بـــي، الأحمقـــان. كـــان الاكتـــئاب يمسك بكتفيّ بقوّة والوحدة تلاحقني بأســئلتها. لم أتكبّد عناء تناول العشاء، لم أشأ أن آكل تحت أعينهما. كمـــا أنّني لم أرغب بأن يصعدا السلالم معي إلى شقّتي، ولكنّني أعرف الاكتئاب، لا شيء يمنعه من المجيء إن قرّر ذلك.

قلـــت لـــه: "ليس من العدل أن تأتيا إلى هنا. لقد سبق ودفعت للتخلّص منكما. قضيت عقوبتي في نيويورك".

إلاّ أنّـــه وجّه إليّ ابتسامته القاتمة ثمّ جلس على كرسيّي المفضّل، ووضع قدميه على طاولتي، وأشعل سيجاراً ملأ المكان برائحته المريعة. أمّا الوحدة فراقبت ما يجري وتنهّدت، ثمّ استلقت على سريري وغطّت نفـــسها بالملاءات، وهي بكامل ملابسها وحذائها. سوف تجبرني على النوم معها ثانية الليلة، أعرف ذلك.

17

كنت قد توقّفت عن تناول الأدوية منذ بضعة أيام فقط. إذ بدا لي من الجنون استعمال مضادّات الاكتئاب في إيطاليا. من يشعر بالاكتئاب هنا؟

في الواقـــع، أنا لم أرغب بتناول الأدوية أساساً. فقد قاومتها لوقت طـــويل، بـــسبب لائحة طويلة من الأسباب الشخصية (مثلاً: الأميركيون يفـــرطون بتناول الأدوية؛ نحن نجهل الآثار طويلة الأمد لهذه الأشياء على الدماغ البشري؛ إنّ تعاطي أطفال أميركيين لمضادّات الاكتئاب هو جريمة؛ نحـــن نعـــالج الأعراض وليس أسباب حالة ذهنية واسعة الانتشار...). مع ذلـــك، خـــلال السنوات الأخيرة من حياتي، كان واضحاً أنّني أعاني من مـــشكلة وأنّ هـــذه المشكلة لا تزول بسهولة. فمع انتهاء زواجي وتطوّر علاقـــتي بديفيد، بدأت أعاني من جميع أعراض الاكتئاب الخطيرة؛ الأرق، زوال الشهية والرغبة الجنسية، البكاء المتواصل، آلام الظهر والمعدة المزمنة، العـــزلة واليأس، صعوبة التركيز على العمل، عدم القدرة حتى على الشعور بالغضب لكون الجمهوريين قد سرقوا انتخابات رئاسية... وغيرها.

وهكـــذا ضعت في تلك الغابة، واستغرقني الأمر وقتاً لأدرك أنّني تائهـــة فعـــلاً. فبقيت أقنع نفسي لوقت طويل بأنّني انحرفت قليلاً عن الطريق وأنّني سأجد طريقي مجدّداً في أي لحظة. ولكنّ الليالي تتوالى من دون أن أعرف أين أنا، إلى أن يحين الوقت لأعترف أنّني ابتعدت كثيراً وأنّني لم أعد أعرف حتى من أيّ اتّجاه تشرق الشمس.

اعتـــبرت بأنّ اكتئابـــي هو معركة حياتي، وهذا ما كان بالفعل. صـــرت تلميذة لتجربتي الخاصة، أحاول معرفة أسبابها. ما كان أساس كلّ ذلك؟ أهو نفسي؟ (أهو غلطة أمي وأبـــي؟) هل هو مؤقّت، مجرّد

مرحلة صعبة من حياتي؟ (حين ينتهي الطلاق، هل سيزول معه الاكتئاب؟) أهو وراثي؟ (فالكآبة، بأسمائها العديدة، قد مرّت على عائلتي لأجيال، هي ورفيقها الحزين، الإدمان على الشراب). أهو ثقافي؟ (أهو من عواقب محاولات فتاة أميركية عاملة مناصرة حقوق المرأة لإيجاد التوازن في عالم مديني يسوده التوتّر والعزلة على نحو متعاظم؟) أهو فلكي؟ (أنا حزينة جداً لأنّني سرطان هزيل يسيطر عليه جوزاء غير مستقرّ؟) أهو فنّي؟ (ألا يعاني الأشخاص المبدعون دوماً من الاكتئاب لأنّهم حساسون جداً *ومميّزون*؟) أهو نشوئي؟ (هل أحمل في داخلي مخلّفات الذعر الذي يأتي بعد آلاف السنوات من محاولات الجنس البشري للبقاء في عالم قاسٍ؟) أهو كارمي؟ (كلّ تشنّجات الحزن هذه هي نتائج السلوك السيّئ في الحيوات السابقة، العقبات الأخيرة قبل التحرّر؟) أهو هرموني؟؟ غذائي؟ فلسفي؟ موسمي؟ بيئي؟ هل أعاني من خلل كيميائي؟ أم أنّني أحتاج إلى أن أهدأ وحسب؟

كم هي عديدة العوامل التي تؤلّف الكائن البشري! كم هي عديدة الطبقات التي نعمل عليها والتأثيرات التي نتلقّاها من أذهاننا، وأجسادنا، وتاريخنا، وعائلاتنا، ومدننا، وأرواحنا، ووجباتنا! صرت أشعر بأنّ اكتئابي هو على الأرجح مزيج من كلّ تلك العوامل ويتضمّن على الأرجح أيضاً بعض العناصر التي لم أتمكّن من تسميتها أو معرفتها. هكذا خضت المعركة على جميع المستويات. ابتعت جميع كتب العناية الذاتية ذات العناوين المحرجة (وحرصت دوماً على تغطية الكتب بأغلفة آخر إصدارات هاستلر، لكي لا يعرف الغرباء ماذا أقرأ). بدأت أحصل على مساعدة أخصّائية في العلاج النفسي، كانت لطيفة ولكنّها تفتقر إلى نفاذ البصيرة. توقّفت عن أكل اللحم (لوقت قصير على أي حال) بعدما أخبرني أحدهم بأنّني آكل خوف *الحيوان*

لحظة موته. وأخبرني مدلّك ينتمي إلى العهد الجديد أنّ عليَّ ارتداء سراويل برتقالية اللون لإعادة التوازن إلى الشاكرا الجنسية لديَّ، وقد قمت بذلك بالفعل. شربت من شاي عشبة القلب تلك ما يكفي لإضفاء البهجة على جيش روسي، ولكن من دون جدوى. مارست الرياضة، عرّضت نفسي للفنون التي ترفع المعنويات، وتجنّبت بعناية الأفلام والكتب والأغاني الحزينة (إن ذكر أحدهم كلمتي ليونارد وكوهين في جملة واحدة، غادرت الغرفة).

بذلت جهداً لمقاومة البكاء المستمر. أذكر أنّني سألت نفسي في إحدى الليالي، فيما كنت مكوّرة في الزاوية القديمة نفسها، على الأريكة القديمة نفسها تراودني الأفكار القديمة نفسها: "هل ثمّة ما يمكنك تغييره في هذا المشهد، ليز؟" وكلّ ما أمكنني التفكير فيه حينها هو الوقوف، وأنا لا أزال أبكي، على قدم واحدة بتوازن وسط غرفة المعيشة. فقط لأثبت أنّني لم أفقد تماماً السيطرة على نفسي، على الرغم من عجزي عن إيقاف الدموع أو تغيير حواري الداخلي الكئيب. على الأقلّ، يمكنني أن أبكي بشكل هستيري وأنا واقفة بتوازن على قدم واحدة. كانت تلك بداية.

مشيت تحت أشعّة الشمس. اعتمدت على شبكة الدعم المحيطة بي، فتعلّقت بعائلتي، وعزّزت صداقاتي الجيّدة. وحين أصرّت تلك المجلاّت النسائية على أنّ معنوياتي المنخفضة لا تساعد في مسائل الاكتئاب إطلاقاً، غيّرت قصّة شعري، واشتريت مواد تجميل وفستاناً جديداً.

كان آخر ما جرّبته بعد سنتين من محاربة هذا الحزن هو الدواء. وإن كان لي أن أعطي رأيي هنا، أعتقد بأنّ الدواء هو آخر ما ينبغي تجربته دوماً. بالنسبة إليّ، أتى قرار استعمال *الفيتامين النفسي* بعد ليلة

كنت جالسة خلالها على الأرض في غرفة نومي لساعات طويلة أحاول إقناع نفسي بعدم قطع يدي بسكّين. وقد كسبت الجدل ضدّ السكّين تلك الليلة، ولكن بصعوبة. وكانت لديَّ أيضاً أفكار أخرى جيّدة، كيف أنّ القفز من أحد المباني أو تفجير دماغي بواسطة مسدّس قد يضع حدّاً للعذاب. ولكنّ قضاء ليلة مع سكّين في يدي دفعني إلى اتخاذ القرار.

في الصباح التالي، اتصلت بصديقتي سوزان عند شروق الشمس ورجوتها أن تساعدني. لا أعتقد بأنّ امرأة في تاريخ عائلتي كلّه قد فعلت ذلك من قبل، لا أعتقد بأنّ امرأة منهنّ قد جلسَت في وسط الطريق وقالت في منتصف حياتها: "لم أعد قادرة على القيام بخطوة أخرى، فليساعدني أحد". وما كنت لأتمكّن من مساعدة أولئك النساء في أزمتهنّ، ما كان لأحد أن يساعدهنّ. الشيء الوحيد الذي كان ليحدث هو أن يتضوّرن جوعاً هنّ وعائلاتهنّ. لم أستطع التوقّف عن التفكير في هؤلاء النساء.

كما أنّني لن أنسى وجه سوزان حين اندفعت إلى شقّتي بعد ساعة من اتصالي الطارئ، ووجدتني مكوّمة على الأريكة. فألمي الذي انعكس في خوفها الواضح على حياتي سيبقى من أفظع ذكريات تلك السنوات المخيفة. بقيت منكمشة على نفسي في مكاني بينما قامت سوزان باتصالاتها، ووجدت لي طبيباً نفسياً أعطاني موعداً في اليوم نفسه لبحث إمكانية إعطائي مضادات اكتئاب. أصغيت إلى سوزان وهي تتحدّث مع الطبيب وسمعتها تقول: "أخشى أن تقوم صديقتي بإيذاء نفسها". فشعرت بالخوف أنا أيضاً.

حين ذهبت لرؤية الطبيب النفسي عصر ذلك اليوم، سألني لم تأخّرت إلى هذا الحدّ في طلب المساعدة، وكأنّني لم أكن أحاول

مـــساعدة نفسي كلّ هذا الوقت. فأخبرته باعتراضاتي وتحفّظاتي على اســتعمال مــضادّات الاكتئاب. ثمّ وضعت على مكتبه نسخات عن الكــتب الثلاثة التي نشرتها وقلت له: "أنا كاتبة. أرجوك لا تفعل أيّ شيء يؤذي دماغي". قال: "لو كنت تعانين من مرض كلوي، ما كنت لتتردّدي في أخذ دواء، لِمَ تتردّدين في هذه الحالة؟" ولكن، كما ترى، هذا يظهر مقدار جهله بعائلتي، فمن ينتمي إلى آل غيلبرت قد لا يعالج مرضــاً كلوياً، على اعتبار أنّنا عائلة تنظر إلى أيّ مرض على أنّه إشارة إلى فشل شخصي، أخلاقي.

وصــف لي الطبــيب بضعة أدوية مختلفة - زاناكس، زولوفت، ويلبوتــرين، بوسبار - إلى أن نجد التركيبة التي لا تسبّب لي الغثيان أو تحــوّل رغــبتي الجنسية إلى ذكرى باهتة وبعيدة. وفي أقلّ من أسبوع، بــدأت أشــعر بقليل من النور في ذهني. كما تمكّنت أخيراً من النوم. وهــذا تقدّم كبير، لأنّك ما لم تنم، فلا يمكنك أن تخرج من الحفرة، لا أمــل لك بذلك. أعادت لي الأقراص نعمة النوم ليلاً، كما أنّها أوقفت ارتعاش يدي، وأزالت الانقباض الشديد عن صدري والذعر الذي كان يسيطر على قلبــي.

مــع ذلــك، لم أشعر بالارتياح لاستعمال تلك الأدوية، مع أنّها أعطـــت مفعولاً فورياً. لا يهمّني من الذي قال إنّها فكرة جيّدة وآمنة تماماً، لطالما شعرت بعدم الاقتناع بذلك. لا شكّ بأنّ تلك الأدوية هي الجسر الذي سأعبر بواسطته إلى الضفّة الأخرى، ولكنّني أردت التوقّف عــن استعمالها بأسرع ما يمكن. بدأت أتناول الأدوية في كانون الثاني عــام 2003، وبحلــول شــهر أيّار، كنت قد خفضت الجرعة بقدر ملحــوظ. وكانت تلك الشهور هي الأصعب على أي حال، الأشهر الأخــيرة مــن الطلاق، والأشهر الأخيرة مع ديفيد. هل كان بإمكاني

تحمّل تلك الفترة من دون أدوية، هل كنت لأصمد أكثر؟ هل كنت لأبقى على قيد الحياة؟ لا أدري. تلك هي الحياة البشرية ما من طريقة لتعرف كيف كانت الأمور لتحدث لو تغيّرت بعض العناصر.

أعلم بأنّ تلك الأدوية جعلت بؤسي أقلّ وطأة. وأنا ممتنّة لذلك. ولكنّني ما زلت غير مرتاحة للأدوية التي تؤثّر في المزاج. قوّتها تخيفني ويقلقني انتشارها. وأعتقد أنّه ينبغي وضع قيود أكثر على وصفها واستعمالها في هذه البلاد، وأن تقترن دوماً بالعلاج والاستشارة النفسية. فمداواة أعراض أيّ مرض من دون البحث عن سببه الجذري هو طريقة غربية كلاسيكية في التفكير في أنّ الشفاء ممكن. قد تكون تلك الأقراص قد أنقذت حياتي فعلاً، ولكن حدث ذلك بالاقتران مع عشرين طريقة أخرى كنت أحاول إنقاذ نفسي بواسطتها في الوقت نفسه. وآمل ألاّ أحتاج إلى تلك الأدوية ثانية، مع أنّ أحد الأطباء ألمح إلى أنّني قد أضطرّ إلى استعمال مضادّات الاكتئاب من وقت إلى آخر خلال حياتي نظراً إلى *ميلي إلى الكآبة*، وأدعو من الله أن يكون مخطئاً. وأنا أنوي فعل كلّ ما في وسعي لأثبت بأنّه على خطأ أو على الأقلّ لأحارب هذا الميل إلى الكآبة بجميع الوسائل. أمّا ما إذا كان هذا العناد يهزم الذات أم يحفظها، فأنا لا أدري.

ولكن ها أنا ذا.

18

ها أنا ذا في روما، وفي ورطة أيضاً. فالاكتئاب والوحدة اقتحما حياتي مجدّداً، وقد تناولت آخر قرص ويلبوترين منذ ثلاثة أيام. لديَّ المزيد منها في الدرج السفلي، ولكنّني لا أريدها. أريد أن

أتحرّر منها نهائياً. ولكنّني لا أريد الشعور بالاكتئاب والوحدة أيضاً، لذا لا أعرف ماذا أفعل. كنت أدور في الغرفة بقلق كعادتي حين لا أعرف ماذا أفعل. والليلة، تناولت دفتري الخاصّ الذي أحتفظ به قرب سريري للحالات الطارئة. فتحته وكتبت على أوّل صفحة بيضاء:

"أحتاج إلى مساعدتك".

ثمّ انتظرت. وبعد برهة أتى الجواب بخطّ يدي:

أنا هنا. ماذا يمكنني أن أفعل لأجلك؟

هنا يبدأ من جديد أغرب حديث قمت به وأكثره سرّية. هنا، في هذا الدفتر الأكثر خصوصية، أتحدّث مع نفسي. أتحدّث مع ذاك الصوت نفسه الذي التقيت به على أرض الحمّام حين طلبت المساعدة وأنا أبكي، حين قال لي شيء (أو شخص) ما: "عودي إلى السرير، ليز". خلال السنوات التي تلت، وجدت ذلك الصوت في الأوقات الأكثر بؤساً وتعلّمت بأنّ أفضل طريقة للوصول إليه هي بالحديث المكتوب. وفوجئت لمعرفة أنّني أستطيع الوصول إليه دوماً، مهما بلغ منّي البؤس. حتى في أكثر الأوقات شدّة، يكون ذلك الصوت الهادئ، المتعاطف، الحنون والحكيم إلى حدّ بعيد (والذي قد يكون أنا أو قد لا يكون أنا بالضبط) موجوداً دوماً للتحدّث على الورق في أيّ وقت من الليل أو النهار.

وقرّرت التوقّف عن القلق، مع أنّ التكلّم مع نفسي على الورق هو دليل انفصام في الشخصية. قد يكون الصوت الذي يحدّثني هو مرشدتي الروحية، أو ذاتي الأسمى، أو ربّما هو مركّب من لاوعيي، اخترعته لأحمي نفسي من العذاب. فالقدّيسة تيريزا أسمت الأصوات الداخلية *عبارات؛* كلمات من خارج الطبيعة تدخل في الذهن تلقائياً،

تترجم بلغتك الخاصة فتواسيك وتبعث في نفسك البهجة. أعلم ما كان فـــرويد ليقوله عن تلك المواساة الروحية، بالطبع، إنّها غير عقلانية ولا تستحقّ الثقة. فالتجربة تعلّمنا بأنّ العالم ليس دار حضانة. أوافقه على أنّ العالم ليس دار حضانة. ولكن التحدّيات التي يحفل بها هذا العالم هي الـــسبب الـــذي يدفعك أحياناً إلى اللجوء إلى سلطة أعلى سعياً وراء الراحة.

في بداية تجربتي الروحية، لم أعتقد دوماً بصوت الحكمة الداخلي ذاك. أذكـــر أنّـــني فـــتحت دفتري مرّة في فورة من الغضب والحزن والمرارة، وخربشت رسالة إلى صوتي الداخلي - إلى مصدر المواساة في داخلي - احتلّت صفحة كاملة من الأحرف الكبيرة.

...

بعـــد برهة، وكان تنفّسي لا يزال ثقيلاً، شعرت بومضة واضحة مـــن الـــنور تـــضيء فيّ، ثمّ وجدت نفسي أكتب هذا الجواب المرح، والهادئ أبداً:

مع من تتحدّثين إذاً؟

لم أشـــكّ بوجود مصدر المواساة ثانية منذ ذلك الحين. وأنا ألجأ إليه مجدّداً الليلة، وأقوم بذلك للمرّة الأولى منذ وصولي إلى إيطاليا. وما كتبـــته اللـــيلة هـــو أنّني ضعيفة وخائفة. شرحت كيف أنّ الاكتئاب والوحدة ظهرا ثانية وكيف أنّني خائفة من بقائهما إلى الأبد. قلت بأنّني لا أريـــد تناول الأدوية بعد الآن، ولكنّني خائفة من اضطراري لذلك. وترعبني فكرة ألاّ أتمكّن من لملمة شتات نفسي مجدّداً.

فظهـــر من داخلي وجود أصبح مألوفاً لديَّ الآن، وأعطاني جميع التأكـــيدات التي تمنّيت دوماً لو أنّ شخصاً آخر يقولها لي حين أكون مضطربة. وهذا ما وجدت نفسي أكتبه لنفسي على الصفحة:

أنـــا هـــنا. وأنا أحبّك. لا آبه إن أردت البقاء مستيقظة تبكين طـــوال الليل، سوف أبقى إلى جانبك. وإن احتجت إلى الدواء ثانـــية، تناوليه؛ سوف أحبّك في أثناء ذلك أيضاً. وإن كنت لا تحتاجين إلى الدواء، سأحبّك كذلك. مهما فعلت، فلن تخسري حبـــــي. سوف أحميك إلى أن تموتي. أنا أقوى من الاكتئاب ومن الوحدة وما من شيء يرهقني أبداً.

هذه اللفتة الغريبة من الصداقة التي نبعت تلك الليلة من داخلي – الـــيد الممـــدودة منّي إليّ في ظلّ غياب أيّ شخص ليقدّم لي العزاء – ذكّـــرتني بما حدث معي مرّة في نيويورك. فقد كنت أمشي مسرعة في مبنًى للمكاتب عصر أحد الأيام قبل أن أندفع إلى أحد المصاعد. وحين دخلته على عجلٍ، وقع نظري على صورتي غير المتوقّعة المنعكسة على المرآة. في تلك اللحظة، بعث دماغي برسالة غريبة سريعة جداً: "هاي! أنت تعرفينها! إنّها صديقتك!" في الواقع، تقدّمت نحو صورتي المنعكسة أمامي تعلو وجهي ابتسامة ودودة، وكنت على وشك الترحيب بتلك الفـــتاة الـــتي نسيت اسمها ولكنّ وجهها بدا مألوفاً جداً. وسرعان ما أدركت خطأي بالطبع، وضحكت محرجة من ارتباكي أمام كيفية عمل المرآة. ولكنّ تلك الحادثة عادت إلى ذهني لسبب ما تلك الليلة في روما في أثـــناء إحساسي بالحزن، ووجدت نفسي أكتب هذه الجملة المريحة على آخر الصفحة:

لا تنسي أبداً أنّك في يوم من الأيام تعرّفت على نفسك كصديقة.

غـــرقت في النوم وأنا أضغط بدفتري على صدري، مفتوحاً عند ذلك التأكيد الأخير. وحين استيقظت في الصباح، كنت لا أزال أشعر بـــرائحة الاكتئاب في الجوّ، إلاّ أنّه لم يكن هو نفسه موجوداً. في وقت ما في أثناء الليل، نهض ورحل، هو وزميلته الوحدة.

19

الغـــريب أنّني أبدو غير قادرة على ممارسة اليوغا منذ وصولي إلى رومــــا. فقد مارستها بجدّية وانتظام لسنوات، حتى إنّني أحضرت معي سجادة اليوغا مرفقة بأفضل النوايا. ولكنّ الأمر لا يحدث هنا ببساطة. أعـــني متى أمارس تمارين اليوغا، قبل فطوري الإيطالي المؤلّف من فطائر الشوكولاته والكابوتشينو المزدوج؟ أم بعد؟ في أيامي الأولى هنا، كنت أفـــرد سجادة اليوغا كلّ صباح، ثمّ أكتفي بالنظر إليها ضاحكة. حتى إنّـــني قلـــت لنفسي يوماً بصوت عالٍ: "حسناً آنسة *بيّني أي كواترو فرومادجي*... لنرَ ماذا لديك اليوم". فشعرت بالخجل وأخفيت سجادة اليوغا داخل الحقيبة (ولم تُفرَد ثانية كما تبيّن إلاّ في الهند). ثمّ خرجت في نـــزهة، وتناولت مثلّجات الفستق، وهو ما يعتبر مقبولاً تماماً لدى الإيطاليين عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً. وبصراحة، أجدني من رأيهم.

إنّ ثقافـــة رومـــا لا تنـــسجم مع ثقافة اليوغا، حسبما أرى. في الواقـــع، لا أجد قاسماً مشتركاً بين روما واليوغا، باستثناء أنّ كلتيهما تذكّرانك بكلمة *توغا*.

20

كـــنت بحاجـــة إلى التعرّف على بعض الأصدقاء. فانكببت على ذلـــك، والآن حـــلّ تشرين الأوّل وأصبح لديَّ مجموعة لطيفة منهم. صـــديقتان تدعـــيان إليـــزابيث في روما الآن، بالإضافة إليّ. كلتاهما أميركيـــتان وكاتبتان. الأولى روائية والثانية تكتب عن الطعام. مع شقّة

في روما ومنـــزل في أومبريا، بالإضافة إلى زوج إيطالي ووظيفة تتطلّب السفر حول إيطاليا وتذوّق الأطعمة والكتابة عنها لمجلّة Gourmet. لا عجـــب بالـــتالي أنّهـــا تعـــرف أفضل المطاعم في روما، بما في ذلك gelateria الذي يقدّم بودينغ الأرزّ المجلّد الرائع. اصطحبتني إلى الغداء مـــنذ يومين، ولم يقتصر طعامنا على لحم الضأن والكمأة والكارباتشو الملفوف حول موس البندق بل بعض اللامباشوني.

بالطـــبع، أصبحت الآن صديقة جوفاني وداريو، هما توأما فانتازيا التـــبادل الثقافي اللغوي. وبرأيي، لطافة جوفاني تجعل منه كنـــزاً وطنياً في إيطالـــيا. جعلـــني أحبّه منذ الليلة الأولى للقائنا، حين انزعجت من عجزي عن إيجاد الكلمات التي أريدها باللغة الإيطالية، فوضع يده على ذراعـــي وقال: "ليز، عليك أن تكوني مهذّبة مع نفسك حين تتعلّمين شـــيئاً جديـــداً". أشعر أحياناً وكأنّه أكبر منّي سنّاً، أمام جبينه الوقور وفلسفته العالية وآرائه السياسية الجدّية. أحبّ محاولةَ إضحاكه، ولكنّه لا يفهم الفكاهات دائماً. فمن الصعب التقاط الفكاهات بلغة ثانية، لا ســـيّما حين تكون شاباً جدّياً مثل جوفاني. قال لي مرّة: "حين تكونين ساخرة، أنا خلفك دوماً. أنا أبطأ. أنت البرق وأنا الرعد".

وقلـــت بـــيني وبين نفسي، *أجل حبيبـــي! وأنت المغناطيس وأنا الفولاذ! اقترب منّي.*

إلاّ أنّه لم يقبّلني بعد.

أمّـــا داريـــو، فلم أكن أراه كثيراً، مع أنّه يمضي وقتاً طويلاً مع صـــوفي. صوفي هي صديقتي المفضّلة في صفّ اللغة، وأيّ شخص مثل داريو سيرغب بقضاء وقته معها بالتأكيد. فهي سويدية في أواخر العقد الـــثاني مـــن عمـــرها، وجمـــيلة إلى حدّ أنّه يمكن تعليقها على صنّارة واســـتعمالها كطعـــم لاصطياد رجال من جميع الجنسيّات والأعمار.

وكانت صوفي قد أخذت إجازة لمدّة أربعة أشهر من وظيفة جيدة في مصرف سويدي، أمام ذهول عائلتها وحيرة زملائها، لمجرّد أنّها رغبت بالمجيء إلى روما وتعلّم اللغة الإيطالية الجميلة. فكنّا أنا وصوفي نجلس كلّ يوم بعد انتهاء الدروس على ضفّة التيبر نتناول المثلّجات وندرس معاً. لا يمكن أن أسمّي ما نفعله دراسة بالضبط في الواقع، بل هو أقرب إلى استمتاع مشترك باللغة الإيطالية، ونعلّم بعضنا دائماً عبارات جديدة. على سبيل المثال، تعلّمنا للتوّ أنّ un'amica stretta تعني *صديقة حميمة*. ولكنّ المعنى الحرفي لكلمة stretta هو *ضيّقة*، كما نصف الملابس، كالتنورة الضيّقة. بالتالي، فإنّ الصديقة الحميمة بالإيطالية يمكن ارتداؤها كالسترة الضيّقة الملتصقة بالجسم، وهذا ما كانت صديقتي السويدية الصغيرة صوفي قد أخذت تصبح بالنسبة إليّ.

أحببت أن أفكّر في البداية في أنّنا، أنا وصوفي، نبدو كالأختين. غير أنّنا في أحد الأيام، استقللنا التاكسي عبر روما، فسألنا السائق ما إذا كانت صوفي ابنتي. في الواقع، صوفي لا تصغرني سوى بسبع سنوات تقريباً. راح عقلي يحلّل ما قاله. (مثلاً، *ربّما كان هذا السائق الإيطالي لا يتحدّث الإيطالية بطلاقة، وكان يعني ما إذا كنّا أختين*). ولكن لا. قال ابنة وكان يعني ابنة. ماذا يمكنني أن أقول؟ فقد عانيت الكثير خلال السنوات الأخيرة، ولا بدّ أنّني أبدو محطّمة ومتقدّمة في السنّ بعد هذا الطلاق. ولكن كما تقول الأغنية القديمة من تراث تكساس: "لقد حطّموني، لاحقوني، ووشموني، ولكنّني ما زلت أقف هنا أمامك...".

تعرّفت أيضاً بزوجين رائعين يدعيان ماريا وجوليو، من خلال صديقتي آن؛ رسّامة أميركية عاشت في روما منذ بضع سنوات. ماريا هي من أميركا وجوليو من جنوب إيطاليا. هو مخرج أفلام وهي تعمل لحساب منظّمة زراعية دولية. هو لا يتحدّث الإنكليزية جيّداً فيما

تتحدّث هي الإيطالية بطلاقة فضلاً عن الفرنسية والصينية. يرغب جوليو بتعلّم الإنكليزية، فسألني ما إذا كان يستطيع التمرّن على المحادثة معي، في تبادل ثقافي آخر. وفي حال كنت تتساءل لِمَ لا يدرس الإنكليزية مع زوجته أميركية المنشأ، فالسبب هو أنّهما متزوّجان ويتشاجران كثيراً كلّما حاول أحدهما تعليم الآخر شيئاً. هكذا، صرت أقابل جوليو وقت الغداء مرّتين في الأسبوع للتمرّن على الإيطالية والإنكليزية، وهي مهمّة جيّدة بالنسبة إلى شخصين لا يملكان ماضياً لإزعاج بعضهما.

يملك جوليو وماريا شقّة جميلة، أبرز ما فيها برأيي هو الجدار الذي كسته ماريا يوماً بشتائم غاضبة موجّهة لجوليو (مخربشة بقلم أسود عريض) وهما يتشاجران و*كان يصرخ بصوت أعلى من صوتي* فأرادت أن تكون لها الكلمة النهائية.

أعتقد بأنّ ماريا مثيرة جداً، وأنّ انفعالها الذي تفجّر بهذا الشكل ليس سوى دليل آخر على ذلك. ولكنّ المثير للاهتمام أنّ جوليو وجد في الخربشة على الجدار دليلاً أكيداً على كبت ماريا، لأنّها كتبت شتائمها بالإيطالية، والإيطالية هي لغتها الثانية، أي أنّها تتطلّب منها التفكير للحظة قبل اختيار كلماتها. وقال لو إنّ ماريا سمحت لغضبها بأن يتغلّب عليها - وهو أمر لا تسمح به أبداً، لأنّها أنغلو - بروتستانتية مخلصة - لكتبت على الجدار بلغتها الأمّ. وبرأيه، إنّ جميع الأميركيين هم كذلك، يعانون من الكبت. وهذا ما يجعلهم خطيرين لا بل ومميتين إن انفجروا.

وشخّص الحالة قائلاً: "إنهم شعب همجيّ".

وما أحببته هو أنّنا أجرينا هذا الحديث نحن الثلاثة خلال عشاء لطيف، ونحن ننظر إلى الجدار نفسه.

سألته ماريا: "هل تريد المزيد من الشراب حبيبـــي؟".

لكـــنّ أحـــدث وأفـــضل صديق لي في إيطاليا هو بالطبع لوكا سـباغيتي. حتى في إيطاليا للمناسبة، من المثير للضحك أن يكون اسم عائلـــتك سـباغيتي. في الواقـــع، أنا ممتنّة للوكا لأنّه جعلني أتعادل مع صديقي براين، الذي كان محظوظاً لأنّه يملك صديقاً يدعى دينيس ها - هـــا، وكان يتفاخر دوماً بأنّ لديه صديقاً يملك الاسم الأروع. أخيراً، أصبحت أنافسه.

يـتحدّث لـوكا الإنكليزية بطلاقة، وهو ذوّاقة (بالإيطالية، una buona forchetta شوكة جيّدة)، وهو بالتالي مرافق عظيم للجائعين أمثالي. وغالباً ما يتصل بـــي في منتصف النهار ليقول: "اسمعي، أنا في الجوار، هل ترغبين بأن نلتقي لاحتساء فنجان من القهوة؟" كنا نمضي وقـــتاً طـــويلاً في تلك المطاعم الصغيرة القذرة في الشوارع الخلفية في روما. فنحن نحبّ المطاعم ذات الأضواء المشعّة والتي لا تحمل أيّ اسم في الخـــارج. طاولاتها مكسوّة بأغطية ذات مربّعات حمراء، تقدّم شراباً مـــصنوعاً في المـــنازل، ومعكرونة مقدّمة بكمّيات لا تصدّق من قبل *قياصـــرة صـــغار* علـــى حدّ قول لوكا؛ هم شباب محلّيون فخورون ولجوجـــون، أيـــديهم مكسوّة بالشعر وشعرهم مسرّح بعناية تسريحة بومـــبادور. قلـــت للـــوكا مرّة: "يبدو لي بأنّ هؤلاء الشباب يعتبرون أنفسهم رومان أوّلاً، إيطاليّين ثانياً، وأوروبيّين ثالثاً". فصحّح لي قائلاً: "بـــل رومان أوّلاً، ورومان ثانياً، ورومان ثالثاً. وكلّ واحد منهم هو إمبراطور".

يعمـــل لوكا محاسباً ضريبياً. والمحاسب الضريـــي *الإيطالي* هو برأيه *فـــنّان*، نظراً لوجود بضع مئات من القوانين الضريبية في إيطاليا وكلّ منها يناقض الآخر. وأعتقد أنّه من المضحك أن يكون محاسباً ضريبياً، لأنّه عمل

جـــافّ جداً بالنسبة إلى شخص خفيف الظلّ مثله. من جهة ثانية، يعتقد لــوكا أنّه من المضحك أن يكون لي وجه آخر – وجه اليوغا – الذي لم يـره أبـداً. فهـو لا يفهم سبب رغبتي بالذهاب إلى الهند – وإلى معتزل تحديداً! – فيما يمكنني البقاء في إيطاليا طيلة العام، وهو المكان الذي أنتمي إلــيه كما يبدو بوضوح. وكلّما رآني أمسح طبقي بقطعة من الخبز ثمّ ألعق أصـــابعي، يقول: "ماذا *ستأكلين* في الهند؟" وكان يدعوني غاندي أحياناً، بنبرة ساخرة جداً، وأنا أفتح زجاجة الشراب الثانية.

ســافر لوكا كثيراً، مع أنّه يدّعي أنّه لا يستطيع العيش في مكان آخر غير روما، قرب أمّه، بما أنّه رجل إيطالي في النهاية؛ ماذا يمكنه أن يقـــول؟ ولكنّ *ماما* ليست هي وحدها سبب تعلّقه بإيطاليا. فهو في أوائل العقـــد الثالث من عمره، ولديه الصديقة نفسها منذ كان مراهقاً (جوليانا الجمـــيلة، التي يصفها لوكا بولع وحنان بأنّها مثل *acqua e sapone الماء والصابون* ببراءتها الحلوة). وجميع أصدقائه هم أنفسهم أصدقاء الطفولة، ومن الجوار نفسه. معاً يشاهدون مباريات كرة القدم كلّ يوم أحد – إمّـــا في الملعب أو في المقهى (إن كان الفريق الروماني يلعب في منطقة بعـــيدة) – ثمّ يـــذهب كلّ منهم إلى البيت الذي نشأ فيه لتناول وجبة عصر الأحد الكبيرة التي تعدّها أمّهاتهم وجدّاتهم.

ولو كنت لوكا، لما غادرت إيطاليا أنا أيضاً.

مـــع ذلـــك، قام لوكا بزيارة أميركا بضع مرّات وأحبّها. وجد نـــيويورك ساحرة ولكنّه يعتقد بأنّ الناس يشقون هناك، وإن كان يقرّ بأنّهم يستمتعون بذلك. فيما يعمل أهل روما بكدّ ويستاؤون من ذلك. أمّا ما لم يعجب لوكا سباغيتي فهو الطعام الأميركي.

كنت مع لوكا في المرّة الأولى التي حاولت فيها تناول أمعاء حمل حـــديث الـــولادة، وهو طبق روماني. وبالنسبة إلى الطعام، تعتبر روما

مديـــنة خشنة، معروفة بأطباقها التقليدية المؤلّفة من الأمعاء والألسن - أي جميع أجزاء الحيوان التي يرميها الأغنياء في الشمال. كان طعم طبقي مقبولاً، ما لم أفكّر في ما آكل. كانت الأمعاء مقدّمة مع صلصة لذيذة دسمة وسميكة كانت رائعة بحدّ ذاتها، ولكنّ الأمعاء كانت في الواقع... معوية الشكل. شبيهة نوعاً ما بالكبد، ولكن أكثر طراوة. وكنت أبلي حسناً، إلى أن بدأت أفكّر في كيفية وصفي لهذا الطبق، وفكّرت في أنّه *لا يبدو مثل الأمعاء، بل مثل الدود الشريطي في الواقع*. عندها أبعدت الطبق وطلبت السلطة.

"ألم يعجبك الطبق؟" سألني لوكا الذي أحبه.

"أراهن بأنّ غاندي لم يذُق أمعاء الحمل في حياته".

"بل ربّما فعل".

"كلا، من غير الممكن، لوكا. فغاندي كان نباتياً".

أصرّ قائلاً: "ولكن بإمكان النباتيين أكل هذا، لأنّ الأمعاء ليست حتى باللحم يا ليز. إنّها مجرّد قذارة".

21

أقرّ بأنّني أتساءل أحياناً ما الذي أفعله هنا.

أتـــيت إلى إيطالـــيا لكي أختبر المتعة، لكنّني شعرت في الأسابيع الأولى مـــن وجـــودي هـــنا بشيء من الذعر حول كيفية فعل ذلك. بصراحة، المتعة الخالصة ليست مثالي الثقافي. فأنا أنتمي إلى صفّ طويل مـــن ذوي الضمائر الحيّة إلى حدٍّ بعيد. أما عائلة أمّي فتنتمي إلى طبقة المـــزارعين السويديين المهاجرين الذين يظهرون في صورهم وكأنّهم لو ســـبقت لهم رؤية شيء ممتع في حياتهم، لداسوا عليه بنعالهم. وكانت

عائلة والدي من البيوريتانيين الإنكليز الذين يحبّون المرح الأحمق. ولو تفحّصتُ شجرة عائلة والدي حتى القرن السابع عشر، لوقعتُ على أقارب بيوريتانيين يُدعَون اجتهاداً وخنوعاً.

والدي نفسهما كانا يملكان مزرعة صغيرة، ونشأنا أنا وشقيقتي على العمل. تعلّمنا أن نعتمد على نفسنا ونتحمّل المسؤولية، وأن نكون الأولين على صفّنا والمربّيتين الأكثر تنظيماً ونجاحاً في البلدة. كنّا نسخة مصغّرة عن أمّنا المزارعة والممرّضة المجتهدة، أشبه بزوج من السكاكين السويسرية الصغيرة متعدّدة الوظائف. كانت حياة عائلتنا مليئة بالمتعة والضحك، ولكنّ جدران المنزل كانت تحفل بلوائح الواجبات اليومية ولم أعرف أبداً معنى الكسل، ولو لمرّة واحدة في حياتي.

مع ذلك، وبشكل عام، يعجز الأميركيون عن الاسترخاء والشعور بالمتعة الخالصة. فنحن أمّة تسعى إلى اللهو، ولكن ليس إلى المتعة بالضرورة. إذ ينفق الأميركيون المليارات سعياً وراء التسلية بكلّ شيء، من الإباحية إلى الحدائق إلى الحروب، ولكنّ الأمر يختلف عن المتعة الهادئة. فهم يعملون بكدّ أكبر ولساعات أطول وأكثر إجهاداً من أيّ شخص آخر في العالم اليوم. ولكن، وكما قال لوكا سباغيتي، يبدو أنّنا نحبّ ذلك. وثمّة إحصاءات مثيرة للقلق تدعم هذه الملاحظة وتُظهر أنّ الأميركيين يشعرون في مكاتبهم بسعادة أكبر من تلك التي تمنحهم إيّاها منازلهم. بالطبع، يتحتّم علينا العمل بجهد كبير، فنشعر بالإرهاق ونمضي عطلة الأسبوع بملابس النوم، نأكل رقاقات الحبوب من العلبة مباشرة، ونحدّق إلى التلفاز وكأنّنا في غيبوبة طفيفة (وهو عكس العمل ولكنّه ليس متعة بالضبط). فالأميركيون لا يعرفون كيف لا يفعلون شيئاً. وهذا سبب النموذج الأميركي الكبير الحزين، المدير التنفيذي المرهق، الذي يذهب في عطلة، ولكنّه لا يستطيع الاسترخاء.

سألت لوكا سباغيتي مرّة إن كان الإيطاليون يعانون من المشكلة نفسها في عطلاتهم. فانفجر ضاحكاً إلى حد أنّه أوشك على صدم درّاجته النارية بنافورة.

قال: "أوه، كلاّ! نحن أساتذة في *il bel far niente*".

جميلة تلك العبارة: *il bel far niente* أي *جمال عدم فعل شيء*. في الواقع، لطالما كان الإيطاليون عمّالاً مجتهدين، لا سيّما أولئك العمّال الذين عانوا لوقت طويل، المعروفون باسم *braccianti* (لأنّهم لم يملكوا سوى قوّة أذرعهم - *braccie* - للعيش في هذا العالم). ولكن حتى في ظلّ هذا الكدّ، بقي *il bel far niente* مثالاً إيطالياً محبوباً. فجمال عدم فعل شيء هو هدف كلّ العمل، الإنجاز النهائي الذي يستحقّ التهنئة. وكلّما تفنّنت وابتهجت من عدم فعل شيء، كلما كانت إنجازات حياتك أكثر سموّاً. وليس من الضروري أن تكون غنياً لتختبر ذلك. فثمّة عبارة إيطالية أخرى رائعة: l'arte d'arrangiarsi، أي: *فنّ صنع شيء من لا شيء*. فنّ تحويل بعض المكوّنات البسيطة إلى وليمة، أو بضعة أصدقاء مجتمعين إلى مهرجان. كلّ من يملك الموهبة أو السعادة يمكنه فعل ذلك، وليس الأغنياء وحسب.

مع ذلك، فإنّ العقبة الأساسية أمام بحثي عن المتعة هو شعوري المتأصّل بالذنب البيوريتاني. هل أستحقّ فعلاً هذه المتعة؟ هذا الإحساس أميركي جداً أيضاً؛ الشعور بعدم الأمان حول ما إذا كنّا نستحقّ سعادتنا. فالإعلانات الأميركية تتمحور كلّياً حول ضرورة إقناع المستهلك المتردّد بأنّه يستحقّ المكافأة. هذا لأجلك! أنت تستحقّ استراحة اليوم! لأنكّ تستحقّها! لقد مشيت طريقاً طويلاً! ويفكّر المستهلك القلق في نفسه: *أجل! شكراً! سأشتري رزمة الستّ قطع اللعنة! وربّما حتى رزمتين!* وهنا يأتي ردّ فعل الإفراط في الاستهلاك،

يتـــبعه الـــندم. غير أنّ هذه الحملات الإعلانية ليست فعّالة في الثقافة الإيطالـــية على الأرجح، لأنّ الناس هناك يعرفون أساساً بأنّ لهم الحقّ بالاســـتمتاع بالحياة. فيجيب الإيطالي عن جملة: *أنت تستحقّ استراحة الـــيوم* كالـــتالي على الأرجح: *أجل، أعرف ذلك. لهذا أخطّط لأخذ استراحة عند الظهر والذهاب إلى بيتك والنوم مع زوجتك.*

وربّمـــا لهذا السبب، حين أخبرت أصدقائي الإيطاليين أنّني أتيت إلى بلادهم لعيش أربعة أشهر من المتعة الخالصة، لم يعارضوني بل قالوا: Complimenti! Vai avanti! هانيـــنا! هيّا، استمتعي. كوني ضيفتنا. ولكنّ أحداً منهم لم يقل: "كم أنت غير مسؤولة" أو "يا لهذا التبذير". ولكن فيما أعطاني الإيطاليون الإذن التامّ للاستمتاع، كنت لا أزال غير قـــادرة علـــى الاسترخاء. خلال الأسابيع الأولى من إقامتي في إيطاليا، كانـــت جميع نقاط الاشتباك العصبية البروتستانتية لديَّ تئزّ بأسى، بحثاً عن عمل. أردت التعامل مع المتعة وكأنّها واجب منـــزلي أو مشروع لمعـــرض علمي هائل. ورحت أتساءل: *كيف يمكن تفسير المتعة بمعناها الأوســـع على النحو الأكثر فاعلية*؟ وتساءلت ما إذا كان يجدر بـــي قـــضاء وقتي كلّه في إيطاليا في المكتبة، للقيام بأبحاث حول تاريخ المتعة. أو ربّمـــا كـــان يجدر بـــي مقابلة إيطاليين عاشوا كثيراً من المتعة في حـــياقم وسؤالهم كيف كان ذلك، ومن ثمّ كتابة مقال عن الموضوع. (وربّمـــا مـــع مـــسافة مزدوجة بين السطور وسنتمترين ونصف من الهوامش، يطالعه القارئ صباح يوم الاثنين).

حين أدركت أنّ السؤال الوحيد المتوفّر هو: *كيف أعرّف* المتعة؟ وأنّـــني في بلـــد لن يمانع شعبه بأن أبحث عن الإجابة بحريّة، تبدّل كلّ شيء. أصبح كلّ شيء... لذيذاً. كان عليَّ أن أسأل نفسي كلّ يوم، لأوّل مرّة في حياتي: *لِمَ تريدين الاستمتاع اليوم، ليز؟ ما الذي سيجلب*

لك المتعة *الآن*؟ ومن دون التفكير بجداول أشخاص آخرين أو بواجبات أخرى ينبغي القيام بها، أصبح هذا السؤال مركّزاً ومحدّداً.

كـــان مـــن المثير للاهتمام أن أكتشف ما لم أرغب بالقيام به في إيطاليا، ما إن منحت نفسي السلطة التنفيذية للاستمتاع هناك. فمظاهر المـــتعة كثيرة في إيطاليا، ولم يكن الوقت يسمح بتجربتها جميعاً. عليك أن تعـــتمد مجـــالاً معيّناً وإلاّ شعرت بالضياع. لذا، لم أتعاط الموضة أو الأوبـــرا أو السينما أو السيارات الجميلة أو التزلّج على جبال الألب. حـــتى إنّني لم أرغب باستكشاف هذا القدر من الفنّ. ومع أنّني أخجل من الاعتراف بذلك، إلاّ أنّني لم أزر متحفاً واحداً خلال الأشهر الأربعة مـــن إقـــامتي في إيطاليا. (والأسوأ من ذلك، أعترف أنّني زرت متحفاً واحداً: المتحف الوطني للمعكرونة، في روما). وجدت أنّ كلّ ما أردته فعـــلاً هو تناول طعام لذيذ وتحدّث الإيطالية بأجمل شكل ممكن. هذا كـــلّ شـــيء. فاعـــتمدت مجالاً مزدوجاً، حقاً؛ التحدّث والأكل (مع التركيز على المثلّجات).

جلـــب لي الطعام والكلام متعة تفوق الوصف، مع أنّها في غاية البساطة. أمضيت بضع ساعات في منتصف تشرين الأوّل قد لا تكون بذات أهمية بالنسبة إلى الآخرين، ولكنّني سأعتبرها دوماً من بين أسعد اللحظات في حياتي. فقد عثرت على متجر قرب شقّتي، على بعد عدة شـــوارع، لم يـــسبق لي أن لاحظته من قبل. دنوت من كشك صغير للخضار لامرأة إيطالية وابنها يبيعان فيه بضائع من إنتاجهما، كأوراق الـــسبانخ الغنية وشديدة الخضرة والطماطم الحمراء بلون الدم والعنب عسلي اللون ذي القشرة المشدودة مثل ثوب الراقصات.

اختـــرت باقة من الهليون الرقيق الزاهي. وكنت قادرة على أن أسأل المرأة بالإيطالية ومن دون صعوبة ما إذا كان بإمكاني شراء نصف باقة. لم

يكـــن ثمّة شخص آخر غيري، ولا أحتاج إلى كل هذه الكمية. فسارعت إلى أخـــذ باقة وقسمتها قسمين. ثمّ سألتها ما إذا كانت تتواجد في المكان نفسه كلّ يوم، وقالت أجل، هي هنا كلّ يوم، من الساعة السابعة صباحاً. فنظـــر إليّ ابنها بخبث وقال: "في الواقع، تحاول أن تكون هنا عند الساعة السابعة..." فضحكنا جميعاً. كلّ الحديث تمّ بالإيطالية التي لم أكن أستطيع قـــول كلمـــة واحدة منها منذ عدّة أشهر. مشيت إلى المنـــزل، وسلقت بيـــضتين طازجتين لوجبة الغداء. قشرت البيضتين ورتّبتهما في الطبق مع ســـويقات الهليون السّبع، التي كانت رقيقة وغضّة بحيث لا تحتاج إلى طبخ علـــى الإطلاق. أضفت إلى الطبق بعض حبّات من الزيتون وأربع قطع من جبن الماعز الذي اشتريته في الليلة الفائتة من محلّ الأجبان في آخر الشارع، وشـــريحتين من السلمون الدهني ورديّ اللون. أمّا التحلية، فكانت عبارة عـــن حـــبّة درّاق أعطـــتني إيّاها المرأة مجّاناً وكانت لا تزال دافئة من أثر الـــشمس الرومانية. بقيت لفترة عاجزة عن لمس الطبق لأنّه بدا رائعاً، كان تعـــبيراً حقيقـــياً عن فنّ صنع شيء من لا شيء. أخيراً حين تشرّبت تماماً جمـــال وجبتي، ذهبت للجلوس في بقعة مشمسة من أرض الشقّة الخشبية النظـــيفة وأكلـــت طعام غدائي حتى آخر لقمة، بأصابعي، وأنا أقرأ مقالي اليومي بالإيطالية. سكنت السعادة كلّ ذرّة من جسدي.

إلى أن - كما حدث غالباً خلال تلك الأشهر الأولى من سفري، كلّمـــا شعرت بتلك السعادة - تحرّك فيّ الشعور بالذنب. فراح صوت زوجي السابق يتردّد في أذني وهو يتحدّث معي بازدراء قائلاً: *إذاً هذا مـــا تـــركت كلّ شيء لأجله؟ لهذا أفسدت حياتنا معاً؟ لأجل بضع سويقات من الهليون وصحيفة إيطالية؟*

فأجبته بصوت عالٍ. "أوّلاً: أنا آسفة جداً، ولكنّ هذا لم يعد من شأنك. ثانياً: وللإجابة عن سؤالك... *أجل*".

22

ثمّـــة موضوع بديهي ينبغي التطرّق إليه في إطار بحثي عن المتعة في إيطاليا: *ماذا عن الجنس؟*

للإجابة عن هذا السؤال ببساطة: لا أريد أياً منه وأنا هنا.

وللإجابـــة عـــنه بعمق وصراحة أكبر: بالطبع أشعر أحياناً بحاجة يائـــسة إلى وجـــود شخص في حياتي، ولكنّني قررت وضع هذه اللعبة جانـــباً لفترة. لا أريد التورّط بعلاقة مع أحد. بالطبع أفتقد إلى شخص يقبّلني لأنّني أحبّ التقبيل. فأنا أتذمّر من ذلك كثيراً أمام صوفي إلى حدّ أنّها قالت لي مرّة بسخط: "حبّاً بالله ليز، إن تأزّمت الأمور كثيراً، فأنا سأقبّلك". ولكنّني لن أقوم بشيء حيال ذلك في الوقت الحاضر. وحين أشـــعر بالوحدة هذه الأيام أقول لنفسي: *كوني وحيدة ليز، تعرّفي إلى طريقك في الوحدة. ضعي لها خريطة. جالسيها لمرّة واحدة في حياتك. عيـــشي هذه التجربة الإنسانية ولكن لا تستعملي أبداً جسد أو مشاعر شخص آخر كلوح تعلّقين عليه احتياجاتك.*

كان هذا نوعاً ما سياسة إنقاذية طارئة، أكثر من أيّ شيء آخر. فقد بدأت أسعى وراء المتعة... والرومانسية في وقت مبكر من حياتي. بالكاد عشت مراهقة قبل صديقي الأوّل، وكان لديَّ على الدوام رجل أو صديق (أو أحياناً الاثنان معاً) في حياتي منذ كنت في الخامسة عشرة مـــن عمري. كان هذا - أوه، لنر - منذ حوالى تسعة عشر عاماً. أي بقيت لعقدين من الزمن تقريباً أعيش نوعاً من الدراما مع شابّ ما. كـــلّ منهم يتلو الآخر من دون استراحة بينهم ولو لأسبوع واحد. ولم أســـتطع إلاّ أن أفكّر في أنّ هذا النمط من الحياة كان عائقاً في طريق نضجي.

بالإضافة إلى ذلك، أنا أعاني من مشكلة الحدود مع الرجال. ربّما ليس من العدل قول ذلك. فكَي يعاني المرء من مشاكل مع الحدود، يجب أن يكون ثمّة حدود في الأساس، أليس كذلك؟ أمّا أنا فأختفي في الشخص الذي أحبّه. أنا غشاء نفيذ، إن أحببتك، تحصل على كلّ شيء. تحصل على وقتي وإخلاصي ومالي وعائلتي وكلبي ومال كلبي ووقت كلبي تحصل على كلّ شيء. إن أحببتك، أحمل عنك كلّ عذابك، وأتحمّل ديونك (بكلّ ما للكلمة من معنى)، أعطيك الحماية من مخاوفك، وأسقط عليك جميع أشكال المزايا الحسنة التي لم يسبق لك أن غذّيتها فعلاً في نفسك، وأشتري هدايا لك ولعائلتك بأكملها. أعطيك الشمس والمطر، وإن لم يكونا متوفرين، أعطيك شيك شمس وشيك مطر. أعطيك كلّ هذا وأكثر، إلى أن أصبح منهكة ومستنفدة إلى حدّ أنّ الطريقة الوحيدة لاستعادة طاقتي هي بأن أتيّم بشخص آخر.

في الواقع، أنا لا أروي هذه الحقائق عن نفسي بفخر، لكن هذا ما كنت عليه دوماً.

فبعدما تركت زوجي بفترة، ذهبت إلى إحدى الحفلات، وهناك التقيت بشابّ بالكاد أعرفه قال لي: "أتدرين، أنت تبدين شخصاً مختلفاً تماماً مع صديقك الجديد. كنت تبدين مثل زوجك، أمّا الآن فأنت مثل ديفيد. حتى إنّك تلبسين مثله وتتحدّثين مثله. أتعرفين كيف يبدو الناس مثل كلابهم؟ أعتقد بأنّك تبدين مثل رجالك".

يمكنني إذاً أخذ استراحة من هذه الدوّامة وإعطاء نفسي بعض المجال لأكتشف كيف أبدو وأتحدّث وأنا لا أحاول الاندماج مع أحد. أيضاً، لأكون صادقة، فإنّني أقدّم خدمة عامّة سخيّة إن تركت الحميمية لفترة من الزمن. فحين أراجع سجلّي الرومانسي، لا يبدو جيّداً في

الواقـــع. كان عبارة عن كارثة تلو الأخرى. إلى متى سأستمرّ بمحاولة حـــبّ أنواع مختلفة من الرجال والفشل في ذلك؟ فلننظر إلى الأمر من الـــزاوية التالية، إن تعرّضتَ لعشرة حوادث سير خطيرة متلاحقة، ألن تُسحب منك رخصة السير؟ ألن ترغب لو يحدث ذلك؟

ثمّـــة سبب أخير لتردّدي في التورّط مع شخص آخر. فأنا لا أزال مغرمة بديفيد، ولا أعتقد أنّ هذا عادل في حقّ الشابّ التالي. حتى إنّني لا أعرف ما إذا كنّا قد انفصلنا نهائياً أنا وديفيد. كنّا لا نزال قريبين من بعـــضنا كـــثيراً قبل أن أغادر إلى إيطاليا، مع أنّنا لم ننم معاً منذ مدّة طويلة. غير أنّه كانت لدينا آمال أنّنا ربّما يوماً ما...

لا أدري.

هذا ما أعرفه؛ أنا مرهقة من العواقب المتراكمة للخيارات المتهوّرة والأهواء الفوضوية التي سادت حياتي. وحين سافرت إلى إيطاليا، كان جـــسدي وروحـــي مستنـــزفين. شعرت وكأنّني تربة مزارع يائس، أجهـــدها فـــرط الاســـتغلال وتحتاج إلى موسم راحة. لهذا السبب، غادرت.

صـــدقاً، أنـــا أدرك مدى سخرية الذهاب إلى إيطاليا سعياً وراء المـــتعة، في فترة عزوبة مفروضة ذاتياً، ولكنّني أعتقد فعلاً بأنّ الامتناع عن التورّط في علاقات عاطفية في الوقت الحالي هو ما يناسبني. وكنت واثقـــة مـــن ذلك الليلة التي سمعت فيها جارتي في الطابق العلوي (فتاة إيطالية جميلة جداً تملك مجموعة رائعة من الأحذية عالية الكعبين) تمارس الحبّ برفقة زائر محظوظ لشقّتها.

بالطبع، تغلبني الرغبة في بعض الأحيان. فأنا ألتقي كلّ يوم بكثير مـــن الرجال الإيطاليين الذين يمكنني تخيّلهم في سريري. وبرأيي، رجال روما وسيمون على نحو مضحك، مؤلم، وأحمق. حتى إنّهم أكثر جمالاً

مــن النــساء الرومانيات، بصراحة. فالرجال الإيطاليون جميلون مثل النساء الفرنسيات، أي أنّه لا ينقصهم أيّ تفصيل ليكونوا كاملين. وفي بعض الأحيان أجدهم جميلين إلى حدّ أنّني أرغب بالتصفيق. الرجال هنا يدفعــونني بجمالهم إلى استحضار عبارات الروايات العاطفية لوصفهم. فهم *يتمتّعون بجاذبية قاتلة* أو *بعضلات هائلة*.

مــع ذلــك، أقــرّ بأمر ليس فيه إطراء كبير لي، وهو أنّ هؤلاء الــرومان الذين ألتقي بهم في الشارع لا يعيرونني انتباهاً كبيراً، أو حتى أيّ انتــباه أحياناً. وقد وجدت الأمر مثيراً للقلق في البداية. فقد زرت إيطالــيا مــن قبل حين كنت في التاسعة عشرة، وأذكر أنّني تعرّضت للتحــرّش المــستمر مــن الرجال في الشارع، وفي مطاعم البيتزا، وفي الــسينما و... كــان ذلك متواصلاً وفظيعاً. أمّا الآن، في سنّ الرابعة والــثلاثين، أصبحت غير مرئيّة على ما يبدو. بالطبع، يحدث أحياناً أن يقــول لي رجل بطريقة ودودة: "تبدين جميلة اليوم، سينيوريتا"، ولكن ليس غالباً، ولم يتّخذ ذلك أبداً شكلاً عدوانياً. ومع أنّه من غير اللطيف التعــرّض لمهاجمة غريب مثير للتقزّز في الباص، إلاّ أنّه لا يمكن تجاهل الغــرور الأنثوي، ما يدفع إلى التساؤل: *ما الذي تغيّر هنا؟ أهو أنا؟ أم هم؟*

فسألت، واتّفق الجميع على أنّ تحوّلاً حقيقياً قد حدث في إيطاليا في الــسنوات الخمس عشرة الأخيرة. ربّما كان السبب انتصار قضية حــريّة المــرأة، أو الــتطوّر الثقافي، أو الآثار التحديثية الحتمية لعملية الانــضمام إلى الاتحــاد الأوروبــــي. أو ربّما كان السبب ببساطة الإحــراج الذي يشعر به الشباب أمام الفسق الذي ساد أخلاق آبائهم وأجــدادهم. مهمــا كان السبب، يبدو أنّ المجتمع الإيطالي قد قرّر أنّ الــسلوك القــائم علــى ملاحقة ومضايقة النساء لم يعد مقبولاً. حتى

صـــديقتي الجميلة الشابة صوفي لا تتعرّض للتحرّش في الشوارع، علماً بــأنّ الفتــيات السويديات، ببشرتهنّ البيضاء بلون الحليب، كنّ ينلن القسط الأسوأ من تلك المضايقات.

باختــصار، يبدو أنّ الرجال الإيطاليين يستحقّون جائزة الشعب الأكثر تحسّناً.

هــذا مــا أشــعرني بالارتياح، لأنّني خشيت لفترة أن أكون أنا السبب. أعني خشيت ألاّ أحظى بالاهتمام لأنّني لم أعد في سن التاسعة عــشرة ولم أعد جميلة. وخشيت أن يكون صديقي سكوت على حقّ حــين قــال لي في الصيف الماضي: "آه، لا تقلقي ليز، هؤلاء الرجال الإيطاليون لن يسبّبوا لك الإزعاج بعد اليوم. فهم ليسوا كالفرنسيين، الذين يحبّون التحرّش بالنساء المتقدّمات في السنّ".

23

عــصرَ يوم أمس، ذهبت مع لوكا سباغيتي ورفاقه لمشاهدة مباراة لكــرة القدم. كنّا ذاهبين لحضور مباراة فريق لاتسيو. ففي روما فريقا كرة قدم، لاتسيو وروما. والمنافسة بين الاثنين حامية إلى حدّ أنّها تحوّل العــائلات السعيدة والأحياء المسالمة إلى ساحات حروب أهلية. ومن الأهمــية بمكان أن تختار منذ الصغر ما إذا كنت من مشجّعي لاتسيو أم رومــا، لأنّ لهذا الخيار دوراً كبيراً في تحديد الأشخاص الذين ستمضي معهم عصر كلّ يوم أحد لبقية حياتك.

لدى لوكا مجموعة مؤلّفة من عشرة أصدقاء تقريباً، يحبّون بعضهم كالأخوة. باستثناء أنّ نصفهم من مشجّعي لاتسيو ونصفهم الآخر من مشجعي روما. ولا يستطيعون فعل شيء حيال ذلك، فجميعهم ولدوا

في عائلات حدّدت انتماءها مسبقاً. جدّ لوكا (وأظنّه يُعرَف باسم نونّو سباغيتي) أهداه أوّل قميص له من قمصان فريق لاتسيو زرقاء اللون حين كان لا يزال طفلاً يحبو. وهكذا، سيكون لوكا من مشجّعي لاتسيو لبقية حياته.

قال لي مرّة: "يمكننا تغيير زوجاتنا، وظائفنا، جنسياتنا، ولكنّنا لا نستطيع أبداً تغيير فريقنا".

وللمناسبة، كلمة مشجّع تعني بالإيطالية *tifoso*. وهي مشتقّة من كلمة تيفوس. بتعبير آخر، شخص محموم إلى حدّ بالغ.

أوّل مباراة كرة قدم شاهدتها مع لوكا سباغيتي كانت عبارة عن وليمة حافلة بالعبارات الإيطالية المهتاجة. تعلّمت في ذاك المدرج كلمات جديدة ومثيرة للاهتمام لا يعلّمونها في المدرسة. كان ثمة رجل كبير في السنّ يجلس خلفي وينسّق مجموعة مختارة من الشتائم وهو يصرخ على اللاعبين في الملعب. وبما أنّني لا أعرف الكثير عن كرة القدم، لم أُضِع الوقت في طرح الأسئلة التافهة على لوكا حول ما يجري في الملعب. بل كنت أسأله: "لوكا، ماذا قال الرجل الجالس خلفي للتوّ؟ ما معنى cafone؟" ومن دون أن يحوّل عينيه عن الملعب، كان يجيب: "أحمق. تعني أحمق".

فأكتبها. ثمّ أغلق عينيّ وأستمع إلى المزيد من عبارات العجوز الصاخبة، التي استمرّت بالتدفّق على النحو التالي:

Dai, dai, dai, Albertini, dai... va bene, va bene, ragazzo mio, perfetto, bravo, bravo ... Dai! Dai! Via! Via! Nella porta! Eccola, eccola, eccola, mio bravo ragazzo, caro mio, eccola, eccola, ecco-AHHHHHHHHHH!!! VAFFANCULO!!! FIGLIO DI MIGNOTTA!! STRONZO! CAFONE!

TRADITORE! Madonna... Ah, Dio mio, perché, perché, questo è stupido, è una vergogna, la vergogna... Che casino, che bordello... NON HAI UN CUORE, ALBERTINI! FAI FINTA! Guarda, non è successo niente... Dai, dai, ah... molto migliore, Albertini, molto migliore, sì, sì, sì, eccola, bello, bravo, anima mia, ah, ottimo, eccola adesso... nella porta, nella porta, nell - VAFFANCULO!!!!!!

وأحاول ترجمتها كما يلي:

هيّا، هيّا، هيّا، ألبيرتيني، هيّا... أجل، أجل ولدي، ممتاز، رائع، رائع... هيّا! هيّا! تقدّم! تقدّم! في المرمى! ها أنت، ها أنت، ها أنت، يا ولدي الرائع، عزيزي، ها أنت، ها أنت، ها... آآآآآآآه! تبّاً لك! نذل! أحمق! خائن!... يا الله، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ هذه حماقة، هذا مخزٍ، يا للعار... ما هذه الفوضى؟... (ملاحظة الكاتبة: لسوء الحظّ، ما من ترجمة دقيقة للتعبيرين الإيطاليين، اللذين يعنيان حرفياً: يا له من كازينو ويا له من بيت هوى، إلّا أنّ المعنى الأساسي هو يا لها من فوضى)... أنت بلا قلب، ألبيرتيني!!!! أنت دجّال! انظر، لم يحدث شيء... هيّا، هيّا، صه، نعم... هذا أفضل بكثير، ألبيرتيني، أفضل بكثير، أجل أجل أجل، ها أنت ذا، جميل، رائع، آه، ممتاز، ها أنت ذا الآن... في المرمى، في المرمى، في... تبّاً لك!!!

آه، كان من حظّي أنّني جلست أمام ذاك الرجل تماماً. أحببت كلّ درّة خرجت من فمه. أردت لو ألقي برأسي على ركبتيه العجوزتين وأدعه يصبّ شتائمه في أذني إلى الأبد. ولكن لم يكن هو الوحيد الذي تفوّه بالشتائم! كان المدرج مليئاً بهذا النوع من

المناجاة. وبحماسة عالية جداً. فكلّما وقع ظلم خطير على أرض الملعب، يهبّ المدرج بأكمله على قدميه، ويأخذ كلّ واحد منهم بالتلويح بذراعيه غاضباً وهو يشتم، وكأنّ العشرين ألف مشجّع دخلوا جميعاً في عراك في زحمة السير. ولم يكن لاعبو فريق لاتسيو أقلّ مأساوية من مشجّعيهم، إذ كانوا يتدحرجون على الأرض بألم وكأنّهم يمثّلون مشاهد موت في فيلم *يوليوس قيصر*، يلعبون في الصفّ الأخير تماماً، ثمّ يقفزون على أقدامهم بعد ثانيتين ليقودوا هجوماً آخر على المرمى.

مع ذلك، خسر اللاتسيو.

كان لوكا سباغيتي بحاجة إلى الترويح عن نفسه بعد المباراة، فسأل رفاقه: "هل نخرج؟".

افترضت أنّ هذا يعني: "هل نخرج إلى المشرب؟" فهذا ما يفعله هواة الرياضة في أميركا حين يخسر فريقهم. يذهبون إلى المشرب للترويح عن أنفسهم. ليس الأميركيون وحدهم هم من يفعلون ذلك. بل الإنكليز أيضاً، والأستراليون والألمان... الجميع، أليس كذلك؟ ولكنّ لوكا ورفاقه لم يقصدوا المشرب للترويح عن أنفسهم، بل ذهبوا إلى فرن. فرن صغير قابع في الطابق السفلي لمبنًى في أحد أحياء روما. كان المكان مكتظاً بالناس ليلة الأحد تلك. وهو يزدحم بالناس دوماً بعد المباريات. فمشجعو اللاتسيو يتوقّفون فيه دوماً في طريقهم من الملعب إلى بيوتهم ليقفوا في الشارع لساعات، حيث يتّكئون على دراجاتهم النارية ويتحدّثون عن المباراة، وهم يأكلون فطائر القشدة.

كم أحبّ إيطاليا.

24

كـــنت أتعلّم حوالى عشرين كلمة إيطالية جديدة كلّ يوم. كنت أدرس باستمرار، أقلّب بطاقات الملاحظات وأنا أسير في أرجاء المدينة، أتفـــادى الارتطام بالمشاة. لا أدري أين كنت أجد مكاناً لتخزين هذه الكلمـــات في دماغي. آمل أن يكون ذهني قد قرّر التخلّص من بعض الأفكار السلبية القديمة واستبدالها بهذه الكلمات الجديدة المشرقة. كنت أعمل بجدّ على اللغة الإيطالية، ولكنّني بقيت آمل أن تتجلّى لي يوماً ما كاملة، أن أفتح فمي يوماً ما، وأتحدّثها بطلاقة بشكل سحري. عندها أكـــون فـــتاة إيطالية حقيقية عوضاً عن كوني أميركية كاملة ما زالت تعجز عن سماع شخص ينادي صديقه ماركو عبر الشارع من دون أن تـــرغب غريزياً بالصراخ له: "*بولو!*" أتمنّى لو أنّ الإيطالية تسكن معي ببساطة، إلاّ أنّها تحتوي على كثير من الأفخاخ. على سبيل المثال، لماذا توجد كلمات إيطالية متشابهة جداً مثل albero وalbergo؟ ما يجعلني أكـــرّر للـــناس دومـــاً بأنّني نشأت في *مزرعة فندق ميلاد* عوضاً عن الوصـــف الأكثـــر دقّة والأقل سريالية *مزرعة شجرة ميلاد*. وثمّة أيضاً كلمـــات ذات معنيين أو حتى ثلاثة. مثلاً: *tasso* تعني معدّل فائدة، أو حـــيوان الغُرَيـــر، أو شـــجرة الطقّوس وذلك حسب السياق. غير أنّ الأكثر إحباطاً بالنسبة إليّ هو حين أتلعثم بكلمات بشعة في الواقع، مع أنّني أكره قول ذلك، وأعتبر الأمر شخصياً. أنا آسفة في الواقع، ولكنّني لم أقطـــع كـــلّ هذه المسافة إلى إيطاليا لأتعلّم كيف أقول كلمة مثل *schermo* (شاشة).

علـــى الـــرغم من ذلك، كان الأمر يستحقّ التعب. فقد كان في معظمه عبارة عن متعة خالصة. كنّا نمضي أنا وجوفاني وقتاً رائعاً يعلّم

أحدُنا الآخر لغته الخاصة بتبادل عبارات إنكليزية وإيطالية. كنّا نتحدّث في إحـــدى الأمسيات عن التعابير التي تقال عند مواساة شخص يمرّ في محـــنة. أخـــبرته بأنّنا نقول أحياناً بالإنكليزية *لقد كنت هناك*. لم يفهم العبارة في البداية: *كنتُ أين؟* فشرحت له بأنّ الحزن العميق يشبه أحياناً مـــوقعاً معيّناً، على خريطة زمنية. وحين تقف في غابة الحزن تلك، لا يمكـــنك أن تتخيّل بأنّك تستطيع إيجاد الطريق إلى مكان أفضل. ولكن إن أكّـــد لـــك شخص آخر بأنّه وقف في المكان نفسه وأنّه تمكّن من الخروج منه، تشعر بشيء من الأمل أحياناً.

فسألني جوفاني: "إذاً الحزن هو مكان؟".

"يعيش الناس فيه لسنوات أحياناً".

بالمقابـــل، أخبرني جوفاني بأنّ الإيطاليين يقولون l'ho provato sulla mia pelle، أي: *اختبرت ذلك على جلدي*. ما يعني أنّني حُرقت أو لُدغت بهذه الطريقة وأنني أعرف تماماً ما تمرّ به.

غير أنّ أكثر كلمة أحببتها بالإيطالية هي كلمة بسيطة وشائعة جداً: Attraversiamo.

وتعـــني *لنعبر الشارع*. يقول الأصدقاء هذه الكلمة لبعضهم على الدوام وهم يمشون على الرصيف حين يقرّرون عبور الشارع إلى الجهة المقابلـــة. وهـــي بالتالي كلمة مخصّصة للمشاة، لا شيء مميّز فيها. مع ذلك، ولسبب ما، دخلت قلبـــي. حين قالها لي جوفاني للمرّة الأولى، كـــنّا نسير قرب الكولوسيوم. فجأة سمعته يقول كلمة جميلة، فتوقّفت جامدة وسألته: "ما معنى ذلك؟ ماذا قلت للتوّ؟".

"*Attraversiamo*".

لم يفهم لِمَ أعجبتني إلى هذا الحدّ. *لنعبر الشارع*؟ إلاّ أنّها كانت بالنسبة إليّ تشتمل على مزيج رائع للأصوات الإيطالية. *الآه* الحزينة في

البداية، الحروف الساكنة المتدحرجة، *السين* الملطّفة والجزء الأخير المتباطئ *إي – اه – موه*. أحببت هذه الكلمة، وصرت أردّدها طيلة الوقت. كنت أبحث عن أيّ عذر لقولها، ما أثار جنون صوفي. *فلنعبر الشارع! فلنعبر الشارع!* كنت أجرّها طيلة الوقت ذهاباً وإياباً عبر زحمة السير الجنونية في روما. وإن استمررت على هذا المنوال، فسنقتل كلتانا بهذه الكلمة.

أمّا الكلمة الإنكليزية المفضّلة لدى جوفاني فهي half-assed، أي: *أحمق*.

وكلمة لوكا سباغيتي المفضّلة هي surrender، أي: *استسلام*.

25

ثمّة صراع قوّة دائر في أوروبا هذه الأيام. فبعض المدن تتبارى على مرتبة أعظم عاصمة أوروبية للقرن الحادي والعشرين. هل ستكون لندن؟ باريس؟ برلين؟ زوريخ؟ ربّما بروكسل، مركز اتحاد الشباب؟ جميعها تكافح لتتفوّق على الأخرى ثقافياً، هندسياً، سياسياً، ضريبياً. ولكن يجب القول إنّ روما لم تحمّل نفسها عناء المشاركة في السباق. فروما لا تتنافس مع أحد. روما تتفرّج على الهرج والمرج من دون أيّ تأثّر، وكأنّها تقول: *مهما فعلتم، أبقى أنا روما*. أنا مستوحاة من عنفوان هذه المدينة شديدة القدم والجمال، المليئة بالمرح والآثار، والتي تعرف بأنّ التاريخ يحتضنها بأمان بين كفّيه. أودّ لو أكون مثل روما حين أصبح امرأة عجوزاً.

خرجت اليوم في جولة على الأقدام امتدّت لستّ ساعات عبر شوارع المدينة. من السهل القيام بذلك، لا سيّما إن كنت تتوقّف غالباً

لتزوّد نفسك بالإسبرسّو والمعجّنات. بدأت من باب شقّتي ثمّ تحوّلت في مركـــز التسوّق الكوزموبوليتاني الكائن في الجوار. (مع أنّني لا أستطيع أنّ أسمّـــيه جواراً بالمعنى التقليدي للكلمة، وإلاّ لكان جيراني أشخاصاً عاديّين يحملون أسماء مثل فالينتينو، وغوتشي، وأرماني). لطالما كان هذا الحـــيّ راقـــياً في الواقع. ذلك أنّ روبنـــز وتينيسون وستندال وبالزاك وليزت وفاغنر وثاكيراي وبيرون وكيتس، كلّهم أقاموا هنا. فأنا أعيش في حيّ كان يطلق عليه اسم *الحيّ الإنكليزي*، توقّف فيه الأرستقراطيون في جولاتهم عبر أوروبا.

تـــوجّهت إلى بياتسا ديل بولو، بقنطرتها الكبيرة التي نحتها بيرنيني علـــى شرف الزيارة التاريخية لملكة السويد كريستينا (التي كانت حقاً قنـــبلة تاريخية. إذ تصف صديقتي السويدية صوفي الملكة العظيمة على الشكل التالي: "تتقن ركوب الخيل، والصيد، كانت طالبة، وأصبحت كاثوليكـــية وأحـــدث ذلك فضيحة كبرى. يقول بعضهم إنّها كانت رجلاً، غير أنّها على الأقلّ شاذّة على الأرجح. كانت ترتدي السراويل وتخرج في بعثات تنقيب عن الآثار. وقد جمعت القطع الفنية، ورفضت إنجـــاب وريـــث"). بالقرب من القنطرة تقع كنيسة يمكن زيارتها مجّاناً ورؤيـــة لوحـــتين بريشة كارافادجو. واللوحتان تبعثان في نفسي دوماً الرغبة في البكاء، ولكنّني أعيد إليها البهجة بالانتقال إلى الجهة الأخرى من الكنيسة لأمتّع نظري بلوحة أخرى.

توجّهت جنوباً من جديد. قطعت بالاتسو بورغيزي، الذي عرف العديـــد من النـــزلاء المشهورين، بمن فيهم بولين، شقيقة نابوليون التي كانت حياتها حافلة بالفضائح، والتي التقت بعدد لا يحصى من عشّاقها فـــيها. كما أنّها كانت تحبّ استعمال خادماتها كمسند للقدمين. (في الواقـــع، يأمـــل المرء دوماً بأن يكون قد قرأ هذه الجملة خطأً في دليل

رومـــا السياحي، ولكن لا، الأمر صحيح. كما كانت بولين تحبّ أن تُحمَل إلى حمّامها، بين ذراعي *زنجيّ عملاق*، كما قيل لنا). ثمّ تمشّيت على ضفّتي نهر التيبر العظيم قرويّ الطابع وصولاً إلى جزيرة التيبر، وهي من الأماكن الهادئة المفضّلة لديَّ في روما. إذ لطالما اقترنت هذه الجزيرة بالـــشفاء. فقد شُيّد فيها معبد لإسكولابيوس بعد انتشار الطاعون عام 291 ق.م؛ وفي العـــصور الوســـطى، تم بـــناء مستشفىً فيها من قبل مجموعة من النسّاك يدعون Fatebenefratelli (وهي كلمة تترجم على النحو التالي: *الأخوة فَعَلة الخير*)؛ وثمّة مستشفى على الجزيرة حتى اليوم.

عـــبرت النهر إلى تراستافيري؛ المكان الذي يقطنه حسبما يُزعم الـــرومان الحقيقيون، العمّال، الذين بنوا على مرّ العصور الأبنية الأثرية على الضفّة الأخرى من التيبر. تناولت غدائي في تراتوريا هادئة هناك، وتمهّلت في الطعام والشراب لساعات لأنّ أحداً في تراستافيري لا يمنعك مـــن الـــتمهّل في تناول وجبتك لو رغبت بذلك. طلبت تشكيلة من البروشيتّي، وقطعة صغيرة من الدجاج المشوي، الذي تقاسمته في النهاية مـــع الكلـــب المتشرّد الذي كان يراقبني وأنا أتناول طعامي بطريقة لا يفعلها سوى كلب متشرّد.

عدت شمالاً، مروراً ببياتسا نافونا التي تحتضن نافورة الماموث التي تصوّر الأنهار الأربعة العظمى لكوكب الأرض (والتي تضمّ بفخر، إن لم يكـــن بدقّـــة كبيرة، نهر التيبر المتكاسل). ثمّ ذهبت لإلقاء نظرة على البانتـــيون. فأنا أذهب للنظر إليه كلّما سنحت لي الفرصة، بما أنّني في روما. كما أنّه ثمّة مثل قديم يقول إنّ من يذهب إلى روما من دون رؤية البانتيون، *يذهب ويعود أحمق*.

في طـــريق عودتي إلى البيت، انعطفت قليلاً، وتوقّفت عند عنوان أجـــده مؤثّـــراً علـــى نحو غريب؛ الأغوستيوم. فتلك الكومة الكبيرة

المستديرة من بقايا الآجر بدأت حياتها كضريح مهيب، بناه أوكتافيان أغوستوس ليرقد فيه هو وعائلته إلى الأبد. لا بدّ من أنّه كان يصعب على الإمبراطور أن يتخيّل روما شيئاً آخر غير إمبراطورية عظمى تبجّل أغوستوس. كيف له أن يتوقع انهيار المملكة؟ أو أن يعرف أنّه مع تدمير البربريّين لجميع الأقنية وشبكة الطرقات الهائلة، ستخلو المدينة من مواطنيها وستستغرق روما قروناً لتستعيد السكّان الذين اعتزّت بهم في أوج عظمتها؟

سقط ضريح أغوستوس فريسة الدمار والنهب خلال عهد الظلمات. وسرق أحدهم رفات الإمبراطور. ولكن في القرن الثاني عشر، تمّ تجديد الضريح وتحويله إلى قلعة لعائلة كولونّا العظيمة، لحمايتها من هجمات مختلف الأمراء المتحاربين. ثم تحوّل الأغوستيوم إلى كرم عنب نوعاً ما، ثمّ إلى حلبة لمصارعة الثيران (وذلك في القرن الثامن عشر)، ثمّ إلى مستودع للألعاب النارية، ثمّ إلى قاعة للحفلات الموسيقية. في ثلاثينيات القرن العشرين، استولى موسوليني على المكان، وأعاده إلى أساسه الكلاسيكي ليكون مرقده الأخير يوماً ما. (هنا أيضاً، كان من المستحيل يومها تخيّل أن تكون روما غير إمبراطورية لتبجيل موسوليني). بالطبع، لم يدم حلم موسوليني، كما أنّه لم يحصل على القبر الفخم الذي أراده.

اليوم، يعتبر الأغوستيوم من أكثر الأماكن هدوءاً ووحدة في روما، إذ إنّه مدفون عميقاً تحت التراب بعد أن نمت المدينة حوله على مرّ القرون. (فالبقايا التي يخلّفها الزمن تتراكم حسب القاعدة العامّة بمقدار سنتمترين في السنة). حركة السير فوق النصب تدور بشكل محموم ولا أحد ينزل إلى هنا، حسبما أرى، إلاّ لاستعمال المكان كحمّام عامّ. غير أنّ البناء لا يزال موجوداً، يحتضن الأرض الرومانية بجلال.

أجد قوّة احتمال الأغوستيوم مطمئنة جداً، فمسار حياة ذاك البناء كـــان شـــاذاً إلى حدّ كبير، إلاّ أنّه كان يعدّل حسب الأهواء الجامحة للزمن. بالنسبة إليّ، أراه امرأة عاشت حياة جنونية تماماً؛ بدأت كسيدة منـــــزل، ترمّلت بشكل غير متوقّع، فامتهنت الرقص لتكسب قوتها، لينتهي بها الأمر كأوّل طبيبة أسنان في الفضاء الخارجي، قبل أن تجرّب الدخـــول في معترك السياسة؛ غير أنّها تمكّنت من الحفاظ على روحها خلال كلّ ذلك.

أنظرُ إلى الأغوستيوم، وأفكّر في أنّ حياتي لم تكن بهذه الفوضى في النهاية. ربّما كان هذا العالم هو مكمن الفوضى، بحيث يجلب التغييرات لـــنا جمـــيعاً على غير توقّع. يعلّمني الأغوستيوم ألاّ أتعلّق بفكرة مطلقة عمّـــن أنا، ما أمثّل، إلى من أنتمي، أو الوظيفة التي قرّرت يوماً تأديتها. ربّمـــا كنت في ما مضى نصباً رائعاً لشخص ما، هذا صحيح، إلاّ أنّني قد أكون غداً مستودعاً للألعاب النارية. وحتى في المدينة الأبدية، على المـــرء، بحـــسب الأغوستيوم، أن يكون مستعدّاً لرياح التغيير الهائجة والمتواصلة.

26

كـــنت قـــد شـــحنت مسبقاً صندوقاً لي من الكتب قبل أن أغادر نـــيويورك إلى إيطاليا. وكان يفترض بالصندوق الوصول إلى شقّتي في روما ضـــمن مدّة تتراوح بين أربعة وستّة أيام. ولكن أظنّ بأنّ مكتب البريد قد قرأ المدةّ خطأً: *أربعة وستّون يوماً*، لأنّ شهرين انقضيا و لم أستلم صندوقي بعـــد. قال لي أصدقائي الإيطاليون بأن أنسى أمر الصندوق تماماً. بحسب قولهم، قد يصل وقد لا يصل، إلاّ أنّ الأمر ليس بين أيدينا.

سألت لوكا سباغيتي: "هل سرقه أحدهم؟ أو ربّما أضاعه مكتب البريد؟".

أجـــاب وهـــو يغطّـــي عينـــيه: "لا تطرحي الأسئلة، ستستائين وحسب".

أحـــدث لغز صندوقي الضائع نقاشاً طويلاً في إحدى الليالي بيني وبـــين صديقتي الأميركية ماريا وزوجها جوليو. برأي ماريا، على المرء أن يـــتمكّن من الاعتماد على أشياء معيّنة، في بلد متمدّن، كالاطمئنان بأن يسلّم مكتب البريد ما نرسله في الوقت المحدّد، إلاّ أنّ جوليو يختلف معهـــا. فهو يرى أنّ مكتب البريد ليس بيد البشر بل بيد القدر، وبأنّ إيـــصال البريد لا يمكن لأيّ كان أن يضمنه. انزعجت ماريا وقالت إنّ هـــذا دليل إضافي على الانقسام البروتستانتيّ الكاثوليكي. والدليل على ذلـــك حسب قولها، إنّ الإيطاليين، بمن فيهم زوجها، لا يمكنهم وضع خطط للمستقبل، ولا حتى لأسبوع واحد مسبقاً. فلو سألت بروتستنتياً من وسط الغرب الأميركي لتحديد موعد عشاء للأسبوع المقبل، يقول ذاك البروتستانتيّ الذي يعتقد بأنّه سيّد قدره: "يناسبني مساء الخميس". أمّا لو سألت كاثوليكياً من كالابريا السؤال نفسه، سيرفع كتفيه وينظر إلى السماء ويسأل: "من منّا يعرف ما إن سيكون مشغولاً أم لا مساء الخميس القادم؟ فكلّ شيء بيد الله ولا أحد منّا يعرف قدره".

مـــع ذلك، قصدت مكتب البريد بضع مرّات بحثاً عن الصندوق، ولكـــن بـــلا جـــدوى. فمـــوظّفة البريد لم ترحّب بمقاطعتي لاتصالها بصديقها. كما أنّ لغتي الإيطالية، التي تحسّنت كثيراً بالفعل، تخونني في ظـــروف كتلك. فبينما أتحدّث بعقلانية عن صندوقي الضائع، تنظر إليّ المرأة وكأنّني أنفخ فقاعات في الهواء.

سألتها بالإيطالية: "ربّما يصل في الأسبوع المقبل؟".

رفعت كتفيها قائلة: "*Magari*".

كلمـــة عاميّة إيطالية أخرى تصعب ترجمتها، تعني شيئاً ما بين إن شاء الله ولا تحلمي بذلك، أيّتها البلهاء.

ولكـــن، ربّما كان هذا خير لي. حتى إنّني نسيت ما وضعت فيه مـــن كـــتب أساســـاً. بالطبع، كانت أشياء اعتقدت أنّه ينبغي عليّ دراســـتها، لو أردت أن أفهم إيطاليا تماماً. كتب جادّة ومفصّلة، تبدو بـــلا أهمية الآن، وأنا هنا. أعتقد أنّني وضعت في ذاك الصندوق النصّ الكامل لكتاب غيبون *تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية*. قد أكـــون أكثـــر ســـعادة من دونه. فبما أنّ الحياة قصيرة جداً، من غير المنطقـــي إمضاء جزء من أيامي المتبقية لي على الأرض في قراءة إدوارد غيبون.

27

التقيت بفتاة أسترالية في الأسبوع الماضي تقوم برحلة عبر أوروبا للمـــرّة الأولى في حـــياتها. أرشدتها إلى محطّة القطار. كانت ذاهبة إلى سلوفينيا لإلقاء نظرة. حين أخبرتني بخططها، شعرت بالغيرة تكتسحني، وقلـــت لنفسي، *أريد الذهاب إلى سلوفينيا! كيف حدث أنّني لم أسافر إلى أيّ مكان؟*

الآن، قـــد يبدو لك بأنّني مسافرة أصلاً. والتوق إلى السفر وأنت مسافر هو نوع من الطمع الجنوني، أقرّ بذلك. ولكنّ طلب تلك الفتاة معلـــومات منّـــي (وقد بدوت لها مواطنة إيطالية) يوحي بأنني لست مـــسافرة في روما، بل أعيش فيها. ومهما بدت إقامتي مؤقّتة، إلاّ أنّني مواطـــنة فعـــلاً. فحين التقيت بالفتاة، كنت في طريقي لأدفع فاتورة

الكهـــرباء، وهو أمر لا يفعله المسافرون. فالسفر إلى مكان ما والعيش في مكـــان مـــا هما أمران مختلفان تماماً، وشيء ما في لقائي بتلك الفتاة الأسترالية المتوجّهة إلى سلوفينيا جعلني أرغب بالسفر أيضاً.

لهذا السبب، اتصلت بصديقتي صوفي وقلت لها: "فلنذهب لقضاء يوم في نابولي ونتناول البيتزا!".

ســـرعان ما ركبنا القطار بعد بضع ساعات، وكالسحر، أصبحنا هناك. أحببت نابولي فوراً. نابولي الوحشية، الخشنة، الصاخبة، القذرة. بكـــلّ غرابة البازار الشرق أوسطي مع لمسة من سحر نيوأورليانز. إنّها بـــيت مجـــانين خطـــير ومـــرح. فقد أتى صديقي وايد إلى نابولي في الـــسبعينيات وتعـــرّض للاعتداء والسلب... في متحف. كانت المدينة مـــزيّنة بالغسيل المتدلّي من جميع النوافذ وفوق كلّ الشوارع. وكانت الملابس الداخلية المغسولة حديثاً لجميع السكّان تتمايل مع الهواء وكأنّها أعـــلام تيبيتـــية. ما من شارع في نابولي يخلو من ولد صغير مشاكس يرتدي سروالاً قصيراً وجوربين غير متلائمين معه يصرخ من الرصيف لولد آخر مشاكس يقف على سطح أحد المنازل في الجوار. كما أنّه لا يخلو مبنى في هذه المدينة من امرأة عجوز واحدة على الأقلّ جالسة إلى النافذة، تراقب بحشرية ما يدور في الأسفل.

الـــناس هـــنا مأخـــوذون بكونهم من نابولي، وكيف لا يكونون كـــذلك، وهـــي المدينة التي أعطت للعالم البيتزا والآيس كريم؟ ونساء نابـــولي خـــصوصاً يتمتّعن بصوت خشن ومرتفع، كما أنهنّ كريمات، صـــاخبات، ينـــزعن إلى السيطرة والغضب، تجدهنّ في وجهك دوماً يحـــاولن مساعدتك، وكأنّك مغفّل *لِمَ يرغبن بفعل كلّ شيء هنا؟* أمّا لكنة أهالي نابولي، فهي ودودة جداً وخفيفة الوقع على الأذن. وكأنّك تـــسير في مدينة من الطبّاخين، الكلّ فيها يتحدّث في الوقت نفسه. لا

يزال السكّان يحتفظون بلهجتهم الخاصة هنا، ولسكان نابولي كلماتهم العامية المحلية دائمة التغيير، غير أنّني لسبب ما، أجد أهالي نابولي هم الأسهل فهماً عليَّ في إيطاليا. لماذا؟ لأنّهم يريدونك أن تفهم. فهم يتحدّثون بصوت مرتفع ويشدّدون على ما يقولون، وإن لم تتمكّن من فهم ما يقولون بأفواههم، تخبرك إشارات أيديهم عادة. كتلميذة المدرسة الصغيرة تلك التي كانت تركب الدراجة النارية خلف ابن عمّها الأكبر سنّاً، والتي رفعت لي إصبعها وابتسمت ابتسامة ساحرة، وكأنّها تقول: "لا تحقدي عليَّ أيتها السيدة. أنا في السابعة فقط من عمري، ولكن يمكنني القول بأنّك مغفّلة تماماً، ولكن هذا رائع؛ أعتقد أنّك بخير تقريباً على الرغم من نفسك وأنا أحبّ وجهك الأحمق. كلانا يعرف بأنّك تتمنّين لو كنتِ أنا، ولكنّ هذا غير ممكن مع الأسف. على أي حال، أرجو أن تستمتعي بإقامتك في نابولي، *تشاو!*".

كما في جميع الأماكن العامّة في إيطاليا، ثمّة دوماً صبيان وشباب ورجال يلعبون كرة القدم. على سبيل المثال، صادفت اليوم أولاداً – أعني مجموعة من الصبيان بسنّ الثامنة – تجمّعوا حول قفص دجاج قديم وصنعوا منه طاولة وكراسيَ مؤقّتة وراحوا يلعبون الورق في الساحة بحدّة كبيرة، حتى إنّني خفت أن يُقتل أحدهم بالرصاص.

جوفاني وداريو هما من نابولي أساساً. غير أنّني أعجز عن تصوّر ذلك. أعجز عن تصوّر جوفاني الخجول، المجتهد، اللطيف ولداً كهؤلاء السوقيّين. إلاّ أنّه نابوليتاني من دون شكّ، لأنّه قبل مغادرتي روما، أعطاني اسم مطعم بيتزا لكي أجرّبه، لكونه حسب قول جوفاني يعدّ أطيب بيتزا في نابولي. وقد وجدت الأمر مثيراً، لأنّ أفضل بيتزا في في إيطاليا هي من نابولي، وأفضل بيتزا في العالم هي إيطاليا، ما يعني بأنّ

مطعـــم البيتـــزا هذا... ما زلت أخشى قوله... *يصنع أفضل بيتزا في العالم*؟ في الواقع، أعطاني جوفاني اسم المكان بجدّية وحدّة بالغتين، حتى إنّني شعرت وكأنّه يعرّفني على مجتمع سرّي. دسّ العنوان في كفّي وقال بـــثقة وخطـــورة: "أرجوك اقصدي مطعم البيتزا هذا. اطلبـــي بيتزا مارغاريتا بجبن الموزاريلا المضاعف. إن لم تتذوّقي هذه البيتزا وأنت في نابولي، أرجوك اكذبـــي عليَّ لاحقاً وأخبريني بأنّك فعلت".

هكـــذا ذهبـــنا أنا وصوفي إلى بيتزيريا دا ميكيلي، وفطيرتا البيتزا اللـــتان طلبناهما جعلتانا نفقد عقلينا. أحبّ البيتزا كثيراً في الواقع، حتى إنّـــني بـــدأت أعتقد بأنّها ربّما كانت تحبّني هي أيضاً. أصبحت على علاقـــة بهذه البيتزا، علاقة عاطفية تقريباً. في تلك الأثناء، كانت صوفي تـــذرف الدمـــوع فوق طبقها الذي ولّد لديها أزمة ميتافيزيقية، فقد كانت تتوسّلني قائلة: "لِمَ يكلّفون أنفسهم صنع بيتزا في ستوكهولم؟ لِمَ نكلّف أنفسنا حتى تناول الطعام في ستوكهولم؟".

بيتزيـــريا دا ميكيلي هو عبارة عن مكان صغير مؤلف من غرفتين فقـــط وفرن واحد لا يتوقّف عن العمل. يبعد عن محطّة القطار خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام تحت المطر، ولكن لا تقلق بل توجّه إليه مباشـــرة. عليك أن تصل باكراً قبل أن ينفَد العجين، ما سيفطر قلبك. فـــبحلول الـــساعة الـــواحدة ظهراً، غصّت الشوارع خارج البيتزيريا بالنابوليتانـــيين الـــذين يحاولون الوصول إلى المكان، وراحوا يتدافعون وكـــأنّهم يحاولـــون إيجاد مكان على قارب نجاة. وليس لديهم قائمة طعام، ذلك أنّهم لا يعدّون سوى نوعين من البيتزا هنا عادية ومع جبن إضافي. وهي لا تشبه بشيء الهراء الذي يصنعونه في جنوب كاليفورنيا من الزيتون والطماطم المجففة تحت أشعة الشمس والذي يسمّونه بيتزا. أمّا العجينة، فلم أكتشف إلاّ في منتصف الوجبة بأنّ طعمها هو أقرب

إلى طعم *النان* الهندي منه إلى أي عجينة بيتزا سبق أن تذوّقتها. فهي طرية ليّنة ولكنّها رقيقة على نحو لا يصدّق. لطالما اعتقدت أنّ لدينا خيارين وحسب في حياتنا حين يتعلّق الأمر بالبيتزا؛ عجينة رقيقة ومحمّصة أو سميكة وطريّة. كيف لي أن أتخيّل وجود عجينة رقيقة وطريّة *على السواء*؟ بيتزا رقيقة، طرية، قوية، طيبة، مالحة، تعلوها طبقة من صلصة الطماطم الحلوة التي ترغي على نحو قشدي حين تذوب مع جبن موزاريلا البقر الطازج. ويأتي غُصَين الحبق بين كلّ هذا ليضيء البيتزا بأكملها بخصائصه العشبية، بنفس الطريقة التي تضفي بها النجمة السينمائية في وسط الحفل شيئاً من السحر على كلّ من حولها. بالطبع، يستحيل أكل هذا الشيء عملياً. فما أن تتناول قضمة منه حتى تنثني العجينة ويهرب الجبن الساخن، كالتربة على المنحدر، ويسبّب لك ولمن حولك الفوضى، ولكن حاول التعامل معه وحسب.

كان الشباب الذين يصنعون هذه الأعجوبة ينقلون البيتزا من وإلى الفرن المشتعل على الحطب، ويبدون مثل رجال مرجل في سفينة كبيرة، يضعون الفحم في الأفران المستعرة. أكمامهم مرفوعة إلى أعلى أذرعهم متعرّقة ووجوههم ملتهبة من أثر الجهد، عين على حرارة النار وسيجارة تتدلّى من أفواههم. طلبت وصوفي بيتزا إضافية لكلّ منّا، وحاولت صوفي استجماع قواها، ولكن البيتزا لذيذة حقاً إلى حدّ يفوق الاحتمال.

أودّ الإشارة هنا إلى أنّني كنت أزداد وزناً يوماً بعد يوم. فأنا أقسو كثيراً على جسدي هنا في إيطاليا، أتناول كميات مروّعة من الجبن والباستا والخبز والشراب والشوكولاته والبيتزا. (قيل لي إنّ ثمّة مكاناً آخر في نابولي يقدّم بيتزا الشوكولاته. أي هراء هذا؟ في الواقع، ذهبت لتذوقها وكانت لذيذة، ولكن صدقاً؛ *بيتزا الشوكولاته*؟) لم أكن أمارس الرياضة أو أتناول كمية كافية من الألياف، كما أنّني لم أكن أتناول أي فيتامينات.

ففـــي حياتي المعتادة، كنت أشرب لبن الماعز العضوي المحتوي على بذور القمـــح للفطور. ولكنّ حياتي المعتادة أصبحت بعيدة. فصديقتي سوزان في أميركـــا تخـــبر الناس بأنّني ذهبت *في رحلة من دون عودة*. ولكن جسدي يأخـــذ الموضوع بروح رياضية. فهو يغضّ البصر عن ذنوبـــي وتساهلي المفرط وكأنّه يقول: "لا بأس يا عزيزتي، عيشي على هواك، أدرك بأنّ هذا مؤقّت. ولكن أخبريني حين تنتهي تجربتك الصغيرة مع المتعة الخالصة لكي أرى ما يمكنني فعله لمعالجة الأضرار".

مع ذلك، حين أنظر إلى نفسي في مرآة أفضل بيتزيريا في نابولي، أرى وجهـــاً لامع العينين، صافي البشرة، سعيداً ونابضاً بالصحّة. لم أرَ وجهي كذلك منذ زمن طويل.

همـــست: "شـــكراً". ثمّ هربنا أنا وصوفي تحت المطر بحثاً عن فطائر للتحلية.

28

أفتـــرض بـــأنّ هذه السعادة التي بدأت منذ عدّة أشهر هي التي دفعتني إلى التفكير في طريق العودة إلى روما في ضرورة فعل شيء حيال ديفـــيد. لأنّه ربّما حان الوقت لإنهاء قصّتنا. فنحن منفصلان أساساً، كان انفصالنا رسمياً، ولكن كان لا يزال ثمّة بارقة أمل أنّنا ربّما أعطينا لأنفسنا فرصة أخرى (ربّما بعد عودتي من أسفاري، ربّما بعد انفصالنا لعـــام). لقـــد أحببنا بعضنا، لم تكن تلك هي المشكلة. إلاّ أنّنا لم نكن نعرف كيف لا نسبّب لبعضنا البؤس القاتل.

في الربيع الفائت، عرض ديفيد حلاً جنونياً لمشاكلنا، لم يكن يخلو مـــن الـــسخرية: "ماذا لو اعترفنا بأنّ علاقتنا سيّئة وتحمّلناها على أي

حال؟ ماذا لو أقرّينا بأنّنا نثير جنون بعضنا، نتشاجر باستمرار، ولكنّنا لا نستطيع العيش من دون بعضنا؟ ثمّ نمضي حياتنا معاً، في البؤس، ولكن سعداء لأنّنا لسنا منفصلين".

وقضائي الأشهر العشرة الفائتة وأنا أفكّر بجدّية في هذا العرض ليس سوى شاهد على مدى حبي اليائس لذاك الشابّ.

أمّا البديل الذي لم نبُح به فهو أن يتغيّر أحدنا. أن يصبح أكثر انفتاحاً وحناناً، ولا يبعد نفسه عن المرأة التي يحبّها خوفاً من أن تلتهم روحه. أو أن أتعلّم أنا كيف... أتوقّف عن التهام روحه.

لطالما تمنّيت مع ديفيد لو أستطيع التصرّف مثل أمّي في زواجها؛ مستقلّة، قوية، مكتفية ذاتياً، وقادرة على البقاء من دون جرعات الرومانسية أو الغزل المنتظمة من أبي المزارع الوحيد، وقادرة على زرع أزهار الربيع بمرح في الحديقة بين جدران الصمت التي كان أبي يبنيها أحياناً حول نفسه. في الواقع، أبي هو الشخص المفضّل بالنسبة إليّ في هذا العالم، ولكنّه يشكّل حالة غريبة بعض الشيء. وصفه أحد أصدقائي مرّة قائلاً: "والدك لا يضع سوى قدم واحدة في هذا العالم. وساقاه حقاً، حقاً طويلتان...".

كبرت وأنا أرى أمامي أمّاً تتلقى حبّ وحنان زوجها كلّما فكّر في منحه، إلاّ أنّها لا تتردّد في الابتعاد جانباً والعناية بنفسها كلّما انعزل في عالم النسيان والغفلة الخاصّ به. هكذا بدا لي على أي حال، علماً أنّ أحداً (لا سيّما الأطفال) لا يعرف أسرار الزواج. أعتقد أنّني كبرت وأنا أرى أمّاً لم تطلب شيئاً من أحد. فهذا ما كانت أمّي عليه، امرأة علّمت نفسها كيف تسبح بمفردها في بحيرة باردة في مينيسوتا، بواسطة كتاب استعارته من المكتبة المحلية بعنوان *كيف تتعلّم السباحة*. بنظري، لم تكن هذه المرأة تعجز عن فعل أي شيء بمفردها.

لكن كان لي حديث ممتع مع أمّي قبل سفري إلى روما. فقد أتت إلى نـيويورك لتناول طعام الغداء معي قبل رحيلي وسألتني بصراحة - مخالفـةً جميع قوانين التخاطب في تاريخ عائلتنا - ما الذي حدث بيني وبـين ديفـيد. فتغاضـيت أكثر عن قانون معيار التخاطب في عائلة غيلـبرت وأخبرتها. أخبرتها بكلّ شيء. كم أحببت ديفيد وكم أشعر بالـوحدة والألم حين لا أكون مع هذا الشخص الذي يختفي دوماً من الغرفة ومن السرير ومن هذا الكوكب.

قالـت: "يبدو شبيهاً بوالدك بعض الشيء". كان اعترافاً شجاعاً وكريماً.

أجبتها: "المشكلة هي أنّني لست مثل أمّي. أنا لست قوية مثلك، مامـا. أحتاج فعلاً إلى مستوى ثابت من الحميمية مع الشخص الذي أحـبّه. أتمنّى لو أستطيع أن أكون مثلك، لكنت تمكّنت من إنجاح قصّة حبـي مـع ديفيد. ولكنّ معرفتي أنّني لا أستطيع الاعتماد على تلك العاطفة حين أحتاج إليها تمزّقني".

ثمّ صدمتني أمّي حين قالت: "تريدين كلّ ذلك من علاقتك، ليز؟ أنا أيضاً رغبت بهذه الأشياء".

شـعرت في تلـك اللحظـة وكأنّ أمّي مدّت يدها عبر الطاولة وفتحت قبضتها وأرتني الجراح التي عضّت عليها على مرّ السنوات لكي تحـافظ على زواجها السعيد من أبـي (وقد كان سعيداً بالفعل، على الرغم من كلّ شيء). في الواقع، لم تسبق لي رؤية هذا الجانب منها من قبل. لم يسبق لي أن تخيّلت ما الذي قد تكون رغبت به أو افتقدته، ما الـذي قد تكون قررت عدم النضال لأجله في حياتها. أمام كلّ هذا، شعرت بأنّ تحوّلاً جذرياً طرأ على نظرتي إلى العالم.

إن كانت تريد ما أريد، إذاً...؟

تابعـــت أمّـــي جلستها الحميمة غير المسبوقة وقالت: "عليك أن تفهمـــي بـــأنّني تـــربّيت على عدم توقّع أنّني أستحقّ الكثير في الحياة، حبيبتي. تذكّري، أنا أتيت من زمان ومكان مختلفين".

أغمضت عينيّ، ورأيت أمّي بسنّ العشر سنوات في مزرعة العائلة في مينيـــسوتا، تعمـــل مثل يد مأجورة، تربـــي إخوتها الأصغر سنّاً، تـــرتدي ملابس أخواتها الكبيرات وتوفّر كلّ قرش لتخرج نفسها من هناك...

وختمت قائلة: "كما ينبغي عليك أن تفهمي كم أحبّ أباك".

قامـــت أمّـــي بخياراتها في الحياة، كما ينبغي علينا جميعاً، وكانت على سلام معها. أستطيع أن أرى السلام الذي كانت تعيش فيه. فهي لم ترغم نفسها على ذلك، بل كانت منافع خياراتها هائلة؛ حياة زوجية طـــويلة ومـــستقرّة مع الرجل الذي ما زالت تدعوه صديقها المفضّل، عائلة امتدّت الآن إلى أحفاد تعشقهم، وثقة بقوّتها. ربّما ضحّت ببعض الأشياء، كما كان لوالدي تضحياته هو أيضاً، ولكن من منّا يعيش من دون تضحيات.

الـــسؤال بالنـــسبة إليّ الآن، مـــا هي خياراتي؟ ماذا أعتقد بأنّني أستحقّ في هذه الحياة. أين يمكنني أن أقبل بالتضحية وأين لا؟ فقد كان مـــن الصعب عليَّ جداً أن أتخيّل العيش من دون ديفيد في حياتي. حتى مجـــرّد التخيّل بأنّني لن أقوم أبداً برحلة أخرى مع رفيقي المفضّل، ولن أتوقّـــف ثانـــية أمام منـــزله وأسمع أصداء الموسيقى تتعالى من نوافذه المفـــتوحة، ولـــن نتبادل المزاح الدائم، ونتناول الوجبات الخفيفة معاً، ونقـــود الـــسيارة على الطريق السريع نحو المحيط. ولكن كيف لي أن أعيش في هذا النعيم حين يأتي مرفقاً بذاك الجانب القاتم؛ عزلة ساحقة، إحـــساس قاتل بعدم الأمان، استياء دائم، وبالطبع، تفكّك تامّ للذات

يطـــرأ حتماً حين يتوقّف ديفيد عن العطاء ويبدأ بالأخذ. لم أعد قادرة على القيام بذلك. وثمّة شيء ما في السعادة التي غمرتني في نابولي جعلني أشعر أنّني لست *قادرة* على إيجاد السعادة من دون ديفيد وحسب، بل يتحـــتّم عليَّ ذلك. مهما كنت أحبّه (وأنا أحبّه على نحو بالغ، إلى حدّ الحماقة)، عليَّ أن أقول وداعاً لهذا الرجل الآن.

هكذا أرسلت له رسالة عبر البريد الإلكتروني.

كـــنّا في شـــهر تشرين الثاني، و لم يجر بيننا أيّ اتصال منذ تمّوز. كـــنت قد طلبت منه عدم الاتصال بـــي في أثناء سفري، لأنّني كنت أعرف بأنّ تعلّقي به قوي إلى حدّ أنّه سيمنعني من التركيز على رحلتي إن كـــنت أتابـــع رحلته هو أيضاً. غير أنّني أعود إلى حياته الآن بتلك الرسالة.

سألته عن أحواله وأخبرته بأنّني بخير. أضفت بعض المزاح، لطالما مازحنا بعضنا. ثمّ شرحت له بأنّني أحتاج إلى وضع حدّ لعلاقتنا نهائياً. لقـــد حان الوقت لنعترف بأنّها لن تنجح أبداً، بأنّها لا ينبغي أن تنجح أبـــداً. لم يكـــن الأسلوب دراماتيكياً جداً، فالله يعلم كم عانينا معاً. كانت رسالة قصيرة وبسيطة، إلاّ أنّني أردت إضافة أمر واحد. حبست نفَـــسي وطبعت الجملة التالي: "إن رغبت بالبحث عن شريكة أخرى لحـــياتك، فلا يمكنني بالطبع سوى أن أتمنّى لك السعادة". كانت يداي تـــرتجفان. وقّعـــت مع حبـــي، وحاولت أن تكون نبرتي مرحة قدر الإمكان.

شعرت وكأنّ سكّيناً قد غرز في صدري.

لم أتمكّـــن مـــن النوم كثيراً تلك الليلة، وأنا أتخيّله يقرأ كلماتي. قـــصدت مقهى الإنترنت عدّة مرات في اليوم التالي، لأتفقّد الجواب. وحاولـــت تجاهـــل ذاك الجزء منّي الذي كان يتوق لأن يجد منه هذا

الجواب: "عودي إليّ! لا ترحلي! سأتغيّر!" حاولت التغاضي عن الفتاة بداخلي التي كانت لتتخلّى بسرور عن فكرتها الكبيرة بالسفر حول العالم مقابل مفاتيح شقّة ديفيد. ولكن في حوالى الساعة العاشرة من تلك الليلة، أتاني الجواب أخيراً. كان عبارة عن رسالة إلكترونية مكتوبة بأسلوب رائع بالطبع. فأسلوب ديفيد في الكتابة كان رائعاً دوماً. وافق على أنّ الوقت قد حان فعلاً لنودّع بعضنا للأبد. قال إنّ الأفكار نفسها كانت تراوده. ما كان له أن يكون أكثر لباقة في جوابه، كما عبّر عن مشاعر الخسارة والندم نفسها بدرجة كبيرة من الحنان المؤلم الذي كان قادراً على بلوغه أحياناً. أمل أن أكون على علم بمدى حبّه لي الذي يفوق قدرته على التعبير. *إلّا أنّنا لسنا ما يحتاج إليه كلّ منّا*، على حدّ قوله. مع ذلك، كان واثقاً من أنّني سأجد الحبّ الكبير في حياتي يوماً ما. كان أكيداً من ذلك. فبالنهاية الجمال يجذب الجمال، حسب قوله.

كان من اللطيف قول ذلك، حقاً. كان تقريباً من ألطف الأمور التي تقال عوضاً عن: عودي إلي! لا ترحلي! سأتغيّر!

جلست هناك أحدّق إلى شاشة الكومبيوتر بحزن لوقت طويل. أعلم أنّ كلّ هذا لخيري. كنت أفضّل السعادة على العذاب. أعلم ذلك. كنت أفسح المجال أمام المستقبل المجهول ليملأ حياتي بمفاجآت في طريقها إليّ. أعرف كلّ هذا. مع ذلك...

إنّه *ديفيد*. وقد فقدته الآن.

دفنت وجهي بين يدي لوقت أطول وأكثر حزناً. أخيراً، رفعت رأسي لأرى إحدى النساء الألبانيات اللواتي يعملن في المقهى وقد توقّفت عن مناوبتها الليلية في مسح الأرض لتستند على الجدار وتراقبني. نظرنا في أعين بعضنا المتعبة للحظة، ثمّ هززت رأسي بيأس،

وقلت بصوت مرتفع: "هذا فظيع". فهزّت رأسها بتعاطف. لم تفهم ما قلت، ولكن بالطبع، فهمت تماماً على طريقتها.

رنّ هاتفي المحمول.

كان جوفاني. بدا مرتبكاً. قال إنّه ينتظرني منذ أكثر من ساعة في ساحة فيومه، التي نلتقي فيها دوماً مساء كل يوم ثلاثاء للتبادل اللغوي. وقد شعر بالقلق لأنّه هو من يتأخّر عادة أو ينسى المجيء إلى مواعيدنا. إلاّ أنّــه وصل في الوقت المحدد تلك الليلة وكان واثقاً تماماً؛ ألسنا على موعد؟

كــنت قد نسيت. أخبرته بمكاني، فقال إنّه سيأتي ليقلّني بسيّارته. لم أكــن بمزاج يسمح لي برؤية أحد، ولكن لم يكن من السهل شرح الأمــر على *التلفونينو*، نظراً لقدراتنا اللغوية المحدودة. خرجت لانتظاره في الجــوّ الــبارد، وبعد بضع دقائق، وصل بسيارته الحمراء، فركبتها. ســألني بالإيطالية العامية ما الخطب. ولكن ما إن فتحت فمي لأجيبه حتى انهرت باكية – رحت أنتحب – أعني ذاك الصياح الفظيع الممزّق الــذي تدعــوه صديقتي سالي *الضخّ المزدوج*، حين تبدأ بتنشّق نفسَين يائــسَين من الأكسجين مع كلّ شهقة. حتى إنّني لم أشعر بذاك الزلزال من الحزن قبل وصوله، بل أعماني تماماً.

مــسكين جوفاني! راح يسألني بإنكليزية غير واضحة ما إذا كان قــد أخطــأ بحقّــي. مــا إذا كنت منــزعجة منه، ربّما؟ هل جرح مــشاعري؟ لم أتمكّــن مــن الإجابة، بل اكتفيت بهز رأسي ومتابعة النحيب. كنت حزينة على نفسي وآسفة على جوفاني، العالق في هذه السيارة مع عجوز ممزّقة تماماً – a pezzi – تنتحب.

أقنعت نفسي أخيراً بأنّ لا علاقة لأساي به. غمغمت اعتذاراً على حــالتي. غــير أنّ جــوفاني عالج الوضع بحالة تتجاوز سنّه. قال: "لا

تعتذري على البكاء. فمن دون هذا الانفعال لكنّا رجالاً آليّين". أعطاني بعـــض المناديل الورقية من علبة موجودة على المقعد الخلفي للسيارة ثمّ قال: "فلنبتعد من هنا".

كـــان علـــى حقّ. فواجهة مقهى الإنترنت هي مكان شديد الازدحـــام والإضاءة لأنهار أمامها. قاد السيارة قليلاً ثمّ توجّه وسط بياتـــزا ديلا ريبوبليكا، أحد أفخم الأماكن المفتوحة في روما. ركن الـــسيارة أمام تلك النافورة الرائعة للحوريتين اللتين تقفزان بشكل إباحيّ جداً مع سرب البجع العملاق بالأعناق الطويلة. كان قد تمّ بـــناء تلـــك النافورة مؤخّراً، بمقاييس رومانية. واستناداً إلى دليلي السياحي، فإنّ المرأتين اللتين جسّدتا نموذجاً للحوريتين كانتا أختين، وراقصتين مشهورتين في زمانهما. كما تضاعفت شهرتهما أكثر بعد انتهاء النافورة. وقد حاولت الكنيسة لأشهرٍ منع إزاحة الستار عن النافورة لأنّها كانت شديدة الإثارة بسبب مظهر الحوريتين. عاشت الأخـــتان لوقت طويل وظلّتا حتى عشرينيات القرن الماضي تزوران الـــساحة كـــلّ يوم للنظر إلى نافورتهما. وكلّ عام، كان النحات الفرنـــسي الذي صوّرهما في الرخام في ريعان شبابهما يأتي إلى روما مـــرّة في الـــسنة ويـــصطحب الأخـــتين لتناول طعام الغداء حيث يـــسترجعون معـــاً تلـــك الأيام التي تمتّعوا فيها بكلّ ذاك الشباب، والجمال، والجرأة.

هكذا ركن جوفاني سيارته هناك وانتظرني لكي أتمالك نفسي. لم أتمكـــن ســـوى مـــن ضغط عينيّ بأسفل كفّيّ محاولة منع دموعي من الانهمـــار. لم يسبق لنا أنا وجوفاني أن أجرينا حديثاً شخصياً من قبل. فخلال كلّ تلك الأشهر التي مرّت، ووجبات العشاء التي تناولناها معاً، لم نـــتحدّث سوى عن الفلسفة، والفنّ، والثقافة، والسياسة، والطعام.

ولا نعرف شيئاً عن الحياة الخاصة لكلّ منّا. فهو لا يعرف بأنّني مطلّقة أو بـــأنّني تركت خلفي حبّاً في أميركا. ولا أعرف عنه شيئاً سوى أنّه يـــريد أن يصبح كاتباً وأنّه ولد في نابولي. إلاّ أنّ بكائي سيجبرنا على نقـــل حديثنا إلى مستوى آخر. أتمنّى لو أنّني لم أفعل، ليس في ظلّ هذه الظروف المريعة.

قال: "أنا آسف، ولكنّني لا أفهم. هل فقدت شيئاً اليوم؟".

ولكـــن مـــا زلت أجد صعوبة في إيجاد طريقة للتحدّث. فابتسم جوفاني وقال مشجّعاً: "*Parla come magni*". كان يعرف بأنّها من العـــبارات العامية الإيطالية المفضّلة لدي. وهي تعني *تحدّث كما تأكل*، أو بترجمتي الشخصية: قلها كما تأكلها. إنّها تذكير – حين تجد صعوبة في شــــرح شيء ما وتبحث عن الكلمات المناسبة – لكي تُبقي لغتك بـــسيطة ومباشــــرة مثل الطعام الروماني. لا تصنع من الموضوع حكاية كبيرة، بل اطرحه على الطاولة وحسب.

أخـــذت نفـــساً عمـــيقاً ورويت له نسخة إيطالية مختصرة جداً (ولكنّها كاملة تماماً نوعاً ما) لما جرى:

"الـــسبب هـــو قصّة حبّ، جوفاني. كان عليَّ وداع شخص ما اليوم".

ثمّ غطّـــيت عينيّ بكفّيّ مجدّداً، وراحت الدموع تسيل من بين أصابعي. لم يحاول جوفاني، باركه الله، إحاطة كتفي بذراعه مطمئناً، ولم يُبدِ أيّ انزعاج من تعبيري عن حزني. بل اكتفى بالجلوس فيما انهمـــرت دموعي بصمت، إلى أن هدأت. هنا تحدّث بتعاطف وهو يختار كلماته بعناية (وكأستاذته في اللغة الإنكليزية، شعرت بالفخر بـــه تلك الليلة!)، إذ قال ببطء ووضوح ولطف: "أفهمك ليز. لقد كنت هناك".

29

ساعد وصول شقيقتي إلى روما بعد بضعة أيام على صرف انتباهي عن حزني المستمر على ديفيد، وأعاد حياتي إلى طبيعتها. فشقيقتي تقوم بكلّ شيء بسرعة والطاقة تدور حولها في زوابع صغيرة. هي تكبرني بثلاث سنوات، كما أنّها أطول منّي بسبعة سنتمترات ونصف. فهي رياضية، وطالبة، وأمّ، وكاتبة. وخلال إقامتها في روما، كانت تتدرّب من أجل ماراثون، ما يعني أنّها كانت تستيقظ عند الفجر وتعدو لمسافة 18 ميلاً خلال الوقت الذي تستغرقني فيه قراءة مقال في الصحيفة وشرب فنجاني كابوتشينو. في الواقع، هي تبدو كالغزال وهي تركض. حين كانت حاملاً بطفلها الأوّل، سبحت عبر بحيرة بأكملها في إحدى الليالي في الظلام. لم أنضمّ إليها، ولم أكن حتى حاملاً. فقد خفت كثيراً. ولكنّ شقيقتي لا تخاف من شيء إطلاقاً. فحين كانت حاملاً بطفلها الثاني، سألت القابلة كاثرين ما إذا كانت لديها مخاوف لم تبُح بها حول أيّ خطب قد يحدث مع الطفل؛ كوجود عيوب جينية أو حدوث مضاعفات في أثناء الولادة. قالت شقيقتي: "خوفي الوحيد هو أن يكبر ليصبح جمهورياً".

هذا هو اسم شقيقتي، كاثرين. ولا أملك أخوة أو أخوات غيرها. حين كنّا نعيش في أرياف كونكتيكت، كنا نحن فقط، في المزرعة مع أهلنا. ولم يكن ثمّة أولاد آخرون في الجوار. كانت قوية ومسيطرة، تقود حياتي كلّها. عشت في رهبة وخوف منها، لم يكن يهمّني رأي شخص آخر غيرها. كنت أغشّ حين ألعب الورق معها لكي أخسر، حتى لا تغضب منّي. لم نكن صديقتين دوماً، بل كانت تنزعج منّي وكنت أخشاها، على ما أعتقد، إلى أن بلغت الثامنة والعشرين من

عمري وسئمت من ذلك. في تلك السنة وقفت في وجهها، وكان ردّ فعلها شيئاً من هذا القبيل: "لِمَ استغرقتِ كلّ هذا الوقت؟".

كنّا قد بدأنا بوضع البنود الجديدة لعلاقتنا حين انهار زواجي. وكان من السهل على كاثرين أن تكسب فوزاً من هزيمتي. فلطالما كنت الفتاة المحبوبة والمحظوظة المفضّلة في العائلة والحياة. ولطالما كان العالم مكاناً أكثر راحة وسهولة بالنسبة إليّ منه إلى شقيقتي، التي كانت الحياة أكثر صعوبة بالنسبة إليها وآذتها مراراً. كان من السهل على كاثرين أن تواجه طلاقي واكتئابي باستهزاء وشماتة. إلاّ أنّها عوضاً عن ذلك، وفّرت لي دعماً كبيراً. كانت تجيب على اتصالاتي في منتصف الليل كلّما شعرت بالأسى وتواسيني. وكانت ترافقني وأنا أبحث عن أسباب حزني. وكانت موجودة معي لوقت طويل في أثناء علاجي، إذ كنت أتّصل بها بعد كلّ جلسة وأخبرها بكلّ ما أدركته في عيادة طبيبي النفسي، فتتوقّف عمّا تقوم به وتقول: "آه... هذا يفسّر الكثير". يفسّر الكثير عنّا نحن الاثنتين، في الواقع.

أصبحنا نتحدّث مع بعضنا الآن يومياً تقريباً؛ أو كنّا على الأقلّ قبل أن أنتقل إلى روما. وقبل أن تستقلّ إحدانا الطائرة الآن، تتصل بالأخرى وتقول لها: "أعلم كم هذا مروّع، ولكن أردت أن أخبرك كم أحبّك. تعلمين... تحسّباً فقط...". فتجيب الأخرى دوماً: "أعلم... تحسّباً فقط".

وصلت إلى روما مستعدّة كعادتها؟ أحضرت معها خمسة كتيّبات سياحية، سبق أن قرأتها جميعاً، وأصبح لديها في رأسها خريطة مفصّلة للمدينة حتى قبل أن تغادر فيلادلفيا. وهذا مثال كلاسيكي على الفوارق التي بيننا. أنا هي التي تمضي الأسابيع الأولى في روما وهي تهيم على غير هدى، ضائعة 90 بالمئة وسعيدة 100 بالمئة، أعتبر كلّ ما أراه

لغزاً جميلاً لا يمكن تفسيره. ولكن هكذا يبدو لي العالم دائماً نوعاً ما. أمّا بالنسبة إلى شقيقتي، فلا شيء لا يمكن تفسيره عند توفّر مكتبة مناسبة. إنّها امرأة تحتفظ بموسوعة كولومبيا في مطبخها قرب كتب الطبخ وتقرأها للمتعة.

كان ثمّة لعبة أحبّ أن ألعبها مع أصدقائي أحياناً اسمها **انظر!** فكلّما تساءل أحدهم عن أمر غامض (مثلاً: *من هو سان لويس؟*) أقول: *انظر!* ثمّ أتناول أقرب هاتف وأتّصل بشقيقتي. في بعض الأحيان تكون في السيارة، تعيد أولادها من المدرسة بالفولفو، فتجيب قائلة: "سان لويس... حسناً، كان ملكاً فرنسياً غزير الشعر يرتدي القمصان، وهو أمر مثير للاهتمام في الواقع لأنّه...".

إذاً أتت شقيقتي لتزورني في روما - مدينتي الجديدة - ثمّ راحت تريني إيّاها. إنّها روما بأسلوب كاثرين. مدينة حافلة بالوقائع والتواريخ والهندسة التي لا أراها لأنّ عقلي لا يعمل بهذه الطريقة. الشيء الوحيد الذي أحبّ معرفته عن أيّ مكان أو أيّ شخص هو القصّة، إنّها الشيء الوحيد الذي أبحث عنه، وليس التفاصيل الجمالية. (أتت صوفي إلى شقّتي بعد شهر من انتقالي إليها وقالت: "يا له من حمّام ورديّ جميل"، وكانت تلك *المرّة الأولى* التي ألاحظ فيها بأنّه كان ورديّ اللون. كان وردياً زاهياً من الأرض إلى السقف، كان مكسوّاً تماماً بالبلاط الورديّ الزاهي الذي لم ألحظه من قبل). غير أنّ عيني أختي معتادتان على التقاط التفاصيل القوطية أو الرومانسية أو البيزنطية للبناء، أو رسوم أرض دار العبادة أو اللوحة الجصية المعتمة غير المكتملة المخبّأة خلف المذبح. كانت تجتاز شوارع روما بساقيها الطويلتين فيما أسرع خلفها، كما اعتدت أن أفعل منذ الصغر، وأقوم بخطوتين سريعتين مقابل كلّ خطوة منها.

قالـــت: "أرأيت ليز؟ انظري كيف جمعوا بين الواجهة العائدة إلى القرن التاسع عشر وبين هذا القرميد؟ أنا واثقة أنّنا لو التفنا إلى الجهة الأخـــرى سنجد... أجل!... أترين، لقد استعملوا فعلاً أعمدة المَنليث الـــرومانية الأصلية لدعم البناء، على الأرجح لم تكن لديهم يد عاملة لنقلها... أجل، أحبّ فعلاً الخليط الهندسي لهذه البازيليك...".

كانت كاثرين تحمل الخريطة ودليلها السياحي فيما أحمل أنا سلّة الغـــداء (كـــرتان كبيرتان من الخبز الطري، نقانق بالبهارات، سردين مكـــبوس ملفـــوف حول حبات زيتون دسمة، معجنات الفطر، كرات المـــوزاريلا المدخّـــنة، الأروغولا المشوية بالبهارات، الطماطم صغيرة الحجـــم، جبن البيكورينو، المياه المعدنية والعصير)، وبينما أتساءل متى ســـنأكل، تتـــساءل هي بصوت عالٍ: "لِمَ لا يتحدّث الناس أكثر عن مجلس ترينت؟".

اصـــطحبتني إلى عـــشرات الكـــنائس في روما، أعجز عن تذكّر أسمائها، ولكنّ عجزي عن تذكّر الأسماء أو التفاصيل المتعلقة بكلّ تلك الأعمـــدة والكورنيـــشات لا يعني بأنّني لم أستمتع بوجودي في تلك الأمـــاكن مع أختي التي لا يفوت عينيها الفضيّتين شيء. لا أذكر اسم الكنيـــسة الـــتي رأيـــنا فـــيها تلك اللوحات الجصية التي بدت شبيهة بجـــداريات WPA البطولـــية، غير أنّني أذكر كاثرين تشير إليها قائلة: "ستحبّين باباوات فرانكلين روزفلت تلك..." كما أذكر الصباح الذي استيقظنا فيه باكراً وذهبت لحضور قدّاس سان سوزانا، وأمسكنا بيدَي بعضنا ونحن نستمع إلى الراهبات وهنّ ينشدن الترتيلات الغريغورية عند الفجـــر. شـــقيقتي ليست ملتزمة دينياً. في الواقع ما من أحد في عائلتنا كـــذلك. (كـــنت قد أخذت أسمّي نفسي *النعجة البيضاء* في العائلة). ولكنّها تهتّم لأبحاثي الروحية من الناحية الثقافية وحسب. فقد همست

لي ونحن في الكنيسة: "أجد هذا النوع من الإيمان جميلاً جداً، ولكنّني لا أستطيع القيام به، لا أستطيع...".

إليك مثال آخر عن الفرق بين نظرة كلّ منّا إلى العالم. فقد حدث مؤخّراً أن منيت عائلة تعيش بجوار شقيقتي بمصيبة مزدوجة، وذلك حين أصيبت الأمّ الشابة وابنها البالغ من العمر ثلاث سنوات بالسرطان. حين أخبرتني كاثرين بالأمر، ما كان منّي سوى أن قلت، تحت تأثير الصدمة: "يا الله، تلك العائلة تحتاج إلى الرحمة". فأجابت بحزم: "تلك العائلة تحتاج إلى الطعام"، ثمّ عملت على تنظيم العائلات القاطنة في الجوار لإعداد العشاء لتلك العائلة دورياً، كلّ ليلة، لمدّة عام كامل. ولست أعرف ما إذا كانت أختي تعترف تماماً بأنّ تلك رحمة.

خرجنا من الكنيسة بعد انتهاء قدّاس سان سوزانا وقالت: "هل تعلمين لِمَ احتاج الناس إلى تخطيط مدني في العصور الوسطى؟ لأنّه كان ثمّة مليونا كاثوليكي في العام الواحد يأتون من العالم الغربي ليسيروا من الفاتيكان إلى سان جون لاتيران - على ركَبهم أحياناً - لذا، ينبغي تأمين تسهيلات لهؤلاء الناس".

لا تؤمن شقيقتي سوى بالتعلّم. كتابها الأعظم هو قاموس أكسفورد الإنكليزي. حين تحني رأسها للقراءة وتمرّر أصابعها بسرعة عبر الصفحات، تكون في ابتهال. رأيت أختي تبتهل مرّة أخرى في ذلك اليوم، حين ركعت على ركبتيها وسط سوق رومانية وأبعدت بعض القشّ عن سطح التربة (وكأنّها تمحو لوحاً)، ثمّ أخذت حجراً صغيراً ورسمت لي على سطح هذه التربة مخطّط بازيليك رومانسية كلاسيكية. ثمّ أشارت إلى الآثار أمامها لكي أفهم كيف بدا ذاك البناء في ما مضى منذ ثمانية عشر قرناً تقريباً. فرسمت بإصبعها في الهواء القناطر الناقصة وصحن الكنيسة والنوافذ التي اختفت منذ زمن طويل.

ثمّة زمن أفعال نادراً ما يستعمل باللغة الإيطالية يدعى passato remoto، أي الماضي البعيد. يستعمل هذا الزمن فقط عند الحديث عن أمور حدثت في الماضي البعيد جداً جداً، أمور وقعت منذ زمن بعيد إلى حد أنّه لم يعد لها أيّ تأثير شخصيّ فيك، كالتاريخ القديم مثلاً. ولكن، لو تحدّثت شقيقتي الإيطالية، لما استعملت هذا الزمن عند حديثها عن التاريخ القديم. ففي عالمها، السوق الرومانية ليست بعيدة، وليست من الماضي. إنّها ليست أقلّ حضوراً وقرباً منّي إليها.

غادرت في اليوم التالي.

قلت لها: "اسمعي، احرصي على الاتصال بي عند وصول طائرتك بأمان، اتفقنا؟ لا أريد إفزاعك، ولكن...".

قالت: "أعلم حبيبتي. أنا أيضاً أحبّك".

30

أشعر أحياناً بعجب كبير حين ألاحظ بأنّ شقيقتي هي زوجة وأمّ وأنا لست كذلك. لطالما ظننت أنّ العكس هو ما سيحدث. ظننت بأنّني أنا من ستنتهي في منزل مليء بالأحذية الموحلة وصياح الأولاد، فيما تعيش كاثرين بمفردها، وتقرأ ليلاً وحيدة في سريرها. فقد كبرنا لنتحوّل إلى راشدتين مختلفتين تماماً عمّا كنّا عليه ونحن صغيرتين. وهذا أفضل برأيي. فخلافاً لجميع التوقّعات، كوّنت كلّ منّا حياةً تنطبق عليها. فطبيعتها المنعزلة تجعلها بحاجة إلى عائلة تحميها من الوحدة. أمّا شخصيّتي الاجتماعية فلا تدفعني إلى الخوف من الوحدة، حتى وأنا عزباء. وأنا سعيدة لأنّها عائدة إلى عائلتها وسعيدة أيضاً لأنّ تسعة

أشهر من السفر ما زالت أمامي، لن يشغلني فيها سوى الأكل والقراءة والكتابة.

مع ذلك، ما زلت لا أعرف ما إذا كنت أرغب بإنجاب الأطفال. كنت مذهولة لاكتشاف أنّني لا أريدهم وأنا بسنّ الثلاثين. وذكرى تلك المفاجأة حذّرتني من المراهنة على ما سأشعر به في سن الأربعين. لست واثقة سوى من شعوري في هذه اللحظة؛ ممتنّة لكوني بمفردي. كما أعرف أنّني لن أقدم على إنجاب الأطفال خوفاً من أن يفوتني ذلك لاحقاً. لا أظنّ بأنّه سبب وجيه لجلب مزيد من الأطفال إلى هذا الكوكب. علماً أنّني أفترض بأنّ الناس ينجبون لهذا السبب أحياناً؛ ضماناً لعدم الندم لاحقاً. أعتقد بأنّ الناس ينجبون الأطفال لأسباب عديدة في الواقع، إمّا رغبة في رعاية الحياة ومراقبتها، أو لعدم امتلاكهم الخيار، أو للتمسّك بالشريك وإنجاب وريث، أو من دون التفكير في الأمر بطريقة معينة. ليست جميع أسباب إنجاب الأطفال هي نفسها، وليست جميعها مجرّدة من الأنانية بالضرورة. وليست جميع أسباب عدم إنجاب الأطفال هي نفسها أيضاً، وليست جميعها أنانية بالضرورة.

أقول ذلك لأنّني ما زلت أفكّر في الاتهام الذي وجّهه إليّ زوجي مراراً خلال انهيار زواجنا: الأنانية. كلّ مرّة قالها لي، وافقته تماماً وقبلت بتحمّل الذنب وابتعت كلّ ما وجدته في المتجر. يا الله، لم أكن قد أنجبت الأطفال بعد، وقد أصبحت متّهمة بإهمالهم وتفضيل نفسي عليهم. كنت أمّاً سيّئة حتى قبل أن أصبح أمّاً. في الواقع، غالباً ما كنّا نذكر هؤلاء الأطفال - أشباح الأطفال - في شجاراتنا. من سيعتني بالأطفال؟ من سيبقى مع الأطفال في المنزل؟ من سينفق على الأطفال؟ من سيطعم الأطفال في منتصف الليل؟ أذكر أنّني قلت مرّة لصديقتي سوزان حين أصبح زواجي غير محتمل: "لا أريد لأطفالي أن

يكبروا في جوّ كهذا". فقالت سوزان: "لِمَ لا تتركين أطفالك المزعومين خارج الحديث؟ إنّهم غير موجودين حتى، ليز. لِمَ لا تقرّين بأنّك *أنت* من لا يريد العيش بتعاسة بعد الآن؟ لا أحد منكما يريد ذلك. ومن الأفضل الإقرار بذلك الآن، للمناسبة، عوضاً عن اكتشافه في غرفة الولادة".

أذكر أنّني ذهبت مرّة إلى حفلة في نيويورك، أقامها زوجان، فنّانان ناجحان، أنجبا طفلاً للتوّ، لمناسبة افتتاح الزوجة معرضاً لرسوماتها الجديدة. أذكر أنّني راقبت تلك المرأة، الأم الجديدة، صديقتي، الفنّانة، وهي تحاول القيام بواجبات الضيافة في ذلك الحفل (الذي أقيم في شقّتها) والعناية في الوقت نفسه بطفلها الرضيع وهي تحاول مناقشة عملها مهنياً. لا أذكر أنّني رأيت يوماً شخصاً محروماً من النوم بهذا الشكل. لا أستطيع نسيان صورتها وهي واقفة في مطبخها بعد منتصف الليل، غارقة حتى مرفقيها في حوض جلي الصحون، محاولة تنظيف المكان بعد انتهاء الحفل. أمّا زوجها (آسَفُ لقول ذلك، وأدرك تماماً أنّه ليس نموذجاً عن جميع الأزواج *إطلاقاً*) فكان جالساً في الغرفة الأخرى، قدماه مرفوعتان على الطاولة، يشاهد التلفاز. سألَته أخيراً ما إذا كان قادراً على مساعدتها على تنظيف المطبخ، إلاّ أنّه أجاب: "اتركيه حبيبتي، سننظّفه في الصباح". هنا بدأ الطفل يبكي مجدّداً، وكان الحليب يتسرّب من ثديي صديقتي عبر فستان السهرة.

لا شكّ بأنّ الأشخاص الآخرين الذين حضروا السهرة، خرجوا بصور مختلفة عن تلك التي خرجت أنا بها. وربّما شعر الضيوف الآخرون بالحسد إزاء تلك المرأة الجميلة وطفلها صحيح الجسم، ومهنتها الفنية الناجحة، وزوجها اللطيف، وشقّتها الجميلة، وفستان السهرة الذي كانت ترتديه. وربّما كان ثمّة نساء مستعدّات لتبادل

الأدوار معهـــا على الفور، لو أتيحت لهنّ الفرصة. وعلى الأرجح، فإنّ تلك المرأة نفسها تتذكّر تلك الليلة – هذا إن كانت تفكّر فيها أصلاً – على أنّها ليلة متعبة ولكنّها مميّزة في حياتها السعيدة كأمّ وزوجة وفنّانة. ولكـــن، كـــلّ ما أستطيع قوله عن نفسي هو إنّني أمضيت تلك الليلة أرتجـــف مـــن الخـــوف وأفكّر، *إن لم تعترفي بأنّ هذا ما سيكون عليه مستقبلك، ليز، تكوني قد فقدت عقلك. لا تدعي هذا الأمر يحدث.*

لكـــن، هل يمكنني تحمّل مسؤولية العائلة؟ يا الله *المسؤولية*. تلك الكلمـــة تمعّنت بها وحلّلتها طويلاً إلى أن توصّلت إلى أنّها تعني القدرة علـــى الإجابة. وما ينبغي عليَّ الإجابة عنه هو حقيقة أنّ كلّ ذرّة من كـــياني كانت تأمرني بالخروج من زواجي. كان ثمّة جهاز إنذار مبكر يـــتوقع أنّـــني إن استمررت بمحاولة مقاومة تلك العاصفة، فسأصاب بالسرطان. وأنّني إن أنجبت أطفالاً إلى هذا العالم لأنّني لا أريد مواجهة خجلـــي من كشف بعض الأمور غير العملية عن نفسي، فسيكون *هذا* عملاً غير مسؤول إطلاقاً.

في الـــنهاية، أخـــذت بنصيحة قدّمتها لي صديقتي شيريل في تلك الليلة خلال الحفل حين وجدتني مختبئة في حمّام صديقتنا الجميل، أرتعد مـــن الخـــوف، وأرشّ وجهي بالماء. لم تكن شيريل تعرف ما يجري في زواجـــي، أحدٌ لم يكن يعرف. كما أنّني لم أخبرها تلك الليلة. كلّ ما أمكـــنني قـــوله: "لا أعـــرف ماذا أفعل". أذكر أنّها أمسكت بكتفيّ، ونظـــرت إلى عينيّ، وقالت ببساطة وهي تبتسم ابتسامة هادئة: "قولي الحقيقة، قولي الحقيقة، قولي الحقيقة".

هذا ما حاولت فعله.

مع ذلك، فإنّ إنهاء الزواج ليس بالأمر السهل، وليس فقط بسبب التعقيدات القانونية والمالية أو الفوضى الكبيرة التي تعمّ نمط الحياة. فقد

نـــصحتني صديقتي ديبورا مرّة بحكمة قائلة: "إنّ اقتسام الأثاث لم يقتل أحداً. بل الضغوطات العاطفية هي التي تقتلك، صدمة الخروج عن خطّ الحياة التقليدي وخسارة أسباب الرفاهية التي تبقي كثيراً من الناس على هذا الخطّ إلى الأبد. فبناء منـــزل مع زوج هو أحد أهم الوسائل لإيجاد الاستمرارية والمعنى للحياة في المجتمع الأميركي أو أيّ مجتمع آخر". فأنا أكتشف تلك الحقيقة مجدّداً في كلّ مرّة أجتمع فيها بعائلة أمّي الكبيرة في مينيسوتا، وأرى كيف يحتلّ كلّ من أفرادها مراكزهم باطمئنان على مـــرّ الـــسنوات. أوّلاً تكون طفلاً، ثمّ مراهقاً، ثمّ شاباً متزوّجاً، إلى أن تصبح أباً، ثمّ تتقاعد، ثمّ تصبح جداً؛ في كلّ مرحلة تعرف من أنت، ما هـــي واجباتك، وتعرف أين تجلس بينهم. تجلس إمّا مع الأولاد، أو مع المراهقين، أو الآباء الشباب، أو المتقاعدين. إلى أن تجلس أخيراً مع أبناء التسعين في الظلّ تراقب ذرّيتك برضىً. لا مشكلة في مَن تكون، أنت الشخص الذي أتى بكلّ هؤلاء. فهذه السعادة فوريّة لا بل معترف بها في الكـــون كلّـــه. كم مرّة سمعت الناس يقولون إن أطفالهم هم أعظم إنجـــاز في حـــياتهم ومـــصدر ســـعادتهم؟ عليهم يعتمدون في أزماتهم الميتافيزيقية أو في لحظات شكّهم بما حقّقوه في الحياة؛ *إن لم أحقّق شيئاً آخر، على الأقلّ فقد ربّيت أطفالي تربية حسنة.*

لكـــن ماذا لو انتهى بك الأمر إلى عدم المشاركة في هذه الحلقة العائلـــية وفي الاســـتمرارية، إمّا باختيارك أو بحكم الضرورة؟ ماذا لو خـــرجت عن الخطّ؟ أين تجلس في اجتماع العائلة؟ كيف تراقب مرور الـــوقت مـــن دون الخوف من إضاعة وقتك على الأرض من دون أن تحقّـــق شـــيئاً؟ عليك إيجاد هدف آخر، طريقة أخرى تحكم بها ما إذا كنت إنساناً ناجحاً أم لا. أنا أحبّ الأطفال، ولكن ماذا لو لم أنجب؟ أيّ نوع من الأشخاص يجعل منّي ذلك؟

كتبت فيرجينيا وولف قائلة: "عبر القارّة الواسعة لحياة المرأة، يمتدّ ظـــلّ سيف. من إحدى جهات ذاك السيف، تسود الأعراف والتقاليد والنظام، كلّ ما فيه صحيح. أمّا من الجهة الأخرى، إن كنت مجنونة إلى حدّ العبور إليها واختيار الحياة التي لا تتبع الأعراف، فلن تجدي سوى الفوضـــى. لا شيء فيها يتبع نظاماً معيّناً". وحجّتها أنّ عبور ظلّ ذاك السيف قد يجلب للمرأة حياة أكثر إثارة، ولكنّها من دون شكّ محفوفة بالمخاطر.

أعتقد بأنّني محظوظة لأنّ لديَّ موهبة الكتابة. فهذا أمر قد يفهمه الناس. *آه، تخلّت عن زواجها لتكرّس نفسها لفنّها*. هذا صحيح إلى حدّ مـــا، ولكـــن لـــيس تماماً. فكثير من الكاتبات لديهنّ عائلات. طوني موريـــسون مثلاً هي إحدى الأمثلة على ذلك. فتربية ابنها لم تمنعها من نـــيل مكافأة صغيرة نسمّيها جائزة نوبل. ولكنّ طوني موريسون شقّت طريقها الخاصّ بها، ويجدر بـــي أن أشقّ طريقي. يقول الباغافاد غيتا – وهـــو كـــتاب هندي يوغاني قديم – إنّه من الأفضل أن تعيش قدرك ناقصاً من أن تعيش تقليداً لحياة رائعة لشخص آخر. وقد بدأت أعيش حياتي. ومهما بدت مشوبة بالنواقص وخرقاء، إلاّ أنّها صارت تشبهني تماماً.

علـــى أي حـــال، قلـــت ما قلت لأقرّ فقط أنّه – مقارنة بحياة شقيقتي، بمنـــزلها وزواجها الناجح وأطفالها – أبدو غير مستقرّة إطلاقاً هذه الأيام. حتى إنّني لا أملك عنواناً، وتلك جريمة ضدّ الحياة العادية في ســـنّ الـــرابعة والثلاثين المتقدّمة. وحتى في هذه اللحظة، جميع مقتنياتي محفـــوظة في منـــزل كاثرين التي أعطتني غرفة مؤقّتة في الطابق العلوي مـــن منـــــزلها (نسمّيها مسكن *الخالة العزباء*، لأنّها تحتوي على نافذة علـــيّة أســـتطيع مـــن خلالها تأمّل المستنقعات وأنا أرتدي ثوب زفافي

القـــديم، حزناً على شبابــي الضائع). وقد بدت كاثرين مرتاحة لهذا التـــرتيب، وهو يلائمني بالتأكيد، ولكنّني قلقة من انجرافي في هذه الحياة العـــشوائية لوقت طويل إلى أنْ أصبح غريبة الأطوار. ربّما قد أصبحت كـــذلك أساســاً. ففي الصيف الماضي، أتت ابنة أختي ذات الخمس ســنوات بــصديقتها الصغيرة إلى منـــزل أختي للعب سوية. فسألت الطفلـــة عن تاريخ ميلادها. أجابت إنّه في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني.

"أوووه! أنـــت مـــن برج مائيّ إذاً! وَاعَدتُ ما يكفي من ذوي الأبراج المائية لأعرف أنّهم يجلبون *المتاعب*".

نظـــرت إليّ الفتاتان بحيرة وشيء من الارتياب والخوف. فخُيِّلت إليّ فجـــأة صورة مريعة للمرأة التي قد أصبح عليها إن لم أكن حذرة: الخالـــة ليـــز المجنونة. تلك المطلّقة ذات الشعر المصبوغ باللون البرتقالي والـــتي لا تأكل الألبان بل تدخّن المنتول، تكون عائدة دوماً من رحلة تنقـــيب أو منفـــصلة عن صديقها المعالج بالعطور، وتقول أشياء على غــــرار: "أحضري للخالة ليز كوباً آخر من الشراب، حبيبتي، وسأسمح لك بارتداء خاتمي المهدّئ للمزاج...".

عليّ أن أصبح من جديد مواطنة أكثر صلابة، أنا أدرك ذلك.

ولكن ليس بعد... *رجاءً*. ليس بعد.

31

خـــلال الأســـابيع الستّة التالية، سافرت إلى بولونيا، وفلورنسا، والبندقـــية، وصـــقلية، وسردينيا، ومرّة أخرى إلى نابولي، ومن ثمّ إلى كالابريا. كانت في معظمها رحلات قصيرة- أسبوع هنا، نهاية أسبوع

هناك - الوقت اللازم فقط للشعور بالمكان، والتجوّل فيه، وسؤال الناس في الشارع عن المكان الذي يقدّم الطعام الأفضل، ثمّ الذهاب لتناوله. في تلك الفترة، توقّفت عن الذهاب إلى مدرسة اللغة الإيطالية لأنّني بدأت أشعر بأنّها تعيق جهودي لتعلّم الإيطالية. فهي تبقيني مقيّدة في الصفّ عوضاً عن التجوال في إيطاليا، والتمرّن على اللغة مع الناس شخصياً.

كانت تلك الأسابيع من السفر العفويّ فترة رائعة من حياتي، بعضاً من أكثر الأيام التي عشتها تحرّراً، إذ كنت أركض إلى محطّة القطار وأبتاع التذاكر هنا وهناك. إلى أن بدأت أشعر أخيراً بأنّ حرّيّتي أصبحت محصورة في *قدرتي على الذهاب أينما أشاء*. توقّفت عن رؤية أصدقائي في روما لفترة. قال لي جوفاني مرّة عبر الهاتف: "*Sei una trottola*" (أنت دوّامة). في إحدى الليالي كنت نائمة في بلدة متوسّطية في مكان ما، في غرفة فندق مطلّ على البحر، حين أيقظني صوت ضحكتي من نوم عميق. استيقظت مجفلة. *من الذي يضحك في سريري؟* وإدراكي بأنّ الضحك كان صادراً عنّي دفعني إلى الضحك مجدّداً. لم أعد أذكر الآن بماذا كنت أحلم، ولكنّني أظنّ بأنّ لذاك الحلم علاقة بالمراكب.

32

ذهبت إلى فلورنسا في عطلة نهاية الأسبوع فقط، في رحلة سريعة بالقطار صباح يوم الجمعة للقاء عمّي تيري وعمّتي ديب، اللذين أتيا من كونكتيكت لزيارة إيطاليا للمرّة الأولى في حياتهما، ورؤيتي بالطبع. وصلا في المساء، فاصطحبتهما في نزهة سيراً على الأقدام لرؤية الدوومو، الذي يشكّل دوماً مشهداً مؤثّراً، كما يبدو من ردّ فعل عمّي:

"يا للروعة!" ثمّ توقّف قليلاً قبل أن يضيف: "ولكن ربّما لا يجدر بـــي مدح دار عبادة كاثوليكي بهذا الشكل...".

شـــاهدنا نـــساء الـــسابين يختطفن هناك في وسط الحديقة ذات المنحوتة من دون أن يقوم أحد بأيّ شيء لإيقاف ذلك، ثمّ ألقينا التحية علـــى مايكـــل أنجلو، وزرنا متحف العلوم، وتأمّلنا المناظر الرائعة من ســـفوح التلال المنتشرة حول المدينة. ثمّ تركت عمّي وعمّتي ليستمتعا ببقـــية عطلتهما من دوني، وتوجّهت بمفردي إلى لوكا، المتميّزة بثرائها ووفـــرتها، تلك البلدة التوسكانية الصغيرة، الشهيرة بمتاجر اللحوم، التي تعـــرض عـــبر البلدة أرقّ شرائح اللحم التي رأيتها في إيطاليا على نحو شهيّ وكأنّها تقول: "أنت تعرف بأنّك تريدها". كانت النقانق بجميع الأحجام والألوان والمشتقّات التي يمكن تصوّرها محشوّة وكأنّها سيقان نساء في جوارب مثيرة، تتدلّى من أسقف متاجر الجزّارين. فيما علّقت الأفخاذ الشهية في الواجهات، تتمايل وكأنّها مراكب صيد أمستردامية. أمّـــا الدجاجات، فبدت شديدة الامتلاء والرضى حتى وهي ميتة حتى إنّك لتظنّ بأنّها قدّمت نفسها قرباناً بفخر، بعد أن تنافست في ما بينها في حـــياتها حول من تكون الأكثر طراوة وسمنة. ولكن ليست اللحوم وحـــدها هي الرائعة في لوكا، بل ثمّة أيضاً الكستناء والدرّاق والأنواع العديدة من التين. يا الله، ما أطيب التين هناك...

تشتهر لوكا أيضاً بالطبع بكونها مسقط رأس بوتشيني. أعلم أنّه يجدر بهذا الأمر أن يثير اهتمامي، ولكنّني كنت مهتمّة أكثر بالسرّ الذي أفضى به إليّ البقّال، وهو أنّ أفضل فطر في لوكا يقدّمه مطعم إلى *الجانب الآخر* من مـــسقط رأس بوتشيني. فرحت أجوب لوكا أسأل الناس بالإيطالية: "هل لـــك أن تدلّني أين يقع منـــزل بوتشيني؟" أخيراً قادني إليه أحد المواطنين اللطفـــاء، ولا بـــدّ من أنّه فوجئ كثيراً حين قلت: "*Grazie*"، ثمّ التفتت

علـــى عقبـــــي، وسرت بالاتجاه المعاكس تماماً لمدخل المتحف، لأدخل مطعماً وأنتظر تحت المطر طبق *risotto ai gunghi*.

لم أعـــد أذكـــر الآن ما إذا كنت قد زرت بولونيا قبل لوكا أم بعدها. على كل حال، بولونيا مدينة جميلة جداً إلى حدّ أنّني لم أتوقّف عـــن الغناء طيلة وجودي هناك: "لبولونيا اسم أوّل! إنّه جميلة". كانت بولونيا تدعى تقليدياً – بقرميدها الأحمر وثرائها المعروف – "الحمراء، والغنـــية، والجميلة". (نعم، كان هذا عنواناً بديلاً للكتاب). الطعام هنا أفضل من روما بالتأكيد، أو ربّما يستعملون الزبدة بكميات أكبر. حتى الجيلاتو في بولونيا أفضل (أشعر بشيء من عذاب الضمير لقول ذلك، ولكنّه صحيح). أمّا الفطر فهو هنا كبير، ريان، وشهيّ، وشرائح اللحم تفتـــرش البيتزا وكأنّها وشاح رقيق يتدلّى فوق قبّعة نسائية أنيقة. وثمّة بالطبع الصلصة البولونية، التي تضحك بازدراء من أي صلصة أخرى.

لاحظت وأنا في بولونيا أنّه لا يوجد مقابل لعبارة *buon appetito* بالإنكليزية. هذا مؤسف. لاحظت أيضاً بأنّ محطّات القطار في إيطاليا تحمل أسماء أشهر الأطعمة والمشروبات في العالم، *بارما*... المحطّة التالية، *بولونـــيا*... المحطّة التالية، اقتربنا من *مونتيبولتشانو*... وفي القطارات ثمّة طعـــام أيـــضاً، بالطـــبع؛ شطائر صغيرة وشراب الشوكولاته الساخن الطـــيّب. وإن كان المطر يهطل في الخارج، تكون الرحلة أجمل وأنت تأكـــل. في إحـــدى الرحلات الطويلة، سافرت في مقصورة قطار مع شابّ إيطالي وسيم نام لأربع ساعات في أثناء هطول المطر وأنا أتناول سلطة الأخطبوط. حين استيقظ الشابّ قبل وصولنا إلى البندقية بقليل، فرك عينيه ونظر إليّ بتمعّن من قدميّ إلى رأسي ثمّ قال: "*Carina*" أي: *جميلة*.

أجبته: "*Grazie mille*"، بتهذيب مبالغ فيه. أي: *ألف شكر*.

بدت عليه الدهشة، فهو لم يتوقّع أن أتحدّث الإيطالية. ولا أنا في الواقع، إلاّ أنّنا تحدّثنا لعشرين دقيقة تقريباً، وأدركت للمرّة الأولى بأنّني أتحدّث الإيطالية بالفعل. لقد قطعت أشواطاً عدّة وأنا أتحدّث الإيطالية الآن. لا أترجم بل أتحدّث. بالطبع، ثمّة خطأ في كلّ جملة، ولا أعرف استعمال سوى ثلاثة أزمنة، ولكنّني قادرة على التواصل مع هذا الشابّ من دون جهد كبير. Me la cavo، هذا ما تقوله بالإيطالية، ويعني أساساً *أستطيع تدبّر أمري*، ولكنّه مشتقّ من الفعل نفسه الذي يستعمل للحديث عن نزع غطاء زجاجة شراب. ما أعنيه هو *أنّني قادرة على استعمال هذه اللغة في الحالات الحرجة*.

كان الشابّ يحاول التعرّف بي، ذاك الطفل! غير أنّ الأمر لم يكن يخلو من الإطراء، فهو جذّاب إلى حدّ ما. مع أنّه كان مغروراً بعض الشيء. وبقصد مجاملتي بالطبع، قال لي: "أنت لست بدينة جداً بالنسبة إلى امرأة أميركية".

فأجبته بالإنكليزية: "وأنت لست مدهناً جداً، بالنسبة إلى رجل إيطالي".

"كيف؟".

كرّرت ما قلت، بإيطالية معدّلة بعض الشيء: "وأنت لطيف جداً، مثل جميع الرجال الإيطاليين".

أستطيع تحدّث هذه اللغة! يعتقد الشابّ أنّه يعجبني، إلاّ أنّني كنت أغازل الكلمات. يا الله – أخيراً حُلّت عقدة لساني، وصارت الإيطالية تتدفّق من فمي! يريدني أن أقابله في البندقية، ولكنّني لست مهتمّة به. أنا متيّمة باللغة وحسب، فتركته يفلت من يدي. على أي حال، أنا على موعد مع شخص آخر في البندقية، سأقابل صديقتي ليندا هناك.

ليندا المجنونة، هكذا أسمّيها مع أنّها ليست كذلك، آتية إلى البندقية من سياتل، مدينة رطبة ورمادية أخرى. أرادت المجيء لرؤيتي في إيطاليا، فدعـــوتها لمشاركتي في هذا الجزء من رحلتي، لأنّني أرفض رفضاً قاطعاً الـــذهاب إلى المدينة الأكثر شاعرية على وجه الأرض بمفردي. لا ليس الآن، لـــيس في هـــذا العـــام. رحت أتخيّل نفسي وحيدة، في طرف الجندول، يقودني الجناديلي عبر الضباب الرقيق وهو يدندن فيما... أقرأ مجلّة؟ إنّها صورة حزينة، شبيهة بصعود تلّة على درّاجة لشخصين. لذا، ستوفّر لي ليندا الرفقة، والرفقة الجيدة في هذه الرحلة.

قابلـــت ليندا (بخصل شعرها الغريبة وقرطيها) في بالي منذ عامين تقـــريباً، حـــين ذهبت إلى مركز اليوغا. بعد ذلك، ذهبنا في رحلة إلى كوستاريكا معاً أيضاً. إنّها من الأشخاص المفضّلين لديَّ للسفر معهم، فتاة مسلّية، منظّمة، لطيفة بسراويلها المخملية الحمراء. تملك ليندا روحاً شديدة المرح، يصعب عليها فهم الاكتئاب وتمتاز بتقدير رفيع للذات. قالت لي مرّة وهي تنظر إلى نفسها في المرآة: "أقرّ بأنّني لست من النساء اللـــواتي يبدون رائعات في كلّ شيء، ولكنّني أحبّ نفسي مع ذلك". وهي تملك تلك القدرة على إسكاتي حين أبدأ بطرح أسئلة ميتافيزيقية، على غرار: "ما هي طبيعة الكون؟" (تجيب ليندا: "السؤال الوحيد الذي أطـــرحه هو: لِمَ السؤال؟") تودّ ليندا إطالة شعرها كثيراً يوماً ما بحيث تنـــسجه حـــول هيكل من الأسلاك على قمّة رأسها وتربـــي بداخله عـــصفوراً ربّما. وحين لا تعتني بالسحالي وحيوانات ابن مقرض التي تربّيها، تكون مشغولة بإدارة فريق تطوير برامج في سياتل وتكسب من المال أكثر من أيّ منّا.

هكذا التقينا هنا في البندقية، فقطّبت ليندا حاجبيها وهي تتفحّص خـــريطة المديـــنة وتقلبها رأساً على عقب لتحديد موقع الفندق الذي

نـنــــــزل فيه ومكان وجودها، ثمّ أعلنت بتواضع مميّز: "أصبحنا نعرف المدينة ككفّ يدنا".

في الواقـــع، مـــرحُها وتفاؤلها لا يتناسبان إطلاقاً مع هذه المدينة المائية، والبطيئة، والغائرة، والغامضة، والساكنة، والغريبة. فالبندقية تبدو مدينة مناسبة ليموت فيها المرء موتاً بطيئاً أو ليفقد فيها محبوبه أو يفقد فـــيها الـــسلاح الذي قَتَل المحبوب. حين رأيت البندقية، سررت لأنّني اختـــرت العـــيش في رومـــا. إذ إنّني لا أعتقد أنّني كنت لأتوقّف عن استعمال مضادّات الاكتئاب بالسرعة نفسها هنا. فالبندقية جميلة، مثل جمال أفلام برغمان؛ تعجبك ولكنّك لا تتمنّى العيش فيها.

كانـــت المديـــنة بأكملها تضمحلّ وتتلاشى مثل غرف القصور القديمـــة التي تقفلها العائلات التي كانت ثرية في ما مضى حين تصبح صـــيانتها مكلفـــة جداً، فتغلقها وتنسى أمر الكنوز المحتضرة في الجهة الأخرى من المنـــزل؛ تلك هي البندقية. مجارٍ زلِقة من مياه الأدرياتيكي تتدفق عبر أسس المدينة التي عانت طويلاً، تختبر قوة احتمال تلك الأبنية العائدة إلى القرن الرابع عشر؛ *ماذا لو بنينا مدينة عائمة على سطح الماء طيلة الوقت؟*

تـــبدو البندقية مدينة أشباح تحت سمائها الضبابية في شهر تشرين الثاني. فهي تصرّ وتتمايل كسارية قارب. وعلى الرغم من ثقة ليندا في الـــبداية أنّـــنا نستطيع حكم المدينة، كنّا نضيع كلّ يوم، لا سيّما ليلاً، فـــندخل في منعطفات خاطئة تقودنا إلى زوايا معتمة تنتهي مباشرة إلى المـــياه. وفي لـــيلة كثيفة الضباب، مررنا من أمام أحد الأبنية الذي بدا وكأنّـــه يئنّ من الألم. فهمست ليندا: "لا تخافي، إنّه صوت معدة شبح جائـــع". فعلّمتها كلمتي الإيطالية المفضّلة - *attraversiamo* (فلنعبر الشارع) - وعدنا أدراجنا بأعصاب مشدودة.

كانـــت المـــرأة التي تملك مطعماً قرب مكان إقامتنا شابة جميلة ولكـــنّها تعيسة. فهي تكره البندقية، مع أنّها مدينتها. وتقسم بأنّ كلّ من يعيش في البندقية يعتبرها قبراً. ومع أنّها أغرمت مرّة بفنان سرديني وعـــدها بأخذها للعيش في عالم آخر من الشمس والنور، إلاّ أنّه تركها مـــع ثلاثة أطفال، ولم يترك لها خياراً سوى العودة إلى البندقية وإدارة مطعم العائلة. كانت في مثل سنّي، ولكنّها بدت أكبر منّي، ولم أستطع أن أتخـــيّل أيّ رجل كان هذا الذي تخلّى عن امرأة بهذا الجمال. (قالت عـــنه: "كان قويا وقد أضناني حبّه"). البندقية مدينة محافظة. مع ذلك، أقامـــت تلك المرأة علاقات عاطفية فيها، إلاّ أنّها انتهت كلّها بتعاسة. وكان الناس المقيمون في الجوار يتحدّثون عنها، غير أنّهم يصمتون حين تمرّ في الغرفة. لذا، كانت أمّها ترجوها ارتداء خاتم زواج للحفاظ على المظاهـــر قائلة: حبيبتي، *أنت لست في روما، لا يمكنك العيش هنا على هـــواك*. وكنّا كلّ صباح نأتي أنا وليندا لتناول الفطور ونسأل المالكة الفينيـــسية الشابة/العجوز الحزينة عن الطقس، فترفع إبهام وسبابة يدها الـــيمنى علـــى شكل مسدّس وتضعها على صدغها قائلة: "المزيد من الأمطار".

مع ذلك، لم أشعر بالاكتئاب هنا. تمكّنت من العيش في المدينة، لا بـــل واســـتمتعت بكآبة البندقية لعدّة أيام وحسب. فقد كان بإمكاني التمييـــز بأنّ تلك الكآبة لم تكن تخصّني، بل هي كآبة المدينة، وكنت ســـليمة بمـــا يكفي هذه الأيام لأشعر بالفرق بيني وبينها. كما أنّني لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنّها كانت إشارة إلى شفائي، إلى تخثّر ذاتي. فقد أضعت بضع سنوات في يأس بلا حدود، شعرت خلالها بحزن العالم كلّه على أنّه حزني. غير أنّ كلّ الأحزان تسرّبت منّي، وتركت آثاراً رطبة خلفها.

على أي حال، كان من الصعب الشعور بالاكتئاب بوجود ليندا وهـي تثرثـر بقربـي، وتحاول إقناعي بشراء قبّعة من الفراء عملاقة، وتـسألني عن العشاء القذر الذي تناولناه في إحدى الليالي: "هل كان ذاك طـبق الـسيدة بول من أعواد لحم العجل؟" ليندا تلك هي أشبه باليراعـة. في العصور الوسطى، كان ثمّة مهنة للرجال في البندقية تدعى *codega* وهو شخص تستأجره ليسير أمامك ليلاً حاملاً مصباحاً لينير لك الطريق ويخيف اللصوص والأشباح ويؤمّن لك الثقة والحماية وأنت تـسير عبر الشوارع المظلمة. تلك هي ليندا، *الكوديغا* الفينيسي المؤقّت الخاص بـي.

33

ترجّلت من القطار بعد بضعة أيام ووجدت روما غارقة في الحرّ، والشمس، والفوضى الأبديّة. وبمجرّد نزولي إلى الشارع، أمكنني سماع هتاف *manifestazione* شبيه بالهتاف المتعالي من ملعب كرة قدم، لا بـدّ بأنّها مظاهرة عمّالية أخرى. أمّا سبب المظاهرة فلم يتمكّن سائق التاكسي من إخباري به، لأنّه على ما يبدو، لا يأبه بذلك. "*'Sti cazzi*"، قال عن المضربين. (ما يعني حرفياً: *تلك الكرات*، أو كما نقول: *لا آبه بهم*). كنت سعيدة بعودتي. فبعد رصانة وهدوء البندقية، من الجميل العـودة إلى هذه المدينة التي يمكن أن ترى فيها رجلاً في سترة من جلد النمـر يمـرّ بمراهقَين يقبّلان بعضهما في وسط الشارع. كانت المدينة تضجّ بالحياة، مليئة بالجمال والإثارة تحت أشعّة الشمس الساطعة.

أذكـر قول زوج صديقتي ماريا، جوليو، مرّة، حين كنّا جالسَين في مقهىً في الهواء الطلق، نتمرّن على المحادثة، وسألني عن رأيي بروما.

أجبـــته بأنّني أحببتها كثيراً بالطبع، ولكنّني أعرف بأنّها ليست مدينتي، ولا يمكنني العيش فيها لبقية حياتي. فثمّة جانب في روما لا ينتمي إليّ، و لم أتمكّـــن مـــن التقاطه. ولكن، فيما كنّا نتحدّث، مرّ عنصر بصريّ ساعدني على التعبير. كانت امرأة رومانية نموذجية؛ سيّدة متأنّقة بشكل مـــذهل، ترتدي مجوهرات على نحو مفرط، وتبدو في العقد الرابع من العمـــر. كانـــت تنـــتعل حذاءً يبلغ ارتفاع كعبيه عشرة سنتمترات، وترتدي تنّورة ضيّقة مع شقّ بطول ذراع، وتضع نظارة واقية من أشعة الـــشمس شبيهة بسيارات السباق (ولا تقلّ عنها كلفةً على الأرجح). كانت تنـــزّه كلبها الصغير الأنيق، تجرّه برسن مزيّن بالأحجار اللامعة، وكـــان الفراء الذي يغطّي ياقة سترتها الضيقة يبدو وكأنّه مصنوع من جلـــد كلبها الصغير الأنيق السابق. كانت تبثّ حولها جوّاً من السحر الهائل الذي يقول: "ستنظرون إليّ ولكنّني سأرفض النظر إليكم". وكان من الصعب التخيّل بأنّها أزالت المسكارا عن رموش عينيها، وإن لعشر دقائـــق في حياتها. كانت تلك المرأة نقيضي تماماً، أنا التي تصف أختي ملابسي قائلة: "ستيفي نيكس ذاهبة إلى صفّ اليوغا بملابس النوم".

أشـــرت إلى المرأة وقلت لجوليو: "أترى، تلك امرأة رومانية. لا يمكن لروما أن تكون مدينتي ومدينتها على السواء. إحدانا فقط تنتمي إليها. وأعتقد أنّ كلينا نعرف مَن".

أجابني جوليو: "ربّما كنت أنت وروما تملكان كلمات مختلفة".

"ماذا تعني؟".

قـــال: "ألا تعرفين أنّ السرّ لفهم مدينة ما وشعبها هو تعلّم كلمة الشارع؟".

ثمّ راح يـــشرح لي، بمـــزيج من الإنكليزية والإيطالية والإشارات الـــيدوية قـــائلاً: "إنّ لكلّ مدينة كلمة واحدة تعرّفها، وتعرّف معظم

الـــناس الـــذين يعيشون فيها. وإن تمكّنتِ من قراءة أفكار الناس وهم يمـــرّون بقربك في الشارع في أيّ مكان من الأمكنة، فستكتشفين بأنّ معظمهـــم تشغلهم الفكرة نفسها. ومهما كانت فكرة هؤلاء الأغلبية؛ تلـــك هـــي كلمة المدينة. وإن كانت كلمتك الشخصية لا تتلاءم مع كلمة المدينة، فأنت لا تنتمين إليها فعلاً".

سألته: "وما هي كلمة روما؟".

أعلن قائلاً: "جنس".

"ولكن ألا يضع ذلك روما في قالب أحادي النمط؟".

"كلا".

"ولكـــن بالطبع ثمّة في روما بعض الأشخاص الذين يفكّرون في أمور أخرى غير الجنس؟".

أصرّ جوليو قائلاً: "كلاّ. جميعهم لا يفكّرون طيلة النهار سوى في الجنس".

"حتى في الفاتيكان؟".

"الأمر يختلف. فالفاتيكان ليس جزءاً من روما...".

"اعتقدت أنّها ستكون *إيمانًا*".

كرّر قائلاً: "إنّها *سُلطة*. ثقي بـــي. أمّا في روما، فهي *جنس*".

اســـتناداً إلى كلام جوليو، فإن تلك الكلمة الصغيرة - جنس - تفترش شوارع روما تحت قدميك، وتجري في مياه النوافير، وتملأ الهواء مثل ضجيج حركة السير. فكل ما يفعله الجميع هو التفكير فيه، ارتداء الملابـــس لأجله، السعي إليه، قبوله، رفضه، تحويله إلى رياضة أو لعبة. لهـــذا الـــسبب، لا أشعر بأنّ روما، على الرغم من جمالها، تصلح لأن تكـــون موطـــناً لي. ليس في هذه المرحلة من حياتي. لأنّ الجنس ليس كلمـــتي حالـــياً. كان كذلك في أوقات أخرى من حياتي، ولكن ليس

الآن. بالتالي، فإنّ كلمة روما التي تدور في الشوارع تصطدم بي وترتدّ على الأرض، من دون أن تترك أيّ أثر. أنا لا أشارك في الكلمة، وبالتالي لا أعيش تماماً هنا. إنّها نظرية غريبة يصعب عليَّ إثباتها ولكنّها تعجبني.

سألني جوليو: "ما هي كلمة نيويورك؟".

فكّرت للحظة ثمّ قلت: "أعتقد بأنّها *إنجاز*".

(وهي تختلف قليلاً ولكنّه اختلاف ملحوظ عن كلمة لوس أنجلوس، على ما أعتقد، والتي هي *نجاح*. لاحقاً، سأشارك هذه النظرية مع صديقتي السويدية صوفي، التي ستعطي رأيها بكلمة شوارع ستوكهولم *تطابُق*، ما جعلنا نشعر كلتانا بالإحباط).

سألت جوليو: "ما هي كلمة نابولي؟" فهو يعرف جنوب إيطاليا جيّداً.

قال: "*قتال*. ما كانت كلمة عائلتك حين كنت صغيرة؟".

كان السؤال صعباً. كنت أحاول إيجاد كلمة تجمع بين *اقتصاد* و*وقاحة*. ولكنّ جوليو كان قد انتقل إلى السؤال التالي والأكثر بديهية: "ما هي كلمتك؟".

ليس *هذا*، لم أتمكّن من الإجابة بالتأكيد.

وحتى بعد عدة أسابيع من التفكير، لم أتمكّن من الإجابة. أعرف ما هي الكلمات التي ليست لي. فهي ليست *زواجاً* بالتأكيد. ولا *عائلة* (مع أنّها كانت كلمة المدينة التي عشت فيها لبضع سنوات مع زوجي، وبما أنّها لم تلائمني، فكانت سبباً أساسياً لمعاناتي). وهي لم تعد *اكتئاباً*، بفضل الله. كما أنّني غير مهتمّة بكلمة ستوكهولم *تطابق*. ولا أشعر بأنّني ما زلت أنتمي تماماً إلى كلمة نيويورك، *إنجاز*، مع أنّها كانت كلمتي خلال العقد الثاني من عمري. قد تكون كلمتي *بحثاً*. (ولكن

كي أكون صادقة، يمكنها أن تكون بسهولة *اختباء*). ففي الأشهر الأخيرة التي أمضيتها في إيطاليا، كانت كلمتي إلى حدّ كبير *متعة*. إلاّ أنّها لا تتلاءم مع كلّ جزء من كياني، وإلاّ ما كنت لأتلهّف إلى الذهاب إلى الهند. قد تكون كلمتي *تفانيًا*، مع أنّ هذا يجعلني أبدو إنسانة صالحة أكثر ممّا أنا عليه ولا يأخذ في الاعتبار كمية الشراب الذي أتناوله.

لا أعرف الجواب في الواقع، وأفترض بأنّ هذا هو الهدف من رحلتي. إيجاد كلمتي. ولكن أستطيع القول بثقة إنّها ليست *جنسًا*.

أو هكذا أزعم على أي حال. وإلاّ فأخبرني إذاً لِمَ قادتني قدماي اليوم إلى متجر في طرف فيا كوندوتّي، أمضيت فيه، تحت إشراف البائعة الإيطالية الشابة، بضع ساعات حالمة (وما يعادل قيمة تذكرة جوية بالدرجة الأولى) لشراء ملابس داخلية تكفي لإلباس زوجة سلطان لألف ليلة وليلة. ابتعت صُدريات من مختلف الأشكال، وقمصاناً داخلية شفّافة ورقيقة وسراويل من جميع الألوان، بما فيها الستان الأبيض والحرير الناعم والسراويل الضيقة يدوية الصنع وواحداً تلو الآخر من السراويل الحمراء المخرّمة المجنونة.

لم يسبق لي شراء أشياء كهذه من قبل. إذاً لِمَ الآن؟ وفيما كنت أسير خارج المتجر، أحمل مشترياتي الفاضحة تحت ذراعي، تذكّرت السؤال المؤلم الذي صرخ به أحد هواة كرة القدم في مباراة اللاتسيو، حين قام النجم ألبرتيني في لحظة حاسمة بتمرير الكرة إلى مكان خال، من دون سبب، ما أفشل المباراة تماماً.

"*Per chi???*" صرخ الهاوي بجنون تقريباً. "*Per chi???*"

لمن؟؟؟ لمن مرّرت تلك الكرة ألبرتيني؟ ما من أحد *هناك*!

بعـــد الساعات التي قضيتها في شراء الملابس الداخلية، تذكّرت تلك الجملة وأنا أسير في الشارع وهمست لنفسي بها: "*Per chi???*"

لمن، ليز؟ لمن كلّ هذه الإثارة؟ ما من أحد *هناك*. لم يبقَ لي سوى بضعة أسابيع في إيطاليا وليست لديَّ أي نيّة على الإطلاق بالتورّط مع أحـــد. أم أنّـــني أنـــوي ذلك؟ هل تأثّرت أخيراً بكلمة شوارع روما؟ أكانـــت تلـــك محاولة أخيرة لأصبح إيطالية؟ أهي هديّة لي، أم هدية لعـــشيق لم يخطر في بالي بعد؟ أهي محاولة للبدء بعلاج شهوتي الجنسية بعد الكارثة التي تسبّبت بها علاقتي الأخيرة لثقتي الجنسية بنفسي؟

سألت نفسي: "هل ستأخذين كلّ هذا إلى *الهند*؟".

34

يـــصادف يوم ذكرى ميلاد لوكا سباغيتي هذا العام يومَ ذكرى الـــشكر في أميركا. لذا، أراد إعداد ديك حبش لحفلة ذكرى ميلاده. فهـــو لم يسبق له أن تناولَ ديك حبش كبيراً، وسميناً، ومشوياً، مع أنّه رآه في الـــصور. ويعـــتقد بأنّه من السهل إعداد هذه الوليمة، لا سيّما بمـــساعدتي، لكـــوني أميركية أصلية. قال بأنّه يستطيع استعمال مطبخ صـــديقيه ماريو وريمونا اللذين يملكان منـــزلاً كبيراً في الجبال خارج روما، ولطالما استضافا حفلات ذكرى ميلاد لوكا.

أمّـــا خطّـــة لوكا للاحتفال فتقوم على اصطحابـــي في حوالى الـــساعة السابعة مساءً بعد انتهاء عمله، لنسافر بالسيارة شمالاً خارج روما لساعة من الزمن تقريباً إلى منـــزل صديقيه (حيث سنلتقي ببقية المدعوّين) فنتناول الشراب ونتعرّف ببعضنا، ثمّ نبدأ عند حوالى الساعة التاسعة بطهو ديك الحبش الذي يبلغ وزنه عشرة كيلوغرامات...

اضـــطررت إلى الشرح للوكا كم يستغرق طهو ديك من الحبش يـــبلغ وزنـــه عشرة كيلوغرامات. وقلت له بأنّنا لن نتمكّن من تناول وليمة ذكرى ميلاده في تلك الحالة قبل فجر اليوم التالي. فأوشك على البكاء. "ولكن ماذا لو اشتريت ديك حبش صغيراً؟ حديث الولادة؟".

قلت له: "لوكا، فلنبسّط الأمور ولنتناول البيتزا، مثلما تحتفل أي عائلة أميركية طيبة بذكرى الشكر".

إلاّ أنّــه ظلّ تعيساً بسبب ذلك. علماً أنّ ثمّة جوًّا من الحزن العام يـــسود رومـــا الآن. فقـــد أصبح الجوّ بارداً. كما أنّ عمّال النظافة، وموظّفي القطار، والخطوط الجويّة الوطنية أعلنوا الإضراب ليوم واحد. وكـــان قـــد تمّ للـــتوّ نشر دراسة تشير إلى أن 36 بالمئة من الأطفال الإيطالـــيين يعانون من الحساسية تجاه الغلوتين اللازم لصنع الباستا والبيتزا والخبـــز، أساس الثقافة الإيطالية. لا بل أسوأ من ذلك، فقد قرأت مؤخّراً مقـــالاً تحت هذا العنوان المروّع: "*Insoddisfatte 6 Donne su 10*" أي أنّ ســـتًّا من كلّ عشر نساء إيطاليات لا يشعرن بالرضى الجنسي. ناهـــيك عن أنّ 35 بالمئة من الرجال الإيطاليين يعانون من صعوبة في الحفاظ على *un'erezione* أي *الانتصاب*، ما يترك الباحثين *perplessi* حائرين في الواقع، ويجعلني أتساءل ما إذا كان يجب أن يُسمح بأن تبقى كلمة جنس هي كلمة روما الخاصة بعد اليوم.

وفي أنـــباء أكثر خطورة، تبيّن بأنّ تسعة عشر جندياً قد قتلوا في حـــرب الأميركـــيين (كمـــا تسمّى هنا) على العراق، وهو أكبر عدد للوفـــيات العسكرية في إيطاليا منذ الحرب العالمية الثانية. وقد شعر أهل رومـــا بالـــصدمة أمام تلك الوفيات، وأقفلت المدينة يوم دفن الجنود. فالأغلبـــية العظمى من الإيطاليين لا يريدون المشاركة في حرب جورج بـــوش. والتورّط فيها كان بقرارٍ من سيلفيو برلوسكوني، رئيس وزراء

إيطاليا (والذي يدعى هنا عموماً *l'idiota*). فرجل الأعمال هذا، الذي يفتقد إلى الذكاء، والذي يملك نادياً لكرة القدم، والذي يحرج مواطنيه دوماً بالقيام بحركات خليعة في البرلمان الأوروبي، فضلاً عن تاريخه الحافل بالفساد، ذاك الرجل البارع في المراوغة والذي يتحكّم ببراعة بوسائل الإعلام (وهذا ليس بالأمر الصعب ما دام يملكها)، ولا يتصرّف عموماً كزعيم عالمي حقيقي بل كمختار لقرية نائية، قد ورّط الإيطاليين الآن في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

"ماتوا في سبيل الحرّية"، قال برلوسكوني خلال مأتم الجنود الإيطاليين التسعة عشر، ولكنّ رأي معظم أهالي روما كان مختلفاً: *ماتوا في سبيل ثأر جورج بوش الشخصي*. قد يبدو هذا الجوّ السياسيّ صعباً على الزائر الأميركي. في الواقع، توقّعت مواجهة شيء من الاستياء عند مجيئي إلى إيطاليا. ولكنّني لم أجد عوضاً عن ذلك سوى التعاطف من معظم الإيطاليين. وعند أيّ ذكر لجورج بوش، كان الناس يهزّون برؤوسهم قائلين: "نفهم ذلك، لدينا واحد نحن أيضاً".

لقد كنّا هناك.

من الغريب بالتالي أن يرغب لوكا بالاحتفال بذكرى الشكر الأميركي في ذكرى ميلاده في ظلّ هذه الظروف، ولكن تعجبني الفكرة. فعطلة الشكر جميلة، يفتخر بها الأميركيون، إنّه احتفالنا الوطني الوحيد الذي لم يطرأ عليه أيّ تغيير نسبياً. إنّه يوم شكر واجتماع و- بالطبع - *متعة*. وربّما كان هذا ما نحتاج إليه كلّنا الآن.

كانت صديقتي ديبورا قد أتت إلى روما من فيلادلفيا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع والاحتفال معي. ديبورا هي عالمة نفس ذات شهرة عالمية، فضلاً عن كونها كاتبة ومنظّرة في مجال حقوق المرأة، إلاّ أنّني ما زلت أذكرها كزبونتي المفضّلة والمنتظمة، حين كنت أعمل كنادلة في

مطعـــم فيللي وكانت تأتي لتناول الغداء مع الكوكا الخاصة بالحمية من دون ثلج وتقول لي أشياء ذكية وهي تبتاع طعامها. صداقتنا ترجع الآن إلى خمـــسة عـــشر عاماً. كما أنّ صوفي مدعوّة إلى حفلة لوكا أيضاً. ولكـــنّ صداقتنا أنا وصوفي ترجع إلى خمسة عشر أسبوعاً فقط. جميع الـــناس مـــرحّب بهم دوماً في ذكرى الشكر. لا سيّما إن صادف يوم ذكرى ميلاد لوكا سباغيتي.

قـــدنا الـــسيارة في ساعة متأخّرة من المساء بعيداً عن جوّ التعب والتوتّـــر الذي يسود روما وتوجّهنا نحو الجبال. كانت موسيقى فرقة الإيغلز تصدح طيلة الطريق، فلوكا يحبّ الموسيقى الأميركية، ما أضفى جـــوًّا كاليفورنياً على رحلتنا عبر كروم الزيتون والأقنية القديمة. وصلنا إلى منـــزل صديقَي لوكا، ماريو وريمونا، أبويّ التوأمتين جوليا وسارا، البالغتين اثني عشر عاماً. كان باولو - صديق لوكا الذي سبق أن قابلته في مـــباريات كرة القدم - هناك أيضاً، مع صديقته. وبالطبع، كانت صديقة لوكا، جوليانا، هناك أيضاً، وكانت قد وصلت في ساعة مبكرة مـــن المـــساء. كـــان المنـــزل الأنيق قابعاً في كرم من أشجار الزيتون والبرتقال والليمون، فيه موقد مشتعل وزيت زيتون منـــزليّ الصنع.

لم يكـــن ثمّة وقت لطهو ديك الحبش الذي يبلغ من الوزن عشرة كيلوغـــرامات، بالطبع، ولكن لوكا حضّر بعض شرائح صدر الحبش، وأشـــرفت أنا على المجهود الجماعي لإعداد حشوة الحبش، محاولةً قدر الإمكـــان تذكّـــر الوصـــفة المؤلّفة من فتات الخبز الإيطالي مع البدائل الـــضرورية الـــتي يفرضها الاختلاف الثقافي (التمر عوضاً عن المشمش والشُّمرَة عوضاً عن الكرفس). غير أنّ النتيجة أتت عظيمة. وكان لوكا قلقاً كيف سيتمّ الحديث بين الموجودين، نظراً لكون نصف المدعوّين لا يـــتحدّثون الإنكليـــزية ونصفهم الآخر لا يتحدّثون الإيطالية (وصوفي

وحـــدها تـــتحدّث السويدية)، ولكن تمكّن الجميع بأعجوبة من فهم بعضهم تماماً، أو على الأقلّ كان الجالس بقربك يسعفك بالترجمة حين يتعذّر عليك فهم كلمة ما.

لا أذكـــر كـــم زجاجة من الشراب تناولنا قبل أن تقترح ديبورا اتّباع التقليد الأميركي اللطيف الليلة عبر جمع أيدينا والتعبير عن شكرنا لله على أمر معيّن، بثلاث لغات.

بـــدأت ديبورا بالتعبير عن امتنانها لأنّ أميركا ستحصل قريباً على فرصة انتخاب رئيس جديد. ثمّ قالت صوفي (أوّلاً بالسويدية، ثم بالإيطالية، ومن ثمّ بالإنكليزية) إنّها تشكر الله على القلوب الخيّرة الـــتي التقتها في إيطاليا وعلى الأشهر الأربعة التي أنعم الله عليها بها لتستمتع في هذا البلد. بدأت الدموع بالانهمار حين تحدّث ماريو - مـــضيفنا - وبكى بشكر صادق على عمله الذي مكّنه من امتلاك هـــذا المنـــزل الجميل لكي تستمتع به عائلته وأصدقاؤه. وأضحكنا باولـــو حـــين قال إنّه هو أيضاً ممتنّ لأنّ أميركا ستتمكّن تقريباً من انـــتخاب رئيس جديد للجمهورية. ثمّ سكتنا جميعاً احتراماً لسارا الـــصغيرة، إحـــدى التوأمتين، حين أخبرتنا بشجاعة أنّها تشكر الله لوجودها هنا الليلة مع أناس لطفاء لأنّها كانت تواجه وقتاً صعباً في المدرسة مؤخّراً بسبب بعض الطلاّب الخبيثين، "لذا أشكركم لأنّكم كنـــتم لطفـــاء معي الليلة وغير خبيثين، مثلهم". أمّا صديقة لوكا فـــشكرت الله علـــى إخلاص لوكا لها كلّ تلك السنوات وعنايته بعائلـــتها بكل حنان في الأوقات الصعبة. ثمّ بكت ريمونا، مضيفتنا، أكثـــر مـــن زوجهـــا وهي تعبّر عن امتنانها لإدخال هؤلاء الغرباء القادمين من أميركا عادة احتفال وشكر جديدة إلى بيتها، مع أنّهم ليسوا غرباء إطلاقاً، بل أصدقاء لوكا وبالتالي أصدقاء السلام.

عندما حان دوري للتكلّم، بدأت قائلة: "*Son grata...*" ولكنّني لم أتمكّن من البوح بأفكاري الحقيقية. لاسيّما امتناني لكوني قد تخلّصت من الاكتئاب الذي كان يقرضني كالجرذ على مرّ السنوات، والذي أحدث ثقوباً في روحي جعلتني عاجزة في ما مضى عن الاستمتاع حتى بأمسية لطيفة كهذه. ولكنّني لم أذكر أياً من ذلك أمام الطفلتين. بل قلت عوضاً عن ذلك حقيقة أكثر بساطة، إنّني ممتنّة لأصدقائي القدامى والجدد. وممتنّة، لا سيّما الليلة، للوكا سباغيتي. وإنّني أتمنّى له ذكرى ميلاد سعيدة، ببلوغه الثالثة والثلاثين، وحياة طويلة ويكون مثالاً للكرم، والوفاء، والحبّ. وإنّني آمل ألاّ يمانع أحد بكائي وأنا أقول ذلك، مع أنّني لا أظنّهم يمانعون لأنّ الجميع كانوا يبكون أيضاً.

كان لوكا منفعلاً إلى حدّ أنّه لم يتمكّن من قول شيء سوى: "دموعكم هي دعائي".

استمرّ الشراب بالتدفّق في كؤوسنا. وفيما قام باولو لغسل الأطباق، وماريو ليضع ابنتيه المتعبتين في السرير، ولوكا ليعزف على الغيتار، والجميع يغنّي أغنية أميركية بلهجات مختلفة، قالت لي ديبورا، عالمة النفس الأميركية المناصرة لحقوق المرأة، بصوت منخفض: "انظري إلى هؤلاء الرجال الإيطاليين الطيّبين. انظري كيف يعبّرون عن مشاعرهم بانفتاح وكيف يشاركون بحبّ في صنع سعادة عائلاتهم. انظري إلى التقدير والاحترام الذي يكنّونه لنسائهم وأطفالهم. لا تصدّقي كلّ ما تقرأينه في الصحف، ليز. هذا البلد بألف خير".

لم تنته حفلتنا قبل الفجر تقريباً. لكنّنا تمكّنا في النهاية من طهو ديك الحبش وتناوله كإفطار. أعادنا لوكا سباغيتي أنا وديبورا وصوفي إلى المنزل. حاولنا مساعدته ليبقى مستيقظاً عبر إنشاد أغان ردّدناها مراراً وتكراراً بكلّ اللغات التي نعرفها في طريق عودتنا إلى روما معاً.

35

لم أعد أقوى على التحمّل. فبعد أربعة أشهر تقريباً من إقامتي في إيطاليا، لم يعد أيّ من سراويلي يناسب مقاسي. ولا حتى الملابس الجديدة التي اشتريتها الشهر الماضي (حين ضاقت سراويل شهري الثاني في إيطاليا). لا أستطيع تجديد ملابسي كلّ بضعة أسابيع، وأدرك أنّني سأكون في الهند تقريباً، حيث ستذوب الكيلوغرامات الإضافية، ولكن، مع ذلك، لم أعد أستطيع السير بهذه السراويل.

في الواقع، هذا طبيعي ذلك أنّني وقفت على ميزان في فندق إيطالي جميل، واكتشفت بأنّني كسبت أحد عشر كيلوغراماً في الأشهر الأربعة التي أمضيتها في إيطاليا، وهي زيادة كبيرة حقاً. في الواقع، كنت بحاجة إلى نصف هذه الزيادة لأنّني خسرت كثيراً من وزني خلال سنوات الطلاق والاكتئاب. والكيلوغرامات الأخرى كسبتها لمجرّد المتعة.

هكذا ذهبت لشراء ملابس سأحتفظ بها طيلة حياتي كذكرى لـ*سروال آخر شهر لي في إيطاليا*. كانت البائعة الشابة بالغة اللطف، إذ استمرّت بإعطائي مقاسات أكبر، مرّرتها لي عبر الستارة واحداً تلو الآخر من دون أيّ تعليق، بل اكتفت بالسؤال باهتمام في كلّ مرّة ما إذا كان *هذا* أنسب. وقد أطللت من خلف الستارة عدّة مرّات وسألتها: "عذراً، هل لديك سروال أكبر *بقليل*؟" إلى أن ناولتني أخيراً سروال جينز ذا مقاس آذى نظري حقاً. خرجت من حجرة قياس الملابس، ووقفت أمام البائعة.

لم تُطرِف عينيها، بل نظرت إليّ كالخبير الفنّي الذي يقيّم مزهرية. مزهرية كبيرة بالأحرى.

قالت أخيراً: "*Carina*". جميلة.

سألتها بالإيطالية أن تخبرني ما إذا كنت أبدو بهذا الجينز كالبقرة.

أجابتني: "كلاّ، سينيورينا. لا تشبهين البقرة".

"ربّما الثور؟".

تحوّل الحديث إلى تمرين جيّد على المفردات. كنت أحاول أيضاً أن أنتزع منها ابتسامة، ولكنّها صمّمت على الحفاظ على جديّتها.

حاولت مرّة أخرى:"ربّما كنت أشبه موزاريلا الثيران؟".

"حسناً، *ربّما*، "أقرّت أخيراً، مع ابتسامة صغيرة". ربّما كنت تشبهين موزاريلا الثيران *قليلاً*...".

36

بقي لي أسبوع واحد هنا. كنت أخطّط لقضاء ذكرى الميلاد في أميركا قبل السفر إلى الهند، ليس لأنّني لا أحتمل فكرة تمضيته بعيداً عن عائلتي، ولكن لأنّ الأشهر التالية من رحلتي - في الهند وإندونيسيا - تحتاج إلى حزم أغراض مختلفة. فقليل من الأشياء التي يحتاج إليها المرء للعيش في إيطاليا هي نفس تلك التي تلزمه للتجوّل في الهند.

وربّما استعداداً لرحلتي إلى الهند، قرّرت تمضية هذا الأسبوع الأخير في التطواف في صقلية، الجزء الأكثر فقراً في إيطاليا. وهي تصلح بالتالي لأعدّ نفسي فيها للعيش في بلد يسوده الفقر المدقع. أو ربّما كنت أودّ الذهاب إلى صقلية بسبب ما قاله غوته: "من دون رؤية صقلية، لا يمكن للمرء أن يكوّن فكرة واضحة عن إيطاليا".

بيد أنّه ليس من السهل الوصول إلى صقلية أو التجوّل فيها. كان عليَّ استعمال جميع مهاراتي الاستكشافية لأجد قطاراً يعمل يوم الأحد علـى طول الطريق الساحلي ومن ثمّ إيجاد المركب الصحيح إلى ميسّينا (وهـو ميـناء صقليّ مخيف ومثير للريبة، يبدو وكأنّه ينوح من خلف الأبـواب الموصـدة: "ليس الخطأ خطأي إن كنت مدينة قبيحة! فقد دمّـرني زلزال وقُصفت بالمدافع ونهبتني عصابات المافيا، أيضاً!") حين وصلت إلى ميسّينا، كان عليَّ العثور على محطّة باصات (قاتمة مثل رئتي مـدخّن) والعثور على الرجل المسؤول عن الجلوس في حجرة التذاكر، ليـندب حظّـه، وأرى مـا إذا كان يسمح بإعطائي تذكرة إلى بلدة تاورمينا الساحلية. ثمّ عبرت جروف وشواطئ صقلية الرائعة وساحلها الـشرقي الصخري إلى أن وصلت إلى تاورمينا، حيث كان عليَّ إيجاد سـيارة أجـرة ومن ثمّ فندق. ورحت أبحث بعد ذلك عن الشخص المناسـب لكي أطرح عليه سؤالي المفضّل بالإيطالية: "أين أجد أفضل طعـام في هذه البلدة؟" في تاورمينا، تبيّن بأنّ ذاك الشخص هو شرطيّ نعـسان. وقد أعطاني أعظم شيء تلقّيته في حياتي؛ ورقة صغيرة كُتب علـيها اسم مطعم غامض وخريطة مرسومة باليد تبيّن كيفية الوصول إليه.

تبـيّن بـأنّ المطعم هو عبارة عن مقهى رصيف، تستعدّ صاحبته الـودود المتقدّمة في السنّ لاستقبال زبائنها في المساء عبر الوقوف على إحـدى الطاولات بجوربيها، محاولة عدم الاصطدام بشجرة العيد وهي تلمّـع نوافذ المطعم. أخبرتها بأنّني لا أحتاج إلى قائمة الطعام، وطلبت مـنها أفـضل طعام ممكن لأنّها ليلتي الأولى في صقلية. ففركت كفّيها بحماس وقالت شيئاً باللهجة الصقلية بصوت عالٍ لأمّها الأكثر تقدّماً في الـسنّ في المطبخ. وفي غضون عشرين دقيقة، انهمكت في تناول أطيب

وجبة لي في إيطاليا على الإطلاق. كانت عبارة عن باستا ذات شكل لم أره مـــن قبل؛ شرائح كبيرة وطازجة من الباستا المثنية على شكل قبّعة البابا (وإن ليس بحجمها) ومحشوّة ببوريه ساخن ولذيذ الرائحة مصنوع مـــن القـــشريات والأخطبوط والحبّار، تعلوها وكأنّها سلطة ساخنة، أصداف الكوكل وقطع الخضار، وتسبح جميعها في مرق زيتونيّ اللون. تبعها لحم الأرنب المطهوّ بالصعتر.

ولكـــنّ ســـيراكوز التي قصدتها في اليوم التالي كانت أفضل. فقد أنـــزلني الـــباص عند ناصية أحد الشوارع تحت البرد والمطر، في آخر الـــنهار. أحببت البلدة على الفور. فتاريخها يمتد إلى ثلاثة آلاف سنة. وهـــي بالتالي مهد حضارة قديمة إلى حدّ أنّ روما تبدو إلى جانبها أشبه بـــدالاس. وتقول الأسطورة إنّ دايدالوس طار إلى هنا من كريت وبأنّ هـــرقل نـــام فـــيها مـــرّة. كانت سيراكوز مستعمرة يونانية وصفها ثوســـيديدس بأنّها *مدينة لا تقلّ أهمية عن أثينا نفسها*. فهي تربط بين الـــيونان وروما القديمتين. وقد عاش فيها كثير من كتّاب المسرحيّات وعلمـــاء العـــصور القديمة. وبرأي أفلاطون، فهي تشكّل موقعاً مثالياً لتجـــربة المديـــنة الفاضلة حيث يمكن للحكّام أن يتحوّلوا إلى فلاسفة والفلاســـفة إلى حكّـــام. ويقول المؤرّخون بأنّ علم البلاغة قد ولد في سيراكوز، وكذلك *الرواية*.

مـــشيت في أســـواق تلك البلدة المتداعية، وذاب قلبـــي حبّاً لا يمكنني تفسيره وأنا أراقب عجوزاً يعتمر قبّعة من الصوف يُخرج أحشاء سمكـــة لأحـــد الزبائن (كان قد حشر سيجارته بين شفتيه، كما تضع الخيّاطة الدبابيس بين شفتيها وهي تعمل، فيما استخدم السكّين ببراعة وتفـــان لإنجـــاز عمله). سألت الصيّاد بحياء أين يمكنني أن آكل الليلة، ورحت أخربش مجدّداً على ورقة أخرى أسجّل فيها عنوان مطعم صغير

بلا اسم. ما إن دخلته، تلك الليلة، حتى أحضر لي النادل بعض الريكوتا الخفيفة كالغيوم والمزيّنة بالفستق المطحون، قطع من الخبز العائم فوق زيوت معطّرة، أطباق صغيرة من شرائح اللحم والزيتون، سلطة البرتقال المثلّج تعلوها صلصة من البقدونس والبصل النيء. هذا قبل أن أسمع عن طبق الكالاماري المميّز لديهم.

قال أفلاطون: "لا يمكن لأي مدينة أن تعيش بسلام، أياً تكن قوانينها، إن كان مواطنوها... لا يفعلون شيئاً سوى الاستمتاع بالطعام، والشراب، والحب".

ولكن هل من الخطأ العيش كذلك لفترة من الوقت؟ مجرّد بضعة أشهر من حياة المرء، يسافر فيها عبر الزمن ولا يرجو منها سوى العثور على الوجبة الشهية التالية؟ أو تعلّم تحدّث لغة لمجرّد أنّها تطرب أذنيه؟ أو أخذ غفوة في حديقة، في بقعة مشمسة في منتصف النهار، بقرب نافورته المفضّلة؟ والقيام بالأمر نفسه في اليوم التالي؟

بالطبع، لا يمكن للمرء أن يحيا كذلك إلى الأبد. فواقع الحياة، والحروب، والصدمات، والفضيلة تتعارض معها لاحقاً. هنا في صقلية مثلاً، التي يسودها فقر فظيع، لا يغيب واقع الحياة عن ذهن أحد. فقد كانت المافيا هي العمل الناجح الوحيد في صقلية لعقود من الزمن (وعملها هو حماية الأهالي منها)، وما زالت تهيمن على الجميع. أمّا باليرمو - وهي مدينة قال عنها غوته مرّة بأنّها تحلّت يوماً بجمال يصعب وصفه - فقد تكون المدينة الوحيدة في أوروبا الغربية التي تسير فيها بين أنقاض الحرب العالمية الثانية، لمجرّد إبراز التطوّر الذي شهده المكان. فقد أصبحت المدينة قبيحة بشكل يفوق الوصف بفعل الأبنية البشعة وغير الآمنة التي بنتها المافيا في الثمانينيات، كوسيلة لتبييض الأموال. سألت أحد الصقليّين ما إذا كانت الأبنية مصنوعة من

الإسمنت زهيد الثمن، فأجابني: "أوه، كلاّ، هذا الإسمنت غالٍ جداً. فكلّ دفعة منه تحتوي على بضع جثث للأرواح التي قتلتها المافيا، وهذا مكلف. إلاّ أنّه يجعل الإسمنت أقوى لأنّه مدعّم بكلّ تلك العظام والأسنان".

في هذا الجوّ، من المخجل قليلاً ربّما ألاّ تفكّر سوى في وجبتك الشهية التالية. بل إنّه أفضل ما يمكنك القيام به أمام هذا الواقع الرهيب. حاول لويجي بارزيني، في تحفته التي صدرت عام 1964 *الإيطاليون* (التي كتبها بعد أن ملّ أخيراً من الغرباء الذين يكتبون عن إيطاليا، فهم إمّا يغرمون بها أو يكرهونها تماماً) تحليل ثقافة بلده. فقد حاول الإجابة عن أسباب كون الإيطاليين قد أنتجوا أعظم العقول الفنية، والسياسية، والعلمية في التاريخ ولكنّهم لم يصبحوا أبداً قوّة عظمى. لِمَ يعتبرون أساتذة في الديبلوماسية الشفهية، ولكنّهم غير ناجحين في الحكم الداخلي؟ لِمَ يتمتّعون بشجاعة فردية كبيرة، إلاّ أنّهم فاشلون جداً كجيش جماعي؟ لِمَ هم تجّار بارعون على المستوى الشخصي ولكنّهم رأسماليون غير أكفّاء كأمّة؟

إجاباته عن هذه الأسئلة معقّدة جداً وليس من السهل إيجازها هنا، إلاّ أنّها تتعلّق بالتاريخ الإيطالي الحزين الحافل بالقادة المحلّيين الفاسدين وباستغلال من قبل المهيمنين الأجانب، ما حدا بالإيطاليين إلى استنتاج صحيح على ما يبدو، وهو أنّه لا يمكن الثقة بأيّ شخص أو بأيّ شيء في هذا العالم. وبما أنّ العالم مليء بالفساد وعدم الاستقرار والمبالغة والظلم، ينبغي على المرء ألاّ يثق إلاّ بما يدركه بحواسّه، و*هذا* ما يجعل الحواسّ في إيطاليا أقوى منها في أيّ بلد أوروبي آخر. لهذا السبب، بحسب بارزيني، يتقبّل الإيطاليون الجنرالات والطغاة والأساتذة والبيروقراطيّين والصحفيين ورؤساء الصناعة غير الأكفّاء على نحو

شـــائن، ولكـــنّهم لا يقبلون إطلاقاً بمغنّي *أوبرا، قادة فرق موسيقية، راقـــصات باليه، مومسات، ممثّلين، مخرجي أفلام، طبّاخين، خيّاطين...* غـــير أكفّاء. ففي عالم من الفوضى والخراب والخداع، لا يمكن الوثوق أحـــياناً ســـوى بالجمال. فالكمال الفنّي غير قابل للفساد، ولا يمكن المـــساومة علـــى المـــتعة. وفي بعض الأحيان تكون الوجبة هي العملة الوحيدة الحقيقية.

بالـــتالي، فإنّ تكريس النفس لإنتاج الجمال والاستمتاع به، من شـــأنه أن يكـــون عمـــلاً جدّياً، وهو ليس وسيلة للهرب من الواقع بالـــضرورة بل يمثّل أحياناً وسيلة للتمسّك بما هو حقيقي في عالم ينهار فـــيه كـــلّ شيء ويتحوّل إلى... بلاغة ورواية. فمنذ مدّة غير بعيدة، قبـــضت السلطات على رهبان كاثوليك في صقلية متآمرين مع المافيا، كـــيف لك بالتالي أن تثق بأحد؟ ماذا تصدّق؟ فالعالم قاسٍ وظالم. وإن تجـــرّأت على الحديث ضدّ هذا الظلم في صقلية، على الأقلّ، فسينتهي بك الأمر أساساً في مبنًى قبيح آخر. ماذا تفعل إذاً في ظلّ هذه الظروف لتحافظ على كرامتك ككائن بشريّ. لا شيء ربّما. لا شيء، باستثناء أن تتباهى بمهارتك في تشريح السمك، أو بأنّك تحضّر أخفّ ريكوتا في البلدة كلّها؟

لا أريد إهانة أيّ شخص بالمقارنة كثيراً بيني وبين الشعب الصقلي الـــذي تعـــذّب طويلاً. فمآسي حياتي تمتاز بطبيعة فردية ذاتية المصدر بمعظمهـــا، وليـــست ناتجة عن ظلم دام لعهود. فقد واجهت الطلاق والإحـــباط وليس قروناً من الاستبداد الدامي. عانيت من أزمة هوية، ولكن، كانت لديَّ الموارد المادية، والفنية، والعاطفية في الوقت نفسه، وبهـــا اســـتعنت لتجاوز المحنة. مع ذلك، أظن بأنّ ما ساعد أجيالاً من الصقليّين على الحفاظ على كرامتهم قد ساعدني على استعادة كرامتي،

لا سيّما فكرة أنّ تقدير اللذّة من شأنه أن يكون مرساة لإنسانية المرء. وأعتقد أنّ هذا ما عناه غوته حين قال إنّ عليك زيارة صقلية لكي تفهم إيطاليا. وأفترض أنّ هذا ما شعرت غريزياً به حين قرّرت أنّني أحتاج إلى المجيء إلى هنا، إلى إيطاليا، لكي أفهم نفسي.

كنت في نيويورك، في حوض الاستحمام، أقرأ كلمات إيطالية في قاموس بصوت مرتفع، حين بدأت ألملم شتات روحي الممزّقة. كانت حياتي قد تحوّلت إلى دمار وما عدت أتعرّف على نفسي. غير أنني شعرت بومضات من السعادة حين بدأت أتعلّم الإيطالية، وعندما يشعر المرء باحتمال ضئيل للسعادة بعد فترات قاتمة من حياته، يتشبّث بها بيديه وأسنانه ولا يفلتها حتى تنتشله من الوحول؛ وهذا ليس بالأنانية، بل هو واجب. فعندما يمنحك الله الحياة، من واجبك (ومن حقّك ككائن بشري) أن تجد شيئاً جميلاً فيها، مهما كان ضئيلاً.

أتيت إلى إيطاليا ذابلة ونحيلة. كنت أجهل ما أستحقّ، وربّما لا أزال. ولكنّني أعرف بأنّني انتشلت نفسي من الموت - عبر الاستمتاع بالملذّات غير المؤذية - لأصبح امرأة أكثر سلاماً. والطريقة الأسهل والأكثر إنسانية لقول ذلك هي أنّني *ازددت وزناً*. أصبحت الآن موجودة أكثر ممّا كنت عليه منذ أربعة أشهر. وسأغادر إيطاليا وأنا أكبر حجماً بشكل ملحوظ ممّا كنت عليه حين وصلت. وسأغادر آملة بأنّ تمدُّد شخص ما - تضخّم حياته - هو في الواقع أمر يستحقّ العناء في هذا العالم. حتى وإن صدف، هذه المرّة وحسب، أنّ تلك الحياة ليست حياة أحد سواي.

الهند

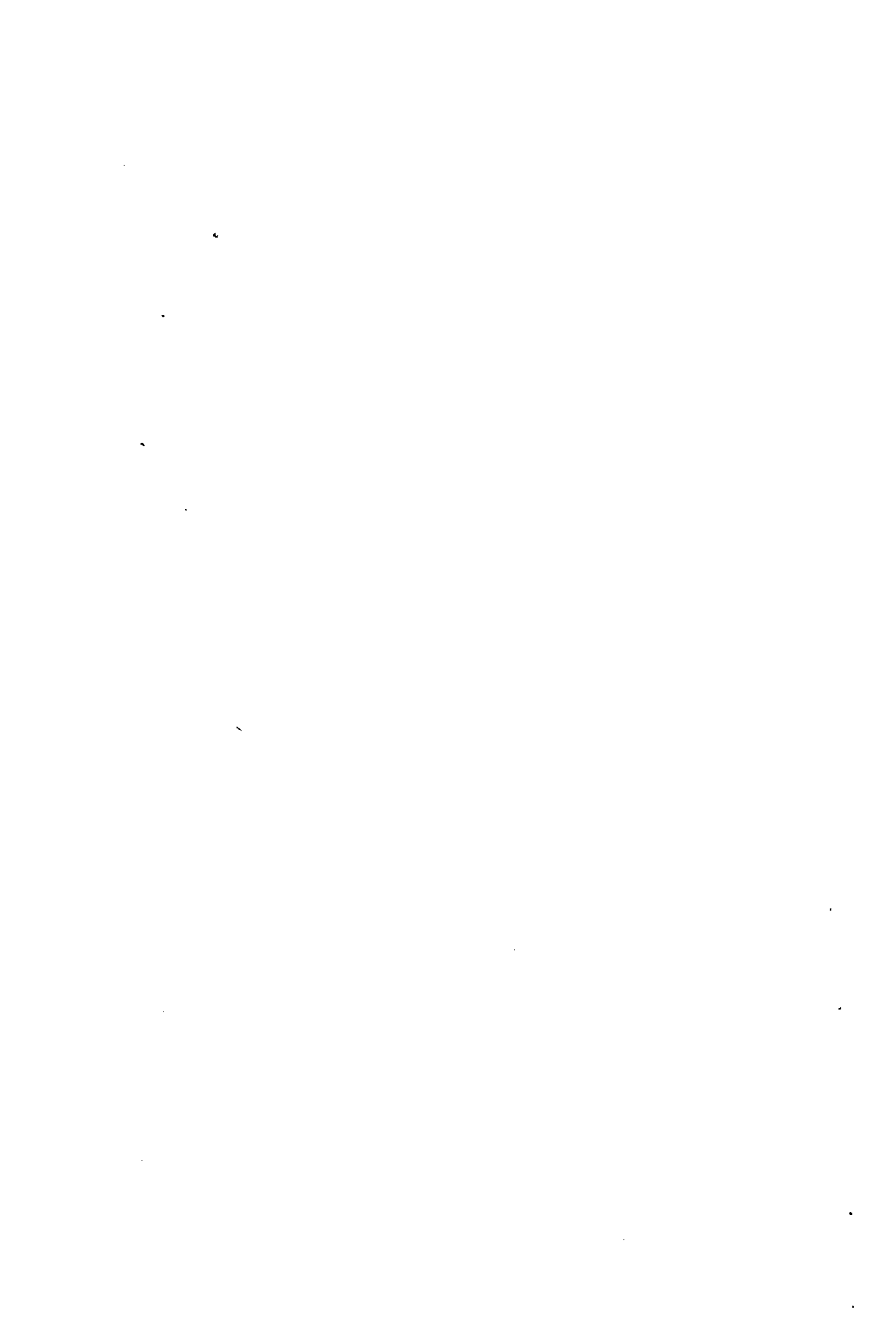
أو

"تهانيّ بلقائك"

أو

36 حكاية

عن السعي إلى التأمل



37

حـــين كنت صغيرة، كانت عائلتي تربـــي الدجاج. كان لدينا دوماً مـــا يقارب الدزينة منها، وكلّما ماتت إحداها - اختطفها أحد الصقور أو الـــثعالب أو مـــرض دجاج غامض - يستبدل أبـــي الدجاجة المفقودة. فيقصد بسيّارته مزرعة دجاج قريبة ويعود بكيس فيه دجاجة. المشكلة هي أنّـــه ينبغي عليك أن تكون شديد الحذر وأنت تُدخِل دجاجة جديدة إلى القفـــص. لا يمكـــنك الاكتفاء بقذفها هناك مع الدجاجات القدامى، وإلاّ اعتـــبرت دخيلة. عوضاً عن ذلك، ينبغي دسّ الطير الجديد في القفص في منتـــصف اللـــيل، حين تكون بقية الطيور نائمة. فتضعه على مجثم بقرب البقية. وفي الصباح، حين تستفيق الدجاجات، لن تلاحظ القادمة الجديدة، بـــل ستفكّر: "لا بدّ بأنّها كانت هنا بما أنّني لم أرها حين وصلت". لا بل إنّ الدجاجـــة الجديـــدة نفسها، حين تستيقظ مع بقية السرب، لن تتذكّر حتى بأنّها جديدة، بل ستفكّر: "لا بدّ بأنّني كنت هنا طيلة الوقت...".

هكذا تماماً وصلت إلى الهند.

حطّت طائرتي في مومباي حوالى الساعة 1:30 بعد منتصف الليل في 30 كانـــون الأوّل. عثرت على حقائبـــي، ثمّ وجدت سيارة أجرة أقلّتني خارج المدينة، إلى المعتزل الواقع في قرية نائية في الأرياف. رحت أتأمّـــل خـــلال الـــرحلة الهند ليلاً، وأستيقظ أحياناً للنظر من النافذة، فأشـــاهد ظـــلالاً غريبة لنساء نحيلات يرتدين الساري، ويتهادين على الطريق حاملات رزم الحطب على رؤوسهنّ. *في تلك الساعة؟* باصات مـــن دون مصابيح كانت تتجاوزنا، فيما نحن نمرّ بقرب أشجار الأثأب التي مدّت جذورها على طول الأقنية.

وصـــلنا إلى البوابة الأمامية للمعتزل عند الساعة الثالثة والنصف، وتوقّفـــنا أمام المعبد تماماً. وأنا أترجّل من السيارة، خرج شابّ بملابس غربية وقبّعة صوفية من بين الظلال وقدّم نفسه – إنّه أرتورو، صحفي يبلغ الرابعة والعشرين من العمر من مكسيكو، وهو أحد أتباع الغورو، وقـــد أتـــى لاســـتقبالي. فـــيما كنّا نقوم بالتعارف همساً، تناهت إليّ الكلمات الأولى المألوفة من ترنيمتي السنسكريتية المفضّلة المتصاعدة من الـــداخل. إنّها *الأراتي* الصباحية، دعاء الصباح التي يتم إنشاده كلّ يوم عـــند الـــساعة الثالـــثة والنصف عند استيقاظ سكّان المعتزل. أشرت بإصـــبعي إلى المعبد وسألت أرتورو: "هل لي...؟" فأشار لي بالتفضّل. دفعـــت أجـــرة السائق ووضعت حقيبة الظهر خلف إحدى الأشجار. خلعـــت حذائي وسجدت على درجة المعبد قبل أن أدخل وأنضمّ إلى المجموعة الصغيرة المؤلّفة بمعظمها من نساء هنديات ينشدن تلك الترنيمة الجميلة.

كانت تلك هي الترنيمة التي أسمّيها "منّة السنسكريتية المدهشة"، الحافلـــة بالشوق والتعبّد. إنّها الترنيمة الوحيدة التي حفظتها عن ظهر قلب، لأنّني أحببتها، لا لأنّني بذلت جهداً في سبيل ذلك. بدأت بترداد الكلمـــات المألوفة بالسنسكريتية، من المقدّمة البسيطة عن تعاليم اليوغا حتى نبرات التأمل الأكثر ارتفاعاً، انتهاءً بالخلاصة الأشبه بجوهرة الإيمان كلّـــه ("هذا كامل، ذاك كامل، إن أخذت الكمال من الكمال، يبقى الكمال").

انـــتهت النـــساء من الغناء. فانحنين بصمت ثمّ خرجن من باب جانبـــي عبر قاعة معتمة وصولاً إلى معبد أصغر حجماً، بالكاد يضيئه مـــصباح زيت معطّر بالبخور. فتبعتهنّ. كانت الغرفة مليئة بالأتباع – الهـــنود والغربيون – الذين يلفّون أنفسهم بالأوشحة الصوفية اتّقاءً لبرد

الفجر. كان الجميع جالسين متأمّلين، يمكنك القول إنهم كانوا جاثمين هناك، فاندسست بقربهم، كالطائر الجديد في السرب، من دون أن يلاحظني أحد إطلاقاً. تربّعت ووضعت يدي على ركبتي وأغمضت عيني.

لم أمارس التأمّل منذ أربعة أشهر. حتى إنّني لم *أفكّر* بالتأمّل منذ أربعة أشهر. جلست هناك، ورحت أتنفّس بهدوء، ثمّ قلت المانترا لنفسي ببطء وتأنٍّ، مقطعاً تلو الآخر.

أوم.

نا.

ماه.

شي.

فا.

يا.

أوم ناماه شيفايا

أجلّ... التي تسكن بداخلي

ثمّ كرّرها مرّة تلو الأخرى. لم أكن أتأمّل بقدر ما كنت أخرِج المانترا بحذر، كما يخرج المرء الطقم الخزفي المفضّل لدى جدّته بعد أن احتفظ به في صندوق لوقت طويل، من دون استعماله. لا أدري ما إذا كنت قد غرقت في النوم أم في نوع من السحر أو حتى كم مضى من الوقت. ولكن حين أشرقت الشمس أخيراً على الهند ذاك الصباح، وفتح الجميع أعينهم ونظروا حولهم، شعرت بأنّ إيطاليا أصبحت على بعد آلاف الأميال منّي، وأحسست وكأنّني كنت مع هذا السرب منذ القدم أو منذ البدء إن صح التعبير.

38

"لِمَ نمارس اليوغا؟".

طــرح علينا أحد المعلّمين هذا السؤال خلال صفّ يوغا صعب حــين كنت في نيويورك. كنّا جميعاً منحنين في وضعية المثلّث المنحرف الــصعبة وكــان المعلّم يجعلنا نحافظ على تلك الوضعية لمدّة أطول ممّا نرغب.

سألنا مجدّداً: "لِمَ نمارس اليوغا؟ لنصبح أكثر ليونة من جيراننا؟ أم ثمّــة هدف أسمى؟" يمكن ترجمة كلمة *Yoga* السنسكريتية *باتحاد*. وهي مــشتقّة أساساً من الجذر *Yuj*، أي *يصل*، يربط نفسه بمهمّة في متناوله بانضباط بالغ. والمهمّة التي في متناولك في اليوغا هي إيجاد الاتحاد – بن العقــل والجسد، بين الفرد والخالق، بين أفكارك ومصدر أفكارك، بين المعلم والتلميذ، وحتى بين أنفسنا وجيراننا المتصلّبين أحياناً. في الغرب، تعــرّفنا إلى اليوغا بشكل رئيسي من خلال التمارين الجسدية الشبيهة بأعــواد البرتــزل، ولكــنّ تلك ليست سوى الهاتا يوغا، أحد فروع الفلــسفة. و لم يطوّر القدماء تلك التمارين الجسدية سعياً وراء اللياقة البدنــية، بــل لتليين عضلاتهم وأذهانهم استعداداً للتأمّل. فمن الصعب الجلوس بسكون لساعات طويلة إن كنت تشعر بألم في وركك يمنعك من تأمّل الجوهر، لأنّك ستكون مشغولاً بفكرة واحدة: "آه... وركي يؤلمني حقاً".

ولكــن من شأن اليوغا أن تعني أيضاً محاولة إيجاد السبب... من خلال التأمّل، والدراسة، وممارسة الصمت، والخدمة التعبّدية أو المانترا؛ تكــرار كلمات دينية سنسكريتية. وفيما تبدو بعض هذه الممارسات هندوســية المصدر، إلاّ أنّ اليوغا تختلف عن الهندوسية، كما أنّ ليس

جميع الهندوس ممارسين لليوغا. فبإمكانك استعمال اليوغا - ممارساتك المنتظمة للاتحاد - سواء أكنت نصرانياً أو هندوسياً أو يهودياً. فخلال الفتـــرة الـــتي قضيتها في المعتزل، قابلت أشخاصاً قالوا إنّهم نصارى، ويهـــود، وبوذيّـــون، وهندوس، وغير ذلك. كما تعرّفت على آخرين فـــضّلوا عدم ذكر انتمائهم الديني على الإطلاق، وفي هذا العالم المليء بالنـــزاعات، لا ألومهم على ذلك.

يقـــوم طريق اليوغا على تفكيك مكامن الخلل المتجذّرة في الحالة الإنسانية، والتي سأعرّفها هنا بشكل بالغ البساطة على أنّها عجز محزن عن تحقيق الرضى. في الواقع، أعطت المدارس الفكرية على مرّ العصور تفسيرات مختلفة لحالة النقص المتأصّلة على ما يبدو في الإنسان. فسمّاها الـــتاويون انعـــدام تـــوازن، والبوذيّون جهلاً، فيما أرجعت المعتقدات اليهودية - المسيحية كلّ عذابنا إلى الخطيئة الأصلية. ويقول الفرويديّون إنّ التعاســـة هـــي النتـــيجة المحـــتومة للتضارب بين رغباتنا الطبيعية والـــضرورات الحضارية. (وتفسّر صديقتي ديبورا، العالمة النفسية، ذلك قائلـــة: "الـــرغبة هي عيب التصميم"). أمّا اليوغاني فيقول إنّ الاستياء البشري هو حالة بسيطة من الخطأ في الهوية. فنحن نشعر بالبؤس لأننا نعـــتقد أنّـــنا مجـــرّد أشخاص وحيدين مع مخاوفنا، وعيوبنا، وأحزاننا، وأخلاقياتـــنا. ونعتقد خطأً أنّ ذواتنا الصغيرة المحدودة تمثّل كلّ طبيعتنا، وتفوتـــنا صفاتنا... العميقة. فنحن لا ندرك أنّ في داخلنا جميعاً توجد ذات أسمى تنعم بسلام أبديّ. وتلك الذات الأسمى هي هويتنا الحقيقية، الكونـــية و... وبحـــسب تعالـــيم الـــيوغا، ما لم تدرك هذه الحقيقة، فسيلازمك البؤس...

تقـــوم الـــيوغا علـــى السيطرة على النفس وبذل جهد لتصرف انتباهك عن الاجترار المستمر للماضي، والقلق المستمر على المستقبل،

بحـــيث تبحث عوضاً عن ذلك عن مكان في *الوجود* الأزلي الذي تنظر مـــنه إلى نفسك ومحيطك باتّزان. من هذه الزاوية فقط ستنكشف لك طبـــيعة العـــالم (وطبيعة نفسك). ومزاولو اليوغا الحقيقيون، بوضعية الـــتوازن الـــتي يتخذونها، يرون كلّ هذا العالم على أنّه تجلٍّ لطاقة الله الخلاّقة.

...

من المسلّم به في الهند أن يحتاج المرء إلى معلّم ليمارس اليوغا. فما لم تكـــن قد ولدت كأحد هؤلاء النادرين الذين يتمتّعون أساساً بتنوير كامـــل، يحـــتاج المرء إلى شيء من الإرشاد في رحلته إلى التنوير. وإن كـــنت محظوظاً بما يكفي، ستعثر على غورو على قيد الحياة. وهذا ما ســـعى وراءه الآتون إلى الهند منذ أقدم العصور. فقد أرسل الإسكندر الأكـــبر مبعوثاً إلى الهند في القرن الرابع ق.م. وكلّفه بمهمّة العثور على أحد مزاولي اليوغا المشهورين والعودة به إلى البلاط. (وأفاد المبعوث أنّه عثـــر علـــى يوغاني ولكنّه لم ينجح في إقناعه بالسفر معه). وفي القرن الأوّل ق.م، كـــتب أبولونيوس تيرانا، مبعوث إغريقي آخر، عن رحلته إلى الهند قائلاً: "رأيت براهما هنوداً يعيشون على الأرض ولكنّهم ليسوا عليها، محصّنين من دون حصون، لا يملكون شيئاً ولكنّهم مع ذلك أغنى مـــن جمـــيع البشر". حتى غاندي نفسه لطالما أراد أن يتعلّم مع غورو، ولكـــن لم تـــتح له الفرصة أبداً لإيجاد مرشد، مع الأسف. وقد كتب قائلاً: "أعتقد بأنّ العقيدة القائلة بأنّ المعرفة مستحيلة من دون مرشد، هي صحيحة إلى حدٍّ بعيد".

مـــزاول اليوغا العظيم هو من بلغ حالة التنوير الدائم. أمّا الغورو فهو مزاول يوغا عظيم قادر على نقل تلك الحالة إلى الآخرين. وتتألّف كلمة غورو من مقطعين سنسكريتيين. الأوّل يعني *الظلام* والثاني *النور*.

من الظلام إلى النور. وما ينتقل من المعلّم إلى التلميذ يدعى *مانتراتفيريا*: "قـــوة الوعـــي المُنار". بالتالي، أنت تقصد الغورو ليس لتعلّم الدروس فحسب، كما هو الحال مع أيّ معلّم، بل لتلقّي حالته الروحية.

ومن شأن هذا الانتقال أن يحدث حتى خلال اللقاءات السريعة جـــداً مـــع كائن عظيم. فقد ذهبت مرّة لرؤية الراهب الفييتنامي العظـــيم، الـــشاعر وصانع السلام، تيش نات هان وهو يتحدّث في نـــيويورك. كانـــت لـــيلة من ليالي الأسبوع المحمومة، وفيما كان الجمهـــور يتدافع لشقّ طريقه نحو القاعة، أصبح الهواء نفسه مشبعاً بالتوتّـــر الجماعي الذي يشدّ أعصاب الموجودين. ثمّ اعتلى الراهب المسرح، وجلس ساكناً لمدّة من الوقت قبل أن يبدأ بالتكلّم، وكان مـــن الممكـــن أن تـــشعر بـــسكونه يسيطر على الموجودين، من النيويوركـــيين المتوتّـــرين، مرّة واحدة. ولم تمضِ لحظات حتى عمّ الـــسكون المكان. وفي غضون عشر دقائق ربّما، شدّ ذاك الفييتنامي قـــصير القامة كلاًّ منّا إلاّ صمته. أو ربّما من الأدقّ القول إنّه شدّ كلاًّ منّا إلاّ صمته *الخاص*، إلى ذاك السلام الذي نملكه فطرياً، ولكنّنا لم نكتشفه بعد. وقدرته على نشر حالته فينا جميعاً بمجرّد وجوده في الغرفة. ولهذا السبب بالذات تقصد الغورو: أملاً في أن تكشف لك قدرات الغورو عظمتك الخافية عنك.

واستناداً إلى الحكماء الهنود القدماء، ثمّة ثلاثة عوامل تشير إلى ما إذا كانت الروح تتمتّع بالحظ الأكثر سموّاً وسعادة في الكون:

1. أن تكون قد وُلدت ككائن بشريّ قادر على البحث الواعي.
2. أن تملك منذ الولادة - أو تطوّر لاحقاً - شوقاً إلى فهم طبيعة الكون.
3. أن تعثر على مرشد على قيد الحياة.

ثمـــة نظـــرية تشير إلى أنّك إن كنت قد شعرت بتوق صادق لاتّـــباع غـــورو، ستجد واحداً. فالكون سيتحوّل، وذرّات قدرك ســـتنظّم نفسها بحيث يتقاطع طريقك مع طريق المعلّم الذي تحتاج إلـــيه. وقد عثرت على معلّمي بعد شهر واحد فقط من ليلتي الأولى علـــى أرض الحمّـــام؛ لـــيلة قـــضيتها وأنا أذرف الدموع متوسّلة الإجابـــات، وذلك حين دخلت شقّة ديفيد، ووجدت صورة لتلك المرأة الهندية المدهشة. بالطبع، لم يكن مفهوم امتلاك غورو واضحاً لـــديَّ حينها. فبشكل عامّ، لا يرتاح الغربيون لتلك الكلمة، بسبب حادثـــة وقعت في وقت ليس ببعيد. ففي سبعينيات القرن الفائت، التقى عدد من الغربيين الشباب الأغنياء والمتلهّفين للتعلّم بزمرة من الغـــورو الهـــنود الطماعين. ومع أنّ الضجّة التي أحدثها هؤلاء قد هدأت الآن، إلاّ أنّ أصداءها لا زالت تتردّد. وحتى بالنسبة إليّ، بعد مرور كلّ هذا الوقت، لا زلت أجد نفسي متردّدة أمام كلمة غورو. علمـــاً أنّ أصدقائي في الهند لا يعانون من تلك المشكلة. فقد نشأوا علـــى مبدأ الغورو وهم مرتاحون إليه. وكما قالت لي شابة هندية يوماً: "كلّ الناس في الهند لديهم غورو تقريباً!" أعلم ما أرادت قوله (إنّ كـــلّ الـــناس في الهند *تقريباً* لديهم غورو) إلاّ أنّني استعملت تعبيرها غير المقصود لأنّ هذا ما أشعر به أحياناً، وكأنّه لديَّ غورو *تقـــريباً*. ففـــي بعـــض الأحيان، لا أجرؤ على الإقرار بذلك لأنّ التـــشكّك والـــبراغماتية يشكّلان جزءاً من إرثي الوطني. على أي حال، أنا لم أذهب للبحث عن غورو عن سابق تصوّر وتصميم، بل أتت إليّ من تلقاء نفسها. وفي المرّة الأولى التي رأيتها فيها، شعرت وكأنّهـــا نظـــرت إليّ مـــن صورها – بعينيها القاتمتين المشفقتين – وقالت: "ناديتِني وها أنا ذا. هل تريدين القيام بذلك أم لا؟".

لـــو وضـــعت جانـــباً جميع النكسات العصبية والقلق الناتج عن الاختلاف الحضاري، عليَّ أن أتذكّر دوماً بأنّني أجبت تلك الليلة بنعم مباشرة ولا أساس لها.

39

كانت إحدى أولى زميلاتي في الغرفة في المعتزل معمدانية ومعلّمة تأمّـــل أميركـــية من أصول أفريقية من جنوب كاليفورنيا. أمّا زميلاتي الأخريات، اللواتي تعاقبنَ على الغرفة على مرّ الأشهر، فكان من بينهنّ راقـــصة أرجنتينـــية، طبيبة سويسرية، سكرتيرة مكسيكية، أمّ أسترالية لخمسة أولاد، مبرمجة كومبيوتر بنغلادشية شابة، طبيبة أطفال من ماين، ومحاســـبة فليبينـــية. وكان ثمّة أخريات يأتين ويذهبن أيضاً، مع تعاقب الأتباع على مساكنهن.

لم يكـــن هـــذا المعتـــزل من الأمكنة التي يمكنك التوقّف عندها للـــزيارة. أوّلاً، لـــيس الوصـــول إليه سهلاً. فهو يقع بعيداً جداً عن مومباي، على طريق موحل في وادٍ نهري في الأرياف، قرب قرية صغيرة جمـــيلة وعشوائية البناء (مؤلفة من شارع، ومعبد، وزمرة من المتاجر، وعـــدد كـــبير من الأبقار التي تتجوّل بحريّة وتدخل أحياناً محلّ الخيّاط لتستلقي هناك على الأرض). لفت نظري مرّة مصباح غير محميّ بإطارٍ زجاجيّ بقوّة ستين وات، يتدلّى من سلك معلّق على إحدى الأشجار في وســـط البلدة. كان ذاك مصباح الشارع الوحيد في البلدة. يشكّل المعتـــزل مفخـــرة البلدة. فخارج جدرانه يسود الفقر والغبار. أمّا في الـــداخل، فتنتشر الحدائق المروية ومساحات الأزهار وأزهار السحلبية المخـــبّأة بين الأعشاب وأشجار المانغا، والكاجو، والنخيل، والمانيوليا،

والأثـــأب. كان البناء جميلاً ولكن من دون إسراف، يشتمل على قاعة عـــشاء بسيطة على طراز الكافيتيريا ومكتبة شاملة للكتب الروحية من مختلف المعتقدات الدينية في العالم. كما يحتوي على عدّة معابد لمختلف أنـــواع الاجتماعات وكهفين للتأمّل، مفتوحين ليل نهار، لا يستعملان سوى لممارسة التأمّل. فضلاً عن شرفة مسقوفة لدروس اليوغا الصباحية وحديقـــة يحيط بها طريق بيضاوي لممارسة الهرولة. وأنا، كنت أنام في مهجع إسمنتي.

خـــلال إقـــامتي في المعتزل، لم يكن ثمّة أكثر من بضع مئات من المقيمين فيه في الوقت نفسه. ولو كانت الغورو مقيمة هناك، لتضاعف عدد المقيمين بشكل كبير، ولكنّها لم تأتِ أبداً إلى الهند خلال وجودي هـــناك. وقـــد توقّعت ذلك نوعاً ما، فهي تمضي كثيراً من الوقت في أميركـــا مؤخّراً، ولكن لا أحد يعرف متى تأتي فجأة. وفي الواقع، ليس من الضروري أن تكون حاضرة فعلاً لكي تتابع دروسك معها. هنالك بالطبع السموّ الذي لا يمكن تعويضه، بأن تكون بقرب معلّم يوغا حيّ، وقـــد جـــرّبت ذلك من قبل. غير أنّ كثيراً من الأتباع القدماء يتّفقون علـــى أنّ مـــن شأن ذلك أن يشتّت انتباهك أحياناً، حين تؤخذ ببريق شـــهرة الغـــورو والحماس الذي يحيط بها وتفقد التركيز على هدفك الحقيقـــي. أمّا لو ذهبت إلى أحد معتزلاتها ودرّبت نفسك على الالتزام بالـــبرنامج الصارم المتّبع فيه، سوف تجد أحياناً أنّه من الأسهل التواصل مـــع معلّمك من خلال جلسات التأمّل الخاصة عوضاً عن شقّ طريقك بين الحشود المتلهّفة لسماع الحكمة منها مباشرة.

يعمـــل في المعتزل عدد من الموظّفين، إلاّ أنّ معظم العمل يقوم به التلاميذ أنفسهم. كما يعمل فيه بعض القرويّين مقابل راتب معيّن. وثمّة أشخاص آخرون من المنطقة، هم من أتباع الغورو ويعيشون في المعتزل

كتلاميذ. غير أنّه كان ثمّة صبي مراهق في أرجاء المعتزل سحرني على نحو خاص. شيء في (أعتذر على الكلمة، ولكن...) *هالته* جذبتني إليه كثيراً. فهو أوّلاً نحيل إلى حدّ لا يصدّق (علماً أنّ هذا المشهد شائع جداً هنا؛ ولا أصدّق أنّ ثمّة شيئاً في هذا العالم أكثر نحولاً من صبي هندي). ملابسه تشبه ملابس الصبيان المهتمّين بالكومبيوتر في المدرسة حين يذهبون للمشاركة في الحفلات الموسيقية؛ سروال داكن وقميص أبيض مفتوح على الصدر مكويّ بعناية وأكبر بكثير من مقاسه، يبرز عنقه النحيل من قبّته وكأنّه زهرة ربيع وحيدة نابتة في حوض أزهار عملاق. شعره مسرّح دوماً بعناية، ويلفّ خصره، الذي لا يتجاوز الأربعين سنتمتراً، مرتين تقريباً بحزام شخص أكبر سنّاً. كان يرتدي الملابس نفسها كلّ يوم، ثمّ أدركت أنّه لا يملك سواها. لا بدّ من أنّه يغسل قميصه بيديه ليلاً ويكويه في الصباح. (علماً أنّ تلك العناية باللباس شائعة هنا أيضاً. لا بل سرعان ما شعرت بالخجل من ملابسي القروية المغضّنة أمام ملابس المراهقين الهنود البيضاء، لذا، استبدلتها بملابس أكثر نظافة وتواضعاً). ما الغريب إذاً في هذا الصبي؟ لِمَ أتأثّر كلّما وقع نظري على وجهه المشبع بالنور، وكأنّه أتى للتوّ من عطلة طويلة من مجرة درب اللبانة؟ أخيراً سألت مراهقة هندية أخرى عمّن يكون. فأجابت: "إنّه ابن أحد أصحاب الحوانيت المحلّيين. عائلته فقيرة جداً، لذا دعته الغورو للعيش هنا. حين يقرع على الطبول، يمكنك أن تسمعي صوت التأمل".

ثمّة معبد واحد في المعتزل مفتوح للعامّة، يمكن فيه للهنود المجيء خلال النهار وتقديم القرابين لتمثال سيدا يوغي (أو المعلّم الكامل) الذي أسّس هذا الخطّ التعليمي في عشرينيات القرن الفائت ولا يزال يعتبر في الهند عظيماً. إلاّ أنّ باقي المعتزل مخصّص للتلاميذ وحسب.

فهـــو ليس فندقاً أو مَعلَماً سياحياً، بل هو أقرب إلى الجامعة. عليك أن تقـــدّم طلباً لدخول المكان، ولكي يتمّ قبولك للإقامة، عليك أن تثبت بأنّـــك كنت تدرس اليوغا بجدّية لمدّة طويلة من الزمن. وعليك الإقامة فيه لمدّة شهر على الأقلّ. (قرّرت البقاء فيه لستّة أسابيع، ومن ثمّ السفر في أرجـــاء الهـــند بمفـــردي، أستكشف المعابد، والمعتزلات، وأماكن العبادة).

يـــتوزّع التلامـــيذ هنا بالتساوي بين غربيّين وهنود (والغربيون يتوزّعون بالتساوي بين أوروبيين وأميركيين). وتعطى الدروس بالهندية والإنكليزية. وينبغي أن تكتب في الطلب مقالة وتذكر مراجع، وتجيب عـــن أســـئلة عن صحّتك الذهنية والجسدية، وإن كنت قد عانيت في السابق من إدمان، فضلاً عن وضعك المالي.

فالغورو لا تريد للناس استعمال معتزلها كمهرب من الفوضى التي سبّبوها في حياتهم، لأنّ ذلك لن ينفع أحداً. كما أنّ لديها سياسة عامّة تـــنصّ على أنّه في حال اعترضت العائلة أو المقرّبون على اتّباع غورو والعـــيش في معتـــزل لـــسبب من الأسباب، ينبغي عليك التخلّي عن الفكـــرة، لأنّها لن تستحقّ العناء. ابقَ عوضاً عن ذلك في البيت وكن شخصاً طيّباً. يجب عدم افتعال مشكلة كبيرة بسبب ذلك.

إنّ مستوى الحساسية الذي تتمتّع به تلك المرأة يريحني دوماً.

إذاً، لكـــي تتمكّن من المجيء إلى هنا، عليك أن تظهر بأنّك أيضاً شخص حسّاس وعملي. عليك أن تثبت أنّك تستطيع العمل لأنّه يُنتظر مـــنك المـــساهمة في الأعمال العامة في المكان بخمس ساعات في اليوم تقريباً من *seva*، أو *الخدمة غير الذاتية*. كما تسأل إدارة المعتزل عمّا إذا كـــنت قد تعرّضت لصدمة عاطفية كبيرة خلال الأشهر الستّة الماضية (طـــلاق، وفـــاة في العائلة)، ويطلبون منك تأجيل الزيارة لوقت آخر

لأنّك لن تتمكّن من التركيز على دراستك، وقد تشتّت انتباه زملائك. فقمت بهذا التأجيل بنفسي. وحين أفكّر الآن بالألم الذي كنت أمرّ به بعـــدما وضـــعت حـــدّاً لزواجي، لا أشكّ للحظة واحدة بأنّني كنت سأشـــكّل عبـــئاً كبيراً على كلّ مَن في هذا المعتزل لو أتيت إلى هنا في ذلك الوقت. وكان من الجيد أن استرحت أوّلاً في إيطاليا، واستعدت قواي وصحّتي قبل المجيء إلى الهند. فأنا بحاجة إلى تلك القوّة الآن.

يريدونك أن تأتي إلى هنا وأنت تتمتّع بالقوّة لأنّ حياة المعتزل صعبة. ليس جسدياً وحسب، مع بداية اليوم عند الثالثة بعد منتصف الليل وانتهائه عند التاسعة مساءً، بل ونفسياً أيضاً. فأنت تمضي ساعات طويلة من اليوم في الـــتأمّل الصامت، من دون السماح للذهن بكثير من اللهو أو الراحة. ســـتعيش في غـــرف صغيرة مع أغراب، في أرياف الهند حيث الحشرات، والأفاعـــي، والقوارض. ومن شأن الطقس أن يكون قاسياً: وابل من المطر الغزيـــر ينهمـــر لأسابيع بلا توقّف، وارتفاع في الحرارة يبلغ 100 درجة فهرنهايت في الظلّ قبل الفطور. سرعان ما تصبح الحياة حقيقية جداً هنا.

تقـــول مرشـــدتي دومـــاً أنّ شيئاً واحداً سيحصل حين تأتي إلى المعتـــزل؛ ستكتشف من أنت فعلاً. لذا، إن كنت تتأرجح أساساً على حافّـــة الجـــنون، يستحسن ألاّ تأتي على الإطلاق. فبصراحة، لا أحد يرغب بحملك خارج هذا المكان مع ملعقة خشبية بين أسنانك.

40

صادف وصولي إلى الهند مع بداية العام الجديد. فبالكاد حصلت على يوم واحد لأتعرّف إلى المكان قبل حلول ليلة رأس السنة. هكذا، وبعدما تناولنا العشاء، بدأت الباحة الصغيرة تمتلئ بالناس. جلسنا جميعاً

علــى الأرض، بعضنا على الأرض الرخامية الباردة وبعضنا الآخر على حصيرة. كانت النساء الهنديات يرتدين أثواباً وكأنّهن ذاهبات إلى حفل زفـــاف. كان شعرهنّ مدهوناً بالزيت ومجموعاً في ضفيرة تتدلّى على ظهــورهنّ. وكـــنّ يرتدين الساري الحريري الأنيق ويضعن الأساور الذهبـــية، فيما تدلّت *البيندي* في جوهرة لامعة وسط جبينهنّ، وكأنّها تعكس ضوء النجوم التي تنير السماء فوقنا. كانت الخطّة هي أن ننشد في الهـــواء الطلق، في هذه الباحة، حتى منتصف الليل، إلى أن يحلّ العام الجديد.

في الواقـــع، لا أعتبر كلمة *إنشاد* عزيزة على قلبـــي. فهي توحي لي بأزيز رتيب ومخيف، كذاك الذي يصدر عن الكهنة الإنكليز القدماء حـــول نار القربان. ولكنّ غناءنا في المعتزل، كان أشبه بالغناء السامي. إذ إنّه يتمّ عادة على شكل نداءٍ وردٍّ. فتقوم مجموعة من الرجال والنساء ذوي الأصوات الجميلة بغناء جملة واحدة متناغمة، فيما يردّدها الباقون. إنّـــه نـــشاط تأمّلـــي، ويقوم المجهود فيه على تركيز الانتباه على تقدّم الموســـيقى ومزج الصوت مع صوت جيرانك بحيث يغنّي الجميع بعد ذلـــك وكأنهم واحد. كنت أخشى ألاّ أتمكّن من مجاراتهم ومن البقاء مستيقظة حتى منتصف الليل، ومن إيجاد الطاقة للغناء طيلة هذا الوقت. ولكـــن، بدأت تلك الليلة الموسيقية مع نغمة طويلة توّاقة عزفها كمان واحـــد في الظـــلال، تـــبعه الهارمونـــيكا، والطبول البطيئة، ومن ثمّ الأصوات...

كـــنت أجلـــس في الجـــزء الخلفي من الباحة مع جميع الأمّهات والنـــساء الهنديات المتربّعات بارتياح، فيما ينام أطفالهنّ في حجورهنّ وكـــأنّهم بطانيات بشرية صغيرة. كانت أغنية الليلة عبارة عن تمويدة، رثاء، محاولة تعبير عن الامتنان، مكتوبة بنغمة (*raga*) توحي بالتعاطف

والـــتفاني. كـــنّا نغنّي بالسنسكريتية، كالعادة (وهي لغة هندية قديمة اندثـــرت و لم تعـــد تستعمل سوى للتأمل والدراسة الدينية)، وكنت أحاول أن أكون مرآة صوتية لأصوات المغنّين الرئيسيين، ألتقط نغماهم وكأنّهـــا خـــيوط صـــغيرة مـــن الـــضوء الأزرق. راحوا يمرّرون لي الكلمـــات...، فأحملـــها لبرهة، ثمّ أمرّرها لهم، وهكذا تمكّنّا من الغناء لساعات وساعات من دون تعب. كنّا جميعاً نتمايل مثل الأعشاب في بحر الليل المظلم. وكان الأطفال حولي ملفوفين بالحرير، كالهدايا.

تملّكني التعب، ولكنني لم أشأ التخلّي عن خيطي الأزرق الصغير. بحلـــول الساعة الحادية عشرة والنصف، غيّرت الأوركسترا وتيرة الغناء لتـــصبح أكثـــر بهجـــة. وقامـــت النساء بأثوابهنّ الجميلة وأساورهنّ المخشخـــشة يـــصفّقن ويرقـــصن ويحاولن العزف على الدفّ بكامل أجـــسادهنّ. كانـــت الطبول تضرب بوتيرة إيقاعية مثيرة. ومع مرور الـــوقت، بـــدا لي وكأنّـــنا نسحب العام 2004 نحونا. وكأنّنا طوّقناه بموســـيقانا ورحنا نجذبه عبر سماء الليل كشبكة صيد كبيرة، تضمّ بين خـــيوطها أقدارنا المجهولة. ويا لها من شبكة ثقيلة في الواقع، تحمل كلّ الـــولادات، والوفـــيات، والمآســـي، والحـــروب، وقـــصص الحبّ، والاختراعات، والتحوّلات، والكوارث المقدّرة لنا جميعاً في هذا العام. اســـتمررنا بالغناء وبالسحب يداً بيد، صوتاً بعد آخر، أقرب فأقرب. ومع دنوّ منتصف الليل، رحنا نغنّي بكلّ قوانا، إلى أن تمكّنا أخيراً بهذا المجهـــود العظـــيم مـــن شدّ شبكة العام الجديد فوقنا، لتغطّي السماء وتغطّيـــنا. الله وحده يعلم ماذا يخبّئ لنا هذا العام، ولكن ها هو ذا وها نحن جميعاً تحته.

للمـــرّة الأولى في حـــياتي، احتفلت بليلة رأس السنة في مكان لا أعـــرف فيه أحداً من الحاضرين. وبين كلّ هذا الرقص والغناء، لم يكن

ثمّة من أقبّله عند منتصف الليل. ولكن، لا يمكنني القول إنني شعرت ولو للحظة بالوحدة في تلك الليلة.

لا، ما كنت لأقول ذلك إطلاقاً.

41

كلّ منّا مكلّف بعمل معيّن هنا. وقد تبيّن بأنّ وظيفتي هي حفّ الأرض. هناك إذاً، يمكنك أن تجدني الآن، لعدّة ساعات في اليوم، جاثية على ركبتيّ على الرخام البارد مع فرشاة ودلو كبير، أعمل مثل سندريلاّ.

كان زملائي في حفّ الأرض مجموعة من المراهقين الهنود. فهم يوكلون دوماً هذا العمل للمراهقين لأنّه يحتاج إلى طاقة جسدية كبيرة من دون أن يحمّلهم مسؤوليات هامة، فيكون حجم الضرر محدوداً في حال حدوث فوضى. أحببت زملائي. كانت الفتيات يرفرفن مثل الفراشات ويبدون أصغر بكثير من بنات الثمانية عشر عاماً الأميركيات، فيما كان الصبيان مستبدّين صغاراً جدّيين يبدون أكبر بكثير من أبناء الثمانية عشر عاماً الأميركيين. ومع أنّه لا يفترض بأحد التحدّث داخل المعابد، إلاّ أنّهم مراهقون، فكانت الثرثرة متواصلة في أثناء العمل, ولم يكن الحديث محصوراً بالنميمة والمواضيع التافهة. فأحد الصبيان كان يمضي النهار يحفّ الأرض بقربي ويحاضرني بكلّ جدية عن الطريقة الفضلى لتأدية العمل هنا: "كوني جدّية ودقيقة في مراعاة المواعيد. حافظي على برودة أعصابك وكوني مرتاحة".

كان العمل يحتاج إلى مجهود جسدي كبير، ولكنّ ساعات العمل اليومية كانت أسهل بكثير من ساعات التأمّل اليومية. وفي الحقيقة، لا

أظـــنّني ماهـــرة في التأمّل. أعلمُ أنّني لم أمارسه منذ مدة طويلة، ولكن صـــدقاً، لم أكـــن ماهرة فيه أبداً. لا يبدو لي أنّني أستطيع إبقاء ذهني ســـاكناً. وقـــد ذكرت الأمر مرّة لراهب هندي، فقال لي: "من المثير للـــشفقة أن تكـــوني الـــشخص الوحيد في التاريخ الذي واجه هذه المشكلة". ثمّ ذكر لي جملة من الباغافاد غيتا، من أقدم النصوص المقدّسة لليوغا: "أوه كريشنا، العقل قلق، هائج، قوي وعنيد. وإخضاعه لا يقلّ صعوبة عن إخضاع الريح".

علـــى غـــرار معظم البشر، أحمل ما يسمّيه البوذيون *عقل القرد*. فأفكاري تتأرجح من غصن إلى غصن، لا تتوقّف سوى لحكّ نفسها، والبـــصق. مـــن الماضي البعيد إلى المستقبل المجهول، يتنقّل فكري بحرّية عـــبر الـــزمن، يلامس عشرات الأفكار في الدقيقة، بلا سرج ولا قيد. وتلك ليست بالضرورة مشكلة بحدّ ذاتها، بل التأثّر العاطفي الذي يرافق عملية التفكير. فالأفكار السعيدة تضفي عليَّ البهجة، ولكن سرعان ما أنـــتقل إلى القلق المفرط، فيسوء مزاجي. ثمّ أتذكّر لحظة غضب فينتابني الغـــضب مجـــدّداً، قـــبل أن يقرّر ذهني أنّه حان الوقت ليبدأ بالشعور بالأســـف على نفسه، فيتبعه الإحساس بالوحدة على الفور. في النهاية، أنت لست سوى ما تفكّر فيه. وأحاسيسك هي عبد لأفكارك، وأنت عبد لعواطفك.

المـــشكلة الأخرى لهذا التأرجح عبر كروم الفكر هي أنّك لست أبداً حيث أنت. أنت إمّا تنبش الماضي أو تبحث بفضول في المستقبل، ونادراً ما ترتاح في اللحظة الحاضرة. وهذا ما يشبه قليلاً عادة صديقتي ســـوزان الـــتي - كلّما رأت مكاناً جميلاً - هتفت بشيء من الذعر تقـــريباً: "يا له من مكان جميل! أودّ العودة إلى هنا يوماً ما!" وأحتاج عندها إلى كلّ مهاراتي لإقناعها بأنّها هنا *أساساً*...

لكنّ البقاء في اللحظة الحاضرة يحتاج إلى التركيز على شيء واحد. وتعلّم مختلف تقنيات التأمّل التركيزَ بطرق مختلفة، كتركيز العينين على نقطة ضوئية واحدة أو مراقبة ارتفاع وانخفاض النفَس. أمّا مرشدتي، فتعلّم التأمّل بواسطة المانترا، وهي كلمات أو مقاطع يتمّ تكرارها مع التركيز. وللمانترا وظيفة مزدوجة. فهي أوّلاً تعطي الفكر شيئاً ليفعله. وكأنّك تعطي القرد كومة من 10.000 زرّ قائلاً: "انقل هذه الأزرار، واحداً تلو الآخر، إلى كومة أخرى". وتلك مهمّة أسهل بكثير من أن تحشر القرد في زاوية وتطلب منه عدم الحراك. أمّا الهدف الآخر للمانترا فهو نقلك إلى حالة أخرى، كالمركب، عبر أمواج الفكر التي لا تهدأ. وكلّما انحرف انتباهك في تيار معاكس، عد إلى المانترا، واصعد إلى المركب من جديد، وتابع المسير. وعبارات المانترا السنسكريتية العظيمة تقال لاحتواء قوىً لا يمكن تخيّلها، ولديها القدرة للتجذيف بك، إن تمكّنت من البقاء معها، لحملك إلى برّ الأمان.

من بين مشاكلي الكثيرة مع التأمّل هو أنّني لا أرتاح مع المانترا التي أعطيت لي -*أوم ناماه شيفايا*. فأنا أحبّ موسيقاها وأحبّ معناها ولكنّها لا تنقلني إلى حالة التأمّل. لم يحدث ذلك أبداً خلال السنتين اللتين مارست فيهما اليوغا. فحين أحاول ترداد المانترا في رأسي، تعلق في حنجرتي ويُطبق صدري وينتابني التوتر. أعجز دوماً عن ملاءمة مقاطع العبارة مع تنفّسي.

أخيراً، قررت سؤال زميلتي في الغرفة كوريلاّ عن ذلك في إحدى الليالي. كنت أخجل من الاعتراف بمدى الصعوبة التي أواجهها للتركيز على تكرار المانترا، إلاّ أنّها معلّمة تأمّل. ربّما أمكنها مساعدتي. فأخبرتني بأنّها كانت تعاني من تشتّت الفكر في أثناء التأمّل هي أيضاً ولكنّ التأمّل بالنسبة إليها الآن هو متعة عظيمة، سهلة، ونقطة تحوّلية في حياتها.

قالـــت: "أجلس وأغمض عينيّ وكلّ ما أفعله هو *التفكير* بالمانترا لأتلاشى على الفور...".

حـــين سمعـــت كلامها، تملّكني الحسد. ولكنّ كوريلاّ تمارس الـــيوغا مـــنذ مدّة طويلة تعادل عدد سنوات حياتي. فسألتها كيف تـــستعمل بالـــضبط *أوم ناماه شيفايا* في جلسات التأمّل. هل تأخذ نفَساً مع كلّ مقطع؟ (حين أفعل ذلك، أجدها طويلة ومزعجة). أم كلمـــة مع كلّ نفَس؟ (ولكنّ كلمات المانترا ليست بالطول نفسه! فكـــيف تساوي بينها؟) أم أنّها تقول المانترا كلّها مرّة مع الشهيق ومـــرّة مع الزفير؟ (لأنّني حين أحاول القيام بذلك، يتسارع نفَسي وينتابني القلق).

قالت كوريلاّ: "لا أعرف، أنا أقولها وحسب".

فأصررت بيأس: "ولكن هل تغنّينها؟ هل تنغّمينها؟".

"أقولها وحسب".

"هـــل يمكـــنك قولها بصوت مرتفع كما تقولينها بذهنك وأنت تتأمّلين؟".

فأغلقت عينيها بصبر، وبدأت تقول المانترا بصوت عالٍ. وفي الواقـــع، كانت تقولها وحسب. قالتها بهدوء، بطريقة عادية، وهي تبتـــسم بعض الشيء. ردّدتها عدّة مرات إلى أن أحسست بالضجر وأوقفتها.

سألتها: "ألا تشعرين بالملل؟".

قالت وهي تفتح عينيها مبتسمة وتنظر إلى ساعتها: "آه، لم تمضِ سوى عشر ثوانٍ ليز. أمِنَ الممكن أن نملّ منذ الآن؟".

42

في صباح اليوم التالي، وصلت في الوقت المحدّد لجلسة التأمّل الممتدّة على أربع ساعات والتي نبدأ فيها يومنا هنا. ينبغي علينا الجلوس لساعة من الوقت صامتين، ولكنّني أعدّ الثواني وكأنّها أميال - ستون ميلاً صعبٌ عليَّ تحمّلها. في الميل/الثانية الرابع والعشرين، بدأت أعصابي تتوتّر وركبتاي تؤلمانني ويتملّكني الغضب. ولن تستغرب ذلك لو عرفت أنّ الحديث بيني وبين عقلي في أثناء التأمّل يجري على الشكل التالي:

أنا: *حسناً، سنبدأ بالتأمّل الآن. فلننتبه إلى نَفَسنا ولنركّز على المانترا.* أوم ناماه شيفايا. أوم ناماه شي.

عقلي: *بوسعي مساعدتك على ذلك!*

أنا: *حسناً، هذا جيّد، لأنني أحتاج إلى مساعدتك. فلنبدأ.* أوم ناماه شيفايا. أوم ناماه شي.

عقلي: *يمكنني مساعدتك على التفكير في صور تأمّلية جميلة. مثلاً، اسمعي، هذه صورة جيّدة. تخيّلي أنّك معبد. معبد على جزيرة! والجزيرة في بحر!*

أنا: *آه، هذه صورة جميلة فعلاً.*

عقلي: *شكراً. فكّرت فيها بنفسي.*

أنا: *ولكن أيّ بحر نتخيل هنا؟*

عقلي: *البحر الأبيض المتوسّط. تخيّلي أنّك إحدى الجزر اليونانية التي تحتوي على معبد يوناني قديم. كلاّ، هذا يجذب كثيراً من السياح. أتعلمين؟ انسي أمر البحر. فالبحار خطيرة جداً. لديَّ فكرة أفضل؛ تخيّلي بأنّك جزيرة في بحيرة، عوضاً عن ذلك.*

أنا: هل يمكننا البدء بالتأمّل الآن، من فضلك؟ أوم ناماه شي.

عقلــي: أجل! بالتأكيد! ولكن حاولي ألاّ تتخيّلي البحيرة مليئة بالـ... ماذا تدعى تلك الآلات؟

أنا: الدراجات المائية؟

عقلي: أجل! الدراجات المائية! فتلك الآلات تستهلك كثيراً من الوقــود! وتــشكّل تهديــداً كبيراً للبيئة. هل تعلمين ما الذي يستهلك الكثير من الوقود أيضاً؟ آلات نفخ أوراق الشجر. قد تستغربين الأمر، ولكن...

أنا: حسناً، ولكن فلنتأمّل الآن، من فضلك. أوم ناماه شيفايا. أوم ناماه شي.

عقلــي: صحيح! أنا أرغب حتماً بمساعدتك على التأمّل! لذا سنتخلّى عن صورة الجزيرة في البحيرة أو البحر، لأنها غير فعالة كما يبدو. فلنتخيّل بأنك جزيرة في... نهر!

أنا: أوه، أتعني مثل جزيرة بانرمان، في نهر هدسن؟

عقلــي: أجــل! تماماً! هذا ممتاز. فلنتأمّل إذاً مع هذه الصورة؛ تخيّلــي بأنك جزيرة في نهر. وجميع الأفكار التي تطوف بقربك وأنت تتأمّلين، ليست سوى تيّارات طبيعية يمكنك تجاهلها لأنك جزيرة.

أنا: انتظر، ظننتك قلت بأنني معبد.

عقلي: هذا صحيح، آسف. أنت معبد على جزيرة. في الواقع، أنت الاثنين، المعبد والجزيرة على السواء.

أنا: وهل أنا النهر أيضاً؟

عقلي: *كلاّ، النهر هو الأفكار وحسب.*

أنا: *توقّف! أرجوك توقّف! أنت تثير جنوني!!!*

العقل (مجروحاً): *آسف، كنت أحاول المساعدة وحسب.*

أنا: *أوم ناماه شيفايا... أوم ناماه شيفايا... أوم ناماه شيفايا...*

هنا تمرّ ثماني ثوانٍ واعدة من هدوء الأفكار. ولكن...

عقلي: *هل أنت غاضبة منّي الآن؟*

أخيراً، آخذ نفَساً عميقاً وكأنّني كنت أسبح تحت الماء، فيربح عقلي وأفتح عيني وأتوقّف عن التأمّل. دامعة العينين. يفترض بالمعتزل أن يكون مكاناً تُعمّقُ فيه تجربتك التأمّلية، ولكنّ ما يحدث كارثة. لا يمكنني القيام بذلك. ماذا أفعل؟ أخرج من المعبد وأنا أبكي بعد أربع عشرة دقيقة كلّ يوم؟

غير أنّني هذا الصباح، عوضاً عن قتاله، توقّفت وحسب. استسلمت. أسندت ظهري إلى الجدار خلفي. كان ظهري يؤلمني، ومنهكة القوى، وعقلي يرتجف. انهارت وضعيتي وكأنّها جسر. نزعت المانترا عن قمّة رأسي (حيث كانت تضغط بثقل وكأنّها سندان حدّاد) ووضعتها بقربي على الأرض. ثمّ قلت...: "أنا آسفة حقاً، ولكن هذا أبعد ما يمكنني بلوغه اليوم للاقتراب منك".

يقول لاكوتا سيوكس إنّ الطفل الذي يعجز على الجلوس ساكناً هو طفل غير مكتمل النموّ. واستناداً إلى أحد النصوص السنسكريتية القديمة، "ثمّة علامات تشير إلى أنّ التأمّل يتمّ بالطريقة الصحيحة. منها أن يجلس طائر على رأسك معتقداً أنّك شيء جامد". هذا لم يحدث لي بالضبط. ولكنّني حاولت خلال الدقائق الأربعين التالية الجلوس هادئة قدر الإمكان، بعد أن علقت في قاعة التأمّل وسيطر عليَّ الشعور بالعار

والعجـــز وأنا أتأمّل بقية الأتباع حولي وهم يجلسون في وضعية ممتازة، أعيـــنهم مغمضة، تشعّ وجوههم الواثقة بالهدوء وهم ينقلون أنفسهم بالتأكـــيد إلى... رائعة. غمرني حزن كبير ورغبت بأن أنشد الراحة في الـــبكاء، ولكنّني قاومت ذلك جاهدة، وتذكّرت ما قالته مرشدتي يوماً بأنّـــه ينبغي عليك ألاّ تعطي نفسك الفرصة للانهيار لأنّك حين تفعلين ذلك يتحوّل الأمر إلى نزعة لديك تتكرّر مراراً. عليك أن تعوّد نفسك على أن تبقى قويا عوضاً عن ذلك.

ولكـــنّني لم أشـــعر بأنّني قوية. بل كانت الخيبة تأكلني. ورحت أتساءل من هو *أنا* ومن هو *عقلي*. فكّرت في عملية التفكير التي لا تهدأ وفي دماغـــي الـــذي يلتهم روحي، وتساءلت كيف لي أن أسيطر عليه يوماً. وهنا تذكّرت جملة لأحدهم و لم أتمالك نفسي فابتسمت:

"سنحتاج إلى مركب أكبر".

43

حـــان وقت العشاء. جلست وحيدة أحاول تناول الطعام ببطء. فالغورو تشجّعنا دوماً على الانضباط في أثناء تناول الطعام. ينبغي علينا أن نأكـــل باعتدال من دون ازدراد الطعام بيأس، ومن دون أن نطفئ الـــنيران في أجـــسادنا عـــبر إلقاء كميات كبيرة من الطعام في جهازنا الهـــضمي بسرعة كبيرة. (أنا أكيدة بأنّ مرشدتي لم يسبق لها أن كانت في نابـــولي). وحـــين يقـــصدها تلاميذها يتذمّرون من المشاكل التي يواجهـــونها في القـــدرة على التأمّل، تسألهم دوماً عن حالتهم الهضمية مؤخّـــراً. فمـــن المنطقـــي أن تواجه صعوبة في الانزلاق بخفّة إلى حالة التجاوز إن كانت أمعاؤك تصارع وجبة من النقانق، كيلوغراماً من لحم

العجل ونصف فطيرة من قشدة جوز الهند. لهذا السبب، هم لا يقدّمون هذا النوع من الأطعمة هنا. فطعام المعتزل نباتي، وخفيف، وصحّي. إلاّ أنّــه شهيّ مع ذلك. ولهذا السبب يصعب عليَّ التهامه مثل يتيم جائع. أضف إلى أنّ الوجبات في بوفيه، ولم يكن من السهل عليَّ أبداً مقاومة صــبّ حصة إضافية وأنا أرى الطعام الجميل ممدوداً هناك في متناولي، برائحته الشهية ومقابل لا شيء.

جلــست إلى طاولة العشاء بمفردي، أبذل جهدي للسيطرة على شوكتي، حين رأيت رجلاً يسير حاملاً صينية طعام عشائه ويبحث عن كرسيّ خالٍ. فهززت رأسي مشيرة إليه بأنّني أرحّب بانضمامه إليَّ. لم يــسبق لي رؤيــة هذا الرجل هنا من قبل. لا بدّ من أنّه وصل حديثاً. كانت مشيته رائعة، غير متعجّلة، يسير وكأنّه عمدة بلدة حدودية، أو لاعب بوكر قديم. كان يبدو في العقد الخامس من عمره، ولكنّ مشيته تــدلّ على أنّه يتجاوز تلك السنّ بقرون. كان شعره أشيب، وكذلك لحيــته ويــرتدي قميــصاً قطنياً مربّع النقش. توحي كتفاه العريضتان وحجــم يديــه بأنّــه قادر على التسبّب بالأذى، ولكنّ وجهه كان مسترخياً تماماً.

جلس أمامي وتشدّق قائلاً: "يا الله، البرغش في هذا المكان كبير".

سيّداتي سادتي، أقدّم لكم ريتشارد، من تكساس.

44

مــن بــين الوظائف الكثيرة التي شغلها ريتشارد من تكساس في حــياته - وأعــرف أنّني أغفل ذكر عدد كبير منها - عامل في حقل للــنفط، ســائق شاحنة من ثماني عشرة عجلة، التاجر القانوني الأوّل

لبيركينستوكس في الداكوتا، خضّاض شراب في الوسط الغربي (آسفة، ولكنّني لا أملك الوقت لشرح معنى *خضّاض شراب*)، عامل بناء على الطريق السريع، بائع سيارات مستعملة، جندي في فيتنام، *سمسار بضائع* (تلك البضائع كانت عموماً مخدّرات مكسيكية)، مدمن مخدّرات وشراب (إن أمكن اعتبارها مهنة)، ثمّ مدمن مخدرات، ومزارع هيبي، مُعلِن في الراديو، وأخيراً، تاجر ناجح في مجال المعدّات الطبية (إلى أن انهار زواجه وأعطى العمل كله لطليقته وغادر وهو *يحك مؤخّرته البيضاء المُفلسة مجدّداً*). وهو يعمل الآن في تجديد المنازل القديمة في أوستن.

قال: "لم أملك يوماً طريقاً مهنياً محدّداً. ولم أنجح يوماً في فعل أي شيء".

ريتشارد من تكساس ليس من الأشخاص الذين يقلقون على كل شيء. لا يمكنني اعتباره عُصابياً على الإطلاق. أنا عُصابية بعض الشيء، ولهذا السبب أحببته كثيراً. أصبح وجود ريتشارد في هذا المعتزل مصدراً عظيماً وممتعاً لشعوري بالأمان. فثقته العظيمة والثابتة كانت تهدّئ قلقي الفطري وتذكّرني بأنّ كلّ شيء سيسير حقاً على ما يرام (وإلاّ فعلى نحو كوميدي). وبحسب ما قاله ريتشارد حرفياً: "أنا وبُقول نقضي كلّ وقتنا في الضحك".

بُقول.

هذا هو اللقب الذي أطلقه عليَّ ريتشارد، وذلك في أوّل ليلة التقينا فيها، حين لاحظ كم أكثر من الأكل. حاولت الدفاع عن نفسي (كنت أتعمّد الأكل بانضباط واعتدال!) ولكنّ اللقب لازمني.

قد لا يبدو ريتشارد من تكساس ممارس يوغا نموذجياً، مع أنّ إقامتي في الهند علّمتني ألاّ أقرّر من هو ممارس اليوغا النموذجيّ. (لا

أريد أن أبدأ بالحديث عن صاحبة مزرعة الألبان الإيرلندية التي التقيت بها هنا منذ يومين، أو الراهبة السابقة من جنوب أفريقيا). تعرّف ريتشارد إلى اليوغا من خلال صديقته السابقة التي أقلّته من تكساس إلى المعتزل في نيويورك لسماع الغورو وهي تتحدّث. يقول ريتشارد: "اعتقدت يومها بأنّ المعتزل كان أغرب شيء رأيته على الإطلاق وتساءلت أين تقع الغرفة التي ينهبون فيها نقودك ويستولون على منزلك وسيارتك، ولكنّ ذلك لم يحدث أبداً...".

بعد تلك التجربة التي مرّ عليها عشر سنوات، أصبح ريتشارد يتأمل طيلة الوقت.

سألته يوماً وهو يراقبني أحفّ أرض المعبد: "ماذا عليَّ أن أفعل مع جلسات التأمّل؟" (كان محظوظاً، فهو يعمل في المطبخ، وليس عليه المجيء إلى هنا إلاّ قبل ساعة من موعد العشاء. ولكنّه يحبّ مشاهدتي وأنا أحفّ أرض المعبد. فهو يجد ذلك مضحكاً).

"ولِمَ تظنّين أنّ عليك القيام بشيء حيال ذلك؟".

"لأنّه مقرف".

"من؟".

"أعجز عن إبقاء عقلي ساكناً".

"تذكّري ما تعلّمنا إيّاه الغورو، إن جلست بنيّة التأمّل الصافية، فما يحدث بعد ذلك ليس من شأنك. إذاً، لِمَ تحكمين على تجربتك؟".

"لأنّ ما يحدث في تأمّلاتي لا يمكن أن يكون هو الهدف من اليوغا".

"بُقول، عزيزتي، ليست لديك أي فكرة عمّا يحدث هناك".

"أنا لا أرى أي رؤى، ليست لديَّ تجارب سامية".

"تريدين رؤية ألوان جميلة؟ أم تريدين معرفة حقيقتك؟ ما هو هدفك بالتحديد؟".

"كلّ ما أفعله حين أحاول التأمّل هو الجدل مع نفسي".

"إنّها ذاتك، تحاول التأكّد من أنّها ما زالت تملك السيطرة عليك. هـذا ما تفعله الأنا. تجعلك تشعرين بأنّك منفصلة، تحافظ على حسّ الازدواجـية لـديك، وتحاول إقناعك بأنّك ناقصة، ومقطّعة، ووحيدة ولست كاملة".

"ولكن كيف يساعدني ذلك؟".

"لا يساعدك. مهمّة الأنا لا تقوم على مساعدتك، بل على أن تبقى في السلطة. والأنا لديك مذعورة الآن لأنّ الوقت حان لتقليصها. استمرّي في هـذا الطريق الروحي يا عزيزتي، فأيامها أصبحت معدودة. سرعان ما ستصبح ذاتك عاطلة عن العمل، ليتّخذ قلبك جميع القرارات بنفسه. ذاتك تحـارب دفاعـاً عن حياتها، تلعب بعقلك وتحاول تعزيز سلطتها، وتحاول إبقاءك في الزاوية بعيداً عن بقية الكون. لا تصغي إليها".

"وكيف لا تصغي إليها؟".

"هل حاولت يوماً أخذ لعبة من طفل صغير؟ هم لا يحبّون ذلك، بل يبدأون بالركل والصراخ. وأفضل طريقة لأخذها هي بإلهاء الطفل وإعطائه شـيئاً آخـر يلعب به. اصرفي انتباهه عنها. عوضاً عن أخذ الأفكار من عقلك بالقوّة، أعطِ عقلك شيئاً أفضل يلعب به. شيئاً صحياً أكثر".

"مثل ماذا؟".

"مثل الحبّ، يا بُقول. الحبّ الطاهر".

45

يفتـرض بذهابـي إلى كهف التأمّل يومياً أن يكون وقتاً من التقارب، ولكنّني كنت أسير إلى هناك مؤخّرا وأنا خائفة، مثلما تدخل

كلبتي عيادة الطبيب البيطري (وهي تعرف أنّه مهما كان الجميع ودوداً معهـا ستنتهي الـزيارة بإبرة حادّة). ولكن بعد حديثي الأخير مع ريتـشارد مـن تكـساس، قرّرت تجربة مقاربة جديدة هذا الصباح. جلـست للتأمّل وقلت لعقلي: "اسمع، أفهم أنّك خائف قليلاً. ولكن أعدك أنّني لا أحاول إبادتك. كلّ ما أريده هو إيجاد مكان لك لترتاح. أنا أحبك".

قال لي أحد النسّاك منذ مدة: "مكان استراحة العقل هو القلب. فكلّ ما يسمعه العقل طيلة النهار هو قرع الأجراس والضجيج والجدل، وكـلّ ما يحتاج إليه هو السكون. والمكان الوحيد الذي يجد فيه العقل الـسلام هـو داخل هدوء القلب. ذاك هو المكان الذي تحتاجين إلى الذهاب إليه".

كمـا أنّني أجرّب مانترا مختلفة، كنت محظوظة معها في الماضي. وهي بسيطة، تتألّف من مقطعين وحسب:

Ham-sa

وتعني بالسنسكريتية: *أنا ذاك*.

اسـتناداً إلى اليوغانيين، هام - سا هي المانترا الأكثر طبيعية، فهي تعطى لنا قبل الولادة. إنّها صوت تنفّسنا. *هام* مع الشهيق، *سا* مـع الزفير. (وللمناسبة، تلفظ *هام* بنعومة، مفتوحة مثل *هاههههم*. و*سا* مع "آه ه ه...") وكلّ حياتنا، نكرّر هذه المانترا مع كلّ نفَس. ولطالما وجدت *هام - سا* سهلة وباعثة على الاسترخاء، أسهل على التأمّل من *أوم ناماه شيفايا*، المانترا *الرسمية* لليوغا هنا. وحين تحدّثت مع ذاك الناسك منذ يومين قال لي أن استعمل *هام - سا* إن كانت تـساعدني علـى الـتأمّل. قال: "تأمّلي بأيّ شيء يسبّب ثورة في عقلك".

هكذا جلست هناك اليوم.

هام – سا.

أنا ذاك.

أتـــت الأفكار، ولكنّني لم أعرها انتباهاً كبيراً، بل قلت لها بحنان الأمـــومة تقـــريباً: "أوه، أنا أعرفكم أيّها المشاغبين... اذهبوا للعب في الخارج الآن...".

هام – سا.

أنا ذاك.

استغرقت في النوم لبرهة. (أو أياً كان ما حدث. ففي التأمّل، لا يمكنك أن تكون واثقاً من أنّ ما تعتقده نوماً هو نوم بالفعل، ففي بعض الأحيان، يكون مستوىً آخر من الوعي). حين استفقت، أو أياً كان ما حـــدث، شـــعرت بـــتلك الطاقة الكهربائية الزرقاء الناعمة تنبض في جـــسدي، في موجات. كان الشعور مخيفاً ورائعاً في الوقت نفسه. لم أعـــرف ماذا أفعل، فاكتفيت بالتحدّث مع تلك الطاقة الداخلية. قلت: "أنـــا أعتقد بك"، فراحت تتعاظم وتكبر. كان الأمر مخيفاً وقوياً جداً الآن، وكأنّني أتعرّض لاختطاف للحواسّ. كانت تهمهم متصاعدة من أســـفل عمودي الفقري. شعرت بأنّ عنقي يرغب بالتمدّد والالتفات، فتـــركته، وبقـــيت جالسة هناك في وضعية غريبة، جاثمة مثل يوغاني متمـــرّس، ولكنّ أذني اليسرى مضغوطة على كتفي الأيسر. لا أعرف لمـــاذا أراد رأســـي وعنقي فعل ذلك، ولكنّني لن أجادلهما، فقد كانا شـــديدي الإلحـــاح. ظلّت الطاقة الزرقاء الخافقة تتصاعد في جسدي وأمكـــنني سمـــاع صوت شبيه بمداعبة أوتار موسيقية في أذنيّ، وكان الشعور قد أصبح عظيماً الآن إلى حدّ أنني أصبحت عاجزة عن التعامل معـــه. أخافني كثيراً حتى إنّني قلت: "لست جاهزة بعد!" وفتحت عيني

فجأة. فزال كلّ شيء. عدت إلى الغرفة وإلى ما يحيط بـــي. نظرت إلى ساعتي، واكتشفت بأنّني بقيت هناك - أو في مكان ما - لساعة تقريباً.

كنت ألهث، بكلّ ما للكلمة من معنى.

46

إنّ فهم ما حدث معي هناك، أعني في *كهف التأمّل* وفيّ *أنا*، يثير موضوعاً خفيًّا وجامحاً، وهو موضوع *كونداليني شاكتي*.

لكـــلّ مذهب في العالم عدد من الأتباع الذين يسعون إلى تجربة مباشرة وسامية. والمثير للاهتمام لدى هؤلاء أنّهم حين يصِفون تجاربهم، ينتهون بوصف الأحداث نفسها تماماً.

...

في المعتقدات اليوغانية الهندية، يُصوَّر *كونداليني شاكتي* أي السر علـــى أنّه ثعبان ملتفّ حول نفسه قابعاً في أسفل العمود الفقري إلى أن يـــتمّ تحريـــره بلمـــسة معلّـــم أو بمعجزة، ليصعد بعد ذلك عبر سبع شـــاكرات، أو عجـــلات (ويمكـــن تسميتها أيضاً بالمقامات السبعة)، وأخيراً عبر الرأس لينفجر في اتحاد... وهذه الشاكرات غير موجودة في الجـــسد الفظّ، بحسب اليوغانيين، فلا تبحث عنها فيه، بل ابحث عنها فقـــط في الجسد اللطيف المهذّب، الجسد الذي يتحدّث عنه المعلّمون الـــبوذيّون وهـــم يـــشجّعون تلاميذهم على استلال ذات جديدة من أجـــسادهم كما يستلّون سيفاً من غمده. وقد أخبرني صديقي بوب، وهـــو تلميذ يوغا وعالم أعصاب على السواء، أنّ فكرة الشاكرا لطالما شـــغلته إلى حدّ أنّه أراد رؤيتها في جسد مشرّح لكي يعتقد بوجودها. ولكن بعد مروره بتجربة تأمّل سامية، تمكّن من فهمها على نحو جديد.

قـــال لي: "مـــثلما يوجد في الكتابة حقيقة حرفية وحقيقة شِعرية، ثمّة تـــشريح حـــرفي وتشريح شِعري. أحدها يمكن رؤيته، أمّا الآخر فلا. أحـــدهما مكـــوّن مـــن العظام والأسنان واللحم، والآخر من الطاقة والذاكرة والإيمان. والاثنان حقيقيان على السواء".

أحبّ أن يجد العلم والعبادة نقطة تلاق. فقد قرأت مؤخّراً مقالاً في نـــيويورك تايمـــز عن فريق من علماء الأعصاب أجرى اختباراً على كـــاهن تيبتي لفحص دماغه. فقد أرادوا معرفة ما يحدث علمياً للعقل حـــين يمرّ في حالة الاتصال... أو التجاوز، خلال لحظات التنوير. ففي عقـــل الشخص الذي يفكّر بشكل عاديّ، ثمّة عواصف كهربائية من الأفكـــار الـــتي تدور باستمرار، مسجّلة في الصورة الدماغية ومَضات صـــفراء وحمـــراء. وكلّما ازداد غضب الشخص أو اتّقاده العاطفي، أصـــبحت الومـــضات الحمراء أكثر حدّة وعمقاً. إلاّ أنّ المتصوّفين في جميع الأزمنة والحضارات تحدّثوا جميعاً عن سكون الذهن في أثناء التأمّل وقالـــوا بأنّ الاتحاد الأقصى... هو عبارة عن ضوء أزرق يشعرون بأنّه يـــشعّ من وسط جمجمتهم. يدعى ذلك في المعتقدات اليوغانية *اللؤلؤة الزرقاء*، وهي الهدف الذي يسعى إليه كلّ مزاول لليوغا. بالطبع، تمكّن الكـــاهن التيبتي الذي أخضع للمراقبة في أثناء التأمّل من تسكين دماغه تمامـــاً بحيث لم تظهر أي ومضات حمراء أو صفراء. في الواقع، تجمّعت كـــلّ الطاقة العصبية لذاك السيّد في النهاية في وسط دماغه - وأمكن رؤيـــتها على الشاشة - في لؤلؤة زرقاء باردة وصغيرة من الضوء. تماماً كما وصفها اليوغانيون دوماً.

ذاك هو مقصد *الكوندالِيني شاكتي*.

في التـــصوّف الهـــندي، كمـــا هو الحال مع كثير من المعتقدات الـــشامانية، تعتبر *الكوندالِيني شاكتي* قوّة خطيرة لا ينبغي اللعب بها من

دون إشـــراف معلّم، فمن شأن اليوغاني غير المتمرّس أن يفجّر دماغه فعلياً بها. أنت بحاجة إلى معلّم - غورو - ليقودك في هذا الطريق، وإلى مكـــان آمن، في الحالات المثالية - معتزل - لتمارس فيه التأمّل. ويقال بـــأنّ لمـــسة الغورو (التي تحدث إمّا فعلياً أو عبر لقاء خارق للطبيعة، كالحلم مثلاً) هي التي تحرّر طاقة الكونداليني من نومها في أسفل العمود الفقـــري لتـــبدأ رحلـــتها إلى الأعلـــى. وتسمّى لحظة التحرير تلك *شـــاكتيبات*، أيّ الـــتلقين...، وهي الهدية العظمى التي يقدّمها معلّم متـــنوّر. بعـــد تلك اللمسة، يحتاج التلميذ إلى سنوات من العمل نحو التنوير، ولكن تكون رحلته قد بدأت على الأقلّ. تمّ تحرير الطاقة.

تلقّـــيت الـــشاكتيبات منذ عامين، حين التقيت بمرشدتي للمرّة الأولى، في نيويورك. كان ذلك خلال عطلة أسبوع قضيتها في معتزلها في كاتـــسكيلز. وللصراحة، لم أشعر بشيء مميّز بعد ذلك. كنت أتوقّع لقـــاءً باهراً، ربّما ضوءاً أزرق أو رؤية، ولكنّني بحثت في جسدي عن الـــتأثيرات الخاصة ولم أشعر سوى بشيء من الجوع، كالعادة. وأذكر أنّني فكّرت يومها في أنّني لا أملك على الأرجح الإيمان الكافي لأعرف تجربة قوية مثل إطلاق العنان *للكونداليني شاكتي*. واعتقدت أنّني أعتمد كثيراً على عقلي، ولا أستعمل حدسي بما يكفي، وبأنّ طريقي التعبدي سـيكون فكـــرياً أكثر منه سريًّا. قد أقرأ الكتب وأفكّر في أمور مثيرة للاهـــتمام ولكـــنّني لن أبلغ على الأرجح تلك الحالة التأملية السامية. ولكـــن لا بأس في ذلك. ما زلت أحبّ ممارسة التأمل. كلّ ما في الأمر أنّ *الكونداليني شاكتي* ليست لي.

غير أنّ أمراً مثيراً حدث في اليوم التالي. اجتمعنا كلّنا بالغورو مرّة أخرى. فقادتنا إلى التأمّل، وفي وسط كلّ ذلك، استغرقت في النوم (أو مهمـــا كانـــت تلك الحالة) ورأيت حلماً. كنت على شاطئ البحر،

وكانت الأمواج العاتية والمخيفة تتسارع نحوي. فجأة، ظهر رجل إلى جانبـــي. كان معلّم مرشدتي يوغانياً عظيماً يتمتع بقدرات خارقة، وسأقتـــصر علـــى تسميته هنا *سواميجي* (وتعني بالسنسكريتية *الكاهن المحـــبوب*). توفّي سواميجي عام 1982. وقد عرفته من صوره المنتشرة في المعتزل. وحتى في تلك الصور، أقرّ بأنّني وجدت الرجل مخيفاً بعض الـــشيء، وشـــديد الالتهاب بالنسبة إليّ. وقد تفاديت التفكير فيه لمدة طويلة كما تجنّبت عموماً نظرته التي تحدّق إليّ من صوره على الجدران. بدا شديد القوّة. ولم يكن من نوع الغورو الذي يناسبني. لطالما فضّلت معلّمتي الحيّة، الأنثى اللطيفة والمتعاطفة على تلك الشخصية الميتة (والتي ما زالت تحتفظ بضراوتها).

ولكـــنّ سواميجي كان في حلمي، يقف بقربـــي على الشاطئ بكلّ سطوته. شعرت بالرعب. أشار إلى الأمواج المقتربة وقال بتجهّم: "أريدك أن تجدي طريقة لمنع حدوث *ذلك*". شعرت بالذعر فأخرجت دفتـــراً صـــغيراً، وحاولـــت رسم اختراعات لإيقاف أمواج البحر من الـــتقدّم. رسمت أسواراً ضخمة، وقنوات، وسدوداً. مع ذلك، كانت كـــلّ تصاميمي حمقاء تافهة. عرفت أنّني لا أتمتّع بالخبرة في هذا المجال (فأنـــا لـــست مهندســـة!) ولكنّ سواميجي كان يراقبني بنفاد صبر. استـــسلمت أخيراً. فأيّ من اختراعاتي لم يكن ذكياً أو قوياً بما يكفي لصدّ تلك الأمواج.

هـــنا سمعـــت سواميجي يضحك. نظرت إلى ذاك الرجل الهندي الـــصغير في ثوبه البرتقالي ورأيته غارقاً في الضحك، مكوّراً على نفسه من شدّة البهجة، يمسح دموع الفرح من عينيه.

قال لي وهو يشير إلى البحر الهائل بأمواجه اللامتناهية: "أخبريني يا عزيزتي، كيف كنت تخطّطين بالضبط لإيقاف *ذلك*؟".

47

مضت ليلتان متتاليتان حلمت فيهما بثعبان يدخل غرفتي. وقد قرأت أنّ هـــذه الأحلام تبشّر بالخير ولكنّ هذا لا يجعل الثعابين أقلّ ترويعاً. فقد كنت أستيقظ وأنا أتصبّب عرقاً. لا بل استيقظت مرّة وشعرت بأنّ عقلي يعـــيدني إلى حالة من الذعر الذي لم أشعر به طيلة سنوات طلاقي. كانت أفكـــاري تعود مجدّداً إلى زواجي الفاشل وكلّ العار والغضب اللذين رافقا تلـــك الحادثة. والأسوأ أنّني عدت أفكّر في ديفيد، أجادله بذهني، وأشعر بالغـــضب والوحدة وأتذكّر كلّ الأمور المؤذية التي قالها أو ارتكبها بحقّي. كمـــا أنّني لم أستطع التوقّف عن التفكير في سعادتنا معاً، السعادة الغامرة الـــتي ســـادت في أوقـــات اتفاقنا. كنت على استعداد للقفز من السرير والاتـــصال به من الهند في منتصف الليل و - لا أدري - ربّما إقفال الخطّ في وجهه. أو التوسّل إليه ليحبّني من جديد. أو لومه بشراسة على عيوبه.

لماذا تعود كلّ هذه الأمور الآن؟

أعلم ما سيقال لي، عن الهواجس القديمة في هذا المعتزل. بأنّ كلّ ذلـــك *طبيعـــي*، الكلّ *يمرّ به*، فالتأمّل العميق يخرج كلّ شيء، وبأنّني أتخلّـــص من *هواجسي القديمة*... غير أنّني في حالة نفسية تجعلني عاجزة عن الاحتمال وعن سماع أيّ *نظريّات* في هذا الخصوص. أدرك بأنّ كلّ شيء يخرج إلى السطح، شكراً جزيلاً. يخرج كالتقيّؤ.

تمكّنت نوعاً ما من العودة إلى النوم، لحسن حظّي، ورأيت حلماً آخر. لا ثعابين هذه المرّة بل رأيت كلباً شرّيراً ومسعوراً يلاحقني قائلاً: "سأقتلك. سأقتلك وألتهمك!".

اســـتيقظت وأنا أبكي وأرتجف. لم أشأ إزعاج زميلاتي في الغرفة، فذهـــبت للاختـــباء في الحمّام. الحمّام، الحمّام دائماً! ها أنا في الحمّام

مجـــدّداً، في منتـــصف الليل، أبكي على الأرض وحيدة. آه، أيّها العالم البارد، تعبت منك ومن حمّاماتك الرهيبة.

وحين تواصل البكاء، ذهبت لإحضار دفتر وقلم (ملجأي الأخير) وجلـــست مرّة أخرى بقرب المرحاض. فتحت صفحة بيضاء وكتبت توسّلاً أصبح مألوفاً الآن:

"أحتاج إلى مساعدتك".

ثمّ زفـــرت نفساً طويلاً من الراحة فيما هبّ صديقي الدائم (من يكون؟) لنجدتي بإخلاص وكتب بخطّ يدي:

"أنا هنا. لا بأس. أنا أحبّك. لن أتخلّى عنك أبداً...".

48

كانت جلسة التأمّل في صباح اليوم التالي كارثة. توسّلت عقلي بيأس للجلوس جانباً، إلاّ أنّه حدّق إليّ بقوّة قائلاً: "لن أسمح لك أبداً بتجاوزي".

في الواقـــع، سيطر عليَّ ذاك الصباح حقد وغضب شديدين إلى حدّ أنّني خفت على حياة كلّ من يمرّ أمامي. وجّهت ردّاً لاذعاً للمرأة الألمانية المسكينة لأنّها لا تتقن الإنكليزية ولا تفهم ما أقوله وأنا أدلّها على المكتبة. أخجلني غضبـــي إلى حدّ أنّني ذهبت للاختباء في حمّام (آخر!) والبكاء، ثمّ غضبت من نفسي لأنّني أبكي حين تذكّرت نصيحة الغورو ألاّ ننهار دائماً وإلاّ تحـــوّل الأمـــر إلى عـــادة... ولكن ماذا تعرف هي عن ذلك؟ فهي مستنيرة. لا يمكنها مساعدتي، فهي لا تفهمني.

لم أشأ التحدّث مع أحد. لم أتحمّل رؤية أحد في تلك اللحظة. حتى إنني تجنّبت ريتشارد من تكساس لفترة، ولكنّه عثر عليَّ أخيراً عند العشاء، وجلس بشجاعة أمام دخان الكره الذاتي المتصاعد منّي.

سألني قائلاً، وعود أسنان في فمه كالعادة: "ما الذي يثير غضبك بهذا الشكل؟".

أجبته: "لا تسأل". ثمّ رحت أخبره بكلّ شيء، وخلصت إلى القول: "والأسوأ من هذا كلّه أنّني أعجز عن التوقّف عن التفكير في ديفيد. اعتقدت بأنّني تخطّت تلك التجربة، ولكنّ كلّ شيء يعود مجدّداً".

قال: "أعطي نفسك ستّة أشهر أخرى، وستشعرين بالتحسّن".

"سبق أن أعطيت نفسي اثني عشرة شهراً، ريتشارد".

"أعطي نفسك ستة أشهر إضافية. استمرّي برمي ستة أشهر إلى أن يزول كلّ شيء. هذه الأمور تستغرق وقتاً".

زفرت بقوّة من أنفي، وقد سئمته.

قال: "أصغي إليّ يا بُقول، يوماً ما ستنظرين إلى هذه المرحلة من حياتك على أنّها فترة حزن جميلة. سترين بأنّك كنت في حداد وكان قلبك مفطوراً ولكنّ حياتك كانت تتغيّر وكنت في أفضل مكان في العالم لحدوث ذلك؛ مكان تعبّد جميل، محاط بالنعم. استغلّي كلّ دقيقة من هذه الفترة. دعي الأشياء تأخذ وقتها هنا في الهند".

"ولكنّني أحببته حقاً".

"مشكلة كبيرة. وقعت في حبّ شخص إذاً. ألا ترين ما يحدث؟ ذاك الشابّ لمس مكاناً عميقاً في قلبك لم تظنّي يوماً أنّك قادرة على بلوغه. أعني أنّك فوجئت. ولكنّ ذاك الحبّ الذي شعرت به ليس سوى البداية. لقد تذوّقت الحبّ وحسب. ولم يكن ذاك سوى حبّاً دنيويًّا محدوداً. انتظري لتري كم يمكنك أن تحبّي أعمق من ذلك. ستكتشفين أنّ لديك القدرة لحبّ العالم بأسره يوماً ما. إنّه قدرك. لا تضحكي".

"أنا لا أضحك". كنت أبكي في الواقع. "ولا تضحك عليّ رجاءً، ولكن أعتقد بأنّ السبب الذي يجعل من الصعب عليَّ نسيان هذا الشابّ هو أنّني اعتقدت بجدّية أنّ ديفيد هو توأم روحي".

"ربّما كان كذلك. ولكنّك لا تفهمين معنى تلك الكلمة. يعتقد المرء بأنّ توأم الروح هو الشخص الأنسب له، وهذا ما يريده الجميع. ولكنّ توأم الروح الحقيقي ليس سوى مرآة، إنّه الشخص الذي يريك كلّ ما يعيقك، الشخص الذي يلفت انتباهك إلى نفسك لكي تغيّري حياتك. توأم الروح الحقيقي هو أهمّ شخص تلتقين به على الأرجح، لأنّه يمزّق جدرانك ويهزّك بقوّة لكي تستفيقي. ولكن أن تعيشي مع توأم روحك إلى الأبد؟ كلا. هذا مؤلم جداً. فتوائم الروح يدخلون حياتك فقط ليكشفوا لك طبقة أخرى من ذاتك، ثمّ يرحلون. وشكراً لله على ذلك. غير أنّ مشكلتك هي أنّك لا تسمحين لتوأم روحك بالرحيل. الأمر انتهى يا بُقول. مهمّة ديفيد كانت هزّك، تمزيق ذاتك قليلاً، إظهار العوائق والإدمانات في حياتك، فطر قلبك، وفتحه لكي يدخل إليه نور جديد، جعلك تشعرين بالبؤس وفقدان السيطرة على حياتك إلى حدّ أن ترغبي بتغييرها، ومن ثمّ تعريفك على معلّمك الروحي وبدء حياة جديدة. تلك كانت مهمته، وقد قام بها على أحسن وجه، والآن انتهى كلّ شيء. المشكلة هي أنّك لا تتقبّلين أنّ حياة تلك العلاقة كانت قصيرة. حبيبتي، أنت تتصرّفين مثل كلب في مكبّ للنفايات، تلعقين عبوة فارغة محاولة الحصول على مزيد من الغذاء منها. وإن لم تكوني حذرة، ستعلق العبوة في خطمك إلى الأبد وتجعل حياتك بائسة. لذا، اتركيها".

"ولكنّني أحبّه".

"إذاً، أحبّيه".

"ولكنّني أشتاق إليه".

"إذاً، اشـــتاقي إليه. أرسلي إليه قليلاً من الحبّ والنور كلّما فكّرت فيه، ثمّ واصلي حياتك. أنت خائفة من التخلّي عن آخر بقايا ديفيد لأنّك ســـتكونين وحـــيدة حقاً، وليز غيلبرت تخشى حتى الموت ما سيحدث لو ظلّـــت وحيدة. ولكن عليك أن تفهمي يا بُقول أنّك لو أخليت كلّ تلك المساحة من ذهنك التي تستعملينها للتفكير في ذاك الشابّ، سيكون لديك فـــراغ، بقعـــة مفـــتوحة؛ *باب*. واحزري ماذا سيفعل الكون بهذا الباب؟ سيدخل فيه... ويملأك بكمّ من الحبّ لم تحلمي به في حياتك. إذاً، توقّفي عن استعمال ديفيد لسدّ ذاك الباب. دعيه يرحل.

"ولكن أتمنّى لو كنّا نستطيع أنا وديفيد أن...".

قـــاطعني قائلاً: "أترين، تلك مشكلتك. تتمنّين كثيراً، يا عزيزتي. ما نيل المطالب بالتمنّي ولكن تؤخذ الدنيا غلابا".

منحني هذا البيت أوّل ضحكة في ذلك اليوم.

ثمّ ســـألت ريتشارد: "إذاً، كم سأحتاج من الوقت قبل أن ينتهي كلّ هذا الحزن؟".

"تريدين تاريخاً محدّداً؟".

"أجل".

"رقماً ترسمين دائرة حوله على الروزنامة؟".

"أجل".

"دعيني أخبرك شيئاً يا بُقول، أنت تعانين من حبّ السيطرة".

شـــعرت بغـــضبـــي ينفجـــر كالبركان في تلك اللحظة. *حبّ الـــسيطرة؟ أنا؟* فكّرت في الواقع بصفع ريتشارد على هذه الإهانة. ثمّ بانت الحقيقة من أعماق غضبـــي واستيائي. الحقيقة المباشرة، الواضحة والباعثة على الضحك.

هو محقّ تماماً.

زال غضبـــي بالسرعة التي اشتعل بها.

قلت: "أنت محقّ تماماً".

"أعـــرف يا حبيبتي. اسمعي، أنت امرأة قوية معتادة على الحصول علـــى مـــا تـــريدينه من الحياة و لم تحصلي على ما أردت في علاقاتك الأخـــيرة، وهـــذا مـــا يثير جنونك. لم يتصرّف زوجك كما أردت، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ديفيد. عاكستك الحياة لفترة من الزمن، وما من شيء يثير غضب محبـــي السيطرة أكثر من أن تعاكسهم الأقدار".

"لا تسمّني محبة للسيطرة، أرجوك".

"ولكـــنّك تعـــانين من مشاكل مع حبّ *السيطرة*، يا بُقول. ألم يخبرك أحد بذلك من قبل؟".

(حـــسناً... *بلى*. ولكنّ المشكلة مع الطلاق من شخص ما هي أنّه يجعلك تتوقّف بعد فترة عن الإصغاء إلى الكلام الدنيء الذي ينعتك به).

هكـــذا تراجعت واعترفت بالأمر. "حسناً، أظنّك على حقّ على الأرجـــح. ربّما كنت أعاني من حبّ السيطرة. ولكن من الغريب أن تلاحـــظ ذلـــك. فأنا لم أعتقد أنّ الأمر واضح إلى هذا الحدّ. أعني، أنا واثقـــة من أنّ الناس لا يمكنهم ملاحظة هذه المشكلة حين ينظرون إليّ للمرّة الأولى".

انفجـــر ريتـــشارد من تكساس بالضحك إلى حدّ أنّه أوشك أن يُفلتَ عود الأسنان من فمه.

"حقاً؟ يا عزيزتي، بإمكان راي تشارلز أن يرى حبّك للسيطرة!".

"حسناً. أعتقد أنّ الوقت قد حان لوضع حدّ لهذا الحديث، شكراً".

"علـــيك أن تتعلّمـــي إطلاق سراح المسائل القديمة، بُقول. وإلاّ، ستمرضـــين ولـــن تنعمي بالنوم أبداً. ستتقلّبين في فراشك إلى الأبد،

وتلومين نفسك على فشلك الذريع في الحياة. *ما خطبـــي؟ لِمَ أفسدت جميع علاقاتي؟ لِمَ أنا فاشلة؟* دعيني أخمّن، أليس هذا ما شغل فكرك في ساعات أرقك في الليلة الفائتة؟".

"حسناً، ريتشارد، هذا يكفي. لا أريدك أن تتجوّل في رأسي بعد اليوم".

أجـــابني صديقي اليوغاني الكبير الآتي من تكساس: "إذاً، أقفلي الباب".

49

حـــين كـــنت في التاسعة من عمري، وقد أوشكت أن أبلغ سنّ العاشـــرة، عانـــيت من أزمة ميتافيزيقية حقيقية. قد يبدو ذلك مبكراً، ولكنّني كنت طفلة ناضجة قبل الأوان. حدث ذلك صيفاً، بين الصفّ الرابع والخامس الابتدائي. كنت سأبلغ العاشرة في تموز، وكان ثمّة شيء ما في الانتقال من الرقم تسعة إلى عشرة – من رقم واحد إلى رقمين – صـــدمني وسبّب لي ذعراً وجودياً فعلياً، يشعر به الناس عادة عند بلوغ الخمسين. أذكر أنّني فكّرت بأنّ حياتي تمضي *بسرعة*. وبدا لي وكأنّني كـــنت الـــبارحة في صفّ الحضانة، وها أنا الآن على وشك أن أبلغ العاشرة. قريباً سأصبح مراهقة، كهلة، عجوزاً، ثمّ أموت. وكان الجميع يـــتقدّمون في السنّ بسرعة هائلة أيضاً. وسرعان ما سيموت الجميع. أبـــواي، أصدقائي، قطّتي. شقيقتي الكبرى أصبحت في الثانوية. بدا لي وكأنّها كانت تذهب إلى الصفّ الأوّل منذ لحظات، بجواربها الصغيرة الطـــويلة حـــتى الركبتين، وها هي الآن في *الثانوية*! من الواضح أنّها سرعان ما ستموت هي أيضاً. ما الهدف من كلّ هذا؟

والغـــريب في تلك الأزمة أنّ شيئاً لم يتسبّب بها. لم يمت أحد الأصدقاء أو الأقارب، ليعطيني الفكرة الأولى عن الموت، كما أنّني لم أقرأ أو أرَ شيئاً معيّناً عن الموت.كان الذعر الذي شعرت به في سنّ العاشـــرة إدراكـــاً تلقائياً وكاملاً للفناء المحتّم، من دون أن أملك مفردات روحية تساعدني على تدبّر أمري. كنّا بروتستانتيّين، وغير متديّـــنين حـــتى. كان والدي يفضّل البقاء في البيت صباح الأحد ويكرّس نفسه لأعمال المزرعة. وكنت أغنّي في الكورس لأنّني أحبّ الغناء.

كـــان إحـــساسي بالعجز طاغياً. أردت لو أمكنني الضغط على فـــرامل طـــوارئ كونية، كتلك التي رأيتها على الطريق السريع خلال رحلتـــنا المدرســـية إلى نيويورك. أردت الدعوة إلى تعليق سير الكون والطلـــب من الجميع التوقّف إلى أن أفهم كلّ شيء. وأفترض أنّ تلك الـــرغبة الملحّة بإجبار الكون بأكمله على إيقاف مسيرته إلى أن أتمالك نفـــسي قـــد تكون بداية ما سمّاه صديقي العزيز ريتشارد من تكساس حبـــــي *للـــسيطرة*. بالطبع، ذهبت جهودي ومخاوفي أدراج الرياح. فكلّمـــا راقـــبت الوقت أكثر، مرّ بسرعة أكبر، حتى إنّ ذاك الصيف انقـــضى بـــسرعة فطرت قلبـــي، وأذكر أنّني كنت أفكر في نهاية كلّ يوم: "ها قد مرّ واحد آخر"، ثمّ أنفجر باكية.

كـــان لـــديَّ صديق في الثانوية يعمل الآن مع المتخلّفين عقلياً، ويقـــول إنّ مرضـــاه الذين يعانون من التوحّد لديهم وعي مؤلم لمرور الـــوقت، وكـــأنّهم يفتقدون إلى المصفاة العقلية التي تسمح لبقية الناس بالاســـترخاء ونـــسيان موضـــوع الفناء من وقت إلى آخر والاكتفاء بالعيش. أحد مرضى روب يسأله دائماً عن التاريخ صباح كلّ يوم، ثمّ يسأله في نهاية النهار: "روب، متى يحلّ الرابع من شباط مرّة أخرى؟".

وقبل أن يجيبه روب، يهزّ الشابّ رأسه بحزن قائلاً: "أعرف، أعرف، لا بأس... ليس قبل *العام القادم*، أليس كذلك؟".

أعرف جيّداً هذا الشعور. أعرف تلك الرغبة الحزينة بتأخير انقضاء رابع آخر من شباط. وذاك الحزن هو واحد من أعظم محن التجربة الإنسانية. فنحن نُعتبر، على حدّ علمنا، النوع الوحيد على هذا الكوكب الذي أعطي نعمة – أو ربّما نقمة – الوعي لفنائنا. فكلّ شيء هنا سينتهي إلى الفناء، غير أنّنا المحظوظون الذين يمكنهم التفكير في ذلك كلّ يوم. كيف ستتعامل مع هذه المعلومات؟ حين كنت في التاسعة، لم يكن في وسعي سوى البكاء. لاحقاً، مع مرور الأعوام، دفعني إحساسي المفرط بمرور الوقت إلى عيش الحياة بالسرعة القصوى. إن كنت هنا في زيارة قصيرة، عليَّ القيام بكلّ ما هو ممكن الآن. ومن هنا أتت كلّ الأسفار، والعلاقات الرومانسية، والطموح، والباستا. حتى إنّ إحدى صديقات أختي كانت تعتقد بأنّ لكاثرين شقيقتين أو ثلاث، لأنّها كانت تسمع دوماً قصصاً عن أختها في أفريقيا، أختها التي تعمل في مزرعة في يومينغ، أختها النادلة في نيويورك، أختها التي تكتب رواية، أختها التي ستتزوج، وبالطبع ليس من الممكن أن تكون الشخص ذاته. في الواقع، لو أمكنني تقسيم نفسي إلى عدّة نساء اسمهنّ ليز غيلبرت، فلما تردّدت، لكي لا أفوّت لحظة واحدة من هذه الحياة. غير أنّني قسّمت نفسي بالفعل إلى عدّة نساء اسمهنّ ليز غيلبرت، سقطن منهكات جميعاً في الوقت نفسه على أرض حمّام في الضواحي في إحدى الليالي، قريباً من سنّ الثلاثين.

ينبغي عليَّ القول هنا إنّني أدرك أنّ هذا النوع من الأزمات الميتافيزيقية لا يصيب جميع الناس. فبعض الأشخاص يتمتّعون بالمناعة ضدّ القلق الناجم عن التفكير في الفناء، فيما يبدو البعض الآخر

مرتاحون أكثر للفكرة بأكملها. فهذا العالم حافل بالأشخاص اللامبالين بالطبع، إلاّ أنّه يشتمل أيضاً على أشخاص يبدون قادرين على قبول القوانين التي يعمل الكون على أساسها ولا يعكّر صفوهم ما فيه من تناقض وظلم. كانت لدى إحدى صديقاتي جدّة تقول لها دوماً: "ما من مشاكل في هذا العالم لا يمكن علاجها بحمّام ساخن، كأس شراب وكتاب للدعاء". بالنسبة إلى البعض، هذا كافٍ بالفعل، فيما يحتاج آخرون إلى اتّخاذ إجراءات أكثر خطورة.

سأذكر في هذا السياق صديقي صاحب مزرعة الألبان من إيرلندا، الذي لا يبدو من الأشخاص الذين يمكن لقاؤهم في معتزل هندي. ولكنّ شون مثلي، وُلد مع رغبة ملحّة ومجنونة لفهم كيفية عمل هذا الكون. وبما أنّ رعيته الصغيرة في كاونتي كورك لم تعطه أي إجابات عن تساؤلاته، غادر المزرعة في الثمانينيات متوجّهاً نحو الهند، التي بحث فيها عن السلام الداخلي من خلال اليوغا. وبعد بضع سنوات، عاد إلى بيته، إلى مزرعة الألبان في إيرلندا. كان يجلس في مطبخ المنزل الحجري القديم مع والده - مزارع قديم يتمتّع بشيء من الحكمة - يخبره بكلّ اكتشافاته الروحية في الشرق الأقصى. ولكنّ الوالد أصغى إليه باهتمام طفيف، وهو يراقب النار تستعر في الموقد ويدخّن غليونه. لم ينبس ببنت شفة إلى أن قال شون: "أبي، التأمّل ضروري لتعليم السكينة. بإمكانه فعلاً أن ينقذ حياتك. فهو يعلّمك كيف تسكّن عقلك".

فالتفت إليه والده قائلاً بلطف: "ولكنّ عقلي ساكن أساساً، يا بنيّ"، قبل أن يستأنف التحديق إلى النار.

لكنّ عقلي ليس كذلك، ولا عقل شون. كثير منّا ليسوا كذلك. كثير منّا ينظرون إلى النار ولا يرون سوى الجحيم. أحتاج إلى تعلّم

كيفية فعل ما يبدو بأنّ والد شون وُلد وهو يعرفه؛ كيف، بحسب قول والــت ويــتمان، أقف *بعيداً عن الشدّ والجذب... مستمتعة، راضية، متعاطفة، مرتاحة، متكاملة... داخل وخارج اللعبة على السواء أتفرّج وأتعجّــب من كلّ شيء*. ولكن عوضاً عن التسلية، أنا لا أشعر سوى بالقلق. وعوضاً عن التفرّج، أنا أدقّق وأتدخّل.

في العلــم البوذي قصّة عن اللحظات التي أعقبت تجاوز بوذا إلى الاســتنارة. فحين سقط حجاب الوهم - بعد تسعة وثلاثين يوماً من الــتأمّل - وانكشفت الحقيقة للمعلّم العظيم، قيل إنّه فتح عينيه وقال علــى الفــور: "لا يمكن تعليم هذا". ولكنّه غيّر رأيه لاحقاً، وقرّر أن يحاول تعليم التأمّل لزمرة صغيرة من التلاميذ. فقد عرف أنّ نسبة ضئيلة مــن الناس ستهتّم بتعاليمه. فبحسب قوله، معظم البشر أعينهم مغلقة بغــبار الخيــبة إلى حــدٍّ يمنعهم من رؤية الحقيقة، أياً كان من يحاول مــساعدتهم. وثمّــة قلّة آخرون، مثل والد شون، أعينهم صافية بشكل طبيعــي ولا يحــتاجون إلى معلّم أو مساعدة من أيّ نوع. ولكن، ثمّة أشــخاص أعيــنهم مغلقة قليلاً بالغبار، ويمكن مساعدتهم على الرؤية بــشكل أوضح يوماً ما، بمساعدة المعلّم المناسب. فقرّر بوذا أن يصبح معلّماً لتلك القلّة؛ *التي تملك قليلاً من الغبار*.

أتمّــنى حقاً أن أكون واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يملكون القلــيل مــن الغبار، ولكنّني لست واثقة. كلّ ما أعرفه أنّني أبحث عن السلام الداخلي بوسائل قد تبدو متطرّفة لعامّة الناس. (مثلاً، حين قلت لأحــد أصدقائي في نيويورك إنّني ذاهبة إلى الهند لأعيش في معتزل...، تــنهّد قائلاً: "آه، ثمّة جزء منّي يتمنّى حقاً لو أرغب بالقيام بذلك... ولكــن ليــست لديَّ أيّ رغبة على الإطلاق"). لا أدري ما إذا كنت أملــك الخيار. فقد بحثت عن الرضى بجنون لسنوات طويلة وبوسائل

عديــدة، وكلّ تلك المكتسبات والإنجازات أرهقتني في النهاية. فحين تطارد الحياة بشدّة، تقودك إلى الموت. والوقت - حين تطارده كاللص الهـارب - يتـصرّف كذلك. فيظلّ دوماً على مسافة مدينة أو غرفة مـنك، يغيّر اسمه ولون شعره ليضلّلك، ينسلّ من الباب الخلفي للفندق لحظة اندفاعك إلى صالة الاستقبال بمذكّرة التفتيش الأحدث، ولا يترك خلفـه سـوى سيجارة مشتعلة في المنفضة للسخرية منك. وعند نقطة معينة، عليك التوقّف لأنّه *لن يفعل*. عليك الاعتراف أنّك لن تلحق به، لـيس من المفترض بك أن تلحق به. عند نقطة معيّنة، وكما يقول لي ريتـشارد دائماً، عليك أن تستسلم وتجلس ساكناً وتترك الرضى يأتي *إلـيك*. الاستسلام هو بالطبع تجربة مخيفة بالنسبة إلى أولئك الأشخاص الـذين يعتقدون أنّ العالم يدور لأنّ لديه مقبض على قمّته نديره نحن شخـصياً وأنّنا لو أفلتنا المقبض ولو للحظة، ستكون نهاية العالم. *ولكن حـاولي إفلاته يا ُبقول*. تلك هي الرسالة التي حصلت عليها. اجلسي بهـدوء الآن، وتوقّفي عن المشاركة، وراقبـي ما يحدث. ففي النهاية، لـن تسقط الطيور من السماء ميتة في أثناء طيرانها. ولن تذبل الأشجار وتموت أو تتحوّل الأنهار إلى سيل من الدم. ستستمرّ الحياة في مسيرها. حـتى مكـتب الـبريد الإيطالي سيبقى على حاله، ويقوم بعمله على طريقته، من دونك. لِمَ أنت أكيدة بأنّ تدبيرك لكلّ صغيرة وكبيرة من لحظـات هذا العالم بأسره هو أمر أساسيّ؟ لِمَ لا تتركين الأمور على طبيعتها؟

سمعت هذه الحجة وشدّتني. آمنت بها، فكرياً. حقاً فعلت. ولكنّني تساءلت بعد ذلك - بكلّ توقي الذي لا يهدأ وحماسي المتّقد وطبيعتي الجائعة على نحو أحمق - ماذا أفعل بطاقتي إذاً؟

أتى الجواب عن هذا السؤال أيضاً:

قالـــت مرشدتي الروحية. *ابحثي عما تبحثين عنه كمن يبحث عن الماء لإخماد النار المشتعلة في رأسه.*

50

صـــباح الـــيوم التالي في أثناء جلسة التأمّل، عادت جميع أفكاري القديمـــة الكاوية لتحرقني مجدّداً. بدأت أجدها مثل إعلانات التلفاز التي تعرَض دوماً في الأوقات غير المناسبة. وما أرعبني أنّني اكتشفت في أثناء الـــتأمّل أنّ عقلـــي ليس مكاناً جذّاباً في النهاية. فأنا لا أفكّر سوى في بـــضعة أشياء، وأفكّر فيها باستمرار. أعتقد بأنّ الكلمة المناسبة هنا هي *إطالـــة التفكير*. فأنا أطيل التفكير في طلاقي، في كلّ آلام زواجي، في جميع الأخطاء التي ارتكبتها، وتلك التي ارتكبها زوجي، ثمّ أبدأ بإطالة التفكير في ديفيد (موضوع قاتم لا أعود منه)...

وهـــذا ما بدأ يشعرني بالحرج، بصراحة. أعني، أنا هنا في مكان دراســـة في وسط الهند، وكلّ ما أفكّر فيه هو *صديقي السابق*؟ من أنا، ابنة الأربعة عشر ربيعاً؟".

هـــنا تذكّرت قصة روتها لي مرّة صديقتي ديبورا، العالمة النفسية. ففـــي الثمانينـــيات، طلبت منها مدينة فيلادلفيا التطوّع لتقديم المشورة النفـــسية لمجمـــوعة من اللاجئين الكمبوديين الهاربين بالقوارب الذين وصـــلوا حديثاً إلى المدينة. ومع أنّ ديبورا هي عالمة نفس مميّزة، إلاّ أنّ تلـــك المهمّـــة أثـــارت رعبها. فهؤلاء الكمبوديون قد تعرّضوا لأسوأ الـــشرور الـــتي يمكـــن أن يتسبّب بها البشر لبعضهم: قتل، اغتصاب، تعـــذيب، مجاعة، قتل أقاربهم تحت أنظارهم، ومن ثمّ سنوات طويلة في مخـــيّمات اللاجئين ورحلات القوارب الخطيرة إلى الغرب حيث مات

الناس وأطعمت الجثث لأسماك القرش. أيّ مساعدة يمكن لديبورا تقديمها لهؤلاء؟ كيف يمكنها تخفيف عذاباتهم؟

أخبرتني قائلة: "ولكن هل تعرفين ما أراد هؤلاء التحدّث عنه، حين أمكنهم رؤية مستشار نفسي؟".

التقيت بذاك الشابّ حين كنت أعيش في مخيّم اللاجئين، فأغرمنا ببعضنا. ظننته أحبّني فعلاً، ولكنّنا افترقنا واستقلّ كلّ منّا قارباً مختلفاً، فأُعجب بابنة عمّي. وهو متزوّج بها الآن، ولكنّه يقول بأنّه يحبّني حقّاً، وما زال يتّصل بي. أعرف أنّه ينبغي عليَّ أن أطلب منه تركي وشأني، ولكنّني ما زلت أحبّه ولا يمكنني التوقّف عن التفكير فيه. ولا أعرف ماذا أفعل...

هذا ما نحن عليه. فبشكل جماعي، كنوع بشريّ، ذاك هو وضعنا العاطفي. التقيت مرّة بامرأة عجوز، تبلغ مئة عام تقريباً، قالت لي: "ثمّة مسألتان تحاربَ البشر بسببهما عبر التاريخ: *كم تحبّني؟ ومن يملك زمام القيادة؟*". كلّ الباقي يمكن تدبّره. ولكنّ مسألتي الحبّ والسلطة تشغلاننا جميعاً، توقعاننا في الخطأ وتسبّبان الحرب والحزن والعذاب. وكلاهما، لسوء الحظّ (وكما هو واضح) أعاني منهما في هذا المعتزل. فحين أجلس بصمت وأنظر إلى عقلي، أجد أنّ ما يشغلني فقد هو الشوق والسلطة، وهذا القلق هو الذي يعيق تقدّمي.

حين حاولت هذا الصباح، بعد ساعة تقريباً من الأفكار المحزنة، معاودة الاستغراق في التأمّل، أخذت معي فكرة جديدة: التعاطف. سألت قلبي إن كان بإمكانه أن يتفضّل على روحي بنظرة أكثر كرماً إلى طريقة عمل عقلي. أيمكنني، عوضاً عن التفكير في أنّني فاشلة، ربّما يمكنني أن أتقبّل أنّني لست سوى كائن بشري عادي؟ أتت الأفكار المعتادة - حسناً، هذا ما سيحدث - ثمّ هلّت المشاعر

المـــصاحبة لهـــا هي أيضاً. بدأت أشعر بالإحباط والوحدة والغضب. ولكنّ استجابة عنيفة بدأت تغلي في مكان ما في أعماق قلبـــي، وقلت لنفسي: "لن أحكم عليك بسبب هذه الأفكار".

حـــاول عقلي الاعتراض قائلاً: "أجل، ولكنّك فاشلة جداً، أنت فاشلة، لن تحقّقي شيئاً".

ولكن فجأة، شعرت بشيء يشبه زئير الأسد يعلو في صدري ويدفع كـــلّ ذاك الهراء إلى الخارج. ودوّى في داخلي صوت لا يشبه شيئاً سمعته مـــن قبل. كان قويا إلى حدّ أنّني وضعت يدي على فمي لأنّني خفت لو فتحته وخرج ذاك الصوت من أن يهزّ أسس الأبنية من هنا حتى ديترويت.

أمّا الجملة التي زأر بها فكانت:

ليست لديك فكرة عن مدى قوّة حبّي!!!!!!!!!!

تلاشـــت الأفكـــار السلبية من ذهني مع رياح تلك الجملة مثل العـــصافير والأرانب والظباء التي تفرّ مذعورة. تبعها الصمت. صمت قـــوي، نابض، مروّع. راقب الأسد القابع في السافانا الهائلة التي تحتل قلبـــــي مملكـــته الهادئة برضى. لعق فمه الكبير مرّة، ثمّ أغمض عينيه الصفراوين ثمّ عاد إلى النوم.

عندها، وفي ظلّ ذاك الصمت الملكيّ، أخيراً، بدأت بالتأمّل.

51

لـــدى ريتـــشارد من تكساس بعض العادات اللطيفة. فكلّما مرّ بـــــي في المعتـــزل ولاحـــظ وجهي ذاهلاً وأفكاري على بعد ملايين الأميال، قال لي: "كيف حال ديفيد؟".

وكنت أجيبه دوماً: "ليس هذا من شأنك. أنت لا تعرف في ما أفكّر أيّها السيّد". وبالطبع، كان على حقّ دائماً.

كانت لديه عادة أخرى أيضاً. إذ كان ينتظرني حتى أخرج من قاعة التأمّل لأنّه يحبّ رؤيتي غاضبة ومنهكة وأنا أزحف من هناك. وكأنني كنت أصارع الوحوش والأشباح. يقول بأنّه لم يسبق له أبداً رؤية شخص يقاوم نفسه بتلك الشدّة. لا أدري، ولكنّ ما يحدث في قاعة التأمّل المظلمة تلك، يصبح أحياناً قوياً فعلاً. وتأتي أكثر التجارب عنفاً حين أتخلّى عن بعض التحفّظ والخوف وأسمح لشيء من الطاقة الفعلية أن تحرّر نفسها عبر عمودي الفقري. ويضحكني اليوم أنّني اعتبرت يوماً أفكار *الكونداليني شاكتي* مجرّد أساطير. وحين تجري تلك الطاقة في داخلي، تدمدم مثل محرّك ديزل بطيء السرعة، ولا تطلب منّي سوى هذا الطلب: *هل لك أن تقلبي نفسك من الداخل إلى الخارج، بحيث تصبح رئتاك وقلبك وأحشاؤك في الخارج والكون بأكمله في الداخل؟ وهلاّ فعلت الأمر نفسه عاطفياً؟* يزول الإحساس بالوقت في ذاك المكان الصاخب، وأؤخذ مخدّرة ومذهولة إلى جميع أنواع العوالم، حيث أختبر جميع أنواع الأحاسيس: النار، البرد، الكره، الرغبة، الخوف... حين ينتهي كلّ ذلك، أقف مترنّحة على قدميّ، وأخرج إلى ضوء النهار أتضوّر جوعاً وعطشاً ومنهكة أكثر من بحّار جال لثلاثة أيام في البحر. ويكون ريتشارد بانتظاري عادة، جاهزاً للبدء بالضحك ولمضايقتي بالجملة نفسها حين يرى وجهي المرتبك والمنهك: "أتظنّين بأنّك ستحقّقين شيئاً يوماً ما، يا بُقول؟".

ولكن هذا الصباح، حين سمعت الأسد يزأر **ليست لديك فكرة عن مدى قوّة حبي**، خرجت من كهف التأمّل كملكة منتصرة. حتى

إنّ ريتـــشارد لم يجد الوقت ليطرح سؤاله المعتاد قبل أن أنظر إلى عينيه وأقول: "سبق ووصلت، أيّها السيّد".

قـــال: "لا أصـــدّق. هـــذا يدعو للاحتفال. هيّا بنا يا صغيرتي، سأصطحبك إلى البلدة وأشتري لك شرابنا المفضّل".

شـــرابنا المفـــضّل هو عبارة عن شراب هندي غير كحولي، شبيه نـــوعاً ما بالكوكا كولا ولكنّه يحتوي على تسعة أضعاف محتواها من عـــصير الذرة وثلاثة أضعاف كمية الكافيين. وأعتقد أنّه ربّما يحتوي على الميتامفيتامين أيضاً، لأنّه يجعل نظري يزوغ. ولكنّنا نقصد البلدة أنا وريتـــشارد عدة مرات في الأسبوع، نطوف في أزقّتها ونتقاسم زجاجة صـــغيرة مـــن الشراب - تجربة متطرّفة نوعاً ما بعد نقاء طعام المعتزل النـــباتي - ونحرص دوماً على عدم ملامسة شفاهنا للزجاجة. فقاعدة ريتشارد للمسافر في الهند منطقية: "لا تلمس شيئاً عدا نفسك". (نعم، كان هذا عنواناً بديلاً للكتاب).

ولدينا زياراتنا المفضّلة في البلدة، بحيث نتوقّف دوماً لتحيّة المعبد، ولتحـــيّة السيد بانيكار، الخياط، الذي يُلاقينا قائلاً: "تمانيّ للقائك!" في كلّ مرّة. فنشاهد الأبقار مستمتعة بمنـــزلتها العالية (أعتقد بأنّها تستغلّ الامتياز الذي تتمتّع به، فتستلقي في وسط الطريق لمجرّد لفت النظر إلى منـــزلتها العالية)، ونرى الكلاب تحكّ نفسها وكأنّها تتساءل ما الذي أتـــى بها إلى هنا. ونرى النساء يعملن على الطرقات، يرفعن الصخور تحـــت أشـــعّة الشمس الحارقة ويؤرجحن المطارق، حافيات، ويبدون جميلات على نحو غريب بأثواب الساري الملوّنة بألوان الأحجار الكريمة وبقلائـــدهنّ وأســـاورهنّ. كنّ يبتسمن لنا عند مرورنا ما دفعني إلى التـــساؤل كـــيف يمكنهنّ الشعور بهذه السعادة وهنّ يقمن بهذا العمل الـــشاقّ في ظـــلّ تلك الظروف الرهيبة؟ لِمَ لا يغمى عليهنّ ويسقطن

ميـــتات بعـــد ربع ساعة من العمل بالمطارق في هذا الطقس الحارق؟ ســـألت الـــسيد بانـــيكار الخـــيّاط عن ذلك وقال إنّ تلك هي حياة القـــرويّات، وإنّ الناس في هذا الجزء من العالم يولدون لهذا النوع من العمل الشاق، وهذا كلّ ما هم معتادون على القيام به.

وأضاف قائلاً: "كما أنّنا لا نعيش طويلاً هنا".

كانـــت القرية فقيرة بالطبع، ولكن ليس إلى حدٍّ يائس نسبة إلى المقايـــيس الهندية، فوجود المعتزل (والصدقات التي يقدّمها)، فضلاً عن العملة الغربية التي يتم تداولها هنا، تجعل الأوضاع أفضل بكثير. صحيح أنّه لا يوجد الكثير لشرائه هنا، إلاّ أنّنا نحبّ أنا وريتشارد التفرّج على جمـــيع المتاجـــر الـــتي تبيع المسابح والتماثيل الصغيرة. ثمّة أيضاً بائعو الكشمير - وهم بائعون أذكياء في الواقع - الذين يحاولون دوماً بيعك بـــضاعتهم. فقد لحق بـــي أحدهم اليوم، وسأل ما إذا كانت السيدة تودّ ربّما شراء سجّادة جميلة من الكشمير لمنـــزلها؟

وهـــذا مـــا أضـــحك ريتـــشارد. فهو يستمتع، من بين هواياته الأخرى، بالسخرية منّي لأنّني بلا مأوى.

ثمّ قال للبائع: "لا تتعب نفسك، أيّها الأخ، فهذه السيدة لا تملك أرضاً تضع عليها السجادة".

ولكـــنّ بائع الكشمير المثابر اقترح قائلاً: "إذاً ربّما ترغب السيدة بتعليق السجادة على جدارها؟".

قـــال ريتـــشارد: "تلك هي المشكلة، جدرانها متداعية قليلاً هذه الأيام، أيضاً".

فقلت دفاعاً عن نفسي: "ولكنني أملك قلباً شجاعاً!".

أضـــاف ريتـــشارد مؤيّداً إيّاي لمرة في حياته: "وبعض الصفات الأصيلة الأخرى".

52

في الواقع، لم يكن التأمّل هو العقبة الكبرى خلال إقامتي في المعتزل. كان صعباً بالطبع، ولكنّه لم يكن مهلكاً. ما كان أصعب بالنسبة إليّ هو ما نقوم به كلّ يوم بعد التأمّل وقبل الإفطار (يا الله ما أطول ساعات الصباح)؛ أنشودة تدعى غوروجيتا. يسمّيها ريتشارد *الجيت*. وأنا أعاني من مشكلة كبيرة مع الجيت. فأنا لا أحبّها على الإطلاق، و لم أحبّها أبداً، حتى منذ أن سمعتها للمرّة الأولى في المعتزل في نيويورك. ومع أنّني أحبّ جميع الأغاني والأناشيد في اليوغا، إلاّ أنّ غوروجيتا تبدو طويلة، مملة، طنّانة ولا تحتمل. وهذا رأيي الخاصّ بالطبع، فبعض الناس يزعمون بأنّهم يحبّونها، مع أنّني أعجز عن فهم السبب.

تتألّف الغوروجيتا من 182 بيتاً، للبكاء بصوت عال (وهذا ما أفعله أحياناً)، وكلّ بيت هو عبارة عن فقرة سنسكريتية غير مفهومة. وتستغرق تأدية أغنية المقدّمة والكورس والطقس ساعة ونصفاً تقريباً. تذكّر، هذا قبل الإفطار، وبعد أن نكون قد تأمّلنا لساعة، وأدينا أنشودة الصباح الأولى الممتدة على عشرين دقيقة. والغوروجيتا هي السبب الأساسي للنهوض عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل هنا.

لا أحبّ النغمة ولا أحبّ الكلمات. وكلّما أخبرت أحداً من سكّان المعتزل بذلك قال لي: "آه، ولكنّها معتبرة جداً!" أجل، ... ولكن لا نؤديها بصوت عالٍ كلّ يوم قبل الإفطار.

للغوروجيتا نسب روحيّ رفيع، فهي مقتطفة من كتاب قديم معتبر لليوغا يدعى سكاندا بورانا، ضاع معظمه وقليل منه تُرجِم عن السنسكريتية. وعلى غرار معظم الكتب اليوغانية، هو موضوع على

شكل حديث، كالحوار السقراطي تقريباً. بارفاتي وشيفا هما التجسيد السامي للإبداع (الأنثى) والوعي (الذكر). هي الطاقة المولِّدة وهو حكمتها عديمة الشكل. كلّ ما يتخيله شيفا، تأتي به بارفاتي إلى الوجود. هو يحلم به وهي تجسّده. رقصهما، اتحادهما (ممارستهما لليوغا) هي سبب الكون وتجلّيه على السواء.

في المعتزل، يجب أن أتعلّم كيف أحبّ الغوروجيتا حين توضع في سياق هندي. ولكن حدث العكس في الواقع. فخلال الأسابيع القليلة من وجودي هنا، تحوّلت مشاعري إزاءها من مجرّد كره بسيط إلى رعب حقيقي. أصبحت أفوّتها وأقوم بأشياء أخرى في الصباح أجدها أفضل بكثير لنموّي الروحي، ككتابة يومياتي أو الاستحمام أو الاتصال بشقيقتي في بنسلفانيا والاطمئنان عن أولادها.

ولا يتردّد ريتشارد عن تنبيهي حين أفوّت حضور الترنيمة. "لاحظت بأنّك كنت غائبة عن الجيت هذا الصباح". فأجيبه: "أنا أتواصل... بوسائل أخرى". فيقول: "أتعنين بالنوم؟".

ولكن حين أحاول الذهاب لحضور الترنيمة، أشعر بالاهتياج، أعني الجسدي. لا أشعر بأنّني أغنيها بل بأنّني مجرورة خلفها. إذ تسبّب لي التعرق، وهذا غريب جداً لأنّني من الأشخاص الميالين إلى البرودة، والجو بارد في هذا الجزء من الهند في كانون الثاني قبل أن تشرق الشمس. فالجميع يجلسون ملتفين بالبطانيات والقبعات الصوفية التماساً للدفء، فيما أخلع طبقات من ملابسي مع تقدّم الترنيمة وأتعرّق مثل جواد مزرعة منهك. وأخرج من المعبد بعد انتهائها والعرق يتصبب مني في هواء الصباح البارد. غير أنّ رد الفعل الجسدي بسيط مقارنة بالموجات العاطفية الساخنة التي تعصف في داخلي وأنا أحاول المشاركة بالغناء. حتى إنّني لا أغنّي بل أنعق وحسب، باستياء.

هل ذكرت أنّها تتألف من 182 بيتاً؟

هكـــذا قـــررت مـــنذ بضعة أيام، بعد جلسة ترنيم سيئة بشكل خـــاص، طلـــب نـــصيحة معلمي المفضل هنا، وهو ناسك يملك اسماً سنـــسكريتياً طويلاً جداً. هذا الناسك أميركي، في العقد السادس من عمره، ذكي ومثقّف. وقد كان أستاذ مسرح كلاسيكي في ما مضى، ومـــا زال يمـــشي بوقار. تنسك منذ ثلاثين عاماً تقريباً. وأنا أحبه لأنّه مـــضحك ويأخذ الأمور ببساطة. ففي لحظة قاتمة من لحظات الارتباك الـــتي يسببها لي ديفيد، اعترفت له بألمي. فأصغى إليّ باحترام، وقدّم لي النـــصيحة الأكثـــر تعاطفاً التي تمكّن من إيجادها ثمّ قال: "وأنا سأقبّل ثوبـــــي". فـــرفع زاويـــة ثوبه زعفراني اللون وطبع عليه قبلة طنانة. اعتقدتها إحدى العادات الدينية على الأرجح وسألته عما يفعل، فقال: "هذا ما أفعله دوماً حين يطلب مني أحدهم نصيحة عاطفية. أنا أشكر الله وحسب لأنّني ناسك ولست مضطرّاً لعيش هذه الأمور بعد الآن".

فعلمـــت حيـــنها أنّني أستطيع الوثوق به والتحدّث بصراحة عن مشاكلي مع الغوروجيتا. فرحنا نمشي في الحديقة معاً في إحدى الليالي بعـــد العـــشاء، وأخبرته كم أكره الترنيمة، وسألته ما إذا كان ممكناً إعفائـــي مـــن غنائها. فبدأ يضحك على الفور. ثمّ قال: "ليس عليك غناؤها إن كنت لا ترغبين بذلك. لا أحد هنا سيجبرك يوماً على فعل أي شيء ضدّ إرادتك".

"ولكنّ الناس هنا يعتبرونها ممارسة روحية حيوية".

"وهي كذلك بالفعل. ولكنّني لن أقول لك أنه سيلقى بك في الـــنار إن لم تـــشاركي فيها. كلّ ما سأقوله لك أنّ الغورو كانت واضحة تماماً بخصوص ذلك؛ الغوروجيتا هي النصّ الأساسي في هذه الـــيوغا، وربّمـــا الممارسة الأكثر أهمية التي تقومين بها، إلى جانب

الـتأمّل. إن كـنت ستقيمين في المعتزل، فإنها تتوقع منك النهوض للإنشاد كلّ صباح".

"أنا لا أمانع في النهوض باكراً...".

"ما المشكلة إذاً؟".

فشرحت له لِمَ أصبحت أخشى الغوروجيتا، وكم أتعذّب بها.

قال: "يا الله؛ انظري إلى نفسك. تغيّر لونك لمجرّد التحدّث عنها".

كـان هذا صحيحاً. أمكنني الشعور بالعرق البارد الرطب يتجمّع تحـت إبطيّ. فسألته: "ألا يمكنني استغلال الوقت بممارسات أخرى؟ أجـد أحياناً أنّني لو ذهبت إلى كهف التأمّل خلال الغوروجيتا يمكنني القيام بجلسة تأمّل جيّدة".

"آه؛ لكان سواميجي وبّخك على ذلك. لكان اعتبرك لصّة الترنيم لأنّـك تـستغلين طاقة العمل الشاقّ الذي يقوم به الجميع. اسمعي، لا يفترض بالغوروجيتا أن تكون ممتعة. فوظيفتها مختلفة تماماً. إنّها نصّ ذو قـوة لا يمكن تخيّلها، وهي ممارسة تطهيرية جبارة. ذلك أنّها تحرق كلّ عواطفك السلبية التافهة. وأعتقد بأنّها تؤدي مفعولاً إيجابياً عليك لأنّك تعانين من تلك الأحاسيس القوية وردود الفعل الجسدية وأنت تغنينها. ومن شأن ذلك أن يكون مؤلماً، ولكنّه مفيد إلى حدٍّ كبير".

"كيف تحفز نفسك على المواظبة عليها؟".

"ما البديل عنها؟ الانصراف كلّما أصبح الوضع صعباً؟ أن تعيشي حياتك بائسة وغير مكتملة؟".

"وماذا يفترض بـي أن أفعل؟".

"القـرار يعـود إليك. ولكن نصيحتي - بما أنّك تسألين - هي المواظـبة على الغوروجيتا وأنت هنا، لا سيما وأنّك تعانين من رد فعل قوي عليها. فإن أزعجك شيء ما إلى هذا الحدّ، هذا لأنّه يؤدي مفعوله

بالتأكيد. وهذا ما تفعله الغوروجيتا، تحرق الأنا وتحوّلك إلى رماد نقيّ. من المفترض بذلك أن يكون كاوياً يا ليز. وقوّته تتجاوز فهمنا العقلي. أنت باقية في المعتزل لأسبوع آخر، أليس كذلك؟ بعدها، أنت حرّة في السفر والاستمتاع. إذاً، غنّي الترنيمة سبع مرات بعد، ولن يكون عليك غناؤها بعد ذلك. تذكّري ما تقوله الغورو: *كن عالمًا في تجربتك الروحية الخاصة بك*. أنت لست هنا كسائحة أو صحفية، أنت هنا كساعية. استكشفي، بالتالي".

"إذاً، أنت لن تتركني أفلت؟".

"يمكنك الإفلات ساعة تشائين، ليز. هذا هو العقد لشيء صغير نسمّيه *الإرادة الحرّة*".

53

هكذا ذهبت للترنيم في الصباح التالي، وكنت شديدة التصميم، ولكنّ الغوروجيتا رفستني في الهواء وسقطت عن ارتفاع عشرين قدماً أو هكذا شعرت. وكان اليوم التالي أسوأ. نهضت بغضب وبدأت بالتعرق قبل الوصول حتى إلى المعبد. وظللت أفكّر: "إنّها ساعة ونصف وحسب؛ يمكنك القيام بأيّ شيء في وقت قصير كهذا. حبًّا بالله، بعض صديقاتك استمرّ مخاضهنّ لأربع عشرة ساعة..." مع ذلك، ما كنت لأكون أكثر انزعاجاً وأنا جالسة على ذاك الكرسي. ظلّت الهبات السخنة تكتسحني، وشعرت وكأنّني سأغيب عن الوعي أو أعضّ شخصاً ما من شدّة غضبي.

كان غضبي هائلاً. كان موجّهاً ضد جميع مَن في هذا العالم، لا سيما سواميجي؛ معلّم مرشدتي، الذي أسس هذا الطقس. ولم تكن

تلك مواجهتي الوحيدة مع اليوغاني العظيم المتوفّى. فهو الذي زارني في منام شاطئ البحر، وطلب منّي أن أجد طريقة لإيقاف المدّ، وشعرت دوماً وكأنّه يستحوذ عليّ.

كان سواميجي خلال حياته جمرة روحية متّقدة لا تهدأ. شأنه شأن فرنوا الأسيزي، هو ابن عائلة ثرية وكان متوقّعاً أن يشارك في أعمال العائلة. ولكنّه التقى في صباه برجل تقيّ في قرية صغيرة مجاورة لقريته، فكانت تجربة غيّرت حياته بعمق. وكان ما زال في سنّ المراهقة حين غادر بيته بقليل من الملابس، وأمضى سنوات وهو يزور جميع الأماكن المعتبرة في الهند، بحثاً عن معلّم روحاني حقيقي. ويقال بأنّه التقى بأكثر من ستين غورو، ولم يعثر بينهم على المعلّم الذي أراده. تضوّر جوعاً، هام حافي القدمين، نام في العراء في عواصف الثلج في الهيمالايا، أصيب بالملاريا، الديزنطيريا – وقال بأنّها أسعد سنوات حياته تلك التي بحث فيها عمّن يقوده إلى الله. خلال تلك السنوات أصبح سواميجي هذا يوغانياً، خبيراً في الطب والطبخ الأيورفيديّين، مهندساً معمارياً، جنائيًّا، عازف موسيقى، محارباً بالسيوف (أحببت هذا). وفي أواسط عمره، لم يكن قد عثر على غورو بعد، إلى أن التقى يوماً بحكيم عارٍ مجنون، قال له بأن يعود إلى البيت والقرية التي التقي فيها بالرجل التقيّ وهو طفل، وبأن يدرس مع ذلك الرجل العظيم.

أطاعه سواميجي وعاد إلى بيته، وأصبح تلميذ الرجل التقيّ الأكثر إخلاصاً، وتوصّل إلى التنوير من خلاله. ثمّ أصبح سواميجي غورو هو نفسه. ومع مرور الوقت، اتسع معتزله من مجرّد ثلاث غرف في مزرعة قاحلة، إلى الحديقة التي هو عليها اليوم. ثمّ أتاه إلهام السفر والتحريض على ثورة تأملية في العالم كلّه. فأتى إلى أميركا عام 1970 وأحدث ثورة في عقول الجميع. فأعطى تلقين الشاكتيبات لمئات وآلاف

الأشخاص في اليوم. كانت قوّته مباشرة وتحويلية. ويذكر المحترم أوجين كالندر (زعيم له مكانته في الحقوق المدنية، وزميل لمارتن لوثر كينغ الصغير ولا يزال قسًّا في كنيسة باتيست في هارلم) لقاءه بسواميجي في السبعينيات، وكيف خرّ على ركبتيه أمام الرجل الهندي مذهولاً وهو يفكّر بينه وبين نفسه: "لا وقت لشيء آخر الآن... هذا الرجل يعرف كلّ شيء عنك".

طلب سواميجي الحماس، والالتزام، والسيطرة على النفس. ولطالما لام الناس على كونهم *جاد*، وهي كلمة هندية تعني *كسالى*. وأتى بمفاهيم انضباط قديمة في حياة أتباعه الغربيين المتمردين وأمرهم بالتوقّف عن إضاعة وقتهم وطاقتهم (ووقت وطاقة الآخرين) بهرائهم الهيبي الذي لا يهدف إلى شيء. فكان يضربك بعصاه ساعة ثمّ يعانقك ساعة. كان معقّداً ومثيراً للجدل ولكنّه غيّر العالم بحقّ. والفضل في وجود كثير من الكتب اليوغانية القديمة بين أيدي الغربيين اليوم يرجع إلى أنّ سواميجي أشرف على ترجمة وإعادة إحياء النصوص الفلسفية التي كان مصيرها النسيان، حتى في كثير من أنحاء الهند.

مرشدتي كانت أكثر تلاميذ سواميجي إخلاصاً. فقد ولدت فعلاً لتكون خليفته، وأبواها الهنديان كانا من أوائل أتباعه. حين كانت لا تزال طفلة، كانت ترنم لثماني عشرة ساعة في اليوم، ولا تتعب من التأمل. وقد أدرك سواميجي قدراتها وجعلها مترجمته حين كانت لا تزال فتاة مراهقة. فجابت معه العالم، وكانت تولي انتباهاً كبيراً لمعلّمها الروحي، كما قالت لاحقاً، إلى حدّ أنّها كانت تشعر به يحدثها من ركبتيه. وأصبحت خليفته عام 1982، وكانت لا تزال في عقدها الثاني من العمر.

يتشابه جميع المعلّمين الروحيّين الحقيقيّين في كونهم موجودين في حالة دائمة من الإدراك الذاتي ولكنّ صفاتهم الخارجية تتفاوت.

والفـــروقات الظاهـــرية بين مرشدتي الروحية ومعلّمها شاسعة؛ فهي أنـــثوية، مـــتعددة اللغات، خرّيجة جامعية، وامرأة مهنية. أمّا هو فكان أســـداً هندياً جنوبيًّا عجوزاً متقلّباً أحياناً وملكيًّا أحياناً أخرى. بالنسبة إلى فـــتاة لطيفة مثلي آتية من نيوإنغلاند، من السهل اتباع معلمتي الحية المطمئـــنة جداً في لياقتها؛ ذاك النوع من الغورو الذي يمكنك اصطحابه إلى البيت للقاء أبويك. أمّا سواميجي، فيبدو شخصية جامحة. ومنذ أن مـــشيت في هذا الطريق اليوغاني ورأيت صوره، وسمعت القصص عنه، قررت البقاء بعيدة عن طريقه. فهو كبير جداً، ويثير أعصابـــي.

لكـــن، في أثناء وجودي هنا في المعتزل، في بيته، أجد بأنّ سواميجي هو كلّ ما أريده وكلّ ما أشعر به. إنّه الشخص الوحيد الذي أتحدّث معه في تـــأملاتي. هو حاضر بقوّة حتى خلال موته. إنّه المعلم الذي أحتاج إليه لأنّـــني أستطيع شتمه وإظهار كلّ عيوبـــي وفشلي له، ولا يقابلني سوى بالضحك. الضحك والحب. فضحكه يضاعف غضبـــي والغضب يدفعني إلى التحـــرك. وأقـــرب ما يكون إليّ وأنا أناضل لغناء الغوروجيتا، بمعانيها السنـــسكريتية التي أعجز عن سبر غورها. فأحاوره في ذهني طيلة الوقت بنـــبرة غاضـــبة مثل:"من الأفضل لك أن تفعل شيئاً لأجلي لأنّني أقوم بهذا لأجلـــك! أريد أن أرى بعض النتائج هنا! فليكن هذا مطهّراً على الأقلّ!". الـــبارحة بلغ مني الغضب مبلغاً حين نظرت إلى كتاب الترنيم واكتشفت بأنّـــنا لم نزل في البيت الرابع والعشرين، وقد بدأت أنزعج وأتعرّق (ليس كمـــا يتعرّق الناس، بل كما يذوب الجبن)، فصرخت بصوت عال: "لا شـــكّ بأنّك تمزح!" فالتفتت إليّ بعض النساء مذعورات، وقد توقّعن على الأرجح بأنّني فقدت عقلي.

أتذكّـــر من وقت لآخر بأنّني كنت أعيش في روما، وأمضي ساعات الصباح بتناول المعجنات، وشرب الكابوتشينو، وقراءة الصحيفة.

كانت أياماً جميلة بالطبع.
مع أنّها تبدو بعيدة جداً الآن.

54

استغرقت في النوم هذا الصباح. وهذا يعني أنّني نمت بكسل حتى الساعة الرابعة والربع صباحاً. ولم أستيقظ سوى قبل دقائق من بدء الغوروجيتا، فأقنعت نفسي بالنهوض من السرير على مضض، ثمّ غسلت وجهي، وارتديت ملابسي، وغادرت غرفتي قبل طلوع الفجر بقلق واستياء... لأكتشف بأنّ زميلتي في الغرفة قد خرجت قبلي وأقفلت الباب عليَّ.

في الواقع، من الصعب عليها القيام بذلك. فالغرفة ليست كبيرة إلى حدّ ألاّ تلاحظ بأنّ شخصاً آخر لا يزال نائماً في السرير الآخر. وهي امرأة أسترالية مسؤولة حقًّا وعملية، أمّ لخمسة أولاد. ومع أنّ هذا ليس أسلوبها، إلاّ أنّها قامت به، وحبستني في الغرفة.

ففكرت بيني وبين نفسي، أنّها حجّة ملائمة جداً لعدم الذهاب إلى الغوروجيتا. أمّا فكرتي الثانية، فلم تكن فكرة، بل عملاً.

فقد قفزت من النافذة.

وتحديداً، زحفت على الدرابزين وأنا أتشبّث به بيدي المتعرّقتين، ثمّ تدليت للحظة عن ارتفاع طابقين في الظلام، وأنا أسأل نفسي سؤالاً وجيهاً: "لـمَ تقفزين من المبنى؟" فأتت الإجابة بتصميم عنيف وغير شخصي: *عليَّ الذهاب لحضور الغوروجيتا*. ثمّ تركت نفسي أسقط إلى الخلف عن ارتفاع اثنتي عشرة إلى خمس عشرة قدماً عبر هواء الليل لارتطم بالأرض الإسمنتية وأصطدم بشيء ما في طريقي، خلّف جرحاً

طــويلاً في ساقي. ولكنني لم آبه، بل نهضت، وركضت حافية ونبضي يكــاد يصمّ أذني حتى وصلت إلى المعبد. فبحثت عن مقعد، ثمّ فتحت كتاب الصلاة مع بدء الترنيمة، وبدأت أنشد الغوروجيتا فيما كانت ساقي تنــزف طيلة الوقت.

لم ألــتقط أنفاســي سوى بعد بضعة أبيات، حيث رحت أفكّر كعــادتي كلّ صباح: *لا أريد أن أكون هنا*. ولكنني ما لبثت أن سمعت سواميجي ينفجر ضاحكاً في رأسي قائلاً: *هذا مضحك، أنت تتصرّفين من دون شكّ مثل شخص يريد أن يكون هنا*.

فأجبته: *حسناً، أنت على حقّ*.

جلست هناك أغني، أنزف، وأفكّر في أنّه عليَّ أن أغير موقفي من هــذه الممارسة الروحية. إذ يفترض بالغوروجيتا أن تكون ترنيمة حبّ صــاف، ولكنّ شيئاً ما يمنعني من تقديم هذا الحب بصدق. لذا، رحت أفكر وأنا أغني، في أنّه عليَّ إيجاد شيء أو شخص أقدم له هذه الترنيمة، لكي أجد مكاناً للحب الخالص في داخلي. ومع البيت العشرين، عثرت عليه: *نيك*.

نــيك هو ابن أختي. يبلغ الثامنة من العمر، نحيل جداً بالنسبة إلى ســنّه، ولكنّه ذكي بشكل مخيف، شديد الحساسية والتعقيد. حتى بعد دقائــق مــن ولادته، وبين جميع الأطفال حديثي الولادة الذين كانوا يــبكون في غــرفة الحضانة، كان هو الوحيد الذي لا يبكي، بل ينظر حوله نظرة مليئة بالنضج والقلق، وكأنّه قام بهذا الأمر مرات عديدة من قــبل ولــيس واثقاً من رغبته بالقيام به مجدداً. حياة هذا الطفل ليست سهلة على الإطلاق. فهو يسمع ويرى ويشعر بكلّ شيء بحدّة كبيرة، وتغلــبه عواطفه بسرعة أحياناً إلى حدّ يثير أعصابنا جميعاً. أحبّ هذا الــصبــي بعمق وأحب حمايته. وأدركت حين حسبت فرق التوقيت،

بأنّه وقت خلوده إلى السرير. فرحت أغنّي لأجله لأساعده على النوم. ففـــي بعـــض الأحيان، يعاني نيك من صعوبة في النوم لأنّه يعجز عن تـــسكين عقله. فأهديته كلّ كلمه في الترنيمة. ملأت الأغنية بكلّ ما وددت تعلـــيمه إياه عن الحياة. حاولت طمأنته بأنّ العالم صعب وشاقّ في بعـــض الأحيان، ولكن، لا بأس في ذلك لأنّه محبوب جداً، ومحاط بالـــناس المستعدين للقيام بأي شيء لأجله. إنه يملك حكمة وصبراً في داخله سيكتشفهما مع الوقت وسيساعدانه على تجاوز مصاعب الحياة. لـــيس هـــذا وحسب، بل هو هبة من الله لنا جميعاً. أخبرته بذلك من خـــلال هـــذه الترنيمة السنسكريتية القديمة وسرعان ما رحت أذرف الدموع الباردة. ولكن، قبل أن أتمكّن من مسحها، انتهت الغوروجيتا. انتهت الساعة والنصف. شعرت وكأنّ عشر دقائق مرّت وحسب. ثمّ أدركـــت ما حدث. لقد حملني نيك عبرها. الروح الصغيرة التي كنت أغني لها لأساعدها كانت هي التي ساعدتني في الواقع.

خـــرجت من المعبد، وسجدت على وجهي شاكرة، لقوة الحبّ الـــثورية، لنفـــسي، لمرشدتي ولابن أختي؛ وفهمت للحظة وجيزة على مـــستوى الذرّة (لا العقل) أنّه لا فرق على الإطلاق بين أيّ من تلك الكلمـــات أو تلـــك الأفكار أو أولئك الأشخاص. ثمّ دخلت كهف التأمّل، وجلست فيه لساعتين تقريباً أهمهم بسكون، من دون أن أتناول الفطور.

لا حاجة للقول بأنّني لم أفوّت حضور الغوروجيتا بعد ذلك اليوم، وبأنها أصبحت الممارسة الأكثر أهمية بالنسبة إليّ في المعتزل. وبالطبع، لم يتردّد ريتشارد من مضايقتي حول قفزي من المهجع، بل كان يقول لي كلّ مساء بعد العشاء: "أراك في الجيت غداً، يا بُقول. حاولي استعمال السلالم هذه المرة". وبالطبع، اتصلت بشقيقتي في الأسبوع التالي وقالت

إنّه، ولأسباب لا يفهمها أحد، لم يعد نيك يعاني من مشاكل في النوم. وبعد بضعة أيام، كنت أقرأ في المكتبة كتاباً عن سري راماكريشنا، حين وقعت على قصة عن ساعية أتت مرّة لرؤية المعلّم سري راماكريشنا وأخبرته بأنّها تخشى عدم كونها تحبّ الكريشنا بما يكفي. فقال لها: "أليس ثمّة ما تحبّينه؟" فأقرّت المرأة بأنّها تحبّ ابن أخيها الصغير أكثر من أيّ شيء في العالم. فقال لها: "هذا هو إذاً الكريشنا الخاص بك، محبوبك. في خدمتك لابن أخيك، أنت تخدمين الكريشنا".

لكن الأمر المذهل فعلاً هو ما حدث في اليوم نفسه الذي قفزت فيه من المبنى. فعصر ذلك اليوم، التقيت بداليا، زميلتي في الغرفة. وحين أخبرتها بأنّها حبستني في الغرفة، بدت مذعورة. قالت: "لا أتخيل لِمَ أفعل أمراً مماثلاً! لا سيما وأنّك كنت تشغلين بالي طوال الصباح. فقد رأيت حلماً قويا حقّاً عنك في الليلة الفائتة. ولم تفارقي ذهني طيلة النهار".

أخبريني عنه".

"حلمت بأنّك كنت تحترقين، وسريرك كان يشتعل أيضاً. قفزت محاولة المساعدة، ولكن حين وصلت، لم يتبقَّ منك سوى رماد أبيض".

55

كانت تلك هي اللحظة التي قررت فيها البقاء هنا في المعتزل. لم تكن تلك خطتي الأساسية، بل كنت أنوي المكوث هنا لستة أسابيع وحسب، لأعيش تجربة روحية تجاوزية، ومن ثمّ أتابع السفر عبر الهند... أحضرت معي خرائط وأدلة سياحية وأحذية مشي، كلّ شيء!

لـــديَّ معابد معينة وجوامع ورجال دين لمقابلتهم. أعني، إنّها الهند! ثمّة الكـــثير لرؤيته وتجربته هنا، مناطق لزيارتها، معابد لاستكشافها، أفيال وجمال لركوبها. وسأحزن كثيراً لعدم رؤية الغانج وصحراء راجاستاني الكـــبيرة وصـــالات سينما بومباي الغريبة والهيمالايا ومزارع الشاي القديمة وعربات جنركشة كالكوتا تتسابق مع بعضها مثل مشهد العربة في بـــين-هور. وكنت أخطط للقاء الدايالاما في آذار، في دارامسالا، كنت آمل أن يعلّمني...

أمّا البقاء في معتزل صغير في قرية صغيرة في مجاهل الهند فلم يكن من ضمن مخططاتي.

مـــن جهـــة أخرى، يقول معلّمو الزن إنّه لا يمكن للإنسان رؤية انعكـــاس صـــورته في المـــياه الجارية، بل في المياه الساكنة وحسب. وبالـــتالي، لم يكـــن من الصحيح برأيي الجري الآن، وكلّ هذه الأمور تحدث معي هنا، في هذا المكان الصغير النائي، حيث تم تنظيم كلّ لحظة من اليوم لتسهيل اكتشاف الذات والممارسة الروحية. هل احتاج حقّاً إلى ركوب القطارات والسير في أزقّة الهند الآن؟ ألا يمكنني القيام بذلك لاحقـــاً؟ ألا يمكنني لقاء الدايالاما في وقت آخر؟ ألن يكون الدايالاما موجوداً دوماً؟ (ولو مات، لا سمح الله، ألن يجدوا آخر؟) ألا يبدو جواز ســـفري أصـــلاً أشبه بامرأة سيرك موشومة؟ هل سيعطيني السفر حقّاً تجربة أكثر قرباً...؟

لم أعـــرف مـــاذا أفعـــل. أمضيت اليوم وأنا أفكّر في الموضوع. وكالعادة، كانت لريتشارد من تكساس الكلمة الأخيرة.

"ابقـــي يا بُقول. انسي أمر رؤية الآثار، لديك بقية حياتك لفعل ذلك. أنت في رحلة روحية يا عزيزتي. لا تتوقّفي في منصف الطريق. لا تديري ظهرك للفرص المتاحة لك هنا".

سألته: "ولكن ماذا عن كلّ الأشياء الجميلة التي أودّ رؤيتها في الهند. أليس من المثير للشفقة أن تقطع نصف العالم لتبقى في معتزل صغير طيلة الوقت؟".

"بُقول يا عزيزتي، أصغي إلى صديقك ريتشارد. اجلسي كلّ يوم في كهف التأمّل للأشهر الثلاثة القادمة وأعدك بأنّك ستبدأين برؤية أشياء جميلة إلى حدّ أنّك سترغبين برمي الطماطم على تاج محلّ".

56

إليك ما فكّرت فيه هذا الصباح في أثناء التأمّل.

رحت أتساءل أين سأعيش بعد انتهاء عام السفر هذا. لا أريد العودة إلى نيويورك. ربّما أعيش في مدينة جديدة. يفترض بأوستن أن تكون جميلة. كما أنّ هندسة شيكاغو جذّابة، ولكنّ شتاءها رهيب. أو ربّما أعيش في الخارج. فقد سمعت الكثير عن سيدني... إن عشت في مكان معيشة أقلّ غلاء من نيويورك، فربّما أمكنني استئجار منزل بغرفة نوم إضافية، وتحويلها إلى قاعة تأمّل! سيكون هذا لطيفاً. أستطيع طلاءها باللون الذهبي. أو ربّما الأزرق الفخم. لا، الذهبي. لا، الأزرق...

أخيراً ذعرت حين لاحظت اتجاه أفكاري. *ها أنت هنا في الهند، في معتزل، وعوضاً عن التواصل مع الله، تحاولين التخطيط للمكان الذي ستمارسين فيه التأمّل بعد عام من الآن، في منزل غير موجود بعد، في مدينة لم تحدديها. ماذا لو حاولت أيتها الحمقاء التأمّل هنا، الآن، حيث أنت؟*

عدت للتركيز على المانترا.

وبعد لحظات، توقّفت للتفكير في كلمة *حمقاء* التي نعتّ نفسي بها. وقررت بأنّ ما قلته ليس حنوناً جداً.

مع ذلك، فكرت في اللحظة التالية في أنّ *غرفة التأمّل الذهبية ستكون جميلة*.

فتحت عيني وتنهّدت. *أهذا أفضل ما يمكنني القيام به حقًّا؟*

هكذا جرّبت ذاك المساء شيئاً جديداً. فقد التقيت مؤخراً في المعتزل بامرأة كانت تدرس تأمّل فيباسانا. والفيباسانا هي تقنية تأمّل بوذية تقليدية جداً وبالغة الحدّة. وتعتمد أساساً على الجلوس وحسب. تدوم دروس الفيباسانا التمهيدية لعشرة أيام، يجلس خلالها التلميذ عشر ساعات في اليوم في أوضاع تمدّد ساكنة تدوم لساعتين أو ثلاث متواصلة. حتى إنّ معلّم الفيباسانا لا يعطيك مانترا، بل يعتبر ذلك نوعاً من الغشّ. ذلك أنّ الفيباسانا تقوم على مجرّد النظر إلى العقل ومشاهدته والتأمل التام في نماذج تفكيرك، من دون السماح لشيء أن يحركك من جلستك.

هي متعبة جسديًّا أيضاً. فمن الممنوع تحريك الجسد نهائياً متى جلست، مهما كان انزعاجك كبيراً. بل ينبغي عليك أن تجلس وتقول: "لا داعي لأن أحتاج إلى التحرّك على الإطلاق في الساعتين التاليتين". وإن شعرت بالانزعاج، عليك أن تتأمّل في هذا الانزعاج وتراقب أثر الألم الجسدي عليك. ففي حياتنا اليومية، نحن نتحرك باستمرار لتجنّب الانزعاج - الجسدي والعاطفي والنفسي - هرباً من الواقع المليء بالحزن والأذى. ولكنّ تأمل الفيباسانا يعلمنا بأنّ الحزن والأذى لا يمكن تجنبهما في هذه الحياة، ولو وقفت بسكون لمدة طويلة بما يكفي، ستكتشف مع الوقت حقيقة أنّ كلّ شيء (أكان مزعجاً أم مريحاً) يمرّ في النهاية.

تقـــول التعاليم البوذية القديمة: "العالم مبتلى بالموت والفناء، لذا، فـــإن الحكـــيم لا يحزن، لأنّه يعرف قوانين العالم". بتعبير آخر: عليك الاعتياد على ذلك.

لا أظـــنّ بـــأنّ الفيباسانا هي الطريق المناسب لي بالضرورة. فهي جديـــة كـــثيراً بالنسبة إلى أفكاري عن الممارسة التعبدية التي تتمحور عمـــوماً حول التعاطف، والحب، والفراشات، والنعيم... في الحقيقة، لـــديَّ مشاكلي الشخصية الخاصة مع كلمة *استقلال* بحدّ ذاتها، بعد أن التقـــيت بـــسعاة روحـــيين يعيشون كما يبدو في حالة من الانفصال العاطفـــي الـــتام عـــن بقـــية البشر. وحين يتحدّثون عن السعي إلى الاســـتقلال، أشـــعر بـــأنّني أودّ هزّهم بعنف والصراخ: "هذا آخر ما تحتاجون إلى ممارسته!".

مـــع ذلك، أرى بأنّ شيئاً من الاستقلال الذكي في الحياة يشكّل أداة قـــيمة لبلوغ السلام. وبعد أن قرأت عن تأمل الفيباسانا في المكتبة عـــصر أحـــد الأيام، رحت أفكر كم قضيت من الوقت في حياتي وأنا أنهـــار مـــثل سمكة كبيرة خارج المياه، إمّا أتلوّى من الحزن والأسى أو أتخـــبّط توقاً إلى مزيد من اللذة. وتساءلت ما إذا كان سيُفيدني (ويُفيد الأشـــخاص المبتلين بحبـــي) لو تعلّمت أن أهدأ وأتحمّل أكثر بقليل من دون الانجرار طيلة الوقت مع سير الأحداث.

راودتني كلّ تلك الأفكار مجدداً هذا المساء حين عثرت على مقعد في بقعة هادئة في إحدى حدائق المعتزل وقررت الجلوس والتأمّل لساعة من الزمن على طريقة الفيباسانا. بلا حراك أو اهتياج أو حتى مانترا، بل النظر وحسب. فلنر ما سيحدث. لسوء الحظ، نسيت ما يحدث في أثناء غروب شمس الهند: البعوض. فما إن جلست على ذاك المقعد في شمس الغسق الجميلة، حتى سمعت أفواج البعوض تتوجه نحوي، تلامس وجهي

وتحـــطّ في هجـــوم جماعي على رأسي، كاحليّ وذراعيّ. تبعت ذلك لسعاتها الحارقة. لم أحبّ الأمر، بل فكّرت: *هذا الوقت من النهار غير مناسب لممارسة الفيباسانا*.

ولكن متى هو الوقت المناسب من اليوم أو الحياة للجلوس بسكون تـــام؟ متى لا يكون ثمّة ما يحوم حولك ويحاول إلهاءك والتغلب عليك؟ فاتخـــذت قـــراراً (استوحيته مجدّداً من تعليمات الغورو وهو أن نصبح علماء في تجربتنا الداخلية الخاصة بنا). فقدمت نفسي للتجربة، *ماذا لو جلست على الرغم من ذلك لمرة في حياتي؟* عوضاً عن صفع الحشرات والتقاطها، ماذا لو جلست على الرغم من هذا الانزعاج لساعة واحدة وحسب في حياتي؟

وهكـــذا كـــان. جلست ساكنة أشاهد نفسي تلتهمني أفواج الـــبعوض. وللصراحة، كان جزء مني يتساءل إلى ماذا تهدف تجربة تعـــذيب النفس هذه، ولكن جزءاً آخر كان يعرف تماماً أنّها محاولة أولى للـــسيطرة علـــى الـــنفس. إن تمكّنت من تحمل هذا الانزعاج الجسدي غير القاتل، أيّ أنواع من الانزعاج سأتمكن من تحملها في المـــستقبل؟ مـــاذا عـــن العذابات العاطفية التي أعتبر احتمالها أكثر صـــعوبة؟ ماذا عن الغيرة، والغضب، والخوف، والخيبة، والوحدة، والعار، والملل؟

كـــان الحكاك مثيراً للجنون في البداية، ولكنه ذوى لاحقاً وتحول إلى شعور عام بالحرقة، فحوّلت تلك الحرارة إلى شعور طفيف بالخفة. سمحت للألم بأن يفقد معانيه المحددة ويتحول إلى إحساس صاف – لا جـــيد ولا سيئ، بل حادّ وحسب – وتلك الحدة هي التي حملتني من نفـــسي وأخذتني إلى التأمّل. جلست هناك لساعتين. ولو أنّ طيراً حطّ بالفعل على رأسي، ما كنت لألاحظ.

أودّ توضيح أمر هنا. أعترف بأنّ هذه التجربة ليست رمزاً للصبر في تاريخ الإنسانية، ولست أطلب ميدالية شرف عليها. ولكنني شعرت بشيء من الإثارة وأنا أدرك بأنّني لم أتردد يوماً خلال سنواتي الأربع والثلاثين بصفع بعوضة حين تلسعني. فقد كنت ضعيفة أمام جميع أشكال الألم والمتعة الصغيرة والكبيرة خلال حياتي. أتفاعل مع كلّ ما يحدث لي. ولكن، ها أنا ذا أكبت ردّ فعلي الطبيعي. أفعل ما لم أفعله من قبل. هو شيء صغير، هذا صحيح، ولكن ما الذي أستطيع فعله غداً وأعجز عنه اليوم؟

حين أنهيت، وقفت ومشيت نحو غرفتي، ورحت أقيّم الأضرار. أصبت بحوالى عشرين لسعة بعوض. ولكن في غضون ساعة ونصف، خفّت حدّة جميع اللسعات، وتلاشت كلها. في النهاية، كلّ شيء يمضي.

57

...

58

أصبح سجودي أكثر تفكّراً ودقّة. إذ وجدت أنّه لا جدوى من السجود الكسول. لذا صرت أسجد كلّ صباح في المعبد قبل جلسة التأمّل لبضع دقائق. فقد وجدت في بداية إقامتي في المعتزل بأنّ سجودي كان في أغلب الأحيان غير نابع من القلب. بدت جميعها متعبة، مربكة، ومضجرة. أذكر أنّني سجدت في صباح أحد الأيام

وقلـــت: "آه، لا أعـــرف ماذا أريد... ولكن لا بدّ من أنّه هناك بعض الأفكار... لذا، هل من الممكن فعل شيء بهذا الشأن؟".

هذا يشبه الطريقة التي أتحدّث بها غالباً إلى مزيّن الشعر.

في الـــسجود هـــناك علاقة، ونصف العمل يقع على عاتقي. إن أردت الـــتغير مـــن دون أن أتكبد عناء قول ما أريده بالضبط، كيف لذلك أن يحدث؟ فنصف فائدة السجود تتمثّل في الطلب بحدّ ذاته، في النـــية الـــسليمة الواضحة. وإن لم تتوفّر لديك، تذهب كلّ توسلاتك ورغـــباتك هباء. تتساقط عند قدميك كالضباب البارد ولا تصل أبداً. هكـــذا صـــرت آخذ الوقت كلّ صباح للبحث عمّا أريده بالتحديد. فأســـجد على أرض المعبد، جبهتي على الرخام البارد، ولا أقوم إلى أن أصـــوغ دعاءً حقيقياً. وإن لم أشعر بأنّني صادقة، أبقى ساجدة إلى أن أدعو بصدق. وما ساعدني البارحة، لن يساعدني بالضرورة اليوم. فمن شـــأن الـــسجود أن يـــصبح بارداً ويغرق في الملل المألوف إن تركت انتـــباهك يشتّ عنه. ولكن إن حافظت على تركيزك، فإنّك تتحمّل بذلك مسؤولية الحفاظ على روحك.

لقـــد لفـــت ريتـــشارد نظري حين كنت أتذمّر من عجزي عن الـــتوقّف عـــن التفكير في الأمور المزعجة نفسها. قال لي: "عليك أن تتعلّمي كيف تختارين أفكارك تماماً كما تختارين ملابسك كلّ يوم. إنّها قـــوّة يمكـــنك تطويـــرها. إن كنت ترغبين كثيراً بالسيطرة على أمور حـــياتك، ابدأي بعقلك. إنّه الشيء الوحيد الذي ينبغي السيطرة عليه. تخلّـــي عن كلّ ما تبقّى، في ما عداه. لأنّك إن عجزت عن أن تكوني سيدة تفكيرك، فأنت في ورطة كبيرة لن تخرجي منها أبداً".

تـــبدو هـــذه المهمة للوهلة الأولى مستحيلة تقريباً. السيطرة على الأفكـــار؟ ولكن تخيّل لو أمكنك ذلك. وهذا لا يعني قمع الأفكار أو

إنكارهـــا. فالقمع والإنكار يقومان على الادعاء بأنّ الأفكار والمشاعر الـــسلبية غـــير موجـــودة. بيد أنّ ما يعنيه ريتشارد هو الإقرار بوجود الأفكـــار الـــسلبية، لقد فهم مصدرها وسبب مجيئها، ومن ثمّ صرفها، بكـــثير من التسامح والثبات. يمكنك استخدام عيادة المستشار النفسي لفهم سبب الأفكار السلبية، واستعمال التمارين الروحية للتغلب عليها. ولا شـــكّ في أنّ التخلّي عنها هو من باب التضحية. فأنت تتخلى عن عاداتك القديمة، عن الأحقاد القديمة والضغائن المألوفة المريحة. ولا شكّ بأنّ كلّ هذا يتطلّب الممارسة والجهد. ليس علماً تتقنه على الفور، بل يحـــتاج إلى المثابـــرة، وأريد القيام بذلك، لا بل أحتاج إليه، لاستعادة قـــوّتي. *Devo farmi le ossa*، هكذا تقال بالإيطالية. "عليَّ أن أبني عظامي".

فبدأت أحرص على مراقبة أفكاري طيلة النهار. رحت أكرّر هذا العهـــد مـــئات المرات في اليوم: "لن أكون مرسًى للأفكار الضارّة بعد الـــيوم". وأكرّره كلّما طرأت لي فكرة سلبية. في المرة الأولى التي قلت فـــيها ذلـــك، لفتتني كلمة مرسًى. فالمرسى هو المكان الذي تأوي إليه الـــسفن، ميـــناء الدخول. تخيّلت ميناء عقلي، فهو على الأرجح ميناء مـــتهالك، مـــزقته العواصف، ولكنّ موقعه جيّد وعمقه مناسب. ميناء عقلـــي هو خليج مفتوح، إنّه المدخل الوحيد لجزيرة ذاتي (وهي جزيرة شـــابة وبـــركانية، أجل، ولكنها خصبة وواعدة). وقد خاضت هذه الجزيـــرة بعـــض الحروب، هذا صحيح، ولكنّها التزمت الآن بالسلام، بقيادة زعيم جديد (أنا) وضع سياسات جديدة لحماية المكان. والآن، ثمّة قوانين أكثر صرامة بكثير بخصوص من يدخل هذا الميناء.

لا يمكـــن لأحد الدخول بعد الآن بأفكاره القاسية المؤذية، بسفن أفكـــاره المعذّبة، بسفن أفكاره المستعبدة، بسفن أفكاره الحربية، كلّها

ستُطرد. كذلك، لن يتم بعد الآن استقبال الأفكار المليئة بالغضب والسخط، بالمتمرّدين والقتلة القساة، بالمومسات اليائسات، بالقوّادين والمحرّضين المتخفين على متن السفن. ولن يتم أيضاً استقبال الأفكار آكلة لحوم البشر، لأسباب بديهية. حتى المبشّرون سيتمّ التحقق بعناية من صدقهم. هذا ميناء هادئ ومسالم، مدخل جزيرة جميلة وفخورة بنفسها، بدأت للتوّ بتشجيع الهدوء. فإن أمكنك يا أفكاري العزيزة الالتزام بهذه القوانين الجديدة، أهلاً وسهلاً، وإلاّ، فلترجعي إلى البحر، من حيث أتيت.

هذه هي رسالتي المستمرة أبداً.

59

نشأت صداقة قوية بيني وبين تلك الفتاة الهندية تولسي، التي تبلغ سبعة عشر عاماً. فهي تعمل معي في حفّ أرض المعبد كلّ يوم. وكلّ مساء، نتنزّه معاً في حدائق المعتزل ونتحدث عن موسيقى الهيب هوب، وهو موضوع يثير حماس تولسي. وتولسي هي من الفتيات الهنديات الأكثر جاذبية، لا سيما بعد أن انكسرت إحدى عدسات نظارتها الأسبوع الماضي بشكل عنكبوتي، وتوقّفت عن وضعها. وتمثّل تولسي بالنسبة إليّ كثيراً من الأشياء المثيرة والغريبة بالنسبة إلي – مراهقة، صبيانية، فتاة هندية، متمرّدة في عائلتها، روح مجنونة... وكأنّها فتاة مدرسة مغرمة. كما أنّها تتحدّث إنكليزية جميلة سارّة – لا تجدها سوى في الهند – تحتوي على كلمات استعمارية على غرار "عظيم!" و"هراء!" وتصوغ في بعض الأحيان جملاً فصيحة مثل: "من المفيد السير على العشب في الصباح، حين يكون الندى قد تراكم، لأنّه

يخفض حرارة الجسم على نحو طبيعي ولطيف". حين أخبرها مرّة أنّني ذاهبة إلى مومباي لقضاء اليوم، قالت: "أرجوك كوني حذرة، فثمّة كثير من الباصات السريعة في كلّ مكان".

سنّها نصف سنّي تماماً، كما أنّها بنصف حجمي.

تحدّثنا كثيراً أنا وتولسي عن الزواج مؤخّراً خلال نزهاتنا. فهي ستبلغ الثامنة عشرة تقريباً، ما يجعلها مؤهلة للزواج. والأمور تحدث على الشكل التالي: بعد ذكرى ميلادها الثامنة عشرة، سيُطلب منها حضور حفلات زفاف العائلة وهي ترتدي الساري، كإشارة إلى بلوغها سنّ الزواج. فتأتي أمّة (عمّة) لطيفة لتجلس بجانبها وتبدأ بطرح الأسئلة للتعرّف بها: "كم عمرك؟ ما هو أصل عائلتك؟ ماذا يعمل والدك؟ في أيّ جامعة ستدرسين؟ ما هي اهتماماتك؟ متى ذكرى ميلادك؟" بعد ذلك، يتلقّى والد تولسي مغلّفاً بريديًّا يحتوي على صورة حفيد المرأة الذي يدرس الكمبيوتر في دلهي مع الخرائط التنجيمية للشابّ وعلاماته الجامعية، إضافة إلى السؤال المحتوم: "هل تودّ ابنتك الزواج به؟".

قالت تولسي: "هذا مقرف".

ولكنّ العائلة الهندية تهتمّ كثيراً لتزويج أولادها زيجات ناجحة. فإحدى عمّات تولسي حلقت رأسها امتناناً لله لأنّ ابنتها الكبرى، التي بلغت سنّ الثامنة والعشرين، قد تزوّجت أخيراً. لا سيّما أنّ زواج تلك الفتاة كان صعباً، فقد كان لديها كثير من الأمور ضدّها. سألت تولسي ما الذي يجعل زواج الفتاة الهندية صعباً، فقالت كثير من الأسباب.

"إن كان طالعها سيّئاً. إن كانت كبيرة في السنّ، إن كانت بشرتها داكنة جداً. إن كانت متعلّمة إلى حدّ يصعب إيجاد رجل أعلى

مركزاً منها، وتلك مشكلة شائعة هذه الأيام لأنّه لا ينبغي على المرأة أن تكـــون مـــتعلّمة أكثر من زوجها. أو إن أقامت علاقة مع شخص ما وعـــرف بها الجميع، آه، يصبح من الصعب عليها جداً إيجاد زوج بعد ذلك...".

رحـــت أفكّر على الفور إن كان من السهل عليَّ إيجاد زوج في المجـــتمع الهـــندي. لا أدري ما إذا كان طالعي جيّداً، ولكنّني بالتأكيد كبيرة جداً ومتعلّمة جداً وأخلاقي ملطّخة علناً... أنا لا أشكّل عروساً محتملة. على الأقلّ بشرتي فاتحة، هذا كلّ ما لديَّ في رصيدي.

كان على تولسي الذهاب إلى حفل زواج إحدى قريباتها الأسبوع الماضي، وكانت تقول (على نحو مخالف تماماً للموضة الهندية) كم تكره حـــضور الأعـــراس. الرقص والنميمة والملابس الفاخرة. كانت تفضّل البقاء في المعتزل لحفّ الأرض والتأمّل. ليس هناك أحد في عائلتها يتفهم ذلـــك. فإخلاصها لله يتجاوز الحدّ بنظرهم. تقول تولسي: "الجميع في عـــائلتي يعتبرني مختلفة. فأنا من الأشخاص الذين إن طلبت منهم فعل شـــيء، يقومـــون بـــشيء آخر. كما أنّ مزاجي حادّ و لم أكن أحبّ الدراســـة، باستثناء الآن فأنا ذاهبة إلى الجامعة وسأحدّد بنفسي المجال الذي يثير اهتمامي. أريد دراسة علم النفس، تماماً مثل معلّمتنا الروحية حين كانت ترتاد الجامعة. فأنا أُعتبر فتاة صعبة، وحسب سمعتي، عليك أن تعطيني سبباً وجيهاً لكي أقوم بأمر ما. والدتي تتفهّم ذلك، وتحاول دومـــاً إعطائي أسباباً وجيهة لما تطلبه منّي، بعكس أبـــي. فهو يعطي أســـباباً، ولكنّني لا أجدها مقنعة. أتساءل في بعض الأحيان ماذا أفعل بينهم، فأنا لا أشبههم على الإطلاق".

قريبة تولسي التي تزوجت الأسبوع الماضي تبلغ الحادية والعشرين مـــن عمرها، وشقيقتها الكبرى هي التالية على اللائحة وتبلغ العشرين

مـــن عمرها، ما يعني أن الضغوطات ستتضاعف على تولسي بعد ذلك لكي تجد زوجاً. سألتها ما إذا كانت تريد الزواج فقالت:

"لااااااااااااااا...".

... وطالـــت الكلمـــة أكثر من الغروب الذي كنّا نشاهده وهو يلقي بظلاله على الحديقة.

قالت: "أريد التجوّل، مثلك".

"ولكنّني لم أتجوّل هكذا طيلة حياتي، فقد كنت متزوّجة".

فقطّبت حاجبيها وحدّقت إليَّ من خلال نظارتها المكسورة بنظرة ســـاخرة، وكـــأنني أخـــبرتها بأنّني كنت سمراء وتحاول تخيّل الأمر. في النهاية، قالت: "أنت متزوّجة؟ لا يمكنني تخيّل ذلك".

"صدقيني، كنت متزوّجة".

"أنت من أنهى الزواج؟".

"أجل".

"أهنّـــئك على ذلك. فأنت تبدين في غاية السعادة الآن. أمّا أنا، فكـــيف أتيت إلى هنا؟ لِمَ ولدت هندية؟ هذا فظيع! لِمَ أنتمي إلى هذه العائلة؟ لِمَ عليَّ حضور كلّ تلك الأعراس؟".

ثمّ راحـــت تدور حول نفسها حانقة، وهي تصرخ (بصوت عالٍ بالنسبة إلى مقاييس المعتزل): "أريد أن أعيش في هاواي!!!".

60

كان ريتشارد متزوّجاً في ما مضى هو أيضاً، ولديه ولدان، أصبحا شـــابين الآن، وكلاهمـــا مقرّبان من أبيهما. في بعض الأحيان، يذكر ريتـــشارد طليقته في حادثة مضحكة ويتحدّث عنها دوماً بولع على ما

يبدو. فأشعر بشيء من الحسد إزاء ذلك، وأنا أتخيّل كم هو محظوظ لأنّ الصداقة لا زالت تجمع بينهما، حتى بعد الانفصال. وهذا الشعور هو نتيجة غريبة لطلاقي الرهيب. فكلما سمعت بزوجين ينفصلان حبيًّا، تتملّكني الغيرة. لا بل أسوأ من ذلك. بدأت أجد الزواج الذي ينتهي على نحو متمدّن رومانسيًّا جداً. "آه...كم هذا لطيف... لا بدّ بأنّهما أحبّا بعضهما حقًّا...".

فسألت ريتشارد عن ذلك يوماً. قلت له: "يبدو وكأنّك تشعر بالحنان تجاه طليقتك. أما زلتما مقرّبين؟".

أجابني بلا تأثّر: "كلاّ، فهي تظنّ بأنّني غيّرت اسمي إلى نذل".

عدم اهتمام ريتشارد لذلك أثار إعجابي. فطليقي هو أيضاً يعتقد بأنّني غيّرت اسمي، وهذا يفطر قلبي. فمن أصعب الأمور في هذا الطلاق هو أنّ زوجي لم يسامحني على الرحيل، على الرغم من كلّ الاعتذارات والشروحات التي طرحتها عند قدميه، وكل اللوم الذي تحمّلته وكلّ الأملاك ومظاهر الندم والأسف التي كنت على استعداد لتقديمها له مقابل الرحيل. بالتأكيد، ما كان ليهنّئني قائلاً: "أنا معجب جداً بكرمك وصدقك وأودّ أن أخبرك كم يسرّني أنّني طلّقت من قبلك". ولكن لا، خطأي لا يغتفر، وهذا ما ترك فجوة سوداء في داخلي. وحتى، لا بل لا سيّما في أكثر أوقات السعادة والإثارة، لا يمكنني نسيانها بسهولة. *ما زال* يكرهني. وبدا أنّ ذلك لن يتغيّر أبداً، لن يعتقني أبداً.

كنت أتحدّث عن هذا الأمر في أحد الأيام مع أصدقائي في المعتزل؛ آخرهم كان سبّاكاً من نيوزيلندا، هو شابّ التقيت به لأنّه سمع أنّني كاتبة وبحث عنّي ليخبرني بأنّه كاتب هو الآخر. هو كاتب نشر مؤخّراً رسالة رائعة في نيوزيلندا تحت عنوان *تقدّم سبّاك* عن رحلته

الـــروحانية. الـــسبّاك/الـــشاعر من نيوزيلندا، ريتشارد من تكساس، صاحب مزرعة الألبان الإيرلندي، تولسي المراهقة الهندية وفيفيان، امرأة مسنّة ذات شعر أبيض وعينين مازحتين براقتين (كانت راهبة في جنوب أفـــريقيا). تلـــك كانت دائرة أصدقائي هنا، مجموعة نابضة بالحياة من الشخصيات التي ما كنت لأتوقّع لقاءها في معتزل في الهند.

هكـــذا، كـــنا نـــتحدّث ذات يـــوم معـــاً عن الزواج، فقال الـــسباك/الـــشاعر: "أرى الزواج وكأنّه عملية خياطة لشخصين معاً، والطـــلاق أشبه بقطع أحد الأوصال، لذا يستغرق شفاؤه وقتاً طويلاً. وكلّمـــا طـــال الزواج أو كان الاستئصال أقسى، استغرق الشفاء وقتاً أطول".

هـــذا مـــا يفسّر العذاب الذي مررت به طيلة تلك السنوات، إذ كنت لا أزال أجرّ ورائي شبح العضو المستأصل وأتعثّر به.

تـــساءل ريتشارد ما إذا كنت أنوي ترك زوجي يملي عليَّ نظرتي إلى نفسي لبقية حياتي، وقلت له إنّني لست واثقة من ذلك، في الواقع، بـــدا أنّ زوجي ما زال يتمتّع بصوت قوي حتى الآن، ولأكون صادقة، ما زلت أنتظر منه أن يسامحني، أن يحرّرني ويتركني أعيش حياتي بسلام.

قال صاحب مزرعة الألبان: "إنّ انتظار مجيء هذا اليوم ليس عملاً حكيماً تستغلّين به وقتك".

"مـــاذا أفعل يا أصدقاء؟ أنا أُكثر من الشعور بالذنب، كما تكثر النساء الأخريات من استعمال لون البيج".

لم يعجـــب كلامـــي الراهبة الكاثوليكية السابقة (التي ينبغي أن تعـــرف الكـــثير عن الشعور بالذنب في النهاية): "شعور الذنب ليس ســـوى خدعة من الأنا لجعلك تعتقدين بأنّك تحرزين تقدّماً أخلاقيًّا. لا تقعي في هذا الفخ يا عزيزتي".

قلت: "ما أكرهه في الطريقة التي انتهى بها زواجي هو أنّه لم يحلّ نهائياً. إنّه كالجرح المفتوح الذي لا يختم أبداً".

قـــال ريتـــشارد: "إن كنت مصرّة على ذلك، إن كان هذا هو قرارك، فليكن".

قلـــت لـــه: "ينبغي أن ينتهي هذا في يوم من الأيام. أتمنّى لو أنّني أعرف كيف".

حين انتهى الغداء، دسّ السبّاك/الشاعر القادم من نيوزيلندا ورقة في يـــدي يطلب مني فيها لقاءه بعد العشاء. أراد أن يريني شيئاً. هكذا قابلته تلك الليلة قرب كهوف التأمّل، فطلب منّي أن أتبعه لأنّه أراد أن يقدم لي هدية. مشينا عبر المعتزل ثمّ قادني إلى أحد الأبنية التي لم يسبق لي دخـــولها، فتح أحد الأبواب وصعدنا سلّماً خلفيًّا. أعتقد بأنّه يعرف هـــذا المكان لأنّه هو من يُصلح جميع وحدات التكييف، وبعضها يقع هـــناك. في أعلـــى السلم كان ثمّة باب قام بفتح مزلاجه بسهولة، من ذاكـــرته. عـــندها وصلنا إلى سطح جميل، مبلّط بقطع السيراميك التي كانـــت تلمع تحت ضوء المغيب مثل قعر بركة. قادني عبر السطح إلى برج صغير، هو في الواقع منارة، وأراني سلّماً ضيّقاً آخر يؤدّي إلى قمّة الـــبرج. أشـــار إلى البرج قائلاً: "سأتركك الآن. ستصعدين إلى هناك وتبقين إلى أن ينتهي".

سألته: "إلى أن ينتهي ماذا؟".

ابتـــسم السبّاك وأعطاني كشّافاً: "هذا لكي تنـــزلي بأمان حين ينتهي". كما أعطاني ورقة مطويّة ثمّ رحل.

صعدت الأدراج إلى أعلى البرج. كنت أقف الآن في أعلى مكان في المعتزل، يشرف على منظر يضمّ هذا الوادي الهندي بأكمله. امتدّت الجبال والمزارع على مدّ ناظري، وشعرت بأنّه لا يسمح عادة للطلاّب

بالتسكّع في هذا المكان، إلاّ أنّ المنظر كان رائعاً. ربّما كانت الغورو تراقب غروب الشمس من هنا، حين تكون مقيمة في المعتزل. والشمس كانت تغيب في تلك اللحظة، وكان النسيم دافئاً. فتحت الورقة التي أعطاني إياها السباك/ الشاعر.

كان قد طبع عليها:

تعليمات للحرية

1. *عبارات الحياة المجازية هي تعليمات...*
2. *لقد صعدت للتوّ إلى السطح وفوقه. لم يعد يفصلك شيء عن اللانهائي. الآن، أطلقي سراحه.*
3. *النهار بلغ نهايته. حان الوقت لكي ينتهي شيء جميل إلى شيء جميل. الآن، أطلقي سراحه.*
4. *أمنيتك بالثبات كانت دعاء. ووجودك هنا هو استجابة... له. أطلقي سراحه، وراقبي النجوم وهي تسطع؛ في الخارج والداخل.*
5. *اطلبي الفضل من كلّ قلبك، وأطلقي سراحه.*
6. *سامحيه، من كلّ قلبك، سامحي نفسك، وأطلقي سراحه.*
7. *حرّري نيتك من العذاب الذي لا طائل منه، ثمّ، أطلقي سراحه.*
8. *راقبي حرارة النهار تذوب في برودة الليل. أطلقي سراحه.*
9. *حين تزول كارما علاقة ما، لا يبقى سوى الحبّ. إنّه آمن. أطلقي سراحه.*
10. *حين يرحل عنك الماضي أخيراً، أطلقي سراحه. ثمّ اصعدي وتابعي حياتك. بفرح عظيم.*

لم أستطع التوقّف عن الضحك في الدقائق الأولى. كنت أشرف على الوادي بأكمله، على مظلّة شجر المانغا، وكان شعري يرفرف في الهواء كالعلم. راقبت الشمس تغيب، ثمّ تمدّدت على ظهري ورحت أراقب النجوم وهي تشرق في السماء. أنشدت ترنيمة قصيرة بالسنسكريتية، ورحت أكررها كلّما سطعت نجمة جديدة في السماء، وكأنّني كنت أناديها، ولكنّها راحت تظهر بسرعة كبيرة و لم أعد قادرة على مجاراتها. وسرعان ما تحوّلت السماء إلى مسرح للنجوم المتألّقة.

فأغمضت عيني وقلت: "يا الله، أرجوك أرني ما أحتاج إلى فهمه عن الغفران والاستسلام".

كنت أرغب منذ وقت طويل بإجراء حديث فعلي مع زوجي السابق، ولكن من الواضح بأنّ هذا لن يحدث أبداً. ما أردته بقوّة كان قراراً، قمّة صلح، مع فهم مشترك لما حدث في زواجنا، وغفران متبادل لبشاعة طلاقنا. ولكن شهوراً بين المحامين والوسطاء لم تزدنا سوى انقساماً وعناداً، وحوّلتنا إلى شخصين عاجزين تماماً عن تحرير واحدهما الآخر. مع ذلك، هذا ما كنّا بحاجة إليه، أنا واثقة من ذلك. كما أنّني واثقة من أمر آخر، أنّك لا يمكن أن تتقرّب إنشاً واحداً من الله ما دمت متمسّكاً بخيط واحد من خيوط اللوم. فكما يضرّ التدخين بالرئتين، كذلك يفعل الاستياء بالروح، حتى نفخة واحدة منه، تضرّ بالإنسان. فأيّ دعاء هذا الذي يقول: "أعطنا حقدنا كفاف يومنا"؟ لذا، ما طلبته من الله تلك الليلة على سطح المعتزل كان – نظراً إلى أنّني لن أتمكّن على الأرجح من التحدّث مع طليقي أبداً – أن أجد مستوًى *يمكننا* التواصل معاً عبره. مستوًى يمكننا أن نغفر لبعضنا عبره.

تمدّدت هناك، فوق العالم، وكنت وحيدة تماماً. غرقت في التأمّل، وانتظرت ليقال لي ماذا أفعل. لا أعرف عدد الدقائق أو الساعات التي

مـــرّت قبل أن أعرف ماذا أفعل. أدركت أنّني كنت أفكّر في كلّ ذلك علـــى نحـــو حـــرفي جداً. إن كان التحدّث مع طليقي هو ما أريده، فلأتحدّث معه. فلأتحدّث معه الآن. كنت أنتظر الحصول على الغفران؟ لِمَ لا أقدّمه بنفسي إذاً؟ الآن. فكّرت كم من الأشخاص يغادرون هذه الحـــياة مـــن دون أن يسامِحوا أو يسامَحوا، كم من الأشخاص الذين يملكـــون أقارب أو أصدقاء أو أولاداً أو أحباباً، يختفون من حياتهم من دون أن تقـــال بينهم كلمات الرحمة أو الغفران الثمينة. كيف يتحمّل الأطـــراف الذين يبقون على قيد الحياة بعد انتهاء العلاقات ألم ما كان يجـــب أن يقـــال؟ غير أنّني وجدت الإجابة من مكاني: *يمكنك قول ما ينبغـــي أن يقـــال بنفسك، من داخلك*. ليس هذا ممكناً فحسب، بل وضروريّ أيضاً.

عـــندها، فوجئت بأنّني أقوم بأمر غريب وأنا ما زلت في التأمّل. فقـــد دعوت طليقي للانضمام إلي على هذا السقف في الهند. سألته ما إذا كان بإمكانه لقائي هنا لتوديعه. ثمّ انتظرت وشعرت به يصل. حتى إنّه أمكنني اشتمام رائحته.

قلت: "مرحباً عزيزي".

وبـــدأت تقريباً بالبكاء، ولكن سرعان ما أدركت أنّني لا أحتاج إلى ذلـــك. فالدموع هي جزء من حياتنا الجسدية، ومكان لقاء هاتين الـــروحين تلـــك الليلة على ذاك السطح في الهند لا علاقة له بالجسد. فالشخـــصان اللذان يحتاجان إلى التحدّث معاً لم يعودا شخصين حتى. حـــتى إنهما لن يتكلّما، ولم يكونا زوجين أيضاً. ليسا امرأة من الوسط الغربـــــي ويانكي فخوراً بنفسه. ليسا شاباً في العقد الرابع من عمره وامرأة في عقدها الثالث، ليسا شخصين محدودين تجادلا لسنوات حول الجنس والمال والأثاث؛ أيّ من هذا لا علاقة له بهما. فعلى مستوى هذا

الاجتماع، كانا مجرّد روحين زرقاوين باردتين تفهمان كلّ شيء أساساً. فبعد أن تحرّرا من جسديهما ومن التاريخ المعقّد لعلاقتهما السابقة، أتيا فوق السطح (وفوقي أنا) بحكمة متناهية. كنت لا أزال في التأمّل حين رحت أراقب الروحين الزرقاوين الباردتين تدوران حول بعضهما، تمتزجان ثمّ تنقسمان مجدّداً، وتنظران إلى كمال وتشابه كلّ منهما. كانتا تعرفان كلّ شيء. تعرفان كلّ شيء منذ زمن طويل وستظلّان كذلك دائماً.

لم تكونا بحاجة إلى مسامحة بعضهما، فقد *ولدتا* على السماح والغفران بينهما.

كان الدرس الذي يعلّماني إياه في دورانهما الجميل: "ابقي بعيدة عن هذا، ليز. فدورك في هذه العلاقة قد انتهى. دعينا *نحن* ننهي هذا الأمر لأجلك الآن. أمّا أنت، فتابعي حياتك".

فتحت عينيّ لاحقاً، وأدركت أنّ الأمر قد *انتهى*. ليس زواجي وحسب، ولا طلاقي وحسب، بل كلّ فجوة الحزن والكآبة المستمرة التي نتجت عنه... لقد انتهت. كنت قادرة على الشعور بأنّني تحرّرت. هذا لا يعني أنّني لن أفكّر في طليقي بعد الآن ولن تكون لديَّ أيّ عواطف مرتبطة بذكراه. ولكنّ الطقس الذي شهدته على السطح أعطاني مكاناً أبيّت فيه تلك الأفكار والمشاعر حين تتحرّك في المستقبل – وستفعل دوماً. ولكن حين تظهر مجدّداً سأرسلها إلى هنا، إلى هذا السطح، لتعتني بها الروحان الزرقاوان الباردتان اللتان تفهمان أساساً كلّ شيء.

لهذا وُجدت الطقوس. فنحن كبشر نقوم بالطقوس الروحانية لإيجاد مكان آمن ترتاح فيه أحاسيسنا الأكثر تعقيداً للفرح أو الحزن، لكي لا نجرّها معنا إلى الأبد، ونثقل كاهلنا بها. وكلّنا بحاجة إلى أماكن

كهذه. وأعتقد أنّه إن كانت ثقافتنا أو تقاليدنا تفتقر إلى الطقس الذي نحتاج إليه، لنا الحقّ بالتأكيد بإيجاد طقس بأنفسنا وعلاج جهازنا العاطفي المصاب بواسطة تدابير ذاتية من ابتكار سبّاك/شاعر كريم.

ثمّ نهضت، ووقفت على يدي على سطح مرشدتي للاحتفال بمفهوم التحرّر. كنت أشعر بالبلاط المغبرّ تحت راحتي وبقوّتي وتوازني. فيما راحت نسمات الليل تداعب أخمص قدمي الحافيتين. وهذا النوع من الإحساس - الوقوف العفوي على اليدين - ليس بأمر تقدر عليه الروح الزرقاء الباردة، بل الكائن البشري. نحن نملك يدين، يمكننا الوقوف عليهما لو أردنا. هذا امتيازنا.

61

رحل ريتشارد الآتي من تكساس اليوم، سافر عائداً إلى أوستن. رافقته إلى المطار وكنّا حزينَين. وقفنا لوقت طويل على الرصيف قبل أن يختفي في الداخل.

تنهّد قائلاً: "ماذا أفعل من دون ليز غيلبرت لأغيظها؟" ثمّ أضاف: "كانت تجربتك في المعتزل جيّدة، أليس كذلك؟ تبدين مختلفة عمّا كنت عليه منذ عدّة أشهر، وكأنّك تخلّصت من بعض الحزن الذي كنت تجرّينه خلفك".

"أشعر بأنّني سعيدة حقًّا هذه الأيام، ريتشارد".

"تذكّري إذاً، ستجدين كلّ بؤسك بانتظارك وأنت خارجة، هل ستحملينه معك في طريق العودة؟".

"كلا لن أحمله مجدّداً".

"فتاة طيّبة".

قلت له: "لقد ساعدتني كثيراً. سأتخيلك دوماً كحارس أمين يداه مكسوتان بالشعر وأظافر قدميه مشوّهة".

"أجل، أظافر قدمي المسكينة لم تتعاف تماماً بعد فييتنام".

"الحمد لله أنّك لم تصب بأذًى أكبر".

"كثير من الشبّان أصيبوا بأذًى أكبر. على الأقلّ، احتفظت بساقيّ. حياتي لم تكن سهلة عزيزتي، وأنت أيضاً، لا تنسي ذلك. في حياتك القادمة، قد تكونين واحدة من أولئك النساء الهنديات الفقيرات اللواتي يدفعن الصخور على جانب الطريق، وتكتشفين أنّ الحياة ليست ممتعة كثيراً. لذا، قدّري ما أنت فيه الآن. كوني دوماً ممتنّة على ما أنت فيه، وستعيشين حياة أطول. وأسدي لي خدمة يا بُقول، تقدّمي بحياتك، هلاّ فعلت؟".

"أنا أفعل".

"أعني، اعثري على شخص جديد تحبّينه يوماً ما. خذي الوقت الذي تحتاجينه للشفاء ولكن لا تنسي بأن تشاركي قلبك مع شخص آخر لاحقاً. لا تجعلي حياتك نصباً تذكاريًّا لديفيد أو لطليقك".

أجبته: "لن أفعل". وعرفت فجأة أنّني لن أفعل فعلاً. كنت أشعر بكلّ ألمي القديم الناتج عن حبّي الضائع وأخطائي السابقة يذوي أمام عيني، يخفّ أخيراً بقدرة الوقت الشهيرة على الشفاء وبالصبر وفضل الله.

ثمّ تكلّم ريتشارد مجدّداً ليعيد أفكاري بسرعة إلى الواقع: "في النهاية، عزيزتي، تذكّري أنّ أفضل طريقة لنسيان حبّ ما هي بالوقوع في حبّ جديد".

ضحكت قائلة: "حسناً ريتشارد، هذا ما سأفعله. والآن يمكنك العودة إلى تكساس".

أجـــاب وهو يحيط بنظره موقف السيارات الكئيب لذاك المطار الهندي: "معك حق. لأنّي لن أزداد جمالاً بالوقوف هنا".

62

خلال عودتي إلى المعتزل، بعد أن انتظرت إقلاع طائرة ريتشارد، قـــررت أنّي كنت أتكلّم كثيراً. وللصراحة، كنت كثيرة الكلام طيلة حـــياتي، ولكـــنني كـــنت قد أكثرت من الكلام حقًّا خلال إقامتي في المعتـــزل. مـــا زال لديَّ شهران هنا، ولا أريد أن أضيع أعظم فرصة روحانـــية لي في حـــياتي بالثرثـــرة والعلاقات الاجتماعية. وقد أذهلني اكتشاف أنّي حتى هنا، حتى في هذه البيئة الروحانية المعزولة الواقعة في المقلـــب الآخر من العالم، تمكّنت من تكوين دائرة اجتماعية حيوية من حولي. لم يكن ريتشارد هو من كنت أتحدّث معه طيلة الوقت، ولكن كان ثمة دوماً من أثرثر معه. حتى إنّني وجدت نفسي - في معتزل، من بعـــد إذنك! - أضرب مواعيد لرؤية معارفي وأنا أقول لأحدهم: "أنا آســـفة، لا يمكنني الخروج للغداء معك اليوم لأنّني وعدت ساكشي بأن أتناول معها الطعام... ربّما يمكننا الخروج يوم الثلاثاء القادم".

تلـــك كانت قصة حياتي، فهذا ما أنا عليه. ولكنني بدأت أعتقد مؤخّـــراً أنّهـــا قـــد تكون عائقاً روحانياً. فالصمت والوحدة هما من الممارســـات الـــروحية المعترف بهما عالمياً، ولأسباب وجيهة. فضبط الحـــديث هو طريقة لمنع الطاقات من الانسكاب من الإنسان عبر فمه، فتنهكه وتملأ العالم بالكلمات والكلمات والكلمات عوضاً عن السكون والـــسلام والـــصفاء. وســـواميجي كان شديد التمسّك بالصمت في المعتـــزل، يفرضـــه بقوّة كممارسة تعبّدية. وقد سمّى الصمتَ المذهب

الـــروحاني الأسمى الحقيقي الوحيد. ومن المضحك كم كنت أتكلّم في هذا المعتزل، المكان الوحيد في العالم الذي يجب - ويمكن - أن يسود فيه الصمت.

لـــذا، قـــرّرت ألاّ أكون الوجه الاجتماعي الأبرز في المعتزل بعد الآن. لا مـــزيد مـــن الجـــري والنميمة والمزاح. لا مزيد من المحادثات والتعليقات والتأكيدات. حان الوقت للتغيير. فبرحيل ريتشارد، سأجعل إقـــامتي في المعتـــزل تجربة هادئة تماماً. سيكون هذا صعباً، ولكنّه ليس مـــستحيلاً، لأنّ الـــصمت محتـــرم من قبل الجميع هنا. فالكلّ يدعمه ويعتـــرف بـــه كعامل يساعد على ضبط النفس. حتى إنّهم يبيعون في المكتبة شارات كتب عليها: "أنا في حالة صمت".

سأشتري خمسة من تلك الشارات الصغيرة.

خـــلال رحلـــة العودة إلى المعتزل، رحت أتخيّل مدى التزامي بالـــصمت. ســـألتزم به إلى حدّ أنّني سأصبح مشهورة. تخيّلت أنّني أصـــبحت أسمّى تلك الفتاة الصامتة. سألتزم بدوام المعتزل وأتناول وجـــباتي وحـــيدة، سأتأمّل لساعات طويلة كلّ يوم، وأحفّ أرض المعـــبد مـــن دون أن أنبس ببنت شفة. واتّصالي الوحيد بالآخرين ســـيكون بابتـــسامة سعيدة من داخل عالم السكون والتقوى الذي أعيش فيه. وسيتحدّث الناس عنّي. سيسألون: "من هي تلك الفتاة الـــصامتة في الجـــزء الخلفي من المعبد التي تمضي الوقت جاثية على ركبتـــيها تحـــفّ الأرض؟ إنّها لا تتكلّم أبداً. بل هي منعزلة دوماً وغامـــضة. لا نعرف حتى كيف هو صوتها. كما أنّك لا تشعر بها وهـــي تـــسير خلفك في الحديقة حين تخرج للمشي... فهي تسير بهـــدوء، كالنسيم. لا بدّ من أنها في حالة تأمّل دائم. *إنّها أكثر فتاة هادئة رأيتها في حياتي*".

63

في الصباح التالي، كنت جاثية على أرض المعبد، أحفّ الرخام مجدّداً، تشعّ منّي (كما تخيّلت) هالة من الصمت، حين أتى صبي هندي يحمل لي رسالة بأن أحضر إلى مكتب سيفا على الفور. سيفا هي كلمة سنسكريتية تعني الممارسة الروحية للخدمة الذاتية (كحفّ أرض المعبد، مثلاً). ومكتب سيفا هو الذي يدير الوظائف الموكلة إلى كلّ من في المعتزل. فتوجّهت إلى هناك وأنا أتساءل عن سبب استدعائي، فسألتني السيّدة اللطيفة الجالسة خلف المكتب: "هل أنت إليزابيث غيلبرت؟".

ابتسمت لها بدفء وتقوى وهززت برأسي. بصمت.

فأخبرتني بأنّ عملي قد تغيّر. وأنّني، بناء على طلب خاصّ من المدير، لم أعد أنتمي إلى فريق حفّ الأرض. لديهم وظيفة أخرى لي في المعتزل.

كان اسم وظيفتي الجديدة "مضيفة المفتاح".

64

كانت تلك من دون شكّ مزحة أخرى من مزحات سواميجي.

أردت أن تكوني الفتاة الهادئة في المعتزل؟ حسناً، احزري ماذا خبّأت لك...

لكن هذا ما يحدث دائماً في المعتزل. تتّخذ قرارات خطيرة ومضحكة عمّا تحتاج إلى فعله، أو تحتاج إلى أن تكون عليه، فتأتي الظروف لتكشف لك على الفور بأنّك لا تفهم سوى القليل عن

نفسك. لا أعرف كم مرّة قالها سواميجي في حياته، وكم مرّة كرّرها مرشدتي من بعده.

كان سواميجي يقول إنّه في كلّ يوم يتخلّى المتزهّدون عن شيء جديـــد، ولكنّهم لا يصلون بذلك إلى السلام، بل إلى الإحباط. وكان يعلّـــم دومـــاً أنّ القسوة والتزهّد ليسا ما نحتاج إليه. علينا التخلّي عن شـــيء واحد، ألا وهو إحساسنا بالانفصال عن الله. وفي ما عدا ذلك، ابقَ كما أنت، بشخصيّتك الطبيعية.

مـــا هـــي شخصيّتي الطبيعية إذاً؟ أحبّ الدراسة في هذا المعتزل، وأحلـــم بمعرفة الله وأنا أتنقّل في المكان بصمت بابتسامة لطيفة؛ من هو هذا الشخص؟ إنّه على الأرجح شخصية تلفزيونية. في الحقيقة، يحزنني قلـــيلاً الإقرار أنّني لن أكون أبداً تلك الشخصية. فلطالما أعجبت بتلك الأرواح الرقيقة الشبيهة بالأطياف. لطالما أردت أن أكون الفتاة الهادئة، وربّمـــا كان ذلك بالتحديد لأنّني لست كذلك. ولهذا السبب نفسه، أعتقد أنّ الشعر الغزير الأسود جميل جداً؛ لأنّني لا أملك شعراً كهذا، ولا أســـتطيع أن أملكـــه. ولكن في مرحلة معيّنة، عليك أن تتقبل ما أُعطـــيت إياه. فلو أراد الله أن أكون فتاة هادئة ذات شعر غزير أسود، لجعلـــني كذلك. قد يكون من المفيد إذاً أن أقبل ما أنا عليه وأن أندمج فيه تماماً.

أو كمـــا قال سيكستوس، الفيلسوف البيتاغوري القديم: "الرجل الحكيم الذي لا يشبه إلاّ نفسه".

ولا يعـــني ذلك أنّني لا أستطيع أن أكون متعبّدة، ولا يعني ذلك أنّـــني لا أســـتطيع أن أخدم الإنسانية وأحسّن نفسي ككائن بشريّ، فأشحذ فضائلي وأعمل يوميًّا على تقليص عيوبـــي. مثلاً، صحيح أنّني لـــن أكون زهرة منثورة، ولكن هذا لا يعني أنّني لا أستطيع أن أفحص

بجديـــة عاداتي في التكلّم وتغيير بعضها نحو الأحسن؛ فأعمل من داخل شخـــصيّتي. صحيح أنّني أحبّ الكلام، ولكن لا يفترض بـــي ربّما أن أكثـــر من الشتائم وأن أضحك بشكل رخيص أو أن أتحدّث باستمرار عن نفسي. وربّما يمكنني التوقّف عن مقاطعة الآخرين وهم يتحدّثون؛ هذا مفهوم جذري. لأنّني مهما كنت متسامحة في هذه العادة، لا يمكن رؤيـــتها إلاّ على هذا النحو: "أعتقد بأنّ ما أقوله أهمّ ممّا تقوله". وهذا يعني ببساطة: "أنا أهمّ منك". وينبغي عليَّ أن أضع حدًّا لذلك.

مـــن المفـــيد إحداث جميع تلك التغييرات. ولكن حتى مع ذلك، وعلـــى الرغم من التغييرات المنطقية لعاداتي في الحديث، لن أكون أبداً تلك الفتاة الهادئة، مهما كانت الصورة جميلة ومهما حاولت. لأنّ المرأة في مركـــز سيفا قالت لي حين أوكلت إليَّ مهمّتي الجديدة: "لدينا لقب خاص لهذا المنصب، كما تعلمين. نحن نسمّيه "قشدة الصغيرة سوزي" لأنّ مـــن يقوم بهذا العمل ينبغي أن يكون اجتماعيًّا وكثير الكلام وأن يبتسم طيلة الوقت".

ماذا يمكنني أن أقول.

اكتفيت بمصافحتها وودّعت بصمت أوهامي السابقة وأنا أقول: "سيدتي، أنا في خدمتك".

65

مـــا سأستـــضيفه تحديداً هو سلسلة من الخلوات التي ستُعقد في المعتـــزل هـــذا الربيع. خلال كلّ خلوة، سيحضر مئات المتعبّدين لمدّة أســـبوع إلى عـــشرة أيام لتعميق ممارستهم التأمّلية. ويقوم دوري على العـــناية بأولئك الأشخاص خلال إقامتهم هنا. سيكون المشاركون في

معظم الخلوات في حالة صمت. وبالنسبة إلى معظمهم، ستكون المرّة الأولى التي يلتزمون فيها بالصمت كممارسة تعبّدية، ومن شأن ذلك أن يكون صعباً. بيد أنّني الشخص الوحيد في المعتزل الذي سيسمح لهم بالتحدّث إليه إن طرأ خطب ما.

هذا صحيح، عملي يفرض عليَّ رسمياً أن أكون كثيرة الكلام. عليَّ الإصغاء لمشاكل المشاركين ومحاولة إيجاد الحلول لهم. ربّما رغبوا بتغيير زملائهم في السكن بسبب مشكلة شخير مثلاً، أو أرادوا استشارة الطبيب في مشكلة هضمية شائعة في الهند، وهنا أحاول مساعدتهم. أحتاج في سبيل ذلك إلى معرفة أسماء الجميع، والأماكن التي أتوا منها، وسأسير وأنا أحمل دفتراً أدوّن عليه الملاحظات وأتابع جميع المشاركين.

مع بدء المعتزَلات، بدا واضحاً كم أنا مناسبة لهذه الوظيفة. فأنا أجلس هناك على طاولة الاستقبال مع شارة كتب عليها "مرحباً، اسمي..." ويتوافد الناس من ثلاثين دولة مختلفة، بعضهم سبق له المجيء وكثير منهم لم تطأ أقدامهم الهند من قبل. كانت الحرارة قد بلغت المئة درجة فهرنهايت عند العاشرة صباحاً ومعظمهم قضى الليل في العربة. وبدا بعض الوافدين وكأنّهم استيقظوا للتوّ في صندوق إحدى السيارات، ولا يملكون أيّ فكرة عمّا أتى بهم إلى هنا. مهما كان الدافع الذي حدا بهم إلى الانتساب إلى هذا المعتزل قويا، فقد نسوه منذ وقت طويل، ربّما حين ضاعت حقائبهم في كوالالمبور. كانوا يشعرون بالعطش ولا يعلمون ما إذا كان بإمكانهم شرب الماء. كما كانوا جياعاً ولا يعلمون متى وقت الغداء ولا مكان الكافيتيريا. كانوا يرتدون ملابس صناعية وغير مناسبة إطلاقاً وأحذية ثقيلة في تلك الحرارة الاستوائية. ولا يعلمون أيضاً ما إذا كان ثمّة من يتكلّم الروسية.

يمكنني أن أتكلّم الروسية قليلاً...

يمكنني مساعدتهم. فأنا مجهّزة لذلك. جميع المستشعرات التي طوّرتها خلال حياتي لقراءة أحاسيس الناس، كلّ الحدس الذي نما معي منذ أن كنت طفلة شديدة الحساسية، جميع مواهبي في الإصغاء التي اكتسبتها في أثناء عملي كنادلة متعاطفة وصحفية تحقيق، كلّ أساليب العناية التي اكتسبتها بعد سنوات من كوني زوجة أو صديقة شخص ما، كلّها تراكمت لكي أوفّر الراحة لهؤلاء الناس خلال تأديتهم المهمة الصعبة التي اختاروها. أراهم قادمين من المكسيك والفليبين وأفريقيا والدانمارك وديترويت وأتذكّر ذاك المشهد من فيلم Close Encounters of the 3rd Kind وفيه يُدفع ريتشارد دريفوس وجميع السعاة الآخرين إلى وسط يومينغ لأسباب لم يفهموها إطلاقاً، يشدّهم وصول السفينة الفضائية. في الواقع، شجاعتهم تثير إعجابي. فقد ترك هؤلاء الناس عائلاتهم وحياتهم خلفهم لبضعة أسابيع وذهبوا لممارسة الصمت بين مجموعة من الغرباء في الهند. لا يفعل الجميع ذلك في حياتهم.

أحببتهم جميعاً على الفور. حتى إنّني أحببت المزعجين بينهم. استطعت أن أفهم عصبيتهم وأن أدرك أنّهم مذعورون وحسب ممّا سيحدث حين يدخلون في الصمت والتأمّل لسبعة أيام. أحببت الرجل الهندي الذي أتاني حانقاً ليخبرني أنّ لديه في غرفته تمثالاً بطول عشرة سنتمترات لغانيش وقد فقد إحدى قدميه. كان غاضباً على اعتبار أنّه نذير شؤم فظيع حسب اعتقاده وأراد أن تتمّ إزالة ذاك التمثال، ويستحسن أن يقوم بذلك كاهن براهماتي، خلال مراسم تنظيف تقليدية مناسبة. فهدّأته وأصغيت إلى شكواه، ثمّ أرسلت الصبية تولسي إلى غرفته للتخلّص من التمثال في أثناء تناوله وجبة الغداء. في اليوم التالي، أعطيته رسالة تقول إنّني آمل أن يكون بحال أفضل بعد أن تمّت إزالة

التمثال المكسور وتذكّره أنّني جاهزة للمساعدة إن احتاج إلى أي شيء آخر. فشكرني بابتسامة عريضة مرتاحة. كان خائفاً وحسب. وكذلك المرأة الفرنسية التي كانت على وشك الإصابة بنوبة ذعر، كانت خائفة هي أيضاً. والرجل الأرجنتيني الذي أراد إجراء اجتماع خاص مع فريق قسم الهاذا يوغا بكامله لاستشارتهم حول أفضل طريقة للجلوس في أثناء التأمّل لكي لا يشعر بألم في كاحله، كان خائفاً وحسب. كانوا جميعهم خائفين. فهم سيدخلون في الصمت، عميقاً في عقولهم وأرواحهم. حتى بالنسبة إلى المتأمّل المتمرّس، تبقى هذه الأرض مجهولة. فمن شأن أيّ شيء أن يحدث هناك. ومع أنّ مرشدتهم خلال هذه الخلوة ستكون ناسكة رائعة في العقد الخامس من عمرها، فكلّ حركة وكلمة تصدر عنها هي تجسيد للتعاطف، إلاّ أنّهم لا زالوا خائفين، لأنّها مهما كانت محبّة، لن تتمكن من مرافقتهم إلى حيث يذهبون. لا يمكن لأحد مرافقتهم.

مع بدء الخلوة، وصلتني رسالة من صديق لي في أميركا، هو مخرج أفلام عن الحياة البرية لمحطة ناشيونال جيوغرافيك. أخبرني فيها أنّه كان في حفل عشاء في نيويورك أقيم على شرف أعضاء نادي المستكشفين. وقال إنّه من المثير لقاء أشخاص يتمتعون بتلك الشجاعة، جميعهم خاطروا بحياتهم عدة مرات لاكتشاف الأماكن النائية والخطرة في العالم، من سلاسل جبال ووديان وأنهار حتى أعماق المحيطات والحقول الجليدية والبراكين. وقال إن كثيراً منهم فقدوا أجزاءً صغيرة من أجسادهم: أصابع وأنوف خسروها على مرّ السنوات في مواجهات مع أسماك القرش والجليد وغيرها من المخاطر.

كتب قائلاً: "لم يسبق لك أن رأيت هذا العدد من الأشخاص الشجعان مجتمعين في مكان واحد في الوقت نفسه".

فقلت لنفسي، *أنت لم ترَ شيئاً، مايك.*

66

كـــان عنوان الخلوة وهدفها هو حالة توريا (*turiya*)، المستوى الـــرابع للوعـــي البشري. فاستناداً إلى اليوغانيين، معظمنا يتنقّل خلال التجـــربة البشرية النموذجية بين ثلاثة مستويات مختلفة للوعي: اليقظة، الحلم أو النوم بلا أحلام. ولكن ثمّة مستوى رابع للوعي، وهو الشاهد على جميع الحالات الأخرى، إنّه الإدراك الكامل الذي يربط المستويات الأخـــرى ببعضها. إنّه الوعي الصافي، إدراك ذكي يمكنه مثلاً أن يخبرك بأحلامـــك حين تستيقظ في الصباح. فأنت كنت غائباً، نائماً، ولكنّ أحـــداً ما كان يراقب أحلامك وأنت نائم، من كان ذاك الشاهد؟ هذا الوعـــي والإحـــساس المتواصل لا يمكن أن يحدث سوى على المستوى الرابع للوعي البشري، الذي يسمّى *توريا*.

كـــيف تعـــرف إن كنت قد بلغت حالة *التوريا* أم لا؟ ينبغي أن تكـــون في حالـــة من السعادة المستمرة. فمن يعيش في حالة *التوريا* لا يتأثّـــر بتقلّبات مزاج العقل ولا يخيفه الوقت أو تؤذيه الخسارة. "نقيّ، نظيف، خالٍ، هادئ، لا يتنفّس، غير أناني، لا متناه، لا يفسد، ثابت، أبـــدي، مـــستقلّ، إنّه يسكن في عظمته الخاصة ". كما يقول الكتاب اليوغاني القديم اليوبانيشاد، وهو يصف من بلغ حالة *التوريا*. فالمعلمون الـــروحانيون العظماء عبر التاريخ كانوا يعيشون في حالة *التوريا* طيلة الـــوقت. أمّـــا بالنسبة إلى بقية البشر، فمعظمنا بلغناها أيضاً، وإن في لحظـــات عابـــرة. كمـــا أنّ معظمنا انتابه في وقت من الأوقات، وإن لدقيقتين في حياته فقط، إحساس عابر ولا مبرر له بالسعادة الكاملة، لا يرتبط أبداً بما يحدث في العالم الخارجي. ففي لحظة تكون إنساناً عاديًّا تكـــافح عبر حياتك الدنيوية، ثمّ فجأة، ومع أنّ شيئاً لم يتغيّر، إلاّ أنّك

تشعر بالسعادة الغامرة وبأنّ كلّ ما يحيط بك رائع، من دون أيّ سبب كان.

بالطبع، تمرّ هذه الحالة على معظمنا بسرعة خاطفة. وكأنّ كمالَك الداخلي يظهر لك قليلاً لمضايقتك لتعود بعدها إلى *الواقع* بسرعة وتهوي فوق جميع همومك ورغباتك القديمة مجدّداً. وقد حاول الناس عبر العصور التمسّك بشعور الكمال ذاك بواسطة وسائل خارجية، من مخدرات وجنس وسلطة وأدرينالين وجمع الأشياء الجميلة، ولكنّها لا تدوم. فنحن نبحث عن السعادة في كلّ مكان، ولكنّنا مثل متسوّل تولستوي الذي قضى حياته جالساً على قدر من الذهب، يستجدي القروش من المارة، غير مدرك بأنّ ثروته كانت تحته طيلة الوقت. فكنزك - كمالك - هو بداخلك أساساً. ولكن لكي تحصل عليه، ينبغي عليك أن تترك ثورة العقل المشغول دوماً وتتخلى عن رغبات الذات لتدخل في صمت القلب. *والكونداليني شاكتي* هي التي تأخذك إلى هناك.

هذا هو السبب الذي دفع الكل إلى المجيء إلى هنا.

حين كتبت هذه الجملة أساساً عنيت بها: "هذا هو السبب الذي دفع مئة مشارك في الخلوة من جميع أنحاء العالم إلى المجيء إلى هذا المعتزل في الهند". ولكن اليوغانيين والفلاسفة كانوا ليوافقوني على التعبير الضيق الذي اختصرتها فيه. فبالنسبة إلى الصوفيين، البحث عن السعادة هو هدف الحياة البشرية. لهذا السبب اخترنا أن نولد، وهذا السبب هو الذي يجعل عذاب وآلام الحياة تستحقّ الاحتمال، لمجرّد فرصة الشعور بهذا الحبّ اللانهائي. وحين تعثر على هذه الحالة في داخلك، أيمكنك أن تتمسّك بها؟ لأنّك إن فعلت... تكون قد وجدت السعادة.

أمضيت فترة المعتزل بكاملها في الجزء الخلفي من المعبد، أراقب المشاركين خلال إقامتهم في هذا المكان نصف المظلم والغارق في الصمت التام. إذ يقوم عملي على الاهتمام براحتهم وحلّ مشاكلهم وتأمين احتياجاتهم. فقد نذروا الصمت خلال فترة الخلوة وكنت أشعر بهم وهم يهبطون أعمق في ذاك الصمت إلى أن أصبح المعتزل بكامله مشبَعا بسكونهم. واحتراماً للمشاركين، كنا نسير على رؤوس أصابعنا ونتناول طعامنا بصمت. فالأحاديث اختفت. حتى أنا كنت هادئة.

في أثناء انغماس تلك الأرواح في التأمّل، لم أكن أعرف ما يفكّرون فيه أو يشعرون به، ولكنني أعرف ما يودّون الشعور به. وكنت أدعو باستمرار لأجلهم، وأطلب أشياء غريبة مثل، *أرجوك امنح هؤلاء الأشخاص الرائعين أي نعَم احتفظت بها لأجلي*. فأنا لا أنوي ممارسة التأمّل الآن، بل يفترض بي الاهتمام بالمشاركين لا التفكير في رحلتي الروحانية. بيد أنني أجد نفسي أرتفع كلّ يوم على أمواج نيتهم التعبدية الجماعية، تماماً كما تركب بعض الطيور الأمواج الحرارية التي تخرج من الأرض لترتفع في الهواء أعلى ممّا كان لها أن تفعل بمفردها. فبعد ظهيرة أحد أيام الخميس، كنت جالسة في الجزء الخلفي للمعبد، أقوم بواجباتي كالعادة حين شعرت فجأة بأنني حُمِلت عبر بوابة الكون.

67

بصفتي قارئة وساعية، أشعر دوماً بالإحباط وأنا أقرأ المذكّرات الروحية لشخص آخر. فغالباً ما تصادف تعبيراً لا يوصف، ما يثير الجنون عند وصف الحدث. وحتى أكثرهم فصاحة في التعبير عن

التجـــربة الروحانية لم يرضوني. فقد اعتاد الغورو الهندي المحبوب سري رامانا ماهارشي التحدّث طويلاً عن تجربته الروحانية لتلامذته، ليختمها قائلاً: "والآن اذهبوا واكتشفوا بأنفسكم".

وها قد اكتشفت بنفسي الآن. ولا أريد القول إنّ ما حدث معي بعـــد ظهيرة ذاك اليوم في الهند كان يفوق الوصف، مع أنّه كذلك. بل ســـأحاول أن أشـــرحه بأيّ حال. ببساطة، شعرت بأنّني دُفعت عبر الفجـــوة الدوديـــة للمطلق، وفهمت فجأة في أثناء ذلك طريقة عمل الكـــون تمامـــاً. غادرت جسدي، غادرت الغرفة، غادرت الكوكب، عـــبرت الزمن ودخلت الفراغ. كنت داخل الفراغ، وكنت أنا الفراغ وأنظـــر إلى الفراغ في آن. كان الفراغ عبارة عن مكان غير محدود من السلام والحكمة. كان واعياً وذكيًّا.

مـــا شـــعرت به لم يكن هلوسة، بل حدث أساسيّ. نعم. كان أعمق حب شعرت به على الإطلاق يفوق كلّ ما تخيلته ولكنّه لم يكن مـــثيراً. لم يكن قد تبقّى لديَّ بقيّة من الذات أو الشغف لتوليد الإثارة. كـــان واضحاً وحسب. تماماً كما يحدث حين تحدق إلى خدعة بصرية لمـــدة طويلة محاولاً اكتشاف ما تنطوي عليه، وفجأة تتمكن من رؤيتها بوضوح! الوعاءين ليسا سوى وجهين. ومتى انكشفت لك، فلا يمكنك ألاّ تراها مجدداً...

...

لا يمكـــن وصف المكان الذي كنت أقف فيه بأنّه موقع أرضيّ. فهـــو لم يكن لا مظلماً ولا مضيئاً، ولا كبيراً ولا صغيراً. في الواقع، لم يكن مكاناً، ولم أكن أقف فيه، كما أنّني لم أكن *أنا* بالضبط. ما زالت لـــديَّ أفكاري، ولكنّها كانت متواضعة جداً، هادئة ومراقِبة. لم أكن أشـــعر بالتعاطف والانسجام مع كلّ شيء وكل شخص وحسب، بل

كـــان ثمّة شيء من الغرابة والمتعة في التساؤل كيف يمكن لأيّ شخص أن يـــشعر بـــشيء آخـــر غير هذا. كما شعرت بشيء من السحر في أفكاري القديمة حول من أكون وما أنا عليه. *أنا امرأة، أميركية، كثيرة الكـــلام، كاتبة*، كلّ هذا بدا لطيفاً وبعيداً. تخيّل بأنّك تحشر نفسك في علبة هوية تافهة حين يمكنك عوضاً عن ذلك الشعور بلا تناهيك.

تـــساءلت: "لماذا كنت أطارد سعادتي كلّ حياتي فيما النعيم هنا طيلة الوقت؟".

لا أعرف كم بقيت أحوم في أثير الاتحاد الرائع هذا قبل أن تخطر لي فكرة مفاجئة: "أريد البقاء هكذا إلى الأبد!" وهنا بدأت أخرج منه. مجـــرّد كلمة صغيرة - أريد! - وبدأت أنزلق مجدّداً إلى الأرض. ثمّ بدأ عقلـــي يعتـــرض بـــشدّة - *كلاّ! لا أريد الرحيل عن هذا المكان!* - وانزلقت أكثر.

أريد!

لا أريد!

أريد!

لا أريد!

كلّمـــا كـــرّرت تلك الأفكار اليائسة، شعرت بأنّني أسقط عبر طـــبقات الوهم. كان هذا التوق يعيدني إلى حدودي الدنيوية الصغيرة وعالمـــي المحـــدود. رحت أراقب ذاتي وهي تعود كما تشاهد صورة بولارويد وهي تظهر، وتصبح أوضح لحظة بعد أخرى - ها هو الوجه، تلـــك هـــي الخطـــوط المحيطة بالفم، وبالحاجبين - الآن انتهت: هذه صـــورتي القديمـــة العادية. شعرت برعشة ذعر وبشيء من الحزن لأنّني فقـــدت تلك التجربة. ولكن إلى جانب هذا الذعر، أحسست بوجود شـــاهدة، هـــي أنا ولكن بشكل أكثر حكمة وأكبر سنًّا، اكتفت بهزّ

رأسها مبتسمة وهي تعرف التالي: إن اعتقدت بأنّ حالة النعيم هذه يمكن أن تسلب منّي، فمن الواضح أنّني لم أفهمها بعد. بالتالي، أنا لست جاهزة بعد للسكن فيها تماماً، بل عليَّ ممارستها أكثر.

...

68

انتهت الخلوة بعد يومين، وخرج الجميع عن صمتهم. وشكرني كثيرون على مساعدتي لهم.

فكنت أجيب: "كلا! الشكر لكم"، عاجزةً عن التعبير عن امتناني الكبير لأنّهم حملوني إلى هذا العلوّ الشاهق.

وصل مئة ساعٍ جديد بعد أسبوع لخلوة أخرى، وتكرّرت التعاليم والمحاولات الشُجاعة والصمت المتعاطف، مع أرواحٍ مشارِكة جديدة. قمت بمراقبتهم أيضاً وحاولت مساعدتهم وانزلقت إلى *التوريا* عدة مرات معهم هم أيضاً. واكتفيت بالضحك حين خرج كثير منهم من تأملاتهم لإخباري أنّني بدوت لهم خلال المعتزل مثل وجود *أثيري صامت يتنقّل انزلاقاً*. إذاً تلك هي مزحة المعتزل الأخيرة معي؟ ما إن توصّلت إلى تقبّل طبيعتي الصاخبة، الثرثارة، الاجتماعية واكتشاف مضيفة المفتاح الكاملة بداخلي؛ عندها فقط أصبحت *الفتاة الهادئة في الجزء الخلفي من المعبد*؟

خلال الأسابيع الأخيرة لي هنا، كان جوّ المعتزل مشبعاً بالكآبة التي تسود آخر أيام المخيّم الصيفي. فمع كلّ صباح، بدا بأنّ مزيداً من الأشخاص يستقلّون الباص ويرحلون مع حقائبهم، من دون أيّ قادمين جدد. كان شهر آيّار على الأبواب، معلناً بداية فصل الحرّ في الهند، ما

يعني أنّ الحركة ستكون أكثر بطئاً هنا لمدّة من الزمن. لن يكون ثمّة خلوات أخرى، لذا تمّ تغيير وظيفتي مجدّداً. فعيّنت في مكتب التسجيل، وكنت مسؤولة عن العمل الحلو المرّ المتمثّل في *ترحيل* أصدقائي عن الكمبيوتر بعد مغادرهم المعتزل.

تشاركت المكتب مع مصفّف شعر سابق من شارع ماديسون.

أصبح لديَّ وقت طويل لي وحدي. فأنا أمضي أربع إلى خمس ساعات كلّ يوم في كهوف التأمّل. أجلس برفقتي لأربع ساعات متواصلة، مرتاحة بحضوري، من دون أن يزعجني وجودي على الكوكب. في بعض الأحيان، تكون تأمّلاتي سريالية، عبارة عن تجارب جسدية للشاكتي. وكنت أحاول الاستسلام لها بأقلّ مقاومة ممكنة. وفي أحيان أخرى، كنت أشعر برضًى هادئ ولطيف، وهذا جيّد أيضاً. ما زالت الجمل تتكوّن في رأسي وما زالت الأفكار تتراقص أحياناً أمامي، ولكنّني أصبحت أعرف أفكاري جيّداً و لم تعد تزعجني. فقد أصبحت أفكاري أشبه بجيران قدامى، مزعجين ولكنّهم أصبحوا عزيزين. فثمة متّسع لنا جميعاً في هذا الجوار.

أمّا بالنسبة إلى التغييرات الأخرى التي طرأت عليَّ خلال هذه الأشهر القليلة الأخيرة، ما زلت غير قادرة على الشعور بها. فاستناداً إلى أصدقائي الذين درسوا اليوغا لوقت طويل، لا يمكن رؤية تأثير المعتزل على المرء فعلاً إلاّ بعد أن يغادر المكان ويعود إلى حياته الطبيعية. *عندها فقط، تبدأين بالملاحظة كيف أعيد ترتيب خزائنك الداخلية*، بحسب الراهبة السابقة الآتية من جنوب أفريقيا. بالطبع، لم أكن واثقة في تلك اللحظة كيف هي حياتي الطبيعية. أعني، أنا على وشك الانتقال للعيش مع عرّاف عجوز في إندونيسيا - أهذه حياة طبيعية؟ ربّما، من يعلم؟ على أي حال، يقول أصدقائي بأنّ التغييرات لا تحدث إلاّ لاحقاً. فقد

يشعر المرء بأنّ الهواجس التي رافقته طيلة حياته قد زالت أو أنّ النماذج الكـــريهة قد تغيرت أخيراً. فمصادر الإزعاج الصغيرة التي كانت تثير جـــنونك لم تعد بمشكلة فيما أنّ الأحزان التي كنت تتحمّلها من باب العـــادة لم تعد مسموحة الآن وإن لدقائق. كما تتخلّص من العلاقات السامّة ويبدأ أشخاص أكثر إشراقاً وفائدة بدخول حياتك.

لم أتمكّـــن من النوم في الليلة الفائتة. ليس بسبب القلق بل اللهفة. فارتـــديت ملابسي، وخرجت للتنـــزّه في الحدائق. كان القمر بدراً، يـــشعّ فوقي، وينشر نوره الماسيّ من حولي. وكان الهواء عابقاً برائحة الـــياسمين، فضلاً عن العطر الذي يدير الرأس المنبعث من الأجمة المزهرة الـــتي تنبت هنا والتي لا تتفتّح سوى ليلاً. كان النهار رطباً وحارًّا، و لم يكـــن الجـــوّ الآن سوى أقلّ حرارة بقليل. تحرّك الهواء الدافئ حولي، وأدركت الفكرة التالية: "أنا في الهند!".

أنا أرتدي صندلي وأنا في الهند!

رحت أركض، ابتعدت عن الطريق وشققت طريقي بين أعشاب المـــرج التي ينيرها ضوء القمر. شعرت بأنّ جسدي يضجّ حياة وصحّة بعـــد تلك الأشهر من اليوغا والطعام النباتي والنوم المبكر. كان صوت صندلي وهو يدوس العشب النديّ الناعم هو الصوت الوحيد المسموع في الوادي بأكمله. شعرت بالجذل، فركضت مباشرة إلى مجموعة شجر الأوكاليبـــتوس وســـط الحديقـــة (حيث يقال إنّه كان ثمّة معبد قديم لغانيش، مزيل العقبات)، وأحطت إحدى الأشجار بذراعي، وكانت لا تـــزال دافـــئة بفعـــل حرارة النهار، ثمّ قبّلتها بشغف. أعني أنّني قبّلت الشجرة من أعماق قلبـــي من دون أن يخطر لي في تلك اللحظة أنّ هذا أسوأ كابوس لكلّ أميركي هربت ابنته إلى الهند للبحث عن نفسها، أن تنتهي في وضع مشبوه مع الأشجار تحت ضوء القمر.

لكــنّ الحــب الذي كنت أشعر به كان طاهراً. شملت بنظري الــوادي المعــتم ورأيــت الخالق في كلّ شيء. شعرت بسعادة عميقة ورهيــبة. قلــت لنفسي: "مهما كان هذا الشعور، هذا ما كنت أدعو لأجله. وهذا أيضاً من كنت أدعوه".

69

للمناسبة، وجدت كلمتي.

وجدها في المكتبة بالطبع، مكاني المفضّل. فقد كنت أتساءل عن كلمــتي منذ ذلك اليوم في روما حين أخبرني صديقي جوليو أنّ كلمة رومــا هي الجنس، وسألني عن كلمتي فلم أجد جواباً. ولكن تصوّرت أنّني سأعثر عليها لاحقاً وسأعرفها حين أراها.

لقد رأيتها في الأسبوع الأخير لي في المعتزل. كنت أقرأ نصاً قديماً عــن اليوغا، حين وجدت وصفاً لسعاة روحانيين قدماء. فقد وقعت علــى كلمة سنسكريتية في الفقرة: أنتيفازين (ANTEVASIN). أي: *الــذي يعــيش على الحدود*. ففي العصور القديمة، كان هذا الوصف حــرفيًّا بمعناه، ويشير إلى الشخص الذي يترك الحياة الدنيوية ليعيش في طــرف الغابــة حــيث يقطن المعلّمون الروحانيون. هكذا، لا يعود الأنتــيفازين واحداً من القرويين، سيد عائلة يعيش حياته التقليدية، ولا هو واحد من أولئك الحكماء المتنوّرين الذين يعيشون في أعماق الغابة، بــل ما بين بين. يقيم على الحدود. يعيش في مكان يطلّ على العالَمين، ولكنّه ينظر نحو المجهول. وكان تلميذاً.

شــعرت بالإثارة وأنا أقرأ هذا الوصف للأنتيفازين، وتحمّست وكــأنّني تعرّفت عليه. تلك هي كلمتي! بالطبع في العصر الحديث،

الغابة والحدود ليسا سوى صورة مجازية. مع ذلك، يمكنك أن تعيش فيها. يمكنك العيش على هذا الخطّ الفاصل بين تفكيرك القديم وفهمك الجديد، في حالة تعلّم دائم. وتلك الحدود تتحرّك دوماً وأنت تتقدّم في دراستك وإدراكك، وتبقى تلك الغابة المجهولة على بعد خطوات منك، تسافر نحوها خفيفاً لكي تتمكّن من اللحاق بها. عليك أن تبقى متحرّكاً، ليناً، لا بل حتى زلقاً. وهذا مضحك، لأنّ صديقي الشاعر السبّاك القادم من نيوزيلندا غادر المعتزل البارحة، وفي أثناء خروجه أعطاني قصيدة صغيرة لطيفة عن رحلتي. تذكّرت منها هذا المقطع:

إليزابيث، ما بين بين
جمال إيطاليا وأحلام بالي،
إليزابيث، ما بين بين
زلقة أحياناً كالسمكة...

أمضيت وقتاً طويلاً في السنوات الأخيرة أتساءل ماذا يفترض بي أن أكون. زوجة؟ أمًّا؟ عشيقة؟ عازبة؟ إيطالية؟ نَهِمة؟ مسافرة؟ فنانة؟ يوغانية؟ ولكنّني لست أيًّا منهنّ، على الأقل ليس تماماً. كما أنّني لست العمّة ليز المجنونة. أنا مجرّد أنتيفازين زلِقة - ما بين بين - تلميذة على الحدود المتغيّرة أبداً للغابة الجديدة الرائعة والمخيفة.

70

غالباً ما تنشأ الطقوس الدينية من التجربة الصوفية. إذ يخرج أحد المستكشفين الشجعان للبحث عن طريق جديد، فيعيش تجربة تجاوزية ثم يعود. فيعمد الآخرون إلى تكرار كلمات أو أعمال أو صلوات أو

أفعـــال ذاك المستكـــشف للعـــبور هم أيضاً. وينجح الأمر في بعض الأحـــيان، إذ من شأن المزيج المألوف نفسه من الكلمات والممارسات التعـــبّدية، أن يحمل أناساً كثيرين إلى الضفّة الأخرى. غير أنّه لا يعطي النتيجة المرجوّة دائماً. فلا بدّ حتى لأكثر الأفكار حداثة من أن تتصلّب وتتحوّل إلى عقيدة أو تخسر مفعولها مع الجميع.

لدى الهنود قصّة معبّرة عن شخص عظيم كان محاطاً دوماً في معتزله بالأتباع المخلصين. وكان وأتباعه يمضون ساعات كلّ يوم في الـــتأمّل. ولكن كان ثمّة مشكلة وحيدة، فلدى ذلك الشخص قطّة صغيرة مزعجة لا تفتأ تتجوّل في المعبد وهي تموء وتزعج الجميع في أثـــناء التأمّل. فأمر بحكمته العملية البالغة، تقييدَ القطة إلى عمود في الخارج لبضع ساعات في اليوم في أثناء جلسة التأمّل فقط، لكي لا تـــزعج أحداً. فتحوّل الأمر إلى عادة؛ تقييد القطّة ومن ثمّ التأمّل. ولكن مع مرور السنوات، تحجّرت العادة وتحوّلت إلى طقس ديني. فلم يعد بإمكان أحد أن يتأمّل من دون ربط القطّة إلى العمود أوّلاً. في أحد الأيام، ماتت القطّة. فأصيب الأتباع بالذعر وعانوا من أزمة خطيرة. كيف لهم أن يمارسوا التأمّل الآن، من دون قطّة يربطونها إلى العمـــود؟ كيف سيصلون إلى...؟ في عقولهم، أصبحت القطّة هي الوسيلة.

تحذّر هذه القصّة من الانشغال كثيراً بتكرار الطقس الديني لأجله وحـــسب. ففـــي هذا العالم المنقسم الذي تتواصل فيه الحرب العالميةُ الطابع بين طالبان والتحالف المسيحي... من المفيد أن نتذكّر بأنّ ربط القطـــة إلى العمود ليس السبب الذي ساعد أيًّا كان على الاتّصال...، بل هي الرغبة الدائمة للساعي بالشعور بالحب الأبدي. والمرونة لا تقلّ أهمية عن الالتزام وضبط النفس في هذا المجال.

فواجبك إذاً، إن اخترت القبول به، هو الاستمرار بالبحث عن الصور المجازية والطقوس والمعلّمين لمساعدتك على التقرّب أكثر. وتقول الكتب اليوغانية إن الصلوات وجهود البشر تستجاب *بأيّ طريقة* يختارها البشر للعبادة، ما دامت تلك الصلوات صادقة. واستناداً إلى ما ورد في اليوبانيشاد: "يتبع الناس وسائل مختلفة، إمّا مستقيمة أو ملتوية، بحسب مزاجهم وما يرونه الأفضل أو الأصحّ، وجميعها تنتهي إليك، مثلما تصبّ الأنهار في المحيط".

الهدف الثاني هو بالطبع محاولة إيجاد معنًى للفوضى التي تسود العالم وشرح كلّ الأمور الغريبة التي نراها حولنا كلّ يوم: الأبرياء المعذّبون، الأشرار الذين ينعمون بالسعادة، ما سبب ذلك؟ بالنسبة إلى التقاليد الغربية، *الكلّ يلقى جزاءه بعد الموت، إمّا في الجنة أو في النار*. أمّا في الشرق، فيستبعد اليوبانيشاد أيّ محاولة لتفسير الفوضى في هذا العالم. حتى إنهم غير واثقين من وجود فوضى أساساً، بل يعتقدون بأنّ العالم يبدو لنا كذلك بسبب رؤيتنا المحدودة. ولا تَعِدُ تلك النصوص أيًّا كان بالعدالة أو الثأر، مع أنّها تقول بوجود نتيجة لكلّ عمل، وينبغي بالتالي اختيار السلوك على هذا الأساس. مع ذلك، قد لا نرى تلك النتائج قريباً، فلليوغا دوماً نظرة بعيدة الأمد. لا بل يعتقد اليوبانيشاد أنّه قد يكون لتلك الفوضى المزعومة وظيفة...، وبالتالي، يكمن الحلّ الأمثل لمواجهة عالمنا الغامض والخطر في التمسّك بالتوازن *الداخلي*، مهما كان الجنون الذي يفوح منه.

لقد شرح لي شون، صاحب مزرعة الألبان الأيرلندي، الأمر على هذا النحو. "تخيّلي الكون وكأنّه عجلة عظيمة تدور بسرعة. أنت بحاجة إلى البقاء قريباً من المركز، عند محور العجلة، وليس قرب الأطراف التي يحدث فيها الدوران العنيف وإلاّ أصبت بالجنون. ومحور

السكينة هو القلب. توقّفي بالتالي عن البحث عن الأجوبة في العالم وعودي إلى ذاك المركز وستجدين السلام دوماً".

في الواقع، لطالما كانت هذه الفكرة ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلي، على الصعيد الروحي. وقد نجحت معي. ولو وجدت شيئاً أكثر فاعلية منها، سأستعمله على الفور.

لديَّ كثير من الأصدقاء غير المتدينين في نيويورك. لا بل معظمهم كذلك في الواقع. فهم إمّا ابتعدوا عن التعاليم الروحية التي تلقّوها في صغرهم أو أنّهم نشأوا من دون دين على الإطلاق. وبالطبع ذعر بعضهم من الجهود التي أبذلها. ولم يكن ثمّة مهرب من التعليقات الساخرة. هكذا، قال لي صديقي بوب يوماً وهو يحاول إصلاح حاسوبي: "مع احترامي *لهالتك*، ولكنك ما زلت تجهلين كلّ شيء عن تحميل البرامج". دعاباتهم لا تزعجني، بل أجدها مضحكة أنا أيضاً. هي مضحكة من دون شكّ.

ولكنّني أرى لدى بعض أصدقائي وهم يتقدمون في السن توقاً لأن يكون لديهم إيمان بشيء *ما*. ولكنّ هذا التوق يصطدم بحواجز كثيرة، منها عقلهم وحسّهم العام. وعلى الرغم من عقلهم، لا يزال هؤلاء الأشخاص يعيشون في عالم يترنّح في وجه سلسلة من العواصف المدمّرة والجنونية. فالتجارب الرائعة والمريعة للفرح أو العذاب تطرأ في حياة جميع أولئك الأشخاص، كما يحدث معنا بالضبط، وهذه التجارب الهائلة تجعلنا نتوق إلى سياق روحي نعبّر فيه عن حزننا أو امتناننا أو نسعى إلى فهم ما يحدث حولنا. والمشكلة هي ماذا يعبدون ولمن يصلّون.

لديَّ صديق ولد طفله الأوّل بعد وفاة أمّه الحبيبة. وبعد أن توالت عليه خسارة ومعجزة في وقت واحد، شعر بالحاجة إلى مكان يذهب

إلــيه أو شــعيرة يؤديها لكي يتمكّن من اجتياز كلّ تلك الانفعالات المتــضاربة. كان صديقي كاثوليكيّ المنشأ ولكنّه لم يتمكن من هضم فكرة العودة إلى الكنيسة بعد أن كبر. (قال لي: "لم يعد بإمكاني ذلك، ليس بعد أن أصبحت أعرف ما أعرف"). وبالطبع، من المحرج بالنسبة إلــيه أن يصبح هندوسيًّا أو بوذيًّا أو شيئاً من هذا القبيل. فماذا يفعل؟ قال لي: "ليس من المنطقي أن تذهبــي لانتقاء ديانة".

هــو شــعور أحترمه، ولكنّني لا أوافقه عليه إطلاقاً. فبرأيي، لــديك كلّ الحقّ بالانتقاء حين يتعلّق الأمر بتحريك الروح وإيجاد الــسلام. أعتقد أنّ لك حرية البحث عن أيّ صورة مجازية لتعبر بها الحدود الدنيوية كلما احتجت إلى الانتقال أو الراحة. وليس ثمّة ما يدعو للحرج في ذلك. إنّه تاريخ بحث الجنس البشري. ولو لم تتطور البــشرية في بحــثها، لكان كثير منّا ما زالوا يعبدون تماثيل القطط الذهبــية المصرية. وهذا التطوّر للتفكير الديني يشتمل بالفعل على الانتقاء. بحيث تأخذ كلّ ما يساعدك أينما وجدته وتستمرّ بالتحرّك نحو النور.

يعتقد الهنود الهوبيون أنّ كلّ دين من الأديان في العالم يحتوي علــى خيط روحيّ، وأنّ تلك الخيوط تبحث عن بعضها دوماً سعياً إلى الالــتقاء. وحــين تحاك جميعها مع بعضها أخيراً ستشكّل حبلاً يــشدّنا مــن دائــرة هذا التاريخ المظلم إلى العالم التالي. وقد كرّر الدايالاما هذه الفكرة نفسها لاحقاً مؤكّداً لتلاميذه الغربيين أنّهم لا يحتاجون إلى أن يكونوا بوذيّين تيبتيين ليكونوا تلاميذه. فهو لا يمانع إطلاقاً بأن يأخذوا الأفكار التي تعجبهم من البوذية التيبتيّة ويدخلوها في ممارســاتهم الدينية. وحتى في أكثر الأماكن تحفّظاً، يمكنك أحياناً إيجاد هذا الوميض...

لكـــن أليس هذا منطقيًّا؟ أن يكون اللانهائي لانهائياً بالفعل؟ ألاّ يـــتمكّن حـــتى أكثرنا تقوًى سوى من رؤية قطع مبعثرة من الصورة الأبديـــة في أيّ وقـــت مـــن الأوقات؟ وربّما، لو تمكّنا من جمع تلك الأجـــزاء ومقارنـــتها، سنبدأ بالحصول على قصّة تشبه وتشمل جميع البـــشر؟ ألا يملك كلّ منّا الحقّ بعدم التوقّف عن البحث إلى أن نصبح أقـــرب ما يمكن من مصدر تساؤلاتنا؟ حتى لو استدعى الأمر المجيء إلى الهند وتقبيل الأشجار تحت ضوء القمر لمدّة من الزمن؟

تلـــك هـــي أنا في الزاوية، بتعبير آخر. تلك أنا تحت الضوء، أختار دیانتي.

71

ســـأغادر الهـــند في رحلة الرابعة فجراً، ما يعتبر نموذجاً لنمط الحـــياة هناك. قرّرت عدم النوم إطلاقاً تلك الليلة، وقضاء الأمسية بأكملـــها في أحد كهوف التأمّل، أسجد. أنا لا أطيل السهر عادة، ولكنّني رغبت بالبقاء مستيقظة خلال تلك الساعات الأخيرة لي في المعتـــزل. فكثيرة هي الأمور التي بقيت مستيقظة لأجلها طوال الليل خلال حياتي: ممارسة الحبّ، الجدل مع شخص ما، القيادة لمسافات بعيدة، الرقص، البكاء، القلق (وفي بعض الأحيان جميع هذه الأشياء في ليلة واحدة). ولكنّني لم أضحِّ أبداً بالنوم لأجل السجود وحسب. فلِمَ لا أفعل الآن؟

حـــزمت حقيـــبتي ووضـــعتها عند بوابة المعبد لأكون جاهزة للـــرحيل فور وصول سيارة الأجرة، قبل طلوع الفجر. ثمّ صعدت الـــتلّة، ودخلـــت كهف التأمّل وجلست. كنت بمفردي، ولكنّني

جلست في مكان أستطيع فيه رؤية صورة كبيرة لسواميجي، معلّم مرشدتي ومؤسّس هذا المعتزل، الأسد الذي غاب منذ وقت طويل ولكنّه لا يزال موجوداً نوعاً ما. أغمضت عينيّ وتركت المانترا تأتي. تسلّقت السلّم في محور السكون الخاصّ بي. وحين وصلت إلى هناك، شعرت بالعالم يتوقّف، تماماً كما أردت حين كنت في التاسعة من عمري، يعتريني الخوف من هروب الوقت. في قلبي، توقّفت عقارب الساعة ولم تعد أوراق الروزنامة تتطاير عن الجدار. جلست متعجّبة بصمت من كلّ ما فهمته. ففعلياً لم أكن أسجد، بل *أصبحت* أنا السجود.

بإمكاني الجلوس هنا طيلة الليل.

في الواقع هذا ما حصل.

لا أعرف ما الذي نبّهني حين حان الوقت لملاقاة السائق، ولكن بعد عدة ساعات من السكون، هزّني شيء ما، وحين نظرت إلى ساعتي، وجدت بأنّ الوقت قد حان للرحيل. عليّ السفر إلى إندونيسيا الآن. كم هذا مضحك وغريب. فوقفت وانحنيت أمام صورة سواميجي؛ السيد، الرائع، الناري. ثمّ دسست قصاصة ورق تحت السجادة، تحت الصورة مباشرة. كانت الورقة تحتوي على قصيدتين كتبتهما خلال إقامتي في الهند. إنّهما أوّل قصيدتين حقيّقتين لي في حياتي، والسبّاك من نيوزيلندا هو الذي شجّعني على تجربة الشعر مرّة؛ وهذا ما حدث. كتبت الأولى بعد شهر واحد من وجودي هنا، أمّا الثانية فكتبتها هذا الصباح.

وبين القصيدتين، عرفت نعماً لا تحصى.

72

قصيدتين من معتزل في الهند.

القصيدة الأولى

كلّ هذا الحديث عن الرحيق والنعيم بدأ يزعجني.
لا أعرف ماذا عنك يا صديقي،
ولكنّ طريقي ليس نسمة بخور عذبة.
إنّه قطة طليقة في قفص حمام،
وأنا القطّة؛ وكذلك الحمام الذي يصرخ بجنون
كلّما أوشك على الهلاك.

طريقي هو انتفاضة عمّالية،
لن يحلّ السلام قبل أن يتوحّدوا.
ثورتهم مخيفة جداً
حتى إنّ الحرس الوطني لن يقترب منهم.

طريقي ضُرب أمامي حتى فقد وعيه،
من قبل رجل أسمر قصير لم أره أبداً،
سعى عبر الهند، ذقنه مغمورة بالوحل،
حافياً، جائعاً، لوّثت الملاريا دمه،
ينام أمام أبواب المنازل، تحت الجسور؛ مشرّداً.
فهو على طريق العودة إلى الوطن
وهو يطاردني الآن قائلاً: "ألم تفهمي بعد يا ليز؟
ما معنى العودة؟ ما معنى الوطن
فعلاً؟".

القصيدة الثانية

ولكن.
لو تركوني أرتدي ثوباً منسوجاً
من العشب النديّ لهذا المكان،
لفعلت.

لو تركوني أعانق
كلّ شجرة أوكاليبتوس في غابة غانيش
أقسم، لفعلت.

لقد رشحت الندى هذه الأيام،
تخلّصت من الحثالة،
حففت ذقني على لحاء الشجر،
معتقدة أنّها ساق معلّمي.

لا يمكنني الذهاب بعيداً كما ينبغي.

لو تركوني آكل تراب هذا المكان
على طبق من أعشاش العصافير،
لأنهيت نصف الطبق،
ونمت على الباقي الليلَ بطوله.

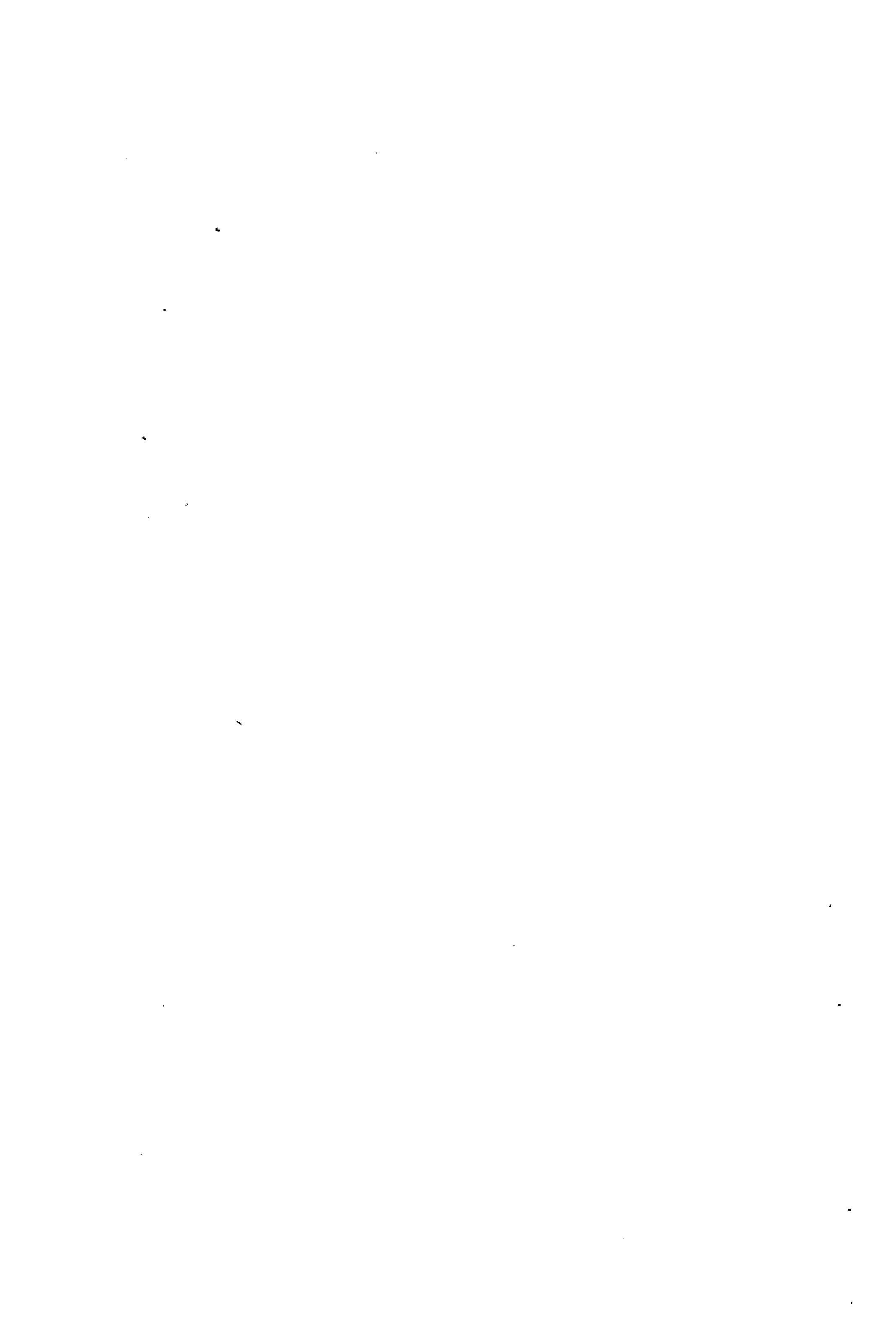
إندونيسيا

أو

"حتى بملابسي الداخلية، أشعر بأنّني مختلفة"

أو

36 حكاية عن السعي إلى التوازن



73

لم يــسبق لي أبداً أن قمت بشيء لم أخطّط له جيّداً كما حدث عـــند وصـــولي إلى بالي. فعبر تاريخي الحافل بالأسفار الطائشة، كانت تلـــك الرحلةَ الأكثرَ طيشاً التي قمت بها في حياتي. لم أكن أعرف أين سأسكن أو ماذا سأفعل، كما كنت أجهل قيمة صرف العملة أو كيفية إيجاد سيارة أجرة في المطار؛ أو حتى إلى أين أطلب من السائق إيصالي. مـــا مـــن أحد كان يتوقع وصولي أساساً. إذ لم يكن لديَّ أصدقاء في إندونيسيا، أو حتى أصدقاء أصدقاء. وتلك هي مشكلة السفر مع دليل ســـياحي عفا عنه الزمن وعدم قراءته أساساً: فأنا لم أكن أدرك أنه لا يـــسمح لي بالإقامـــة في إندونيسيا لأربعة أشهر، حتى لو أردت ذلك. اكتـــشفت الأمر عند دخولي البلاد. وتبيّن لي أنّني أستطيع البقاء لشهر واحـــد بالتأشـــيرة السياحية. لم يخطر في بالي أن الحكومة الإندونيسية ستكون أقل من مسرورة باستضافتي ما طاب لي البقاء.

بيـــنما كان موظف الهجرة يختم جواز سفري بإذن إقامة في بالي لـــثلاثين يوماً بالضبط، سألته بلطف بالغ ما إذا كان باستطاعتي البقاء لوقت أطول.

"كـــلا،" أجابني، بكلّ ودّ. فالشعب البالي معروف بكونه شعباً ودوداً.

"في الواقع، يفترض بـــي أن أبقى هنا لثلاثة أو أربعة أشهر".

لم أذكر له أمر التوقع - إنّ إقامتي هنا لثلاثة أو أربعة أشهر توقّعه مـــنذ ســـنتين عـــرّاف باليني عجوز ومجنون ربّما، خلال قراءة كفٍّ استغرقت عشر دقائق. لا أعرف تحديداً كيف أشرح هذا.

ولكـــن أنا بالكاد أذكر ما قاله لي ذاك العرّاف. أقال فعلاً بأنّني سأعود إلى بالي وأمضي معه ثلاثة أو أربعة أشهر؟ هل قال حقًّا "أمضي معـــه"؟ أم أنّـــه أرادني أن أمرّ عندما أكون في الجوار، وأعطيه عشرة دولارات أخرى لقراءة كفّي مجدّداً؟ هل قال بأنّني *سأعود* أم بأنّي يجب أن أعود؟ هل قال فعلاً: "إلى اللقاء قريباً؟" أم "الوداع"؟

لم أتّـــصل بالعرّاف أبداً منذ تلك الليلة، حتى إنّني لا أملك وسيلة للاتّـــصال بـــه بأيّ حال. أين يمكن أن يكون عنوانه؟ العرّاف، على شرفته، بالي، إندونيسيا؟ لا أدري ما إذا كان حيًّا أم ميتاً. أذكر أنّه بدا لي عجـــوزاً جداً حين التقيت به منذ سنتين، ومن المحتمل أن يحدث أيّ شـــيء منذ ذلك الحين. لست متأكّدة سوى من اسمه - كيتوت لاير- وأذكر أنّه يعيش في قرية خارج مدينة أوبود تماماً، لكنّني لا أذكر اسم القرية.

ربّما كان يجدر بـــي التفكير أكثر في هذه الخطوة.

74

لكـــنّ بـــالي منطقة يسهل التجوّل فيها. فالأمر لا يشبه هبوطي وسط بلد ما من دون أي فكرة عمّا سأفعله لاحقاً. إنّها جزيرة بنفس حجـــم ديلاويـــر تقريباً كما أنها منطقة سياحية معروفة. والمكان مجهّز لمـــساعدتك، فالغربيون يتجوّلون بحرية مع بطاقات اعتمادهم. واللغة الإنكليـــزية واســـعة الانتشار والبالينيون يتكلّمونها بسعادة. (وهذا ما يـــشعرني بالارتـــياح والذنب في آن. ذلك أنّ ذهني مثقل بالجهود التي بذلتها لتعلّم اللغة الإيطالية الحديثة والسنسكريتية القديمة خلال الأشهر الماضـــية بحيث أعجز عن محاولة تعلّم اللغة الإندونيسية أو حتى البالينيّة،

الأكثر صعوبة وتعقيداً من لغة أهل المرّيخ). في الواقع، ليس من الصعب أبداً التواجد هنا. فمن الممكن تبديل العملة في المطار، وإيجاد سائق تاكسي لطيف يقترح عليك فندقاً جميلاً لا مشكلة في ذلك على الإطلاق. وبما أنّ السياحة انهارت في أعقاب التفجير الإرهابي منذ عامين (بعد بضعة أسابيع من مغادرتي بالي في المرّة الأولى)، أصبح التجوال أكثر سهولة. فالكلّ متلهّف لمساعدتك ومتعطّش للعمل.

هكذا ركبت التاكسي إلى مدينة أوبود، التي بدت لي بداية مناسبة لرحلتي. قصدت فندقاً صغيراً وجميلاً يقع على طريق غابة القرد، غريبة الاسم. كان الفندق يضمّ بركة سباحة جميلة وحديقة مليئة بأزهار استوائية براعمها أكبر حجماً من طابات الكرة الطائرة، تتمايل بدلال تحت ثقل فريق منظّم من الطيور المغرّدة والفراشات. كان الموظّفون بالينيّين، أي أنّهم سرعان ما يبدأون بالإطراء عليك ومدح جمالك ما إن تدخل. كانت الغرفة تطلّ على قمم الأشجار الاستوائية ويقدّم الفندق فطوراً كلّ صباح يحتوي على كمية كبيرة من الفاكهة الاستوائية الطازجة. باختصار، هو من أجمل الأماكن التي أقمت فيها على الإطلاق ويكلّفني أقلّ من عشرة دولارات في اليوم. كم أنا سعيدة بالعودة.

تقع أوبود وسط بالي، في الجبال، وهي محاطة بحقول الأرزّ وأعداد لا تحصى من المعابد الهندوسية، فيما تشقّ الأنهار السريعة طريقها عبر الوديان الضيقة في الأدغال وبين البراكين الموزّعة في الأفق. لطالما اعتبرت أوبود المركز الثقافي للجزيرة، المكان الذي ازدهرت فيه الفنون التقليدية من رسم ورقص ونحت فضلاً عن الطقوس الدينية. وبما أنّها غير مطلّة على أيّ شاطئ، فإنّ السياح الذين يقصدونها أنيقون، يختارون المجيء إليها عن سابق تصميم، ويفضلون مشاهدة طقس عبادة

قديم على شرب البينيا كولاداس على الشاطئ. بغضّ النظر عمّا سيؤول إليه توقّع عرّافي، سيكون من اللطيف العيش في هذا المكان لفترة من الزمن. كانت البلدة عبارة عن نسخة مصغّرة لسانتا في، تتجوّل في أرجائها القرود والعائلات البالينيّة بأزيائها التقليدية. وكان ثمّة مطاعم جيّدة ومكتبات صغيرة جذّابة. يمكنني بسهولة قضاء كلّ وقتي هنا في أوبود أقوم بما اعتادت المطلّقات الأميركيات اللطيفات على فعله منذ عقود؛ الانتساب إلى صفّ تلو الآخر: التطبيع الباتيكي، قرع الطبول، صنع المجوهرات، الرقص الإندونيسي التقليدي، والطبخ... لا بل إنّ الطريق الذي يضمّ الفندق يحتوي على محلّ يسمّى ***متجر التأمّل***، وهو عبارة عن واجهة علقت عليها لافتة تعلن عن جلسات تأمّل مفتوحة كلّ ليلة من السادسة حتى السابعة. وكتب عليها ***فليعمّ السلام الأرض***. أنا مستعدة تماماً.

حين انتهيت من إفراغ حقائبي عصر ذلك اليوم، كان الوقت لا يزال مبكراً، فقرّرت الذهاب في نزهة لكي أتعرّف مجدّداً على هذه المدينة التي لم أرَها منذ عامين. ثمّ حاولت التفكير في طريقة للعثور على العرّاف. تخيّلت بأنّ المهمّة لن تكون سهلة، وقد تستغرق أياماً أو حتى أسابيع. لم أكن واثقة من أين أبدأ، لذا توقّفت عند مكتب الاستقبال وأنا خارجة لأطلب مساعدة ماريو.

ماريو هو أحد الشباب العاملين في الفندق. كان لاسمه دور كبير في نشوء صداقتنا السريعة. فمنذ وقت غير بعيد، كنت في بلد معظم رجاله يدعون ماريو، ولكنّ أحداً منهم لم يكن رجلاً بالينيًّا قصيراً، قوي العضلات ومفعماً بالنشاط، يرتدي سارونغ من الحرير ويضع زهرة خلف أذنه. فما كان منّي إلاّ أن سألته: "هل اسمك ماريو بالفعل؟ فهو لا يبدو إندونيسيا".

"هذا ليس اسمي الحقيقي، بل نيومان".

آه، كان عليَّ أن أعرف. كان عليَّ أن أعرف أنّ لديَّ فرصة بنسبة 25 بالمئة لمعرفة اسم ماريو الحقيقي. ففي بالي أربعة أسماء يطلقها أغلب السكان على أطفالهم، بغضّ النظر عمّا إذا كانوا إناثاً أم ذكوراً. والأسماء هي واي-آن، ماداي، نيومان وكيتوت. ومعناها بكلّ بساطة الأوّل، الثاني، الثالث والرابع، وتشير إلى ترتيب الطفل في العائلة. وفي حال ولادة طفل خامس، يبدأون بدورة الأسماء من جديد، بحيث يعرف الطفل الخامس بشيء من هذا القبيل: "واي-آن الثاني"، وهكذا دواليك. ويسمّى التوائم بالترتيب الذي ولدوا فيه. ونظراً لوجود أربعة أسماء وحسب في بالي، (لدى النخبة الأعلى منزلةً مجموعتها الخاصة من الأسماء)، من الممكن جداً، لا بل من الشائع، أن يتزوّج شخصان يدعيان واي - آن بعضهما، ثمّ يطلقان على مولودهما الأوّل، بالطبع، اسم واي - آن.

وهذا ما يعطي إشارة بسيطة إلى مدى أهمية العائلة في بالي، ومدى أهمية مرتبتك فيها. وقد يبدو لك بأنّ هذا النظام يصبح معقّداً أحياناً، ولكنّ الباليتيّين يتدبّرون أمرهم معه. ومن الطبيعي في هذه الحالة، لا بل من الضروري، أن تشيع الألقاب. على سبيل المثال، إحدى أبرز سيدات الأعمال في أوبود هي امرأة تدعى واي-آن وتملك مطعماً هاماً يدعى كافيه واي - آن، لذا فإنّها معروفة باسم *واي - آن كافيه*، أي: *واي - آن التي تملك كافيه واي - آن*. وقد يطلق على شخص آخر لقب *ماداي السمين*، أو *نيومان لتأجير السيارات* أو *كيتوت الأحمق الذي أحرق منزل عمّه*. أمّا صديقي البالينيّ الجديد ماريو فعالج المشكلة بتسمية نفسه ماريو وحسب.

"لماذا ماريو؟".

أجاب: "لأنّني أحبّ كلّ ما هو إيطالي".

وحين أخبرته أنّني أمضيت مؤخّراً أربعة أشهر في إيطاليا، خرج من خلف مكتبه وقال: "تعالي، اجلسي، تحدّثي". فجئت، جلست وتحدّثنا. وهكذا أصبحنا صديقين.

هكذا قررت البدء بالبحث عن عرّافي بسؤال ماريو ما إذا كان يعرف رجلاً باسم كيتوت لاير.

عبس ماريو مفكّراً.

توقّعت أن يقول: "آه أجل! كيتوت لاير! العرّاف العجوز الذي توفّي الأسبوع الماضي؛ لقد حزنت كثيراً على هذا العجوز الطيّب...".

طلب مني ماريو تكرار الاسم، فكتبته له هذه المرّة، مفترضة أنّني لفظته بشكل خاطئ. فأضاء وجه ماريو حين عرف الاسم.

"كيتوت لاير!".

انتظرت هذه المرّة أن يقول: "آه أجل! كيتوت لاير! ذاك المجنون! لقد تمّ توقيفه الأسبوع الفائت...".

ولكنّه قال عوضاً عن ذلك: "كيتوت لاير هو معالج مشهور".

"أجل! هذا هو!".

"أنا أعرفه، فأنا أقصد منزله. في الأسبوع الماضي اصطحبت ابنة عمّي إلى هناك، كانت تحتاج إلى دواء لابنها الذي يبكي طوال الليل. وقد عالجه كيتوت. أخذت مرّة فتاة أميركية مثلك إلى منزل كيتوت. أرادت الفتاة سحراً يجعلها أجمل في عيون الرجال. فرسم لها كيتوت رسماً سحريًّا، لمساعدتها على أن تكون أكثر جمالاً. وكنت أضايقها بعد ذلك وأقول لها كلّ يوم: "الرسم يعطي مفعوله! انظري كم أصبحت جميله! الرسم يعطي مفعوله!".

فتذكّـــرت الرسم الذي رسمه لي كتوت لاير منذ بضع سنوات، وأخبرت ماريو أنّني حصلت أنا أيضاً على رسم من العرّاف مرّة.

فضحك ماريو وقال: "الرسم نجح معك أنت أيضاً!".

غير أنّني شرحت له قائلة: "الرسم كان لمساعدتي على إيجاد...".

فسألني مربكاً: "ألا تريدين أن تكوني أكثر جمالاً في أعين الرجال؟".

قلت: "ماريو، هل لك أن تصطحبني لزيارة كيتوت لاير يوماً ما؟ إن لم تكن مشغولاً؟".

"ليس الآن".

وما إن بدأت أشعر بالخيبة حتى أضاف: "ربّما بعد خمس دقائق؟".

75

هكـــذا وجدت نفسي فجأة - عصر اليوم الذي وصلت فيه إلى بالي - على ظهر دراجة نارية، متشبّثةً بصديقي الجديد ماريو الإيطالي الإندونيـــسي وهو يسرع بـــي بين سهول الأرزّ نحو منـــزل كيتوت لايـــر. وعلى الرغم من تفكيري في هذا اللقاء بالعراف خلال العامين الماضـــين، إلاّ أنّـــني لا أملك في الواقع أدنى فكرة عمّا سأقوله له عند وصـــولي. وبالطبع، نحن لم نحدّد معه موعداً، بل وصلنا من دون سابق إنـــذار. عـــرفت اللافتة المعلّقة على بابه، كانت لا تزال هي نفسها: "كيـــتوت لايـــر، رسّـــام". كان المكان عبارة عن مجمّع عائلي باليني تقلـــيدي. إذ كان ثمّة جدار حجريّ يحيط بالملكية بأكملها، فيما تمتدّ باحة في الوسط ويرتفع معبد في الخلف. ويحيط الجدار بعدد من البيوت الـــصغير المتصلة ببعضها والتي تحيا فيها عدّة أجيال معاً. دخلنا من دون أن نقرع الباب (فلم يكن ثمّة باب على أي حال) وكان باستقبالنا عدد

مـــن كـــلاب الحراسة الباليّنيّة النموذجية، النحيلة والغاضبة، وهناك في الـــباحة، كان يجلس كيتوت لاير، العرّاف العجوز، يرتدي السارونغ وقمـــيص الغولـــف ويبدو تماماً مثلما كان منذ سنتين حين التقيت به للمـــرّة الأولى. قـــال ماريو شيئاً لكيتوت، ومع أنّني لا أتكلّم الباليّنيّة بطلاقـــة، إلاّ أنّ ما قاله بدا أشبه بتعريف عام، شيء على غرار: "هذه فتاة من أميركا؛ قم إليها".

التفت إليّ كيتوت بابتسامته الخالية من الأسنان بمعظمها والتي تشفّ عـــن تعاطـــف هائـــل، وكان ذلك مطمئناً جداً: لم أكن مخطئة، إنّه رائع بالفعل. كان وجهه موسوعة شاملة للتعاطف. سلّم عليّ بحماسة وقوّة.

قال: "تشرّفت جداً بلقائك".

ليست لديه أدنى فكرة عمّن أكون.

قـــال: "تعالي، تعالي". وقادني إلى شرفة منـــزله الصغيرة، المؤثّثة بحُصر الخيزران، تماماً كما كانت منذ عامين. جلسنا نحن الاثنين، ومن دون تـــردّد، أخـــذ كفّي في يده، مفترضاً أنّني، شأني شأن بقيّة زوّاره الأجانب، جئت لقراءة كفّي. قرأه بسرعة اطمأننت لأنّه أعطاني نسخة مختـــصرة عمّا قاله في المرّة الماضية بالضبط. (ربّما نسي وجهي، ولكنّ قدري لم يتغيّر في عينيه الخبيرتين). إنكليزيته أفضل ممّا أذكر وأفضل من إنكليزية ماريو. فقد كان يتكلّم مثل الحكماء الصينيين العجائز في أفلام الكونغ فو الكلاسيكية.

انتظـــرته حتى توقّف قليلاً ثمّ قاطعته وذكّرته بأنّني سبق أن جئت إليه، منذ عامين.

بدا مرتبكاً. "أليست هذه زيارتك الأولى إلى بالي؟".

"كلاّ سيدي".

فكّر مليًّا ثمّ قال: "أأنت من كاليفورنيا؟".

"كلاّ"، أجبته، وازدادت معنوياتي هبوطاً. "أنا من نيويورك".

قال لي كيتوت (ولا أعرف ما علاقة ما قاله بموضوعنا)، "لم أعد وسيماً، خسرت أسناناً كثيرة. قد أزور طبيب الأسنان يوماً ما، وأحصل على أسنان جديدة. ولكنّني أخشاه كثيراً".

فتح فمه المهجور وأراني امتداد الضرر. كان قد خسر بالفعل معظم أسنانه في الجانب الأيسر، فيما كانت أسنانه اليمنى صفراء ومكسّرة وتبدو مؤلمة. أخبرني بأنّ أسنانه كسرت إثر حادث سقوط تعرّض له.

عبّرت له عن أسفي، ثمّ حاولت مجدّداً تذكيره بنفسي وأنا أتحدّث ببطء: "لا أعتقد بأنّك تذكرني، كيتوت. لقد أتيت إلى هنا منذ عامَين مع معلّمة يوغا أميركية عاشت في بالي لسنوات عديدة".

ابتسم مبتهجاً: "تذكّرت، آن باروس!".

"هذا صحيح. آن باروس هو اسم معلّمة اليوغا. أمّا أنا فاسمي ليز. أتيت أطلب مساعدتك، ورسمت لي حينها صورة سحرية".

هزّ كتفيه بودّ، لم يكن ليبدو أقلّ اكتراثاً، وقال: "لا أذكر".

شرّ البلية ما يضحك. ماذا سأفعل في بالي الآن؟ لا أعرف بالضبط كيف تخيّلت لقائي بكيتوت ثانية، ولكنّني أملت أن يتمّ لمّ الشمل على نحو مؤثّر ودامع. ومع أنّني خشيت أن يكون قد مات، إلاّ أنّه لم يخطر لي ألاّ يتذكّرني إطلاقاً لو كان حيًّا. كان من الحمق أن أظنّ بأنّه يذكر لقاءنا الأوّل بقدر ما أذكره. ربّما كان عليَّ التخطيط أكثر لهذه الرحلة، فعلاً.

فوصفت له الرسم الذي رسمه لي، الوجه ذو الأقدام الأربع ("المثبّت جداً على الأرض") والرأس المفقود ("لا ينظر إلى العالم من خلال عقله") والوجه الموجود في القلب ("ينظر إلى العالم عبر قلبه")،

أصـــغى إليَّ بتهذيب، بشيء من الاهتمام، وكأنّنا نناقش حياة شخص آخر.

أكره ما فعلت لأنّني لا أريد إحراجه، ولكن أصبح لا بدّ منه، فما كـــان منّي سوى أن قلت: "قلتَ لي بأنّني سأعود إلى بالي. قلتَ إنني سأبقى هنا لثلاثة أو أربعة أشهر. قلتَ إنّ بإمكاني مساعدتك على تعلّم الإنكليـــزية وأنّك ستعلّمني أشياء تعرفها". لم أحبّ نبرة صوتي؛ بدت يائسة قليلاً. لم أذكر شيئاً عن الدعوة التي وجّهها إليَّ للعيش مع عائلته. بدا ذلك في غير محلّه، نظراً للظروف.

أصغى إليَّ بتهذيب وهو يهزّ رأسه وكأنّه يقول، *أليس مضحكاً ما يقوله الناس أحياناً؟*

كنت على وشك الاستسلام. ولكنّني أتيت من مكان بعيد، لا بدّ مـــن محاولة أخيرة. قلت له: "أنا الكاتبة، كيتوت. أنا مؤلفة الكتب من نيويورك".

ولـــسبب ما، نجح الأمر هذه المرّة. فجأة أضاءت البهجة وجهه، الذي بدا صافياً وشفّافاً. برقت في ذهنه شرارة الذكرى: "أنت!" هتف لي، "أنـــا! أتذكّـــرك!" وانحنى إلى الأمام ووضع كفّيه على كتفيّ وبدأ يهـــزّني مـــسروراً، كما يهزّ الطفل هدية العيد محاولاً أن يتوقّع ما في داخلها. "لقد عدتِ! لقد عدتِ!".

قلت: "لقد عدتُ! لقد عدتُ!".

"أنت، أنت، أنت!".

"أنا، أنا، أنا!".

كانـــت الدموع تملأ عينيّ، ولكنّني حاولت عدم إظهارها. كانت راحـــتي لا توصـــف. فقـــد فاجأني. وكأنني تعرّضت لحادث سيارة، وانحرفت سيارتي عن جسر وسقطت في قعر نهر وتمكّنت بطريقة ما من

الخـــروج مـــن السيارة الغارقة بالسباحة عبر نافذة مفتوحة، ثمّ رحت أجاهـــد لـــبلوغ السطح عبر المياه الخضراء الباردة، وكنت على وشك الاختـــناق، شراييني تكاد تنفجر وخدّاي منتفخان بآخر نفس لي ثمّ - أخـــيراً! - شـــققت سطح الماء، ورحت أتنفّس الهواء. ونجوت. ذاك الـــنفس هو ما شعرت به حين سمعت العرّاف الإندونيسي يقول: "لقد عدت!" كانت راحتي بهذا القدر.

لا أصدّق أنّه تذكّرني أخيراً.

قلت له: "أجل لقد عدتُ، بالطبع عدتُ".

قـــال: "كم أنا سعيد!"كنّا نمسك بأيدي بعضنا وكان متحمّساً جـــداً. "لم أذكرك في البداية! لقد مضى زمن طويل على لقائنا! كما أنّك تبدين مختلفة! مختلفة جداً عمّا كنت عليه منذ عامين! يومها بدوت امرأة حزينة جداً. أمّا الآن فأنت سعيدة! وكأنّك شخص آخر!".

مجرّد هذه الفكرة جعلته يضحك مقهقهاً.

توقّفت عن حبس دموعي، وتركتها تفيض قائلة: "أجل كيتوت. كنت حزينة جداً. ولكنّ حياتي أفضل الآن".

أضـــاف بإنكليزيته الركيكة: "المرّة الماضية كنتِ في طلاق. غير جيّد".

"غير جيّد"، أكدّت له.

"المرّة الماضية كنت قلقة جداً، حزينة جداً. المرّة الماضية كنت مثل عجوز حزينة. الآن أنت مثل فتاة شابة. المرّة الماضية كنت بشعة! الآن أنت جميلة!".

اندفع ماريو مصفّقاً وقال: "أترين؟ الرسم أعطى مفعوله!".

ســـألته قائلـــة: "أمـــا زلـــت تريدني أن أساعدك على تعلّم الإنكليزية، كيتوت؟".

أجاب أنّ باستطاعتي البدء منذ الآن ثمّ وثب بخفّة، كالقزم، ودخل منزله الصغير وعاد بكومة من الرسائل التي تلقّاها من الخارج خلال السنوات القليلة الأخيرة (لديه عنوان إذاً!). طلب منّي قراءتها بصوت عالٍ. فهو يفهم الإنكليزية جيّداً، ولكنّه لا يحسن قراءتها. أصبحت سكريتيرته. أنا سكريتيرة عرّاف. هذا خياليّ. كانت الرسائل من جامعي تحف فنيّة عبر البحار، من أشخاص تمكّنوا بطريقة ما من الحصول على رسوماته السحرية الشهيرة. كانت إحدى الرسائل من جامع لوحات في أستراليا، يثني على مواهب كيتوت الفنية قائلاً: "لا بدّ من أنك تتمتّع بذكاء حادّ لكي ترسم بهذا التفصيل". قال كيتوت وكأنّه يملي عليّ الردّ: "هذا لأنّني تمرّنت لسنوات طويلة جداً".

بعد انتهاء الرسائل، راح يخبرني عمّا حدث معه في الأعوام القليلة الفائتة. فقد طرأت بعض التغييرات. لديه زوجة الآن، على سبيل المثال. وأشار عبر الباحة إلى امرأة بدينة تقف في ظلّ باب مطبخها، وتحدّق إليّ وكأنّها غير واثقة ما إذا كان يجدر بها رميي بالرصاص على الفور أم تسميمي أوّلاً. في زيارتي السابقة، أراني كيتوت بحزن صوراً لزوجته التي توفّيت مؤخّراً، كانت عجوزاً بالينيّة بدت مشرقة وطفولية الملامح على الرغم من سنّها. لوّحتُ للزوجة الجديدة عبر الباحة، ولكنّها تراجعت واختفت في مطبخها.

"امرأة طيّبة"، أعلن كيتوت نحو ظلال المطبخ. "امرأة طيبة جداً".

تابع يخبرني كم كان مشغولاً مع مرضاه البالينيين، كان لديه دوماً ما يفعله، كثير من السحر للأطفال الرضّع، طقوس للموتى، علاج للمرضى، مراسم زواج. قال إنّه في المرّة التالية التي يذهب فيها إلى حفل زفاف: "يمكننا الذهاب معاً! سآخذك معي!" المشكلة الوحيدة أنّه لم يعد لديه كثير من الزوار الأجانب، ذلك أنّ أحداً لم يعد يأتي إلى

بـــالي بعـــد التفجير الإرهابـــي. لذلك هو يشعر *بأنّه مربك كثيراً في رأســـه*". كما يجعله يشعر بأنّه *مفلس جدًا في مصرفه*. سألني: "ستأتين إلى منــــــزلي كـــلّ يوم للتمرّن معي على الإنكليزية؟" هززت رأسي بسعادة فقال: "وأنا سأعلّمك التأمّل الباليني، اتفقنا؟".

"اتفقنا".

قـــال: "أعـــتقد بأنّ ثلاثة أشهر هي مدة كافية لتعليمك التأمّل الباليني. ربّما أربعة أشهر. أتعجبك بالي؟".

"أحبّ بالي".

"هل ستتزوجين في بالي؟".

"ليس بعد".

"أعتقد ربّما تقريباً. ستعودين غداً؟".

وعدته بالعودة. لم يقل شيئاً عن انتقالي للعيش مع عائلته، ولم أثِر الموضوع بعدما استرقت نظرة أخيرة إلى الزوجة المخيفة في المطبخ. ربّما أقـــيم في الفندق اللطيف طيلة الوقت عوضاً عن ذلك. فهو مريح أكثر علـــى أي حـــال. من ناحية المياه وما إلى ذلك. ولكنّني سأحتاج إلى درّاجة للمجيء كلّ يوم...

حان وقت الرحيل.

قال وهو يسلّم عليَّ: "تشرّفت جداً بلقائك".

فأعطيـــته درس اللغـــة الأوّل. علّمته الفرق بين *تشرّفت بلقائك* وســـررت *لرؤيتك*. شرحت له بأننا لا نقول العبارة الأولى إلاّ في أوّل لقاء لنا مع شخص ما. بعد ذلك، نستعمل العبارة الثانية دائماً، لأنّنا لا نتعرّف على الناس سوى مرّة واحدة. أمّا الآن، فسنرى بعضنا يوميًّا.

أحبَّ الفكرة، وكرّر الجملة من بعدي: "سررت لرؤيتك! سررت لرؤيتك! أستطيع رؤيتك! لست أصمًّا!".

انفجرنا جميعاً بالضحك، حتى ماريو. ثمّ سلّمنا على بعضنا واتفقنا على أن أعود عصر يوم غد. فقال: "إلى اللقاء".

قلت: "إلى اللقاء".

"دعي ضميرك يقودك. وإن كان لديك أصدقاء غربيون في بالي، أرسليهم إليَّ لأقرأ لهم كفّهم، فأنا مفلس جداً في مصرفي الآن منذ التفجير. أنا أعطي نصائح جيّدة. سررت جداً لرؤيتك، ليزا!".

"أنا أيضاً سررت جداً لرؤيتك، كيتوت".

76

بالي هي جزيرة هندوسية صغيرة تقع في وسط الأرخبيل الإندونيسي الممتدّ على طول ألفي ميل والذي يضمّ أكبر دولة إسلامية. وبالتالي، تشكّل بالي مصدر تساؤل واستغراب، حتى إنّه لا يجدر بها أن تكون موجودة. غير أنّ الهندوسية أتت إلى الجزيرة من الهند عبر جافا. فقد أحضرها التجّار الهنود معهم إلى الشرق خلال القرن الرابع بعد الميلاد. فأسّس ملوك جافا سلالة هندوسية عظيمة، لم يتبقَّ منها الكثير اليوم، باستثناء آثار معبد هائل في بورودور. ففي القرن السادس عشر، قامت انتفاضة إسلامية عنيفة في المنطقة بأكملها وهربت الأسرة الملكية التي تعبد شيفا من جافا إلى بالي في حشود خلال ما سيعرف لاحقاً بهجرة الماجاباهيت. و لم يحضر معهم الجافانيون إلى بالي سوى أسرهم الملكية وحرفييهم وكهنتهم. لذا، لا مغالاة في القول بأنّ جميع الباليين يتحدّرون إمّا من ملك أو من كاهن أو من فنّان، ولهذا السبب هم فخورون ولامعون جداً.

أحضر المستوطنون الجافانيون معهم نظامهم الطبقي الهندوسيّ إلى بالي، مع أنّ التقسيمات الطبقية لم تطبّق هنا بشدّة كما كانت في الهند. مع ذلك، يعترف الباليّنيون بنظام طبقي اجتماعي معقّد (فثمّة خمسة أقسام من البراهمانيين وحدهم) ومن الأسهل لي فكّ شيفرة الخريطة الوراثية البشرية على أن أحاول فهم النظام القبلي المتداخل والمعقّد الذي لا يزال سائداً هناك. (تذهب مقالات الكاتب فريد بي. أيزمن حول الثقافة الباليّنيّة بعيداً في شرح هذه التفاصيل، وقد استمددت من بحثه معظم معلوماتي العامّة، ليس في هذا المجال فحسب، بل عبر الكتاب بأكمله). ويكفي القول هنا بأنّ كلّ شخص في بالي ينتمي إلى قبيلة، وكلّ شخص يعرف القبيلة التي ينتمي إليها ويعرف إلى أيّ قبيلة ينتمي كلّ شخص آخر. وفي حال تم طردك من قبيلتك لسبب من الأسباب، ليس أمامك سوى القفز في أحد البراكين، لأنّك تصبح فعلاً أسوأ من ميت.

تعتبر الثقافة الباليّنيّة واحدةً من الأنظمة الاجتماعية والدينية الأكثر منهجية، خلية نحل حقيقية من المهمات، والأدوار، والطقوس. والباليّنيون مقيّدون تماماً في شبكة معقّدة من العادات والتقاليد. وفي الواقع، ثمّة مزيج من عوامل متعددة ساهم في إنتاج هذه الشبكة، غير أنّه يمكننا القول إن بالي هي ما حدث حين فُرضت الطقوس الهندوسية التقليدية على مجتمع زراعي كبير يعيش من زراعة الأرزّ ويقوم على تعاون مُحكَم بين أبنائه. فسهول الأرزّ تحتاج إلى كثير من العمل المشترك والعناية والهندسة لكي تزدهر، لذا تملك كلّ قرية باليّنيّة *بانجار*؛ أي منظّمة متّحدة من المواطنين الذين يتّخذون بالإجماع القرارات السياسية والاقتصادية والدينية والزراعية. ففي بالي، الجماعة أهمّ بكثير من الفرد، وإلاّ مات الناس جوعاً.

للطقـــوس الدينية أهمية بالغة في بالي (فالجزيرة تضمّ سبعة براكين ناشـــطة، ولـــو كنت تعيش هناك لشاركت في الطقوس أنت أيضاً). فاستناداً إلى التقديرات، تمضي المرأة البالينيّة ثلث ساعات نهارها إمّا في الإعداد للطقس الديني أو المشاركة فيه أو التنظيف من بعده. فالحياة هنا هـــي عبارة عن دورة متواصلة من القرابين والطقوس. وينبغي القيام بها جمـــيعاً، بالتـــرتيب الـــصحيح والنية السليمة، وإلاّ انهار توازن الكون بأكمله. فقد كتبت مارغاريت ميد عن *الانشغال الهائل* للبالينيين، وهو أمـــر صحيح، ذلك أنّ المجتمع البالييني نادراً ما يعرف الكسل. فثمة مراسم دينـــية تـــتم تأديـــتها خمس مرات في اليوم وأخرى مرّة في اليوم، مرّة في الأســـبوع، مرّة في الشهر، مرّة في السنة، مرّة كلّ عشر سنوات، مرّة كلّ مـــئة سنة، مرّة كلّ ألف سنة. ويقوم الكهنة بتنظيم جميع هذه التواريخ والطقوس، مستندين إلى نظام تقويم بيزنطي لثلاث روزنامات مختلفة.

ثمّة ثلاثة عشر طقس عبور رئيسي يمرّ به الكائن البشري في بالي، لكـــلّ مـــنها مراسم بالغة التنظيم. فيتمّ إجراء مراسم تهدئة روحية عبر حياة المرء بأكملها لحماية الروح من الرذائل البالغ عددها 108 (ها هو الرقم يظهر هنا مجدّداً!)، ومنها العنف والسرقة والكسل والكذب. ويمرّ الطفـــل البالـــيني باحـــتفال بلـــوغ خطير يتمّ فيه برد الأنياب لتصبح مسطّحة، لغرض جمالي. فمن أسوأ الصفات في بالي أن يكون المرء فظّاً وحيوانـــيًّا، وتعتبر الأنياب بأنّها تذكّر بطبيعتنا الوحشية وتجدر بالتالي إزالـــتها. فمن الخطير في هذه الثقافة المغلقة والمتشابكة أن يكون الناس عنـــيفين. إذ مـــن شأن شبكة التعاون بأكملها أن تتفكك بسبب النية الإجرامية لشخص واحد. بالتالي، أفضل ما تكون في بالي شخصاً *ألوساً* (*ألوســـي*)، أي مـــ*صقولاً* أو *مجمّلاً*. فالجمال هو صفة جيّدة في بالي، للرجال والنساء على السواء. إنّها صفة مبجّلة. الجمال أمان. والأطفال

يتعلّمون منذ الصغر مواجهة المصاعب والمشاكل بوجه مشرق وابتسامة عريضة.

والفكرة الأساسية في بالي هي عبارة عن شبكة هائلة وغير مرئية من الأرواح والمرشدين والأساليب والعادات. وكلّ مواطن باليني يعرف تماماً إلى أين ينتمي، توجّهه تلك الخريطة العظيمة غير الملموسة. ويكفي النظر إلى الأسماء الأربعة لمعظم البالينيين - الأوّل، الثاني، الثالث، الرابع - التي تذكّرهم متى ولدوا في العائلة وإلى أين ينتمون. لن تحصل على نظام اجتماعي أفضل لرسم خريطة المجتمع لو أسميت أولادك شمال، جنوب، شرق، غرب. فقد أخبرني ماريو، صديقي الإندونيسي الجديد، أنّه يشعر بالسعادة حين يتمكن من إبقاء نفسه - عقليًّا وروحيًّا - عند نقطة التقاطع بين خطٌ عمودي وخطّ أفقي، في حالة توازن تامّ. لهذا السبب، هو يحتاج إلى معرفة موقعه بالضبط في كلّ لحظة، في علاقته بعائلته هنا على الأرض. وإن اختلّ هذا التوازن، فقد قوّته.

بالتالي، ليس من السخافة الافتراض بأنّ البالينيين هم أساتذة التوازن الشامل، الشعب الذي يمثّل الحفاظ على التوازن التامّ بالنسبة إليه فنًّا وعلماً. بالنسبة إليَّ، وفي بحثي الشخصي عن التوازن، أملت أن أتعلّم الكثير من البالينيين عن كيفية الثبات في هذا العالم الذي تسوده الفوضى. ولكن كلّما قرأت ورأيت عن هذه الثقافة، أدركت كم سقطت بعيداً عن شبكة التوازن، من المنظور البالينى على الأقلّ. فعادتي بالهيام في هذا العالم، غير واعية لاتجاهي الجسدي، إضافة إلى قراري بأنّني انحرفت خارج شبكة الزواج والعائلة، يجعلني، بالنسبة إلى المجتمع البالينى، شيئاً أشبه بالشبح. ومع أنّني أستمتع بهذه الحياة، إلاّ أنّها كابوس بمقاييس أيّ مواطن باليني يحترم نفسه. فإن كنت لا تعرف أين أنت أو إلى أيّ قبيلة تنتمي، فكيف لك إذاً أن تجد التوازن؟

لهذا السبب، لست واثقة كم يمكنني أن أغني نظرتي إلى العالم من نظرة البالينيين إليه، بما أنّني ما زلت حتى الآن كما يبدو أعتمد التعريف الحديث والغربـــي لكلمة *توازن*. (فأنا أترجمها حاليًّا *الحرية المتساوية*، أو الإمكانـــية المتـــساوية للسقوط في أيّ اتجاه في أيّ وقت كان، وفقاً لكيفـــية ســـير الأمور). ولكنّ البالينيين لا ينتظرون لرؤية *كيفية سير الأمـــور*. لكـــان هذا فظيعاً بالنسبة إليهم. بل هم *ينظّمون* كيفية سير الأمور، لكي لا تعمّ الفوضى.

إن التقيت بغريب في الطريق وأنت تسير في بالي، فإنّ أوّل سؤال يطرحه عليك هو: "إلى أين أنت ذاهب؟" أمّا الثاني فسيكون: "من أين أنـــت آتٍ؟" بالنسبة إلى الغربـــي، يبدو هذا استجواباً في غير محلّه من شخص غريبٍ، ولكنّه يحاول في الواقع تحديد اتجاهك، يحاول إدخالك في الـــشبكة لتشعر بالأمان والراحة. ولو أجبت بأنّك لا تعلم إلى أين تـــذهب أو بأنّـــك تتجوّل بلا هدف، قد تولّد لدى صديقك البالينيّ الجديـــد شيئاً من الأسى. ومن الأفضل بكثير اختيار اتجاه محدّد - *أيّ مكان* - ليشعر الجميع بالاطمئنان.

الـــسؤال الثالث الذي سيطرحه عليك البالينيّ هو بالتأكيد: "هل أنت متزوّج؟" والهدف من هذا السؤال هو أيضاً تحديد الموقع والاتجاه. فمـــن الضروري بالنسبة إليه معرفة ذلك، للتأكّد من أنّ حياتك منظّمة تمامـــاً. وهـــو يودّ حقًّا أن تقول أجل. عندها، سيشعر براحة كبيرة لو قلـــت أجل. أمّا إن كنت عازباً، فمن الأفضل ألاّ تخبره بذلك على نحو مباشر. وأنصحك حقًّا ألاّ تذكر له أنّك مطلّق، إن كنت كذلك، وإلاّ ســـبّبت له القلق. فوحدتك تثبت له انفصالك الخطير عن الشبكة. فإن كـــنت امـــرأة عازبـــة مـــسافرة إلى بالي وسألك أحدهم: "هل أنت متـــزوّجة؟" فإن أفضل إجابة هي: "ليس بعد". إنّها طريقة مهذّبة لقول

كـــلا، مـــع الإشارة إلى نواياك التفاؤلية بشأن تصحيح هذا الوضع في أقرب وقت.

حـــتى إن كنتِ بسن الثمانين أو كنت شاذّة أو مناصِرة شديدة الحماسة للمساواة بين الجنسين أو راهبة، و لم يسبق لك الزواج قبلاً ولا تنوين الزواج إطلاقاً، يبقى الجواب الأكثر تهذيباً هو: "ليس بعد".

77

في الصباح، ساعدني ماريو على شراء دراجة. قال لي على طريقة الإيطالـــيين: "أعـــرف شخصاً"، واصطحبني إلى متجر ابن عمّه الذي اشتريت منه دراجة جبلية جميلة، وخوذة، وسلة بأقلّ من خمسين دولاراً أميركياً. أصبحت الآن قادرة على التنقّل في بلدتي الجديدة أوبود، بقدر مـــا يمكنني أن أشعر بالأمان على هذه الطرقات الضيقة والمتعرّجة التي تفتقر إلى الصيانة وتكثر فيها الدراجات النارية، والشاحنات، وباصات السيّاح.

بعد الظهيرة، ركبت دراجتي، وتوجهت إلى قرية كيتوت، لقضاء بعض الوقت مع عرّافي في أوّل يوم لنا من... مهما كان ما سنفعله معاً. لـــست واثقـــة بصراحة. دروس إنكليزية؟ دروس تأمّل؟ جلوس على شرفة قديمة الطراز؟ لا أعرف في ماذا يفكّر كيتوت، ولكنّني سعيدة لأنّه دعاني إلى حياته.

كان لديه زوّار عند وصولي، عائلة قروية صغيرة أحضرت طفلتها ذات الـــسنة مـــن العمر إلى كيتوت طلباً للمساعدة. فالطفلة المسكينة تـــتألّم مـــن أسنانها وكانت تبكي لعدة ليالٍ. كان الوالد شاباً وسيماً يـــرتدي السارونغ ويبدو بعضلات ساقيه وكأنّه تمثال حرب سوفياتي.

أمّا الأمّ فكانت جميلة وخجولة، تنظر إليّ من خلال رموشها المنخفضة بحـــياء. وقد أحضرا معهما قرباناً صغيراً لكيتوت على خدماته؛ 2000 روبيَه، أي ما يعادل 25 سنتاً، وضعت في سلة يدوية الصنع من سعف النخـــيل، أكبر بقليل من منفضة في صالة فندق. وكان في السلّة برعم زهـــرة واحـــد، مع المال وبضع حبّات من الأرزّ. (شدّة فقرهم برزت بوضـــوح أمام العائلة الأغنى حالاً الآتية من العاصمة دينبيزار التي أتت لزيارة كيتوت عصراً، إذ كانت الأمّ تؤرجح على رأسها سلّة من ثلاث طـــبقات تمتلـــئ بالفاكهة والأزهار فضلاً عن بطة مشوية. بدت السلّة غطاء رأس فخماً ورائعاً إلى حدّ أنّ كارمن ميراندا كانت لتنحني أمامه تواضعاً).

كان كيتوت مسترخياً ولطيفاً مع ضيوفه. أصغى إلى الأبوين وهما يـــشرحان مـــشاكل الطفلـــة، ثمّ بحث في صندوق صغير على شرفته، وأخـــرج دفتراً قديماً يحتوي على كتابات صغيرة بالسنسكريتية الباليّنيّة. راجـــع دفتره مثل طالب وبحث عن مزيج الكلمات الذي يناسبه وهو يتحدّث ويضحك مع الأبوين طيلة الوقت. ثمّ تناول صفحة بيضاء من دفتـــر علـــيه صورة ضفدع كامل وكتب ما قال بأنّه *وصفة* للطفلة. كانـــت الطفلة حسب تشخيصه تعاني من عفريت صغير بالإضافة على انزعاجها من أسنانها. بالنسبة إلى الأسنان، نصح الأبوين بفرك لثتها بعصارة بصلة حمراء. أمّا لتهدئة العفريت، فينبغي عليهم تقديم قربان مؤلـــف من دجاجة وخنـــزير صغيرين مع بعض الحلوى الممزوجة بأعـــشاب خاصـــة يمكن لجدّهما العثور عليها بالتأكيد في حديقتها الطبية. (ولن يذهب هذا الطعام هباءً. فبعد الاحتفال، يسمح دائماً للعـــائلات الباليّنيّة بتناول قرابينهم، لأنّ القربان هو عمل ماورائي أكثر ممّا هو فعلي).

بعد كتابة الوصفة، أدار لنا كيتوت ظهره، وملأ إناءً من الماء، ولفظ فوقه مانترا تثير القشعريرة. ثمّ بارك الطفلة بالماء الذي نفخ فيه للتوّ قوّة مقدّسة. وحتى في عمر السنة، كانت الطفلة تعرف كيف تستلم المباركة بالطريقة التقليدية البالينيّة. ففيما حملتها الأمّ، مدّت الطفلة يدها الصغيرة لاستلام الماء الذي رشفت منه مرتين ثمّ رشت الباقي على رأسها. ولم يبدُ عليها أيّ خوف من العجوز الذي يغنّي لها بفم خال من الأسنان. هنا أخذ كيتوت بقية الماء، وصبّه في كيس من النايلون قبل أن يربطه ويعطيه للعائلة لتستعمله لاحقاً. فحملت المرأة كيس الماء معها وهي خارجة وبدت وكأنّها ربحت للتو سمكة ذهبية من أحد المعارض، إلاّ أنّها نسيت أخذ السمكة معها.

أعطى كيتوت هذه العائلة حوالى أربعين دقيقة من انتباهه الكامل مقابل حوالى 25 سنتاً. ولو لم تكن تملك المال على الإطلاق، لفعل الشيء نفسه. فواجبه كمعالج يحتّم عليه ذلك. لذا، هو لا يردّ أحداً، وإلاّ حُرم من قدراته العلاجية. يستقبل كيتوت عشرة زوار تقريباً في اليوم من هذا النوع؛ بالينيّون يحتاجون إلى المساعدة أو النصيحة في مسائل روحانية أو طبية. غير أنّه في الأيام السعيدة، التي يحتاج فيها الجميع إلى مباركة خاصة، قد يستقبل ما يفوق المئة زائر في اليوم.

"ألا تتعب؟".

أجابني: "هذه مهنتي، وهوايتي أيضاً؛ عرّاف".

أتى بعض المرضى بعد الظهر، ولكنّنا حصلنا أنا وكيتوت على قليل من الخلوة على الشرفة أيضاً. أشعر بكثير من الراحة والاسترخاء مع هذا العرّاف، وكأنّني مع جدّي. أعطاني درسي الأوّل في التأمّل. أخبرني بأنّه ثمّة عدة وسائل لذلك، ولكنّ معظمها معقّد جداً بالنسبة إلى الغربيين، لذا سيعلّمني طريقة تأمّل سهلة. وهي تقوم على التالي:

اجلسي بصمت وابتسمي. أحببتها كثيراً. كان يضحك حتى وهو يعلّمني إيّاها. اجلسي وابتسمي. ممتاز.

سألني: "هل درست اليوغا في الهند يا ليز؟".

"أجل، كيتوت".

قال: "يمكنك ممارسة اليوغا، ولكنّها صعبة جداً". وهنا لوى نفسه في وضعية لوتس متشنّجة وقوّس وجهه بشكل مضحك ومنقبض. ثمّ قام وراح يضحك ويسألني: "لماذا يبدون بهذ الجدية في اليوغا؟ فهذه التعابير الجادّة تخيف الطاقة الجيدة. للتأمّل، ليس عليك سوى الابتسام. ابتسمي بوجهك، ابتسمي بعقلك، والطاقة الجيدة ستأتي إليك وتزيل الطاقة القذرة. ابتسمي حتى بكبدك. جرّبيها الليلة في الفندق. ليس عليك التسرّع ولا بذل مجهود كبير. فالجدية المفرطة تسبب المرض. يمكنك استدعاء الطاقة الجيدة بابتسامة. انتهى كلّ شيء لهذا اليوم. إلى اللقاء، عزيزتي. عودي غداً. أنا مسرور جداً لرؤيتك، ليز. دعي ضميرك يقودك. وإن أتى أصدقاء لك إلى بالي، أرسليهم إليّ لأقرأ لهم كفّهم، فأنا مفلس جداً في مصرفي منذ التفجير".

78

هذه هي قصّة حياة كيتوت لاير تماماً كما يرويها بإنكليزيته الركيكة:

"نحن عائلة عرافين تعود إلى تسعة أجيال. أبي، جدي، جدّ أبي، كلّهم عرّافون. وقد أرادوني جميعاً أن أكون عرّافاً لأنّ عندي نوراً برأيهم. برأيهم عندي جمال وعندي ذكاء. ولكنني لم أكن أريد أن أكون عرافاً. كثير من الدراسة! كثير من المعلومات! ولا أعتقد

بالعراف! أردت أن أكون رسّاماً! أردت أن أكون فنّاناً! فأنا موهوب في هذا المجال".

"حين كنت لا أزال يافعاً، التقيت برجل أميركي غنيّ جداً، ربّما كان مثلك من نيويورك. أحبّ رسمي. أراد شراء رسم كبير منّي، ربّما بطول متر، مقابل كثير من المال. ما يكفي من المال لأصبح غنيًّا. هكذا بدأت رسم تلك اللوحة له. كلّ يوم أنا أرسم، أرسم، أرسم. حتى في الليل، أنا أرسم. في ذلك الوقت، لم يكن ثمّة مصباح كهربائي مثل اليوم، كان لديَّ مصباح على الزيت. كنت أضخّه لسحب الزيت. وكنت أرسم كلّ ليلة أمام مصباح الزيت".

"في إحدى الليالي، انطفأ المصباح، فبدأت أضخّ، أضخّ، أضخّ حتى انفجر! واشتعلت النار بذراعي! بقيت في المستشفى لشهر، والتهبت ذراعي. وصل الالتهاب إلى قلبي. قال الطبيب إنّه ينبغي عليَّ الذهاب إلى سنغافورة لبتر ذراعي. لم أرد ذلك، ولكنّ الطبيب قال إنّ عليَّ إجراء الجراحة وبتر ذراعي. فقلت له إنني أريد الذهاب إلى قريتي أوّلاً".

"تلك الليلة في القرية، رأيت حلماً. أتى أبي وجدي وجدّ أبي في المنام إلى منزلي وأخبروني كيف أعالج ذراعي المحروقة. قالوا لي: *اصنع عصارة من الزعفران وخشب الصندل وضع العصير على ذراعك. ثمّ اصنع مسحوقاً من الزعفران وخشب الصندل وضعه على الحرق*. قالوا إنّ عليَّ القيام بذلك كي لا أخسر ذراعي. كان الحلم حقيقياً جداً، وكأنّهم معي فعلاً في البيت".

"استيقظت. ولم أعرف ماذا أفعل، لأنّ الأحلام تكون مجرّد مزحات أحياناً، أتفهمين؟ ولكنّني وضعت عصارة الزعفران وخشب الصندل على ذراعي، ثمّ وضعت مسحوق الزعفران وخشب الصندل

علـى الحـرق. كانت ذراعي ملتهبة جداً، ومؤلمة جداً ومتورّمة جداً. ولكن بعد العصارة والمسحوق، أصبحت باردة جداً. ثمّ بدأت تتحسن. وبعد عشرة أيام، شفيت تماماً".

"هكذا، بدأت أعتقد بهذا الطبّ. ثمّ رأيت أبـي وجدّي وجدّ أبـي في حلم آخر. قالوا لي إنّ عليَّ أن أصبح عرّافاً. روحي، عليَّ أن أهـبها إلى الله. لـذلك، يجب أن أصوم ستة أيام، أتفهمين؟ بلا طعـام ولا ماء. لا أشرب، لا أفطر. ليس سهلاً. عطشت كثيراً من الـصيام، ذهبت إلى حقول الأرزّ في الصباح قبل شروق الشمس. جلست في حقل الأرزّ وفمي مفتوح، وأخذت الماء من الهواء. ماذا تـسمونه، المـاء في الهواء في حقل الأرزّ في الصباح؟ ندى؟ أجل، نـدى. لم أتناول سوى الندى لستة أيام. في اليوم الخامس، أغمي علـيَّ. رأيت اللون الأصفر في كلّ مكان. كلا، لم يكن أصفر، بل ذهبيًّا. رأيت اللون الذهبـي في كلّ مكان، حتى في داخلي. شعرت بالسعادة. الآن فهمت...".

"ينبغـي عليَّ الآن إذاً أن أكون عرّافاً. عليَّ أن أدرس كتب جدّ أبـي الطبية. وهي ليست مكتوبة على الورق بل على أوراق النخيل المـسمّاة *لونتار*. وهي موسوعة طبية بالينيّة. عليَّ أن أتعرّف إلى جميع النباتات في بالي. لم يكن سهلاً. بالتدريج، تعلمت كلّ شيء. تعلّمت عـلاج مشاكل الناس. أعالج الجسد المريض بالأعشاب، وأعالج العائلة المريـضة، الـتي تتشاجر دوماً بالتناغم، برسم سحري خاصّ، وأيضاً بالـتحدّث. أضـع الرسم السحري في المنـزل، فيتوقف الشجار. في بعض الأحيان، يمرض الناس بالحب، لا يجدون الشريك المناسب. فلدى البالينيين والغربيين أيضاً كثير من المشاكل مع الحب، من الصعب العثور علـى الـشريك المناسـب. وأنا أصلح مشاكل الحبّ بمانترا وبرسم

سـحري، حـيث يجلبان لك الحب. حين تضعين رسمي السحري في بيتك، فإنّه يجلب لك الطاقة الإيجابية".

"مـا زلت أحبّ أن أكون فنّاناً، أحبّ الرسم حين أجد الوقت، وبيع اللوحات للمعارض. أرسم دائماً الموضوع نفسه، حين كانت بالي فردوساً، ربّما منذ ألف عام. أرسم أدغالاً، حيوانات، نساء ذات... ما هـي الكلمة؟ ثدي. نساء ذات أثداء. يصعب عليَّ إيجاد الوقت للرسم لأنّني عرّاف ولكن عليَّ أن أكون عرّافاً. هذه مهنتي. هذه هوايتي. عليَّ أن أسـاعد الـناس وإلاّ غضب الله منّي. أقوم أحياناً بتوليد النساء أو بمراسـم للموتى أو باحتفالات برد الأسنان أو الزفاف. أحياناً أستيقظ عـند الثالثة بعد منتصف الليل وأرسم على ضوء المصباح الكهربائي، هذا هو الوقت الوحيد الذي يمكنني الرسم فيه. أحبّ هذا الوقت الذي أمضيه وحدي، وأتمكّن فيه من الرسم".

"أقـوم بسحر حقيقي، إنني لا أمزح. أنا أقول الحقيقة دوماً، حتى لـو كانت أخباراً سيئة. عليَّ أن أكون حسن الأخلاق في حياتي وإلاّ دخلـت الـنار. أتحـدّث الباليـنيّة والإندونيسية وقليلاً من اليابانية والإنكليزية والألمانية. فخلال الحرب، أتى كثير من اليابانيين إلى هنا. لم يكن هذا سيئاً بالنسبة إليَّ؛ كنت أقرأ لهم كفّهم وأتصادق معهم. قبل الحرب، أتى كثير من الألمان. والآن كثير من الغربيين، كلهم يتحدّثون الإنكليـزية. ألمانيّتي... كيف تقولونها؟ ما هي الكلمة التي علمتِني إياها أمس؟ صدِئ؟ أجل، صدئ. ألمانيّتي صدئة!".

"أنا أنتمي إلى الطبقة الرابعة في بالي، الطبقة الأدنى مرتبة. ولكنني أرى كـثيراً مـن الـناس من الطبقة الأولى لا يتمتعون بذكائي. اسمي كيـتوت لاير. لاير هو الاسم الذي أطلقه عليَّ جدّي حين كنت ولداً صغيراً، ويعني *النور الساطع*. هذا أنا".

79

أنا حرة تماماً هنا في بالي، إلى حدّ يثير الضحك. إذ تنحصر واجباتي في زيارة كيتوت لبضع ساعات عصراً، وهو عمل بسيط جداً. أمّا بقية اليوم فأقضيه بأشكال متنوعة وغير مبالية. أتأمّل لمدة ساعة كلّ صباح بتقنيات اليوغا التي علمتني إياها مرشدتي، ثمّ أتأمّل لمدة ساعة كلّ مساء على طريقة كيتوت ("اجلسي ساكنة وابتسمي"). وبين هاتين الجلستين أتنزّه سيراً على الأقدام، وأركب دراجتي، وأتحدّث أحياناً مع الناس، وأتناول طعام الغداء. عثرت على مكتبة صغيرة هادئة تُعير الكتب في تلك البلدة، فحصلت على بطاقة، وأصبحت أمضي الآن أجزاءً كبيرة وممتعة من حياتي وأنا أقرأ في الحديقة. فبعد حدّة الحياة في المعتزل، وحتى بعد فترة الانحطاط التي أمضيتها وأنا أجوب إيطاليا وآكل كلّ ما يقع عليه نظري، كانت هذه الفترة من حياتي جديدة وهادئة على نحو جذري. كان لديَّ من الفراغ ما يمكن قياسه بالأطنان.

كلّما غادرت الفندق، سألني ماريو والموظّفون الآخرون على مكتب الاستقبال إلى أين أذهب، وكلّما عدت، سألوني أين كنت. أتخيّلهم يحتفظون بخرائط صغيرة في درج مكتبهم لجميع أحبّائهم، مع علامات تشير إلى أين يذهب الجميع في كلّ وقت.

في الأمسيات، أقود دراجتي إلى أعلى التلال وعبر سهول الأرزّ شمال أوبود، وأستمتع بالمناظر الخضراء الخلاّبة. كنت أرى الغيوم الوردية منعكسة على صفحة المياه الراكدة لحقول الأرزّ، وكأنّه ثمّة سماءان: واحدة في الأعلى وأخرى هنا في المياه الموحلة، لنا نحن البشر. قدت الدراجة مرّة إلى ملتجأ مالك الحزين، مع لوحة الترحيب الغريبة

حسناً، **يمكنكم رؤية مالك الحزين هنا**، ولكن لم يكن ثمّة طيور مالك الحزين، بل بطّ وحسب، فتفرّجت على البطّ لبعض الوقت، ثمّ توجّهت إلى القرية المجاورة. مررت في طريقي برجال ونساء وأطفال ودجاج وكلاب، كلّ منهم كان مشغولاً على طريقته، ولكن ليس إلى حدّ عدم التوقّف لتحيّتي.

منذ بضع ليال، رأيت لوحة عند أعلى تلّة جميلة مكسوة بالأشجار مكتوب عليها: منزل فنّان للإيجار، مع مطبخ. وبفضل كرم الله، انتقلت إليه بعد ثلاثة أيام. ساعدني ماريو في ذلك، وودّعني جميع أصدقائه في الفندق بأعين دامعة.

يقع منزلي على طريق هادئ محاط بحقول الأرزّ من جميع جهاته. هو أشبه قليلاً بكوخ محاط بجدران مكسوة باللبلاب. مالكة المنزل هي امرأة إنكليزية، ذهبت لقضاء الصيف في لندن، فدخلتُ منزلها وحللت محلّها في هذا المكان الساحر. كان المنزل يضمّ مطبخاً أحمر زاهي اللون وحوض أسماك ذهبية وشرفة رخامية وحمّاماً خارجياً مكسوًّا بالموزاييك البرّاق، بحيث يمكنني أن أشاهد وأنا أستحمّ طيور مالك الحزين المعشّشة في أشجار النخيل. كان ثمّة طرقات سرّية صغيرة تقود إلى حديقة فاتنة. يأتي المنزل مع جنائني، وليس عليَّ بالتالي سوى مشاهدة الأزهار. لم أكن أعرف اسم أيّ من تلك الأزهار الاستوائية الخلاّبة، فابتكرت لها أسماءً بنفسي. لِمَ لا؟ فهذه خاصة بي، أليست كذلك؟ وسرعان ما أطلقت على نباتات الحديقة أسماء جديدة: شجرة النرجس الأصفر، نخلة الملفوف، طحالب فستان السهرة، اللولبية، برعم الإصبع، كرمة الكآبة وسحلبية وردية رائعة أسميتها كفّ الطفل. في الواقع، إنّ حجم الجمال الخالص المفرط وغير الضروري يفوق الوصف. يمكنني مثلاً

قطف الموز والبابايا عن الأشجار من نافذة غرفتي. ثمّة قطّ يعيش هنا يمطرني بحنانه لنصف ساعة قبل أن أطعمه، ثمّ يبدأ بالمواء بجنون بقية الوقت وكأنّه يسترجع ذكريات حرب فييتنام. ومن الغريب أنّ الأمر لم يــزعجني. فلا شيء يزعجني هذه الأيام. لا يمكنني تخيّل أو تذكّر الاستياء.

أصــوات الطبيعة رائعة أيضاً في هذا المكان. في المساء تنطلق أوركــسترا الجُدجُــد فيما تؤدّي الضفادع الصوت الخفيض. وفي منتــصف الليل، تنبح الكلاب متذمّرة لأنّ أحداً لا يفهمها. وقبل الفجــر تعلن الديوك على عدة أميال كم هي سعيدة لكونها ديوكاً. ("نحن ديوك! لايوجد ديوك غيرنا!") وكلّ صباح مع اقتراب شروق الــشمس، تــبدأ منافسة الزقزقة بين الطيور الاستوائية، وهي دوماً تستعدّ للبطولة. عند شروق الشمس، يهدأ المكان وتنطلق الفراشات إلى عملــها. المنــــزل مكــسوّ بأكمله بشجر الكرمة. أشعر بأنّه سيختفي تقريباً بين الأوراق وسأختفي معه وأتحوّل إلى زهرة أدغال. أمّــا إيجــار المنــزل، فهو أقلّ ممّا كنت أدفعه في نيويورك لسيارة الأجرة كلّ شهر.

80

ينبغــي عليَّ الآن أن أكون صادقة وأقول أنّ الأمر استغرق منّي ثلاثة أيام فقط من البحث في المكتبة المحلية لأدرك أنّ أفكاري الأساسية عن الفردوس البالينيّة كانت مضلّلة بعض الشيء. فقد كنت أخبر الناس مــنذ أن زرت بــالي مــنذ عامين أنّ هذه الجزيرة الصغيرة هي المدينة الفاضــلة الوحــيدة في العالم، مكان لم يعرف سوى السلام والتناغم

والـــتوازن باســـتمرار. إنّه فردوس حقيقية لم يعرف تاريخها العنف أو الـــدماء إطلاقـــاً. لا أعرف من أين أتيت بهذه الفكرة، ولكنّني كنت أبرهنها بثقة تامّة.

كـــنت أقـــول: "حتى ضبّاط الشرطة يضعون زهرة في شعرهم". وكأنّ هذا الأمر يؤكّد كلامي.

غـــير أنّه تبيّن لي أنّ لبالي تاريخاً حافلاً بالعنف والقمع شأنها شأن أيّ مكـــان عـــاش فيه الإنسان على هذا الكوكب. فحين هاجر ملوك جافا إليها في القرن السادس عشر، أسّسوا فيها مستوطنة إقطاعية قامت علـــى نظام طبقيّ صارم لم يختلف في قلة اكتراثه بالسواد الأعظم من الناس عن غيره من الأنظمة الطبقية التي تحترم نفسها. وكان اقتصاد بالي في الـــبداية قائمـــاً علـــى تجارة الرقيق المربحة (التي لم تسبق وحسب المـــشاركة الأوروبية في تجارة الرقيق العالمية بعدة قرون، بل واستمرّت بعـــدها لفترة طويلة). في الداخل، عرفت الجزيرة حروباً مستمرة بين الملوك المتنافسين الذين كانوا يقومون بهجمات متقطّعة على جيرانهم مع خطـــف وقـــتل جماعيّ). وحتى أواخر القرن التاسع، كانت البالينيون معـــروفين بين التجار والبحّارة بأنّهم مقاتلون وحشيّون. (كلمة *أموك*، هـــي كلمـــة بالينيّة تصف تقنية قتالية تقوم على الهجوم فجأة بشكل وحـــشي وجـــنوني على العدو في قتال فرديّ انتحاري ودموي. وهذه الممارســـة أثارت رعب الأوروبيين). فقد تمكّن البالينيون بجيش منظّم يـــبلغ عدده 30 ألفاً من هزيمة الغزاة الألمان عام 1848، ومرة ثانية عام 1849، وثالثة عام 1950. ولم يسقطوا تحت السيطرة الألمانية إلاّ حين انـــشقّ صفّ ملوك بالي وخانوا بعضهم تنافساً على السلطة، ووقفوا في صـــفّ العـــدوّ مقابل وعود بصفقات مربحة لاحقاً. بالتالي فإنّ تحويل تاريخ الجزيرة إلى فردوس هو أمر مهين للحقيقة، فهؤلاء الأشخاص لم

يقضوا الألفية الماضية وهم جالسون مبتسمون ينشدون أغنيات سعيدة.

لكن في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، حين اكتشفت بالي مجموعة من المسافرين، ينتمون إلى صفوة المجتمع الغربي، تمّ تجاهل كلّ هذا التاريخ الدموي حين اتفق القادمون الجدد على أنّ هذا المكان هو فعلاً *جزيرة جميع من فيها فنانون* وتعيش فيها الإنسانية في نعيم مقيم. وعاش هذا الحلم طويلاً، وظلّ يؤيده معظم زوّار بالي (بمن فيهم أنا في زيارتي الأولى). فقد قال المصوّر الألماني جورج كراوزر بعد زيارته بالي في الثلاثينيات: "أنا غاضب لأنّني لم أولد بالينيًّا". وسقط بعض مشاهير السياح تحت إغراء ما قيل عن الجمال الخلاب والهدوء اللذين تتمتع بهما بالي، فبدأوا يقصدون الجزيرة: فنانون أمثال والتر سبايز وأدباء أمثال نويل كوارد وراقصون أمثال كلير هولت وممثلون أمثال تشارلي تشابلن وباحثون أمثال مارغاريت ميد.

انتهت تلك المرحلة في الأربعينيات حين خاض العالم الحرب. فاجتاح اليابانيون إندونيسيا واضطرّ المغتربون إلى مغادرة نعيم الجنة البالينيّة. وخلال النضال في سبيل الاستقلال الإندونيسي الذي أعقب الحرب، عرفت بالي الانقسام والعنف شأنها شأن بقية أنحاء الأرخبيل، وبحلول الخمسينيات (بحسب دراسة تحت عنوان: بالي: فردوس مبتكرة) لو تجرّأ أحد الغربيين على زيارة بالي، فإنّه لا ينام من دون مسدّس تحت وسادته. وفي الستينيات حوّل الصراع على السلطة إندونيسيا بأكملها إلى ساحة حرب بين القوميين والشيوعيين. وبعد محاولة انقلاب في جاكارتا عام 1965، تم إرسال جنود قوميين إلى بالي مع لائحة بأسماء جميع الشيوعيين المشتبه بهم على الجزيرة. وخلال أسبوع، وبمساعدة

رجـــال الشرطة المحلية وسلطات القرية في كلّ خطوة، شقّت القوات القومـــية طريقها الدامي بثبات عبر كلّ بلدة. وبانتهاء مهمّتها، غصّت أنهار بالي الجميلة بما يقارب 100 ألف جثة.

في أواخـــر الستينيات، عاد حلم الفردوس إلى الحياة، حين قررت الحكـــومة الإندونيـــسية إعـــادة ابتكار بالي في سوق السياحة الدولية وأطلقت لها حملة تسويق ضخمة وناجحة. والسياح الذين أغرتهم بالي مجـــدّداً كانوا من المثقفين الذين جذبهم الجمال الفني المتأصل في الثقافة البالينـــيّة. أمّا صفحات التاريخ السوداء فتمّ إغفالها، وظلّت مهملة منذ ذلك الحين.

هـــذه الحقائق التي اكتشفتُها خلال الساعات التي كنت أمضيها أقـــرأ في المكتبة المحلية سبّبت لي الإرباك. ما الذي أتى بـــي إلى بالي؟ سعيي إلى التوازن بين اللذة الدنيوية والتعبّد الروحاني، صحيح؟ هل أنا في المكـــان المناســـب لهـــذا البحث؟ هل يعيش البالينيون فعلاً في هذا الـــتوازن والـــسكينة أكثـــر من بقية أهل الأرض؟ أعني أنّهم يبدون متوازنين، مع كلّ الرقص والاحتفالات والجمال والابتسام، ولكنّني لا أعرف ما الذي يجري فعلاً خلف كلّ هذا. رجال الشرطة يضعون فعلاً أزهـــاراً خلف آذانهم، ولكنّ الفساد يعمّ أرجاء بالي، كما هو الحال في مخـــتلف أنحـــاء إندونيسيا (كما تبيّن لي شخصيًّا في اليوم الفائت حين دســـست لرجل يرتدي بزّة رسمية بضع مئات من الدولارات ليمدّد لي تأشـــيرتي وأتمكّـــن مـــن البقاء في بالي لأربعة أشهر). البالينيون أوفياء للصورة التي تجعل منهم شعباً مسالماً ومتعبّداً وبارعاً في التعبير الفني أكثر مـــن أيٍّ من شعوب العالم، ولكن كم من هذه الصفات حقيقي وكم منها محسوب اقتصاديًّا؟ وكم يمكن لغريب مثلي رؤية الضغوط الكامنة خلـــف تلـــك *الوجوه المشرقة*؟ هذا المكان هو مثل أيّ مكان آخر في

العـــالم، حين تتأمّل الصورة عن كثب، تبدأ الخطوط البارزة بالتلاشي وتتحوّل إلى مزيج غامض من الألوان الضبابية.

ما أنا أكيدة منه الآن هو أنّني أحبّ المنـــزل الذي استأجرته وأنّ الناس في بالي كانوا لطفاء معي من دون استثناء. أجد فنّهم وطقوسهم جميلة ومجدِّدة، وهذا ما يظنّونه هم أيضاً على ما يبدو. هذه هي تجربتي في مكان أكثر تعقيداً ممّا ظننت. ولكن مهما احتاج الباليبيون إلى فعله لـــيحافظوا على توازنهم ويكسبوا قوتهم، فإنّ الأمر من شأنهم وحدهم. أنا هنا للعمل على توازني وحسب، ولا يزال المكان يبدو لي، حتى الآن على الأقلّ، مناخاً مناسباً لذلك.

81

لا أعرف كم عمر عرّافي. سألته ولكنّه ليس أكيداً. أذكر أنّني حين أتـــيت إلى بـــالي منذ عامَين، أخبرنا المترجم أنّه في العقد الثامن من عمره. ولكنّ ماريو سأله مؤخّراً عن سنّه وأجاب كيتوت: "ربّما خمس وستّون، لـــست أكيداً". وحين سألته عن العام الذي ولد فيه، أجاب بأنّه لا يذكر أنّـــه وُلـــد. أعرف أنّه كان راشداً خلال الاحتلال الياباني لبالي في الحرب العالمية الثانية، ما يعني أنّه الآن في العقد الثامن من عمره تقريباً. ولكن حين أخبرني قصّة احتراق ذراعه وهو شابّ، وسألته متى حدث ذلك، قال: "لا أعرف، ربّما عام 1920؟" بالتالي، إن كان في حوالى العشرين عام 1920، ما سنّه الآن؟ ربّما مئة وخمس سنوات؟ إذاً، يمكننا القول إنّ عمره يتراوح بين خمس وستين ومئة وخمس سنوات.

لاحظـــت أيـــضاً أنّ تقديره لسنّه يتغيّر بين يوم وآخر، بحسب وضـــعه. فحـــين يكون متعباً جداً، يتنهّد قائلاً: "ربّما خمس وثمانون

السيوم"، ولكن حين يكون أكثر سعادة ونشاطاً يقول: "أظنّ أنّني في الستين اليوم". وأظنّ أنّ هذه الطريقة هي الأفضل لتقدير العمر: كم تشعر بأنّ عمرك؟ وهل للأمر أهمية فعلاً؟ مع ذلك، أحاول دوماً تقدير عمره. سألته يوماً ببساطة شديدة: "كيتوت، متى ذكرى ميلادك؟".

أجاب: "الخميس".

"هذا الخميس".

"كلا. ليس هذا الخميس بل يوم خميس".

تلك بداية جيّدة... ولكن لا مزيد من المعلومات؟ يوم خميس من أيّ شهر؟ من أيّ سنة؟ لا إجابة. على أي حال، اسم اليوم الذي ولدت فيه هو أكثر أهمية في بالي من العام، لهذا السبب، ومع أنّ كيتوت لا يعرف تاريخ ميلاده، إلاّ أنّه أخبرني بأنّ شيفا المعظم هو راعي مواليد يوم الخميس، وأنّ لهذا اليوم روحين حيوانيتين ترشدانه هما الأسد والنمر. أمّا الشجرة الرسمية لمواليد يوم الخميس فهي الأثأب، والطير الرسمي هو الطاووس. والشخص المولود يوم الخميس يتحدّث دائماً أوّلاً ويقاطع الجميع، وقد يكون عدوانيًّا بعض الشيء ولكنّه يميل إلى الوسامة ولديه طباع محترمة عموماً كما يتمتّع بذاكرة ممتازة ورغبة بمساعدة الناس.

حين يتلقّى كيتوت زيارات من مرضى باليين يعانون من مشاكل صحية أو اقتصادية أو عاطفية خطيرة، يسألهم دوماً في أيّ يوم من أيام الأسبوع ولدوا، لكي يعدّ لهم العلاجات والصلوات المناسبة. ففي بعض الأحيان، يقول كيتوت: "يمرض الناس من تاريخ ميلادهم". ويحتاجون إلى تعديل فلكي يعيد إليهم التوازن. في أحد الأيام، أحضرت عائلة تعيش في البلدة أصغر أبنائها لرؤية كيتوت. كان الطفل في الرابعة من عمره تقريباً. سألت عن المشكلة فترجم لي كيتوت بأنّ العائلة قلقة

من "مشاكل مع عدوانية هذا الصبي. هذا الصبي لا يسمع الأوامر. سلوك سيّئ. لا انتباه. كلّ من في المنزل تعب من هذا الصبي. أيضاً، في بعض الأحيان يصاب هذا الصبي بالدوار".

سأل كيتوت الأبوين ما إذا كان بإمكانه حمل الطفل قليلاً. فوضعاه في حجره، واستند إلى صدر العرّاف العجوز مسترخياً وغير خائف. حمل كيتوت الطفل بحنان ووضع راحته على جبينه وأغمض عينيه. ثمّ وضع راحته على بطن الصبي وأغمض عينيه ثانية. كان يبتسم، ويتحدّث إليه بلطف طيلة الوقت. انتهى الفحص بسرعة، فأعاد كيتوت الطفل إلى والديه وسرعان ما غادر الثلاثة مع وصفة وبعض الماء الذي تلا عليه الأدعية. ثمّ أخبرني كيتوت أنّه سأل الأبوين عن ظروف ولادة الطفل واكتشف بأنّه ولد تحت نجم سيّئ يوم السبت؛ وهو يوم يحتوي على عناصر أرواح يحتمل أن تكون سيّئة، مثل روح الغراب وروح البومة وروح الديك (وهذا ما يجعل الطفل مشاكساً) وروح الدمية (وهذا ما يسبّب له الدوار). ولكن ليس الأمر سيّئاً تماماً. فجسد الطفل الذي يولد يوم السبت يحتوي على روح قوس قزح وروح الفراشة، اللتين يمكن تقويتهما. وينبغي تقديم سلسلة من القرابين لإعادة التوازن إلى الطفل.

سألته: "لماذا وضعت يدك على جبين الطفل ومعدته؟ هل كنت تتحقق من حرارته؟".

أجاب: "كنت أتحقّق من دماغه، لأرى ما إذا كان ثمّة أرواح شرّيرة في عقله".

"أيّ نوع من الأرواح الشرّيرة؟".

"أنا باليني يا ليز. أعتقد أنّ الأرواح الشريرة تخرج من الأنهار وتؤذي الناس".

"وهل كان ثمّة أرواح شرّيرة لدى الطفل؟".

"كلاّ. كان مرضه في تاريخ ميلاده وحسب. ستقوم عائلته بتقديم ذبيحة. سيكون هذا كافياً. ماذا عنك، ليز؟ هل تمارسين التأمّل البالييني كلّ ليلة؟ هل تحافظين على نظافة عقلك وقلبك؟".

وعدته قائلة: "كلّ ليلة".

"هل تتعلّمين الابتسام حتى بكبدك؟".

"حتى بكبدي، كيتوت. ابتسامة عريضة بكبدي".

"جيد. هذه الابتسامة ستجعلك امرأة جميلة. ستعطيك القوة لتكوني جميلة. ويمكنك استعمال هذه القوة - القوة الجميلة! - لتحصلي على ما تريدين في الحياة".

كرّرت بعده: "القوّة الجميلة!" وأحببتها. وكأنّني دمية متأمّلة. "أريد قوّة جميلة!".

"أما زلت تمارسين التأمّل الهندي أيضاً؟".

"كلّ صباح".

"جيّد. لا تنسي اليوغا. فهي مفيدة لك. من المفيد ممارسة طريقتي التأمّل، الهندية والبالينيّة. فهما مختلفتان ولكنّ فائدتهما متساوية. إنهما سيان".

"لا يفكّر جميع الناس بهذه الطريقة، كيتوت".

قال: "لا ضرورة لذلك. لديَّ فكرة جيدة. إن التقيت بشخص من معتقد مختلف وأراد الجدال معك أصغي لما يقوله. لا تتجادلي معه أبداً. أفضل ما تقولينه: "أنا أوافقك الرأي". ثمّ اذهبي إلى بيتك، وتأملي كما تشائين. هذه فكرتي للتوصّل إلى السلام بين المعتقدات".

لاحظت بأنّ كيتوت يبقي ذقنه مرفوعة طيلة الوقت، ويرجع رأسه قليلاً إلى الوراء، على نحو ساحر وأنيق في الوقت نفسه. ينظر إلى العالم كله من فوق أنفه، وكأنّه ملك عجوز فضولي. بشرته سمراء ذهبية

لامعة. رأسه أصلع تقريباً، ولكنّه يتمتّع عوضاً عن الشعر برموش طويلة وممتلئة، كجناحي طائر متلهّف للطيران. وباستثناء فمه المفتقر إلى الأسنان ويده التي تحمل ندب الحروق، يبدو في صحّة ممتازة. أخبرني بأنّه كان راقصاً في شبابه، وبأنّه كان جميلاً حينها. أصدّق ذلك. فكيتوت يتناول وجبة واحدة في اليوم، تتألف من طبق بالييني بسيط من الأرزّ الممزوج إمّا بلحم البطّ أو بالسمك. كما يحبّ شرب فنجان واحد من القهوة مع السكّر كلّ يوم، احتفالاً بقدرته على احتمال القهوة والسكّر. بإمكانك أنت أيضاً أن تعيش مئة وخمسة أعوام على هذا النظام الغذائيّ. يقول إنه يحافظ على قوّته بالتأمّل كلّ ليلة قبل النوم وسحب الطاقة المفيدة الموجودة في الكون إلى داخله. فبحسب قوله، يتألّف الجسد من العناصر الخمسة التي تتألّف منها جميع المخلوقات، لا أكثر ولا أقلّ: الماء (*apa*)، النار (*tejo*)، الهواء (*bayu*)، السماء (*akasa*) والتراب (*pritiwi*)، وكلّ ما عليك فعله هو التركيز على هذه الحقيقة في أثناء التأمّل وستحصل على الطاقة منها جميعاً وستبقى قوياً. ويشرح ذلك قائلاً: "الكون الصغير يصبح الكون الكبير. الكون الصغير، أي أنت، يصبح سيان مع الكون الكبير".

كان كيتوت اليوم شديد الانشغال، فقد غصّت باحة منزله بالمرضى البالينيين، وبدت أشبه بباصات النقل العامّ، جميعهم يحملون الأطفال أو الهدايا في أحضانهم. كان لديه المزارعون ورجال الأعمال، الآباء والجدّات. كان ثمّة أهل مع أطفالهم الذين يعانون من التقيّؤ ورجال عجائز تلاحقهم اللعنات. كان ثمّة شباب تتقاذفهم مشاعر العدوانية والشهوة وشابات يبحثن عن الحبّ، فيما يتذمّر الأطفال الصغار من الطفحات الجلدية. كان الجميع يعاني من اختلال في التوازن، الجميع يحتاج إلى إعادة التوازن إلى أجسادهم.

مع ذلك، كان الصبر هو المزاج السائد في باحة كيتوت دوماً. إذ ينبغـي على البعض الانتظار لثلاث ساعات قبل أن يجد كيتوت الوقت لهم، ولكنّ أحداً منهم لا ينقر الأرض بقدمه أو ينظر إلى الأعلى تذمّراً. والأعجـب من ذلك أيضاً، الطريقة التي ينتظر بها الأطفال، متّكئين إلى صـدور أمّهـاتهنّ الجميلات، يلعبون بأصابعهم لتمضية الوقت. وقد فوجـئت لاحقاً حين اكتشفت بأنّه تم إحضار هؤلاء الأطفال الهادئين لأنّهـم بـرأي أهلهم *سيّئو السلوك* ويحتاجون إلى علاج. تلك الفتاة الصغيرة؟ تلك الطفلة ذات الأعوام الثلاثة التي كانت جالسة بصمت في الـشمس لأربع ساعات متواصلة، من دون تذمّر أو طعام أو لعبة؟ هي سـيّئة السلوك؟ تمنّيت لو أمكنني أن أقول لهم: "أيّها الناس، تعالوا إلى أميركـا لتروا سوء السلوك على حقيقته. تعالوا لأريكم بعض الأطفال الـذين سيدفعونكم إلى الجنون". ولكنّ مقاييس السلوك الحسن مختلفة هنا بالنسبة إلى الأطفال.

عـالج كيـتوت جمـيع المرضى بلطف، من دون الاهتمام بمرور الـوقت، وأعطى لكلّ فرد الاهتمام الذي يحتاج إليه بغضّ النظر عمّن يكون المريض التالي. وكثرة انشغاله حالت دون أن يتناول حتى وجبته الوحـيدة في وقت الغداء، بل ظلّ مسمّراً على شرفته، ملتزماً باحترامه لأسلافه، وجلس هناك لساعات متواصلة لمعالجة الجميع. بحلول المساء، بـدت عيناه متعبتين كعيني جرّاح في ساحة حرب أهلية. وكان آخر مرضاه لذلك اليوم رجل باليني يعاني من اضطراب شديد ويشتكي من قلّـة النوم منذ أسابيع بسبب كابوس يلاحقه حسب قوله، إذ إنّه يرى نفسه *يغرق في نهرين في الوقت نفسه*.

حـتى هذا المساء، لم أكن واثقة من دوري في حياة كيتوت لاير. كـنت أسأله كلّ يوم ما إذا كان أكيداً من رغبته في أن أكون عنده،

وظلّ يصرّ بأن آتي لأمضي الوقت معه. كنت أشعر بالذنب لأنّني آخذ كثيراً من وقته، ولكنّ علامات الخيبة كانت تعلو وجهه كلّ يوم حين أغـادر منـزله في آخـر النـهار. ولم أكن أعلّمه الإنكليزية فعلاً. فإنكليـزيته التي تعلّمها منذ عقود قد حفرت في ذهنه ولم يعد ثمّة مجال كـبير للتصحيح أو لإدخال مفردات جديدة. وكلّ ما أمكنني التوصّل إلـيه هو جعله يقول "سعيد لرؤيتك"، حين أصل عوضاً عن "تشرّفت بلقائك".

حـين غـادر آخر مرضى كيتوت الليلة، وبدا منهكاً من كثرة العمـل، سـألته ما إذا كان يجدر بـي الذهاب وتركه يرتاح قليلاً، فأجـاب: "لـديَّ دوماً الوقت لك". ثمّ طلب منّي أن أخبره عن الهند وأميركـا وإيطالـيا وعـائلتي. هنا أدركت أنّني لست مدرّسة اللغة الإنكليـزية بالنـسبة إليه، ولا تلميذة لاهوت، بل أنا من أبسط المتع بالنسبة إلى هذا العرّاف العجوز، أنا رفيقته. أنا شخص يحبّ التحدّث معه لأنّه يستمتع بسماع القصص عن العالم الذي لم يحصل على فرصة رؤيته.

وخـلال الساعات التي قضيناها على الشرفة، طرح عليَّ كيتوت أسـئلة عـن كلّ شيء، من أسعار السيارات في مكسيكو إلى أسباب مـرض الإيدز. (بذلت جهدي في المجالين، مع أنّني أعتقد بأنّه ثمّة خبراء كانـوا ليفيدونه أكثر منّي). لم يغادر كيتوت جزيرة بالي في حياته. لا بـل قلّما غادر شرفته في الواقع. فقد ذهب مرّة إلى جبل آغونغ، أكبر وأهـمّ بركان في بالي على الصعيد الروحي، ولكنّ الطاقة هناك كانت حـسب قـوله قوية جداً إلى حدّ أنّه بالكاد أمكنه التأمّل خوفاً من أن تبـتلعه الـنار المقدّسـة. كما أنّه يذهب إلى المعبد للاحتفالات الهامّة ويُدعـى إلى مـنازل جيرانه لأداء مراسم الزواج أو البلوغ، غير أنّه في

معظم الأحيان، يتواجد هنا، متربّعاً على حصيرة الخيزران ومحاطاً بالموسوعات الطبية المكتوبة على ورق النخيل التي آلت إليه من جدّه، يعتني بالناس، يسكّن العفاريت ويستمتع من وقت إلى آخر بفنجان من القهوة مع السكّر.

قال لي اليوم: "حلمت بك في الليلة الماضية. رأيتك تركبين الدراجة في أيّ مكان".

لأنّه توقّف لبرهة، صحّحت له قائلة: "هل تعني أنّك حلمت بأنّني أركب الدراجة في *كلّ مكان*؟".

"أجل! حلمت البارحة أنّك تركبين دراجتك في أيّ مكان وفي كلّ مكان. كنت سعيدة جداً في حلمي! كنت تجوبين العالم على دراجتك. وأنا أتبعك!".

ربّما يتمنّى لو يستطيع ذلك.

قلت له: "ربّما أمكنك المجيء لزيارتي في أميركا يوماً ما، كيتوت".

هزّ رأسه نافيًّا ومستسلماً بمرح لقدره: "لا يمكنني يا ليز. لا أملك ما يكفي من الأسنان للسفر بالطائرة".

82

بالنسبة إلى زوجة كيتوت، استغرقني الأمر بعض الوقت للاتفاق معها. نيومو، كما يناديها كيتوت، هي امرأة كبيرة وممتلئة، عريضة الوركين، أسنانها تحمل بقعاً حمراء بسبب مضغ التبغ. أصابع قدميها معقوفة على نحو مؤلم بسبب التهاب المفاصل، ولديها نظرة حادّة. بدت لي مخيفة منذ النظرة الأولى. فهي تتمتّع بشكل المرأة العجوز الشرسة التي تراها أحياناً لدى الأرامل الإيطاليات والنساء السوداوات

المــستقيمات. تبدو وكأنّها ستعاقبك على أبسط الأخطاء. كانت في البداية متشكّكة تجاهي بوضوح؛ *من هو هذا الفلامينكو الذي يتسكّع في داري كــلّ يــوم؟* كانت تحدّق إليّ من داخل مطبخها المعتِم، غير واثقة من حقّي في الوجود. وكنت أبتسم لها بينما تواصل هي التحديق إليّ محاولة أن تقرّر ما إذا كان ينبغي عليها طردي بالمكنسة أم لا.

ولكن تغيّر شيء ما يوماً. وكان ذلك بعد حادثة آلة التصوير.

يملك كيتوت لاير أكواماً من الدفاتر الممتلئة بكتابات صغيرة من الأســـرار العلاجية الباليتيّة السنسكريتية. كان قد نسخ تلك المعلومات علـــيها في الأربعينـــيات أو الخمسينيات، بعد وفاة جده، لتسجيل كلّ تلـــك المعلـــومات الطبية. تلك الدفاتر لم تكن تقدّر بثمن. فهي تضمّ مجلّـــدات مــــن المعلومات عن أشجار نادرة وأوراق ونباتات مع كلّ مواصفاتها الطبية. ولديه ستون صفحة من الرسومات عن قراءة الكفّ، ومزيد من الدفاتر عن المعلومات الفلكية والمانترا والرقيات والعلاجات. إلاّ أنّ تلـــك الدفاتر أصبحت مهترئة بفعل عقود من العفن والفئران. كانـــت صفراء، مفتّتة وبالية وكأنّها أكوام يابسة من أوراق الخريف. وكلّما قلب صفحة، تمزّقت في يده.

قلـــت لـــه الأســـبوع الفائت وأنا أحمل أحد دفاتره المتهالكة: "كيـــتوت، أنـــا لـــست طبيبة مثلك، ولكنّني أعتقد بأنّ هذا الكتاب يحتضر".

ضحك قائلاً: "تعتقدين أنّه يحتضر؟".

قلت له بجدية: "سيدي، سأعطيك رأيي المهنيّ، إن لم يحصل هذا الكتاب على بعض المساعدة، فسيموت خلال ستة أشهر".

ثمّ ســـألته مـــا إذا كان يسمح لي بأخذ الدفتر إلى البلدة لتصوير نـــسخة فوتوغرافية عنه قبل أن يموت. وكان عليّ أن أشرح له ما معنى

نسخة فوتوغرافية وأن أعده بأنّني لن أحتفظ به لأكثر من أربع وعشرين ساعة وسأعيده سالماً. وافق أخيراً على السماح لي بإخراج الكتاب من الشرفة مع وعودي الصادقة بأن أحافظ على حكمة جدّه. قدت دراجتي إلى المحلّ الذي يحتوي على حواسيب لاستعمال الإنترنت وآلات تصوير وصوّرت كلّ صفحة بحذر شديد، ثمّ جمعت النسخ الجديدة النظيفة في غلاف جميل من النايلون. ثمّ أحضرت النسختين القديمة والجديدة معي في اليوم التالي قبل الظهر. كان كيتوت مذهولاً وسعيداً لأنّه يملك هذا الكتاب منذ خمسين سنة على حدّ قوله. ما قد يعني فعلاً خمسين سنة أو منذ وقت طويل جداً وحسب.

سألته ما إذا كان يسمح لي بتصوير بقية الدفاتر للحفاظ على تلك المعلومات أيضاً. فأعطاني دفتراً آخر متهالكاً وممزّقاً يلفظ آخر أنفاسه، يحتوي على رسومات بالينيّة سنسكريتية معقّدة.

قال: "مريض آخر!".

أجبته: "دعني أعالجه!".

حقّقت نجاحاً باهراً آخر. وبنهاية الأسبوع، كنت قد نسخت عدّة مخطوطات قديمة. كلّ يوم، كان كيتوت ينادي زوجته ويريها النسخ الجديدة بفرح عارم. ومع أنّ ملامح وجهها لم تتغيّر إطلاقاً، إلاّ أنّها كانت تتفحّص الدليل جيّداً.

يوم الاثنين التالي، حين أتيت لزيارة كيتوت، أحضرت لي نيومو القهوة الساخنة، في مرطبان للحلوى الهلامية. شاهدتها تحمل القهوة عبر الباحة على صحفة صينية، تعرج ببطء في أثناء رحلتها الطويلة من المطبخ إلى شرفة كيتوت. ظننت بأنّ القهوة لزوجها، ولكنّه كان قد شرب فنجانه. كانت تلك القهوة لي. حضّرتها لي أنا. حاولت شكرها ولكنّها بدت منزعجة من شكري، واكتفت بدفعي كما تدفع الديك

الذي يحاول دوماً الوقوف على طاولة المطبخ الموضوعة في الخارج وهي تحضّر الغداء. غير أنّها في اليوم التالي، أحضرت لي كأساً من القهوة ووعاءً من السكّر إلى جانبه. وفي اليوم التالي، كان كأساً من القهوة مع وعاء من السكّر وحبّة بطاطا مسلوقة باردة. كانت تضيف كلّ يوم شيئاً جديداً. وبدا الأمر شبيهاً بلعبة الأحرف الأبجدية التي كنّا نلعبها في رحلات السيارة: "ذهبت عند جدتي وأحضرت إجاصة... ذهبت عند جدتي وأحضرت إجاصة وبالوناً... ذهبت عند جدتي وأحضرت إجاصة وبالوناً وفنجان قهوة في مرطبان للحلوى الهلامية ووعاء من السكرّ وبطاطا باردة...".

البارحة، كنت أقف في الباحة أودّع كيتوت، أتت نيومو تجرّ قدميها وهي تكنس مدّعية بأنّها لا تنتبه إلى كلّ ما يجري في إمبراطوريّتها. كانت يداي مشبوكتين خلف ظهري وكنت أقف هناك، فأتت من خلفي، وأمسكت إحدى يدي. تحسّست يدي وكأنّها تحاول فتح قفل، ثمّ عثرت على سبّابتي. فلفّت قبضتها الكبيرة القوية حول إصبعي، وشدّت عليه طويلاً بعمق. تمكّنت من الإحساس بحبّها وهو ينبض عبر قبضتها القوية ليصعد عبر ذراعي ويصل إلى أحشائي. ثمّ تركَت يدي، وعرجت مبتعدة من دون أن تنبس ببنت شفة، وتابعت عملها وكأنّ شيئاً لم يحدث. أمّا أنا، فوقفت هناك بهدوء أغرقُ في نهرين من السعادة في الوقت نفسه.

83

لديَّ صديق إندونيسي جديد يدعى يوداي، أصله من جافا. تعرّفت به لأنّه هو من أجّرني المنزل، فهو يعمل لحساب المرأة الإنكليزية التي تملك البيت، يعتني بأملاكها حين تكون في لندن في

الصيف. يبلغ يوداي سبعة وعشرين عاماً، قصير القامة، ممتلئ الجسم، يتحدّث مثل رياضي يركب الأمواج من جنوب كاليفورنيا. يقول لي *يا صاح* طيلة الوقت. لديه ابتسامة يمكنها إيقاف جريمة فضلاً عن قصة حياة طويلة ومعقّدة بالنسبة إلى رجل بسنّه.

ولد يوداي في جاكارتا. والدته سيدة منزل ووالده من هواة إلفيس، يملك متجراً صغيراً لبيع المكيّفات والبرّادات. كانت العائلة مسيحية، وهو أمر غريب في تلك البقعة من العالم. لم تكن أمه تحبّ أن تراه يتسكّع مع أطفال من غير معتقده الديني لسبب بسيط، هو أنّهم يمشون حفاةً دائماً، وكان يوداي يحبّ ذلك، ما اعتبرته منافياً لشروط النظافة. فأعطت ابنها خيارين، إمّا ينتعل حذاءه ويلعب في الخارج أو يبقى حافياً ويلازم البيت. وبما أنّ يوداي لم يكن يحبّ انتعال الأحذية، أمضى جزءاً كبيراً من طفولته ومراهقته في غرفة نومه، وهناك تعلّم العزف على الغيتار، حافياً.

يتمتّع الشابّ بأذن موسيقية لم أرَ مثلها في حياتي. فهو يعزف بشكل رائع، مع أنّه لم يتلقَّ أيّ دروس، إلاّ أنّه يفهم اللحن والتناغم وكأنّه نشأ معهما. يمزج الموسيقى الغربية والشرقية على نحو يصعب وصفه. في الواقع يجدر بهذا الرجل أن يكون مشهوراً. لم أعرف أحداً سمع موسيقى يوداي إلاّ وأكّد أنه يجب أن يكون مشهوراً.

لطالما رغب يوداي أكثر من أيّ شيء في العالم، بالعيش في أميركا والعمل في الاستعراضات. هكذا، حين كان لا يزال مراهقاً جافانيًّا، تمكّن من الحصول على عمل على إحدى السفن (وبالكاد كان يتحدّث الإنكليزية حينها) وأخرج نفسه من محيط جاكارتا إلى العالم الأزرق الكبير. كان العمل الذي حصل عليه على السفينة من تلك الأعمال المذِلّة التي يقوم بها المهاجرون، بحيث يعيشون في الحضيض ويعملون

اثنتي عشرة ساعة في اليوم في التنظيف، وتقتصر إجازتهم على يوم واحد في الشهر. كان زملاؤه من الفليبينيين والإندونيسيين. وكان الإندونيسيون والفليبينيون ينامون في قسمين منفصلين من المركب تجنّباً لأيّ اختلاط، ولكنّ يوداي صادق الجميع وتحوّل إلى وسيط بين المجموعتين من العمال الآسيويين. كان يرى كثيراً من الشبه عوضاً عن الاختلاف بين أولئك الخدم والحرس والعاملين في جلي الصحون، الذين يعملون جميعاً لساعات متواصلة لكي يرسلوا مئة دولار تقريباً كلّ شهر إلى أهلهم في الوطن.

في المرّة الأولى التي دخلت فيها السفينة إلى ميناء نيويورك، ظلّ يوداي مستيقظاً طيلة الليل، جاثماً في أعلى مكان من ظهر المركب، يراقب المدينة وهي تظهر في الأفق، وقلبه ينبض فرحاً. بعد ساعات، نزل من السفينة إلى نيويورك، وأوقف سيارة أجرة صفراء، تماماً كما في الأفلام. وحين سأله المهاجر الأفريقي الذي أتى مؤخّراً إلى المدينة إلى أين يريد الذهاب، أجابه: "إلى أيّ مكان يا صاح، خذني في جولة وحسب. أريد رؤية كلّ شيء". وبعد بضعة أشهر، عادت السفينة إلى نيويورك مجدّداً، وهذه المرّة نزل يوداي منها نهائياً. كان عقده مع السفينة قد انتهى ويريد العيش في أميركا الآن.

انتهى به الأمر في نيوجيرسي، من بين كلّ الأمكنة، وعاش هناك لفترة مع رجل إندونيسي التقى به على متن السفينة. حصل على عمل في محلّ للشطائر في مركز تجاري، وراح يعمل مجدّداً من عشر إلى اثنتي عشرة ساعة في اليوم، مع المكسيكيين هذه المرّة، وليس الفليبينيين. فتعلّم من الإسبانية أكثر من الإنكليزية في تلك الشهور الأولى. وفي لحظات فراغه القليلة، كان يستقلّ الباص إلى منهاتن، ويهيم في الشوارع، مفتوناً بالمدينة التي يصفها اليوم بأنّها

المكـــان الأكثـــر امتلاءً بالحب في العالم كلّه. وحدث أن التقى في نيويورك (تلك الابتسامة مجدّداً) بمجموعة من الموسيقيين الشباب من مخـــتلف أنحاء العالم، وراح يعزف معهم على الغيتار، يؤدّي الألحان الجميلة طيلة الليل مع شباب موهوبين من جامايكا وأفريقيا وفرنسا والـــيابان... وفي إحدى تلك الحفلات، التقى آن، شقراء جميلة من كونكتيكت وهي الأخرى عازفة. فأغرما ببعضهما وتزوّجا. ثمّ عثرا على شقّة في بروكلين وكانا محاطَين بالأصدقاء الذين يسافران معهم في رحـــلات بـــرية إلى فلوريدا كيز. كانت حياتهما سعيدة جداً. وســـرعان مـــا أصـــبحت إنكليزيته ممتازة. حتى إنّه كان يفكر في الدخول إلى الجامعة.

في 11 أيلـــول، شاهد يوداي البرجين يتهاويان من سطح منـــزله في بـــروكلين. وكالجمـــيع، هاله ما حدث. كيف يمكن لأيٍّ كان أن يتصرّف بهذه الوحشية المروّعة تجاه المدينة الأكثر امتلاءً بالحبّ من أيّ مكان آخر في العالم؟ ولا أعرف كم كان يوداي واعياً لما يحدث حـــوله حـــين أصدر الكونغرس الأميركي قانون الوطنية في أعقاب الهجمـــات الإرهابية. واحتوى التشريع الجديد على قوانين جديدة ومتـــشدّدة للهجرة، كثير منها كان موجّهاً ضدّ الدول الإسلامية، كإندونيسيا. ونصّ أحد تلك الأحكام على أن يقوم جميع المواطنين الإندونيـــسيين الذين يعيشون في أميركا بالتسجيل لدى قسم الأمن الـــوطني. وبـــدأت الهواتـــف تـــرنّ. حيـــنها أخذ يوداي ورفاقه الإندونيـــسيون المهاجـــرون يفكّـــرون في ما يفعلونه، فكثير منهم انقضت مدّة تأشيرتهم وكانوا يخشون من أن يؤدي بهم التسجيل إلى تـــرحيلهم عـــن البلاد. من جهة ثانية، فإنّ عدم التسجيل يجعلهم مجرمين. لا شكّ بأنّ الإرهابيين الأصليين الذين يحومون حول أميركا

يجهلون هذا القانون، ولكن يوداي قرر التسجيل. كان متزوّجاً من أميركية وأراد تجديد وضعه كمهاجر لكي يصبح مواطناً شرعيًّا. ولم يكن يريد أن يعيش مختبئاً.

استشار هو وآن عدداً كبيراً من المحامين، ولكنّ أحداً لم يستطع أن يقـدّم له المشورة. فقبل 11 أيلول، كانت الأمور بسيطة جداً، كان على يوداي أن يذهب إلى مكتب الهجرة ويجدّد تأشيرته لتبدأ عملية اكتساب الجنسية. أمّا الآن؟ من يعلم؟ *لم تتمّ تجربة القوانين الجديدة بعد*، هذا ما قاله محامو الهجرة. *ستتمّ تجربة القوانين عليكما*. هكذا قام يوداي وزوجته بمقابلة مع موظّف هجرة لطيف ورويا له قصّتهما. فقيل لهما إنّ على يوداي العودة مجدّداً إلى المكتب عصر ذلك اليوم *لمقابلة ثانية*. كان عليهما الانتباه حينها. فقد أعطي يوداي أوامر مشدّدة بأن يعود وحيداً من دون محامٍ ومن دون أيّ أموال. تأمّل يوداي خيراً، وعاد بالفعل وحيداً فارغ اليدين للمقابلة الثانية، ليفاجأ باعتقاله.

نُقل إلى معتقل في إليزابيث، نيوجيرسي وظلّ فيه لأسابيع بين مجموعة كبيرة من المهاجرين الذين تمّ توقيفهم مؤخّراً بموجب قانون الأمن الوطني، وكثير منهم كانوا يعيشون ويعملون في أميركا منذ سنوات ومعظمهم لا يتحدّثون الإنكليزية. ولم يتمكّن بعضهم من الاتصال بعائلتهم عند توقيفهم. ولم يكن يسمح برؤية المعتقلين، لم يعد أحد يعرف بأنّهم موجودون. استغرقت آن التي كانت في حالة هستيرية تقريباً أياماً لمعرفة مكان زوجها. أكثر ما يتذكّره يوداي في المعتقل كان مجموعة من النيجيريين السود النحيلين والمذعورين، الذين تم العثور عليهم على متن باخرة نقل داخل قفص لشحن الفولاذ. ظلّوا مختبئين في ذلك المستوعب في قعر السفينة لشهر تقريباً قبل أن يتمّ

اكتشافهم وهم يحاولون دخول أميركا؛ أو أيّ مكان آخر. لم تكن لديهم فكرة عن مكانهم. كانت أعينهم المذهولة واسعة جداً، وكأنّهم، على حدّ قول يوداي، ما زالوا مبهورين بأضواء المصابيح بعد طول جلوسهم في الظلام.

بعد مدّة من الاعتقال، أرسلت الحكومة الأميركية صديقي المسيحي يوداي - الذي أصبح الآن مشتبهاً بكونه إرهابيًّا إسلاميًّا - إلى إندونيسيا ثانية. كان هذا في العام الماضي. لا أدري إن كان سيسمح له بالاقتراب من أميركا مجدّداً. وما زال هو وزوجته يحاولان التفكير في ما سيفعلانه بحياتهما الآن. فأحلامهما لم تكن تشتمل على العيش في إندونيسيا.

لم يتمكّن يوداي من التأقلم مع بطء وتيرة الحياة في جاكارتا بعد أن عاش في العالم المتحضّر. فأتى إلى بالي ليرى ما إذا كان سيتمكن من تأسيس حياة هنا، مع أنّه يواجه صعوبة في قبوله في هذا المجتمع لأنّه ليس بالينيًّا بل من جافا. والبالينيون لا يحبّون الجافانيين إطلاقاً، بل يعتبرونهم لصوصاً ومتسوّلين. وهكذا وقع يوداي هنا، في وطنه إندونيسيا، ضحية أحكام مسبقة أقسى من تلك التي واجهها في نيويورك. ولم يعد يعرف ماذا سيفعل، ربّما تلحق به زوجته آن إلى هنا. وربّما لا. ماذا ستفعل هنا؟ زواجهما القصير المستمرّ الآن عبر البريد الإلكتروني يتأرجح على شفير الهاوية. كما أنّه لا يشعر بالراحة هنا. فقد أصبح أميركياً أكثر من أيّ شيء آخر. أنا ويوداي نستخدم اللغة العامية نفسها، نتحدّث عن مطاعمنا المفضّلة في نيويورك ونحبّ أنواع الموسيقى نفسها. يأتي لزيارتي في المساء، فاقدّم له الشراب ويعزف لي ألحاناً مدهشة على غيتاره. أتمنّى لو أنّه كان مشهوراً.

وهو يقول: "يا صاح، لِمَ الحياة مجنونة بهذا الشكل؟".

84

"كيتوت، لِمَ الحياة مجنونة بهذا الشكل؟" سألت عرّافي في اليوم التالي.

أجاب: "بوتا إيا، دوا إيا".

"ما معنى ذلك؟".

"الإنسان خيّر، الإنسان شرير. كلاهما صحيحان".

كانت هذه الفكرة مألوفة جداً بالنسبة إليّ. فهي هندية جداً، يوغانية جداً. وتفيد الفكرة أنّ البشر ولدوا، بحسب ما شرحته مرشدتي مراراً، مع قدرتين متساويتين على الانقباض والتمدّد. فمكوّنات الظلام والنور موجودة بشكل متساوٍ لدينا جميعاً، ويعود إلى المرء (أو العائلة، أو المجتمع) القرار بغلبة أحدهما على الآخر: الفضيلة أو الرذيلة. ومعظم الجنون الذي يسود هذا الكوكب ناتج عن صعوبة توصّل الإنسان إلى توازن مع نفسه. فينتج عن ذلك الجنونُ (الجماعي والفردي على السواء).

"إذاً، ماذا يمكننا أن نفعل حيال جنون العالم؟".

"لا شيء"، قال كيتوت وهو يضحك بلطف ويضيف: "هذه طبيعة العالم. هذا هو القدر. لا تقلقي سوى على جنونك؛ توصّلي إلى السلام".

فسألته: "ولكن، كيف لنا أن نجد السلام في داخلنا؟".

"بالتأمّل. فهدف التأمّل الوحيد هو السعادة والسلام؛ سهل جداً. سأعلّمك اليوم طريقة تأمّل جديدة، تجعل منك شخصاً أفضل. اسمها تأمّل الإخوة الأربعة".

وراح كيتوت يشرح لي أنّ البالينيين يعتقدون أنّنا نولد مع أربعة إخوة غير مرئيّين، يرافقوننا إلى الدنيا ويحموننا خلال حياتنا. فحين

تكون الطفلة في الرحم، يكون إخوتها الأربعة معها هناك، وهم المشيمة والسائل النخطي والحبل السرّي والمادّة الشمعية الصفراء التي تحمي بشرة الجنين. وحين يولد الطفل، يجمع الأهل ما أمكنهم من هذه الموادّ ويضعونها في صدفة جوز الهند ويدفنونها بقرب الباب الأمامي لمنزل العائلة. وبالنسبة إلى البالينيين، فإنّ جوزة الهند تلك هي المكان الذي يرتاح فيه الإخوة الأربعة الذين لم يولدوا، وتتمّ العناية بتلك البقعة وكأنّها ضريح.

ويتمّ تعليم الطفلة منذ نعومة أظفارها أنّها تملك هؤلاء الإخوة الأربعة معها في الحياة أينما ذهبت، وبأنّهم سيعتنون بها دوماً. ويمثّل الإخوة الفضائل الأربعة التي يحتاج إليها المرء ليكون آمناً وسعيداً في الحياة: الذكاء، والصداقة، والقوّة، والشاعرية (أحببت هذه الأخيرة). ويمكن مناداتهم في أيّ لحظة حرجة طلباً للنجدة والمساعدة.

أخبرني كيتوت اليوم أنّه لم يعلّم أحداً من أبناء الغرب تأمّل الإخوة الأربعة بعد، ولكنّه يعتقد بأنّني جاهزة لذلك. فعلّمني أوّلاً أسماء إخوتي غير المرئيّين: أنغو باتي، مارادجو باتي، بانوس باتي وبانوس باتي رادجو. وأمرني بحفظ هذه الأسماء وبطلب مساعدة إخوتي كلّما احتجت إليهم. وقال إنّني لست مضطرّة إلى التحدّث معهم برسمية، بل يمكنني التوجّه إليهم بحنان، لأنّهم *عائلتك وحسب!* وطلب منّي أن أذكر أسماءهم وأنا أستحمّ في الصباح، وسينضمّون إليّ. وأن أقول أسماءهم ثانية قبل تناول الطعام، وسيستمتعون معي بالوجبة. كما يمكنني مناداتهم قبل الخلود إلى النوم قائلة: "سأنام الآن، وعليكم أن تبقوا مستيقظين لحمايتي"، فيقومون بحمايتي طيلة الليل من الكوابيس.

قلت له: "هذا جيد، لأنّني أعاني أحياناً مع الكوابيس".

"أيّ كوابيس؟".

أخـــبرت العرّاف أنّني أرى منذ طفولتي الكابوس نفسه، أنّ رجلاً يحمـــل ســـكيناً يقف بقرب سريري. وهذا الحلم حيّ جداً، والرجل حقيقـــي جـــداً إلى حدّ أنّني أستيقظ في بعض الأحيان وأنا أصرخ من الفـــزع وقلبـــــي ينـــبض بعنف (ولم يكن الأمر مسليًّا لمن يشاركني سريري أيضاً). أرى هذا الكابوس كلّ بضعة أسابيع منذ زمن طويل.

قـــال كيـــتوت إنني كنت أسيء فهم هذه الرؤية. فالرجل الذي يحمـــل السكين في غرفة نومي ليس عدوًّا، بل هو أحد إخوتي الأربعة. إنّهـــا روح الأخ الـــذي يمـــثّل القوّة. وهو لا يقف هناك لمهاجمتي بل لحمـــايتي وأنا نائمة. وربّما ما يوقظني هو شعوري باهتياج روح أخي وهي تحارب أحد الذين يحاولون إيذائي. وما يحمله أخي ليس سكيناً، بـــل كريس، خنجر صغير وقوي. لا يجدر بـــي أن أخاف، بل يمكنني العودة إلى النوم وأنا مطمئنّة لأنّني محمية.

قـــال كيـــتوت: "أنت محظوظة لأنّك تستطيعين رؤيته. أنا أرى إخوتي أحياناً في أثناء التأمّل، ولكن من النادر أن يراهم شخص عاديّ. أظنّ بأنّك تملكين قوة روحية كبيرة. قد تصبحين عرافة يوماً ما".

قلت وأنا أضحك: "حسناً، ولكن هذا إن حصلت على مسلسلي التلفزيوني الخاص بـــي".

ضحك معي مع أنّه لم يفهم النكتة بالطبع، ولكنّه يحبّ فكرة أن يمازحه الناس. ثمّ أخبرني كيتوت أنّه ينبغي عليَّ كلّما تحدّثت مع إخوتي الأربعـــة أن أذكر لهم من أنا كي يعرفوني. عليَّ استعمال اللقب الذي يطلقونه عليَّ، فأقول: "أنا لاغو برانو".

لاغو برانو تعني *الجسد السعيد*.

ركـــبت دراجتي عائدة إلى البيت، أدفع جسدي السعيد إلى أعلى التلال نحو منـــزلي تحت شمس المغيب. وفي طريقي عبر الغابة، قفز قرد

كـــبير عن الشجرة وحطّ أمامي وأظهر لي أنيابه. فلم أجفل حتى، بل قلت له: "ابتعد من هنا، جاك، لديَّ أربعة إخوة يحمونني"، ومررت من أمامه متابعةً طريقي.

85

مـــع ذلـــك (وعلى الرغم من الإخوة الأربعة القائمين على حمايتي) صــــدمني باص في اليوم التالي. كان باصاً صغيراً، إلاّ أنّه صدمني مع ذلك وأوقعـــني عن دراجتي وأنا أقودها على الطريق غير المسوّر لأنتهي في قناة إسمنتـــية للريّ. فأوقف حوالى ثلاثين بالينياً دراجاقم النارية لمساعدتي حين شاهدوا الحادث (وكان الباص قد رحل منذ وقت طويل)، ودعاني الجميع إلى مـــنازلهم لـــشرب الشاي أو لاصطحابـــي إلى المستشفى، فقد كانوا آســـفين جداً لما حدث. لم يكن الحادث خطيراً، بالنسبة إلى ما كان يمكن أن يقـــع. كانـــت الدراجـــة بحالة جيدة، إلاّ أنّ السلّة التوَت وانكسرت الخوذة. (والخوذة أفضل من الرأس في هذه الحالات). إلاّ أنّ الضرر الأسوأ هـــو ذاك الـــشقّ العمـــيق الـــذي أصاب ركبتي، والذي امتلأ بالتراب والأوساخ، ما أدّى إلى إصابته بالتهاب قوي تحت تأثير الرطوبة الاستوائية.

لم أشـــأ إثـــارة قلق كيتوت، ولكنّني قرّرت أن أريه جرحي بعد بـــضعة أيام ونحن على الشرفة. فرفعت ساق بنطالي ونزعت الضمادة الصفراء. حدّق كيتوت إلى الجرح بقلق وقال: إنّه ملتهب. مؤلم".

"أجل".

"عليك الذهاب إلى الطبيب".

كـــان هذا مثيراً للاستغراب بعض الشيء. ألم يكن طبيباً؟ ولكن لسبب ما، لم يتبرّع لمساعدتي، ولم ألحّ على ذلك. ربّما لم يكن يصف

الأدويـــة للغربيّين. أو ربّما كان لدى كيتوت خطّة سرّية لأنّ جرحي كان هو السبب في لقائي بوايان. وإثر ذلك اللقاء، كلّ ما كان مقدّراً له أن يحدث... حدث بالفعل.

86

وايان نورياسي هي معالجة بالينيّة، شأنها شأن كيتوت، مع بعض أوجـــه الاختلاف. فهو رجل عجوز وهي امرأة في أواخر العقد الثالث مـــن عمـــرها. هو أكثر شبهاً بالنساك، وأكثر غموضاً، أمّا هي فطبيبة أكثـــر عملـــية، تمـــزج الأعشاب والأدوية في متجرها الخاص وتعتني بالمرضى مباشرة.

تملـــك وايان متجراً في وسط أوبود يعرف **بمركز العلاج البالين التقلـــيدي**. مررت من أمامه على درّاجتي مرات عديدة وأنا في طريقي إلى منـــــزل كيتوت، وكنت ألاحظه بسبب النباتات الكثيرة المزروعة في أُصـــص خـــارج المتجر وبسبب اللوحة التي كتب عليها بخطّ اليد الإعلان الغريب التالي: **وجبة غداء خاصة متعدّدة الفيتامينات**. ولكن لم يـــسبق لي دخـــول المكان قبل إصابة ساقي. وحين نصحني كيتوت بـــرؤية طبيب، تذكّرت المتجر وأتيت على أمل أن أجد من يساعدني على علاج الالتهاب.

كان متجر وايان عبارة عن مكان صغير جداً هو عيادة ومنـــزل ومطعم في وقت واحد. كان في الأسفل مطبخ صغير وقاعة طعام عامة متواضعة فيها ثلاث طاولات وعدد من الكراسي. أمّا في الأعلى، فثمّة غـــرفة خاصة تقوم فيها وايان بالتدليك وإعطاء العلاجات. وكان في الخلف غرفة نوم واحدة مظلمة.

دخلت المتجر وأنا أعرج وقدّمت نفسي لوايان، امرأة في غاية الجاذبية تتمتّع بابتسامة عريضة وشعر أسود لماع ينسدل حتى خصرها. كان ثمّة فتاتان خجولتان تختبئان خلفها في المطبخ، ابتسمتا لي حين لوّحت لهما ثمّ اختفتا فيه مجدّداً. أريت وايان جرحي الملتهب وسألتها ما إذا كان بإمكانها المساعدة. فما كان منها إلاّ أن بدأت بغلي بعض الأعشاب على النار وجعلتني أشرب *الجامو*، وهو مزيج من الأعشاب الإندونيسية الطبية التقليدية المعدّة في المنزل. كما وضعت أعشاباً خضراء ساخنة على ركبتي.

بدأنا نتحدّث. كانت إنكليزيتها ممتازة. وبما أنّها بالينيّة، طرحت عليّ الأسئلة التعارفية الثلاثة التقليدية: *إلى أين أنت ذاهبة اليوم؟ من أين أتيت؟ هل أنت متزوّجة؟*.

وحين أخبرتها أنّني لست متزوّجة ("ليس بعد!") بدت متفاجئة.

"لم تتزوّجي أبداً؟".

كذبت قائلة: "كلاّ". أنا لا أحبّ الكذب، ولكنّني وجدت ذلك أسهل من ذكر الطلاق للباليين لأنّه يزعجهم.

سألتني مجدّداً: "حقّاً لم يسبق لك الزواج؟" وكانت تنظر إليّ بفضول كبير.

"صدقاً، لم يسبق لي الزواج".

"هل أنت واثقة؟" أصبح الأمر يبدو مريباً.

"واثقة تماماً".

"ولا حتى مرّة؟".

حسناً، تستطيع إذاً أن تقرأ أفكاري.

اعترفت أخيراً: "في الواقع، حدث ذلك مرّة واحدة...".

فأشـــرق وجهها وكأنّها تقول: *أجل، هذا ما ظننت*. ثمّ سألتني: "مطلّقة؟".

أجبت وقد اعتراني الخجل: "أجل، مطلّقة".

"عرفت أنّك مطلّقة".

"هذا ليس شائعاً هنا، أليس كذلك؟".

فوجئت بها تجيب: "ولكن أنا أيضاً. أنا أيضاً مطلّقة".

"*أنت*؟".

قالت: "فعلت ما في استطاعتي. حاولت كلّ شيء قبل أن أحصل على الطلاق، صلّيت كلّ يوم. ولكن، كان عليَّ الابتعاد عنه".

ترقـــرقت عيناها بالدموع، فما كان مني إلاّ أن أمسكت يديها، كـــنت قد التقيت للتوّ بصديقتي الباليّنيّة المطلّقة الأولى، وقلت لها: "أنا واثقـــة بأنّك فعلت ما في وسعك عزيزتي. أنا أكيدة بأنّك جرّبت كلّ شيء".

قالت: "الطلاق حزين جداً".

وافقتها على ذلك.

بقـــيت في متجـــر وايـــان للساعات الخمس التالية، أتحدّث مع صديقتي المقرّبة الجديدة عن مشاكلها. نظّفت لي الجرح وأنا أستمع إلى قصّتها. قالت إن زوجها البالين كان رجلاً يشرب *طيلة الوقت، يقامر دومـــاً، يخسر كلّ مالنا، ثمّ يضربني حين أرفض إعطاءه مزيداً من المال للقمـــار والـــشرب*. قالت: "ضربني في المستشفى عدّة مرات". فرقت شـــعرها وأرتني ندباً على رأسها قائلة: "تلك الآثار حين ضربني بخوذة الدراجـــة النارية. كان يضربني دائماً بهذه الخوذة وهو يشرب، حين لا أجني المال. ضربني بقوّة إلى أن فقدت وعيي وشعرت بالدوار ولم أعد أرى. أعتقد أنّني محظوظة لأنّني معالِجة، ورثتها عن عائلتي، لأنّني أعرف

كيف أعالج نفسي بعد أن يضربني. لو لم أكن معالِجة، لخسرت أذني، أعني أن أتمكّن من سماع الأصوات. أو ربّما خسرت عيني، توقّفت عن الرؤية". أخبرتني أنّها تركته بعد أن ضربها بعنف شديد *إلى أن خسرت طفلي، ابني الثاني الذي كان في بطني*. بعد تلك الحادثة، قالت لها ابنتها الأولى، وهي فتاة صغيرة ذكية يلقّبونها توتّي: "أعتقد أنّه عليك الحصول على الطلاق، ماما. فكلّما ذهبت إلى المستشفى تتركين كثيراً من العمل في البيت لتوتّي".

كانت توتّي في الرابعة من عمرها حين قالت ذلك.

الخروج من الزواج في بالي يترك المرء وحيداً ومفتقداً للحماية بوسائل يستحيل على الإنسان الغربي تخيّلها. فالعائلة البالينيّة، المطوّقة ضمن أسوار مجمّع العائلة، هي كلّ شيء. أربعة أجيال من الإخوة والأقارب والأهل والأجداد والأطفال، جميعهم يعيشون معاً في سلسلة من البيوت الصغيرة التي تحيط بمعبد العائلة، ويعتنون ببعضهم من الولادة وحتى الوفاة. مجمّع العائلة هو مصدر القوّة والأمان المالي والعناية الصحية والعناية بالأطفال والتعليم والترابط الروحي، وهو الأهمّ بالنسبة إلى الباليني.

مجمّع العائلة هو أمر حيوي إلى حدّ أنّ الباليني يعتبره شخصاً حيًّا واحداً. ولا يتمّ إحصاء عدد سكّان القرية البالينيّة تقليديًّا بعدد الأشخاص بل بعدد المجمّعات. فالمجمّع هو عالم مكتفٍ بذاته. وبالتالي، لا ينبغي عليك مغادرته. (إلاّ بالطبع بالنسبة إلى المرأة، التي تغادره مرّة واحدة، فتنتقل من مجمّع عائلة والدها إلى مجمّع عائلة زوجها). وحين ينجح هذا النظام، وهذا ما يحدث دائماً تقريباً في هذا المجتمع الصحّي، فإنّه ينتج الأشخاص الأكثر سلامة وحماية وهدوءاً وسعادة وتوازناً في العالم. ولكن حين يفشل؟ كما حدث مع صديقتي الجديدة وايان؟

يـــضيع المنبوذون منه في الفراغ. كان خيارها إمّا البقاء في أمان مجمّع العائلـــة، مـــع زوجها الذي يرسلها باستمرار إلى المستشفى، أو إنقاذ حياتها والرحيل، ما يعني خسارة كلّ شيء.

لم تخـــسر وايـــان كلّ شيء بالضبط. فقد أخذت معها موسوعة علاجـــية، طيبتها، أخلاقيّات عملها وابنتها توتّي، التي حاربت ببسالة للاحـــتفاظ بهـــا. فمجتمع بالي أبوي حتى العظم. وفي حالات الطلاق الـــنادرة، يبقى الأولاد مع أبيهم دائماً. وللحصول على حضانة توتّي، اضطرّت وايان إلى توكيل محامٍ دفعت له كلّ ما لديها. أعني *كلّ* شيء. لم تـــبع أثاثها ومجوهراتها وحسب، بل ملاعقها وسكاكينها، جواربها وأحذيـــتها، مناشفها القديمة وشموعها نصف المحترقة، كلّ شيء ذهب لتسديد أجر ذاك المحامي. ولكنّها استعادت ابنتها. ووايان محظوظة لأنّ توتّـــي فـــتاة. ولو كانت صبيًّا، ما كانت لتراها مجدّداً. فالذكور أكثر أهمية بكثير في بالي.

هكذا عاشت وايان وتوتّي بمفردهما في السنوات القليلة الماضية – وحـــيدتان في خلية نحل بالي! – تنتقلان من مكان إلى آخر كلّ بضعة أشهر بحسب إيراداتهما من المال، ويقضّ القلق على المستقبل مضجعهما كلّ ليلة وهما تفكّران إلى أين ستذهبان لاحقاً. فحياتهما لم تكن سهلة، لأنّه كلّما انتقلت وايان إلى مكان مختلف، يجد مرضاها (ومعظمهم من البالينـــيين الذين يعانون من المصاعب هم أيضاً هذه الأيام) صعوبة في العـــثور علـــيها مجدّداً. كذلك، ومع كلّ انتقال لهما، تضطرّ توتّي إلى الرحيل عن مدرستها. وبعد أن كانت دوماً الأولى في صفّها، أصبحت الآن في المرتبة العشرين من بين خمسين طالباً.

فيما كانت وايان تروي لي قصّتها، دخلت توتّي فجأة إلى المتجر وقد وصلت للتوّ من المدرسة. كانت الآن في الثامنة من عمرها، تتمتّع

بشخصية في غاية السحر والجاذبية. سألتني تلك الفتاة الصغيرة الفاتنة (ذات الضفيرة المدلّاة على ظهرها والجسد النحيل والحماسة الفيّاضة) بإنكليزية زاهية ما إذا كنت أرغب بتناول الطعام، فقالت وايان: "لقد نسيت! يجب أن تتناولي الغداء!" واندفعت الأمّ وابنتها إلى المطبخ، وبمساعدة الفتاتين الخجولتين المختبئتين هناك، حضّرتا أفضل وجبة تذوّقتها في بالي.

أحضرت توتّي كلّ طبق من الأطباق وهي تشرح بصوت مرح محتواه، تعلو وجهها ابتسامة عريضة.

أعلنت قائلة: "عصير الكركم، للحفاظ على نظافة الكلى!".

"أعشاب البحر، للكالسيوم!".

"مزيج من الأعشاب، للوقاية من الملاريا!".

أخيراً قلت لها: "توتّي، أين تعلّمت التحدّث بالإنكليزية جيّداً هكذا؟".

قالت: "من أحد الكتب!".

"أعتقد بأنّك فتاة في غاية الذكاء".

أجابتني وهي تقوم برقصة صغيرة سعيدة: "شكراً. أنت أيضاً فتاة ذكية جداً".

بالمناسبة الأطفال البالينيون ليسوا هكذا عادةً. بل هم عادة هادئون ومهذّبون، يختبئون خلف تنانير أمّهاتهم. ولكنّ توتّي مختلفة. كانت عبارة عن عرض مستمر من الحركة والكلام.

"سأريك كتبي!" وأسرعت تصعد السلالم لإحضارها.

قالت وايان: "تريد أن تصبح طبيبة حيوانات. ما هي الكلمة بالإنكليزية؟".

"طبيبة بيطرية؟".

"أجل. بيطرية. ولكنّها تطرح عليَّ أسئلة كثيرة عن الحيوانات لا أعرف جوابها. تقول: ماما، إن أحضر لي أحدهم نمراً مريضاً، هل ينبغي عليَّ أن أعصب فمه لكي لا يعضّني؟ ولو مرض ثعبان واحتاج إلى العلاج، كيف أعطيه إيّاه؟ لا أعرف من أين تأتي بهذه الأفكار. أتمنّى أن تتمكّن من الذهاب إلى الجامعة".

نزلت توتّي السلّم وذراعاها مثقلتان بالكتب وجلست في حضن والدتها. فضحكت وايان وقبّلت ابنتها وبدا أنّ كلّ حزنها قد اختفى فجأة من وجهها. راقبتهما وأنا أفكّر في أنّ الفتيات الصغيرات اللواتي يجعلن أمّهاتهنّ يعشن، يكبرن ليصبحن نساء قويات جداً. فها قد وقعت في حبّ تلك الطفلة خلال ساعات من لقائها. فدعوت الله قائلة: *أتمنّى أن تعصب توتّي نورياسي يوماً أفواه ألف نمر!*

أحببت أمّ توتّي أيضاً. ولكن يجدر بي الرحيل الآن، فقد مضت عليَّ ساعات في متجرها. كما أتى بعض السيّاح وهم يرغبون بتناول الطعام. وكانت إحدى السائحات، وهي أسترالية متقدّمة في السنّ، تسأل وايان بصوت مرتفع ما إذا كان لديها علاج *للإمساك الفظيع* الذي تعاني منه. ففكّرت بيني وبين نفسي، *غنّي بصوت أعلى عزيزتي، لنرقص جميعاً...*

وعدت وايان قائلة: "سأعود غداً وسأطلب الوجبة المتعدّدة الفيتامينات ثانية".

قالت وايان: "ركبتك أفضل الآن. تحسّنت بسرعة وزال الالتهاب".

مسحت آخر الأعشاب الخضراء عن ركبتي ثمّ راحت تتحسّسها قليلاً، بحثاً عن شيء ما. ثمّ كرّرت ذلك على الركبة الأخرى وهي تغمض عينيها. أخيراً فتحتهما وقالت مبتسمة: "أستطيع أن أعرف من ركبتيك بأنّك لم تمارسي الجنس كثيراً مؤخّراً".

سألتها قائلة: "لماذا؟ أهما شديدتا القرب من بعضهما؟".

فضحكت وقالت: "كلاّ، إنه الغضروف. فهو جافّ جداً. هرمونات الجنس تليّن المفاصل. كم مضى عليك منذ آخر مرّة مارست فيها الجنس؟".

"حوالى سنة ونصف".

"أنت بحاجة إلى رجل جيد. سأعثر لك على واحد. سأصلّي في المعبد لكي تجدي رجلاً جيّداً، لأنّك أصبحت أختي الآن. وإن أتيت غداً، سأنظّف لك كليتيك".

"رجل جيد وكليتان نظيفتان؟ هذا كثير".

"أنا لا أخبر أحداً بهذه الأمور عن طلاقي. ولكنّ حياتي حزينة جداً وصعبة جداً. لا أفهم لِمَ الحياة صعبة إلى هذا الحدّ".

عندها قمت بشيء غريب. أمسكت بيدي وايان وقلت لها بقناعة بالغة: "الجزء الأصعب من حياتك أصبح خلفك الآن، وايان".

ثمّ غادرت المتجر وأنا أرتجف بلا سبب، يجتاحني حدس قوي لم أتمكّن من فهمه.

87

أصبحت أيامي مقسّمة الآن إلى أثلاث طبيعية. أمضي الصباح مع وايان في متجرها، في الضحك والأكل، والعصر مع كيتوت العرّاف نتحدّث ونشرب القهوة، والمساء في حديقتي الجميلة، إمّا وحدي أقرأ كتاباً، أو أتحدّث مع يوداي الذي يأتي لعزف الغيتار. أجلس للتأمّل كلّ صباح في أثناء شروق الشمس فوق حقول الأرزّ وقبل النوم أتحدّث مع إخوتي الأربعة، وأطلب منهم حراستي وأنا نائمة.

لم يمضِ عليَّ في بالي سوى بضعة أسابيع، ومع ذلك، أشعر بأنّ مهمّتي قد تمّت. فقد أتيت إلى إندونيسيا بحثاً عن التوازن، ولكنّني لم أعد أشعر بأنّني أبحث عن أيّ شيء لأنّ التوازن أتى بشكل طبيعي. ولا أعني بذلك أنني أصبحت بالينيّة (كما أنّني لم أصبح إيطالية أو هندية) ولكن أصبح بإمكاني أن أشعر بسلامي كما أحببت أيامي التي أمضيها بين الممارسات الروحية ومتعة المناظر الجميلة والأصدقاء الأعزّاء والطعام الجيّد. كنت أصلّي كثيراً مؤخّراً، وكنت مرتاحة في ذلك. معظم الوقت، أشعر بالرغبة في الصلاة وأنا أقود الدراجة، عائدة من منزل كيتوت إلى البيت عبر غابة القرد وسهول الأرزّ عند المغيب. أدعو بالطبع ألاّ يصدمني باص آخر، أو يقفز أمامي قرد أو يعضّني كلب، ولكنّها أدعية كمالية. ذلك أنّ معظم أدعيتي كانت تعبيراً عن الامتنان العميق للرضى الذي كان يملأ كياني. لم أشعر يوماً بأنّني أقلّ تعباً من نفسي أو العالم.

أتذكّر دوماً أحد تعاليم مرشدتي عن السعادة. تقول بأنّ الناس عموماً يميلون إلى الاعتقاد بأنّ السعادة هي ضربة حظّ، تنزل على المرء مثل الطقس الجميل إن كان محظوظاً بما يكفي. ولكنّ السعادة لا تأتي هكذا، بل هي نتاج مجهود شخصي. على المرء أن يحارب لأجلها، يكافح لأجلها، يصرّ عليها، وأحياناً أن يجوب العالم بحثاً عنها. عليك أن تشارك دائماً في تجلّيات نعيمك. وحين تبلغ حالة السعادة، ينبغي عليك أن تعمل للحفاظ عليها وأن تبذل مجهوداً عظيماً لتستمرّ بالسباحة إلى الأعلى في تلك السعادة إلى الأبد، لتبقى طافياً على سطحها. وإلاّ فستخسر رضاك الفطري. فمن السهل علينا أن ندعو ونحن في الشدّة ولكنّ الاستمرار في الدعاء بعد مرور الأزمة هو أشبه بضمان يساعد الروح على التمسّك بإنجازاتها الجيّدة.

تذكّرت تلك التعاليم وأنا أركب درّاجتي بحرية تحت شمس المغيب في بـــالي، ورحـــت أرســـل أدعية هي أقرب إلى النذور، تظهر حالة انسجامي قائلة: "هذا ما أريد التمسّك به. أرجوك ساعدني على تذكّر حالـــة الرضى هذه وساعدني على الحفاظ عليها دائماً". أنا أضع هذه الـــسعادة في مصرف ما بحراسة إخوتي الأربعة، كتأمين ضدّ التجارب القادمـــة في الحياة. وصرت أسمّي هذه الممارسة السعادة المجتهدة. وأنا أركّـــز علـــى الـــسعادة المجتهدة، أتذكّر فكرة بسيطة قالها لي صديقي دارســـي مـــرّة، بأنّ جميع أحزان ومشاكل العالم ناجمة عن أناس غير سعداء. ولا ينطبق ذلك على صعيد الصورة الشاملة لهتلر وستالين، بل علـــى المستوى الشخصي الضيّق أيضاً. وحتى في حياتي أنا، يمكنني أن أرى كيف أنّ فترات حزني جلبت التعاسة أو العذاب أو (على الأقلّ) الإزعاج للمحيطين بـــي. بالتالي، فإنّ البحث عن الرضى لا يهدف إلى الحماية والفائدة الذاتيّتين، بل يشكّل هبة كريمة للعالم. فتخلّص المرء من كلّ بؤسه، *يزيحه من الطريق*. لا يعود عقبة، ليس أمام نفسه وحسب، بـــل وأمـــام الآخـــرين أيـــضاً. عندها فقط يصبح حرًّا لخدمة الناس والاستمتاع بهم.

في هذه اللحظة، فإنّ من أستمتع به أكثر من أيّ شخص آخر هو كيتوت. ذلك أنّ الرجل العجوز – أحد أسعد البشر الذين التقيت بهم حقًّـــا – كان يفتح أمامي جميع أبوابه، ويمنحني حرية طرح أيّ أسئلة عالقـــة لـــديَّ عـــن الطبيعة البشرية. أحببت التأمّل الذي علّمني إيّاه، البـــساطة المضحكة لعبارته *ابتسمي بكبدك* والحضور المطمئن لأرواح الإخـــوة الأربعة. وقد قال لي مؤخّراً إنّه يعرف ستّ عشرة تقنية تأمّل مخـــتلفة ومانتـــرات عديدة متنوعة الأغراض. بعضها يجلب السلام أو الـــسعادة، وبعضها يجلب الصحّة، ولكنّ بعضها الآخر صوفيّ خالص،

يهـــدف إلى نقـــل المرء إلى مستويات وعي أخرى. على سبيل المثال، يعرف طريقة تأمّل تنقله *إلى فوق*.

سألته: "فوق؟ ماذا تعني بذلك؟".

"إلى سبعة مستويات فوق".

حـــين سمعت فكرة المستويات السبعة المألوفة، سألته ما إذا كان يعني بأنّها تنقله عبر مقامات الجسد السبعة، المعروفة في اليوغا.

فقال: "ليست مقامات، بل أماكن. هذه التقنية تحملني عبر سبعة أماكن في الكون. أعلى فأعلى".

...

جلست صامتة لبرهة، أحاول القيام بعمل حسابـــي.

فـــضحك كيـــتوت مجدّداً، وربّت على ركبتي بحنان قائلاً: "من الصعب دوماً على الشباب أن يفهموا هذا!".

88

كـــنت جالسة في متجر وايان مجدّداً هذا الصباح وكانت تحاول إيجـــاد علاج يجعل شعري ينمو بشكل أسرع ويجعله أكثر كثافة. فمع شـــعرها الكثـــيف اللمـــاع الرائع الذي ينسدل حتى وركيها، تشعر بالأســـف على حفنة شعري الشقراء. وكمعالجة، لديها بالطبع علاج يـــساعد على جعل شعري أكثر كثافة، ولكنّه لن يكون سهلاً. أوّلاً، عليَّ أن أعثر على شجرة موز وأن أقطعها بنفسي. ثمّ أقوم برمي *الجزء الأعلـــى مـــن الـــشجرة*، وتجويف الجذع والجذور (التي ما زالت في الأرض) على شكل وعاء كبير *وكأنّها حوض سباحة*. بعد ذلك، أقوم بتغطـــية هذه الحفرة بقطعة خشب لمنع ماء المطر والندى من الدخول

إلـــيها. وبعد بضعة أيام، سأجد بأنّ حوض السباحة الذي صنعته امتلأ بـــسائل غـــنيّ بالمغـــذّيات أفرزته جذور الموز، فأجمعه في زجاجات، وأحضره لوايان التي ستباركه لي في المعبد. عندها أفرك به فروة رأسي كلّ يوم. وخلال بضعة أشهر، يصبح شعري كثيفاً، لامعاً وطويلاً مثل شعر وايان.

قالت: "حتى لو كنت صلعاء، سينبت شعرك بهذا العلاج".

بيـــنما كنا نتحدّث، كانت توتّي، التي وصلت للتوّ من المدرسة، جالـــسة على الأرض ترسم منـــزلاً. فالمنازل هي أكثر ما ترسمه توتّي هـــذه الأيام. إنّها تتمنّى من أعماق قلبها أيضاً، أن يكون لها منـــزل. كـــان ثمّة دوماً قوس قزح في خلفية رسوماتها، وعائلة سعيدة، مع أب وما إلى ذلك.

هـــذا ما كنّا نفعله طيلة اليوم في متجر وايان. نجلس ونتحدّث، توتّـــي ترسم وأنا ووايان في قيل وقال، نضحك ونمازح بعضنا. كانت وايـــان تتمتّع بروح الفكاهة، تتحدّث دوماً عن الجنس، تمازحني لأنّني عـــزباء وتبدي رأيها بجميع الرجال الذين يمرّون بالمتجر. كانت تخبرني دوماً بأنّها تذهب إلى المعبد كلّ مساء وتصلّي لكي يظهر رجل جيد في حياتي، وأغرم به.

أخبرتها من جديد هذا الصباح: "كلاّ وايان، لا أحتاج إلى ذلك. فُطرَ قلبـــي مرات عديدة".

قالـــت: "أعرف علاجاً للقلب المفطور". ثمّ عدّت على أصابعها علـــى طـــريقة الطبيب الحازم العناصر الستة لعلاجها المضمون للقلب المفطـــور: "فيتامين E، كثير من النوم، كثير من الماء، السفر إلى مكان بعيد عن المحبوب، التأمّل وتعليم القلب بأنّ هذا هو القدر".

"قمت بكلّ شيء حتى الآن، ما عدا الفيتامين E".

"إذاً لقـد شفيت الآن، وأصبحت بحاجة إلى رجل جديد. سأجد لك رجلاً".

"أنا لا أدعو لإيجاد رجل. الشيء الوحيد الذين أدعو لأجله هذه الأيام هو إيجاد السلام مع نفسي".

فنظـرت وايـان إلى الأعلى سئمة، وكأنّها تقول *أجل، صحيح، كمـا تشائين آيتها البيضاء الغريبة الأطوار*، وقالت: "هذا لأنّك تعانين من ضعف الذاكرة. ما عدت تذكرين كم أنّ الجنس رائع. كنت أعاني مـن ضـعف الذاكرة أنا أيضاً حين كنت متزوّجة. كلّما رأيت رجلاً وسيماً يسير في الشارع، أنسى أنّ لديَّ زوجاً في البيت".

وضـحكت حـتى كـادت تسقط أرضاً. ثمّ استعادت جديّتها وقالت: "كلّنا نحتاج إلى الجنس، ليز".

في تلك اللحظة، دخلت امرأة رائعة الجمال إلى المتجر، وابتسامة مشرقة تنير وجهها. فنهضت توتّي وركضت إلى ذراعيها وهي تصرخ: "أرمينيا! أرمينيا! أرمينيا!" ما تبيّن بأنّه اسم المرأة، وليس صرخة حرب قومية غريبة. قدّمت نفسي لأرمينيا وقالت لي إنّها من البرازيل. كانت ديناميكية جداً، برازيلية جداً. جذّابة، أنيقة، تتمتّع بشخصية كاريزماتية وفاتنة، سنّها غير محدّد، *شديدة* الإثارة وحسب.

أرمينـيا هـي أيضاً صديقة وايان، تأتي غالباً لتناول طعام الغداء ولـشراء علاجات تقليدية مختلفة طبية وتجميلية. وجلست معنا لساعة وشـاركت في أحاديثنا الأنثوية. كانت باقية في بالي لأسبوع آخر قبل أن تسافر إلى أفريقيا أو تعود إلى تايلاند، لتولّي أعمالها. واكتشفت بأنّ أرمينـيا هـذه تعيش حياة أقلّ ما يقال عنها بأنّها ساحرة. فقد كانت تعمل مع الهيئة العليا للأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين. وفي الثمانينيات، تم إرسـالها إلى أدغـال السلفادور ونيكاراغوا في أوج الحرب كمفاوض

ســـلام، واستغلّت جمالها وسحرها وذكاءها لتهدئة الجنرالات والثوّار وجعلهم يصغون لصوت العقل. (أهلا بالقوّة الجميلة!) وهي تدير الآن شركة تسويق متعدّدة الجنسيات تدعى نوفيكا، تدعم الفنانين المحليين في مخـــتلف أنحـــاء العالم عبر بيع منتجاتهم عبر الإنترنت. تتحدّث سبع أو ثماني لغات، وتنتعل أجمل حذاء رأيته منذ أن كنت في روما.

نظرت إلينا وايان وقالت: "ليز، لم لا تحاولين أن تبدي مثيرة مثل أرمينـــيا؟ فأنـــت فتاة جميلة جداً، تتمتّعين بوجه جميل، وجسد رشيق، وابتسامة جذّابة. ولكنّك ترتدين دوماً قميصاً وبنطال جينـــز. ألا تحبّين أن تكوني مثيرة مثلها؟".

قلت: "وايان، أرمينيا برازيلية. الوضع مختلف تماماً".

"وكيف ذلك؟".

التفتّ إلى صديقتي الجديدة قائلة: "أرمينيا، هل يمكنك أن تشرحي لوايان ما أعنيه بالمرأة البرازيلية؟".

ضـــحكت أرمينيا ولكنّها فكّرت بجدية وأجابت: "لطالما حاولت أن أبـــدو جميلة ومفعمة بالأنوثة حتى في مناطق الحروب وفي مخيمات اللاجـــئين في أميركا الوسطى. حتى في أسوأ المآسي والأزمات، ما من ســـبب لأزيـــد بـــؤس الناس بشكلي البائس. تلك هي فلسفتي. لهذا السبب، أضع دائماً مساحيق التجميل وأرتدي المجوهرات في الأدغال، لـــيس بإسراف، بل ربّما مجرّد سوار ذهبـــي جميل وأقراط، بعض أحمر الـــشفاه، عطـــر جيد. ما يكفي وحسب لأظهر بأنّني لا زلت أحتفظ باحترامي لذاتي".

ذكّرتني أرمينيا إلى حدّ ما بالنساء المسافرات في الحقبة الفيكتورية البريطانية العظمى، اللواتي اعتدن القول إنّه ما من عذر لارتداء ملابس لا تلـــيق بخزانة امرأة إنكليزية في أفريقيا. كانت أرمينيا كالفراشة. لم

تمكث كثيراً عند وايان لأنّها مشغولة ولكنّها دعتني مع ذلك إلى حفلة الليلة. فهي تعرف برازيليًّا آخر في أوبود يقيم حفلة خاصة في مطعم جميل هذا المساء. سيعدّ *الفيجوادا*، وهو طبق برازيلي تقليدي مؤلف من اللحم والفاصولياء. وسيكون ثمّة مشروبات برازيلية أيضاً. كما سيحضر الحفلة عدد كبير من المغتربين من كافة أنحاء العالم يعيشون هنا في بالي. فسألتني ما إذا كنت أرغب بالمجيء. قد يذهبون جميعاً للرقص لاحقاً أيضاً. لم تكن تعرف ما إذا كنت أحبّ الحفلات ولكن...

شراب؟ رقص؟ لحم؟

بالطبع سآتي.

89

لا أذكر آخر مرّة ارتديت فيها ملابس سهرة، ولكن هذا المساء أخرجت من حقيبتي فستاناً طويلاً بلا كمين وارتديته. حتى إنّني وضعت أحمر شفاه. لا أذكر آخر مرّة استعملت فيها أحمر الشفاه، ولكن بالتأكيد ليس في جوار الهند. مررت بمنزل أرمينيا في طريقي إلى الحفلة، فزيّنتني ببعض من مجوهراتها الجميلة، وسمحت لي باستعمال عطرها الجذّاب، كما تركتني أضع دراجتي في حديقتها لأذهب إلى الحفلة بسيارتها الرائعة، كأيّ امرأة راشدة ولائقة.

كان العشاء مع المغتربين مسلياً جداً، وشعرت بأنّه أيقظ جميع نواحي شخصيّتي النائمة. حتى إنّ الشراب جعل رأسي يدور قليلاً، وكان هذا ملحوظاً بعد نقاوة الأشهر الأخيرة التي أمضيتها في الصلاة في المعتزل وفي ارتشاف الشاي في حديقتي البالينيّة. وكنت ألهو أيضاً! لم ألهُ منذ عقود. كنت أصاحب مؤخّراً الرهبان والعرّافين وحسب،

ولكن فجأة، ها أنا أظهر جاذبيّتي مجدّداً. مع أنّني لم أكن واثقة مع من ألهو. كنت أنشر اللهو حولي في كلّ مكان. هل شعرت بالانجذاب إلى الصحفي الأسترالي السابق الذكي الجالس بقربـــي؟ أم للمفكّر الألماني الهـــادئ الجالس إلى الطاولة نفسها، الذي وعدني بإعارتي روايات من مكتبته الخاصة؟ أم مع البرازيلي الوسيم المتقدّم في السنّ الذي أعدّ هذه الولـــيمة الهائلـــة لنا جميعاً؟ فقد أحببت عينيه البنيّتين الطيّبتين ولهجته، وطـــبخه بالطبع. قلت له شيئاً مثيراً جداً بلا سبب. كان يمزح ويقول: "أنا كارثة حقيقية، لا أتقن الرقص ولا كرة القدم ولا العزف على أيّ آلـــة موسيقية". ولسبب ما قلت له: "ربّما كان هذا صحيحاً. ولكن لـــديّ شـــعور بأنّـــك تتقن لعب دور الكازانوفا جيّداً". توقّف الزمن للحظـــات طويلة، وانتشرت جرأة عبارتي في الهواء حولنا كالعطر. لم ينفِ ذلك. فأشحت نظري أوّلاً، وشعرت بالاحمرار يعلو خدّيّ.

كانـــت الفيجوادا رائعة بأيّ حال. لذيذة، غنيّة ومليئة بالتوابل، كـــلّ ما لا يمكن أن تحصل عليه عادة في الطعام البالييني. التهمت طبقاً تلو الآخر من اللحم، واستنتجت رسمياً أنّني لا أستطيع أن أكون نباتية بوجـــود طعـــام كهذا في العالم. ثمّ خرجنا للرقص في ملهًى ليلي، هو أقـــرب إلى تلـــك الأكـــواخ التي تبنى على الشواطئ، ولكن من دون شاطئ. وكان ثمّة مجموعة من الشباب البالينيين يعزفون موسيقى الريغيه بإتقـــان، وكان المكان يغصّ بالساهرين من جميع الأعمار والجنسيات، مـــن مغتربين وسياح وشباب وبنات بالينيين جذابات، يرقصون جميعاً بحرية وبلا خجل. لم ترافقنا أرمينيا، بل ادّعت بأنّ لديها عملاً في اليوم الـــتالي، غير أنّ الكهل البرازيلي الوسيم كان مضيفي. وتبيّن بأنّه ليس راقـــصاً ســـيّئاً كما ادّعى. ربّما كان يلعب كرة القدم أيضاً. أحببت وجـــوده معـــي، يفـــتح لي الأبواب ويجاملني ويناديني حبيبتي. ولكنني

لاحظت بأنّه ينادي الجميع حبيبي أو حبيبتي؛ حتى النادل غزير الشعر. مع ذلك، كان اهتمامه لطيفاً.

كان قد مضى عليَّ زمن طويل لم أخرج فيه للرقص، حتى في إيطاليا. كما أنّني لم أخرج كثيراً في فترة مرافقتي ديفيد. أعتقد أنّ آخر مرّة خرجت فيها للرقص تعود إلى أيام زواجي... يا الله، مضت قرون على ذلك. وأنا أرقص، التقيت بصديقتي ستيفانيا، شابة إيطالية مفعمة بالحياة التقيت بها مؤخّراً في درس تأمّل في أوبود ورقصنا معاً، فيما تطاير شعرنا الأشقر والداكن في الهواء ودار حولنا. وبعد منتصف الليل، توقّفت الفرقة عن العزف واختلط الموجودون ببعضهم.

كانت تلك هي اللحظة التي التقيت فيها بالشابّ المدعوّ إيان. آه، أعجبني حقًّا ذاك الشابّ. أعجبت به على الفور. كان وسيماً جداً. وكان ويلزيًّا، ولهذا السبب كان يتمتّع بصوت جميل. كان يتحدّث بوضوح وذكاء، طرح الأسئلة وتحدّث مع صديقتي ستيفانيا بنفس اللهجة الإيطالية التي أتحدّث بها. وتبيّن بأنّه عازف الطبل في فرقة الريغيه تلك، عازف البونغو. فمازحته قائلة بأنّه "بونغوليّ"، على غرار أولئك الشباب في البندقية، ولكن مع طبل عوضاً عن القارب. وهنا بدأنا نضحك ونتحدّث.

أتى فيليبه بعد ذلك، ذاك كان اسم البرازيلي، ودعانا إلى مطعم يملكه مغتربون أوروبيون قال بأنّه لا يقفل أبوابه أبداً. فوجدت نفسي أنظر إلى إيان (*هل كان يرغب بالذهاب؟*) وحين وافق، وافقت أنا أيضاً. فذهبنا جميعاً إلى المطعم، وجلست مع إيان، وتحدّثنا، وضحكنا طيلة الليل، وقد أعجبني ذاك الشابّ حقًّا. كان أوّل رجل ألتقي به منذ وقت طويل ويعجبني حقًّا *بتلك الطريقة*، كما يقولون. كان يكبرني ببضع سنوات، وقد عاش حياة مثيرة للاهتمام (يحبّ مسلسل

سيمبسونز، سافر إلى جميع أنحاء العالم، عاش في معتزل مرّة، ذكر تولستوي، بدا لي بأنّه موظّف). بدأ حياته المهنية في الجيش البريطاني في شمال أيرلندا كخبير متفجّرات، ثمّ أصبح خبيراً دوليًّا في التفجير المنجمي. بنى مخيمات للاّجئين في البوسنة، وهو الآن في عطلة في بالي للتمرّن على الموسيقى... كان فاتناً.

لم أصدّق بأنّني كنت ما أزال صاحية عند الساعة الثالثة والنصف وأنّني لم أتأمّل أيضاً! كنت صاحية في منتصف الليل، أرتدي فستان سهرة وأتحدّث إلى رجل جذّاب، يا له من تغيّر جذريّ. في نهاية السهرة، أقررنا أنا وإيان كم سررنا للقاء بعضنا. سألني ما إذا كنت أملك رقم هاتف، فقلت له لا ولكنّني أملك بريداً إلكترونيًّا. غير أنّه قال إنّه لا يحبّ البريد الإلكتروني. وفي النهاية، لم نتبادل شيئاً بل قال: "سنرى بعضنا مجدّداً إن شاء الله".

قبل الفجر بقليل، عرض عليَّ فيليبه، الكهل البرازيلي الوسيم، إيصالي إلى المنزل. وفيما كنّا نعبر الطرقات الملتوية قال لي: "حبيبتي، كنت تتحدّثين مع أكبر متفوّه بالحماقات في أوبود طيلة الليل".

غاص قلبي عند سماعي تلك العبارة.

سألته: "إيان تافه؟ قل لي الحقيقة الآن ووفّر عليَّ المشاكل لاحقاً".

"إيان؟" ضحك وقال: "كلا حبيبتي! إيان شابّ جدّي. إنّه رجل طيّب. عنيت نفسي. أنا أكبر متفوّه بالحماقات في أوبود".

تابعنا طريقنا بصمت لفترة.

ثمّ أضاف: "لقد كنت أمازحك وحسب".

ثمّ تبع ذلك صمت طويل قبل أن يسألني: "يعجبك إيان، أليس كذلك؟".

قلت: "أعرف". ذهني لم يكن صافياً فقد أكثرت من الشراب البرازيلي. "أجده جذّاباً وذكيًّا. مضى عليَّ زمن طويل لم أعجب فيه برجل".

"ستعيشين أياماً رائعة هنا في بالي، سترين".

"ولكنّني لا أعرف كم يمكنني أن أكون اجتماعية، فيليبه؟ لا أملك سوى فستان واحد. سيلاحظ الناس قريباً أنّني أرتدي الفستان نفسه طيلة الوقت".

"أنت شابة وجميلة، حبيبتي. لا تحتاجين سوى إلى فستان واحد".

90

هل أنا شابة جميلة؟

ظننت أنّني عجوز مطلّقة.

بالكاد تمكّنت من النوم تلك الليلة لقلّة اعتيادي على السهر، كانت الموسيقى لا تزال تضجّ في أذنيّ وتفوح من شعري رائحة السجائر، فيما احتجّت معدتي على كثرة الشراب. غفوت قليلاً ثمّ استيقظت مع شروق الشمس، كما كنت معتادة. غير أنّني هذا الصباح لم أكن مرتاحة ولا هادئة ولا في حالة تسمح لي بالتأمّل. ما سبب هذا الاهتياج؟ أمضيت ليلة لطيفة، وقابلت أناساً مثيرين للاهتمام، وارتديت فستاناً، ورقصت، ولهوت مع بعض الرجال...

الرجال.

تضاعف اهتياجي حين فكّرت في تلك الكلمة ليتحوّل إلى نوبة ذعر خفيفة. *لم أعد أعرف كيف أفعل ذلك*. كنت من أكثر الفتيات جرأة ووقاحة في سنوات المراهقة في العقد الثاني من عمري. ويبدو أنّني

أذكر كم كان الأمر مسلياً حينها، أقابل شاباً ما وأبدأ بجذبه إليَّ وبإطلاق الدعوات المبطّنة والعبارات المثيرة، أرمي بالحذر عرض الحائط وأترك الأمور تسير على هواها.

لكنني لا أشعر الآن سوى بالذعر والتردّد. ورحت أضخّم الأمسية كلّها، وأتخيّل بأنّني أتورّط مع الشابّ الويلزيّ الذي لم يُعطِني عنوانه البريدي حتى. ورحت أرى مستقبلنا بتفاصيله، بما في ذلك شجارنا على عادة التدخين لديه. وتساءلت ما إذا كان استسلامي لرجل ما مجدّداً سيقوّض رحلتي ومهنتي وحياتي... بالمقابل، سيكون من الجميل عيش بعض الرومانسية بعد تلك الفترة الطويلة الجافة. (تذكّرت ريتشارد من تكساس وهو ينصحني حول حياتي العاطفية قائلاً: "أنت بحاجة إلى كسر *هذا الجفاف*، حبيبتي. جدي لنفسك *صانع مطر*"). ثمّ تخيّلت إيان يقترب على دراجته النارية، ثمّ بدأت أشعر بالاشتياق لديفيد كما لم أفعل منذ أشهر، وفكّرت أنّه ربّما كان يجدر بي الاتصال به لأرى ما إذا كان يودّ أن يحاول العودة إليّ ثانية... (فتلقّيت رسالة واضحة من صديقي القديم ريتشارد تقول: *أنت عبقرية يا ُبقول، هل فقدت عقلك الليلة الماضية تحت تأثير الشراب؟*) ولكن سرعان ما عدت أفكّر (كما في الماضي) في زوجي السابق، طلاقي...

ظننت أنّنا انتهينا من هذا الموضوع يا ُبقول.

ثمّ بدأت أفكّر في فيليبه، لسبب ما، ذاك الكهل البرازيلي الوسيم. إنّه لطيف. قال إنّني شابة وجميلة وإنّني سأمضي وقتاً ممتعاً هنا في بالي. هو على حقّ، أليس كذلك؟ عليَّ الاسترخاء والاستمتاع. ولكنّ هذا الصباح لا يبدو ممتعاً.

لم أعد أعرف كيف أستمتع.

91

"ما هذه الحياة؟ هل تفهمينها؟ أنا لا أفهمها".

كانت وايان هي المتحدّثة.

كنت في مطعمها أتناول وجبة الغداء المغذّية التي تعدّها، آملة أن تساعدني على التخلّص من آثار الشراب ومن القلق. كانت أرمينيا، المرأة البرازيلية، هناك أيضاً، وبدت كالعادة وكأنّها توقّفت في مركز تجميل وهي عائدة من أحد منتجعات الاستجمام. كانت توتّي الصغيرة جالسة على الأرض، ترسم صور بيوت كعادتها.

كانت وايان قد علمت للتوّ أنّ إيجار متجرها سيرتفع عند تجديد العقد في آخر شهر آب، أي بعد ثلاثة أشهر من الآن. وسيكون عليها الانتقال ثانية لأنّها عاجزة عن تحمّل أعباء الإيجار الجديد. فهي لا تملك سوى خمسين دولاراً في المصرف وليس لديها مكان آخر تذهب إليه. ناهيك عن أنّ انتقالها يعني خروج توتّي من المدرسة ثانية. هما بحاجة إلى منزل حقيقي وإلى حياة تليق بعائلة باليّنيّة.

سألتني وايان: "لِمَ لا ينتهي العذاب؟" لم تكن تبكي بل تطرح سؤالاً بسيطاً لا جواب له. "لِمَ يتكرّر كلّ شيء باستمرار بلا توقّف. نعمل بجدّ يوماً وفي اليوم التالي علينا أن نعمل بجدّ ثانية. نأكل، وفي اليوم التالي سرعان ما نجوع. نعثر على الحبّ ثمّ نفقده. نولد من دون أي شيء؛ لا ساعة ولا قميص. نعمل بكدّ ثمّ نموت من دون أي شيء؛ لا ساعة ولا قميص. نكون شباباً ثمّ نصير عجائز. ومهما فعلنا، لا يمكننا أن نهرب من الشيخوخة".

فمازحتها قائلة: "ولكن هذا لا ينطبق على أرمينيا. فهي لا تكبر على ما يبدو".

قالت وايان: "هذا لأنّ أرمينيا *برازيلية*". وقد فهمت الآن كيف يسير العـــالم. فضحكنا جميعاً، ولكنّ مرحنا لم يكن حقيقياً لأنّ وضع وايان لم يكن مضحكاً على الإطلاق. أمّ عزباء، طفلة واعية، عمل يؤمّن قوت كلّ يوم بيومه، وشبح الفقر والتشرّد يهدّدهما باستمرار. إلى أين ستذهب؟ من الواضـــح أنّهـــا لا تستطيع العيش مع عائلة زوجها. كما أنّ عائلتها تزرع الأرزّ في الـــريف وهـــي فقيرة. ولو ذهبت للعيش معها، تخسر عملها في الـــبلدة لأنّ مرضاها لن يتمكّنوا من الوصول إليها كما أنّ توتّي لن تتمكّن من متابعة دراستها لدخول *كلّية طبّ الحيوانات* يوماً ما.

وظهرت عوامل أخرى مع الوقت. إذ تبيّن بأنّ الفتاتين الخجولتين اللتين لمحتهما تختبئان في المطبخ في اليوم الأوّل هما يتيمتان تبنّتهما وايان. كلاهمـــا تدعيان كيتوت (لزيادة الإبهام في هذا الكتاب) ونحن نناديهما كيـــتوت الكـــبرى وكيتوت الصغرى. وجدتهما وايان في السوق منذ بـــضعة أشهر تتضوّران جوعاً وتتسوّلان. كانتا قد تركتا هناك من قبل امـــرأة هي أشبه بشخصيّات ديكينـــز - قد تكون إحدى أقاربهما - تجـــبر مجموعة من الأطفال على التسوّل، فتترك الأيتام في أماكن مختلفة مـــن أسواق بالي ثمّ تجمعهم في المساء في باص صغير وتأخذ ما يجمعون مـــن المال وتتركهم ينامون في أحد الأكواخ. وحين عثرت وايان على كيتوت الكبرى والصغرى، كانتا بلا طعام منذ أيام، وتعانيان من القمل والطفيلـــيات. تعـــتقد بأنّ الصغرى تبلغ العاشرة ربّما والكبرى الثالثة عـــشرة، أمّا هما فتجهلان اسمهما وحتى اسم عائلتيهما. (كلّ ما تعرفه كيـــتوت الـــصغرى هو أنّها ولدت في نفس العام هي *والحيوان القذر الكـــبير في قـــريتها*؛ وهـــذا لم يساعدنا على تحديد تاريخ ميلادها). فأخذتهما وايان، واعتنت بهما تماماً كما تفعل مع ابنتها توتّي. والأربع ينمن معاً على الفراش نفسه في غرفة النوم الوحيدة خلف المتجر.

كـــيف يمكـــن لأمّ عزباء تواجه خطر الطرد أن تتحمّل مسؤولية طفلتين مشرّدتين؟ هو عمل يتجاوز إلى حدٍّ بعيد فهمي لمعنى التعاطف. أريد مساعدتهنّ.

هـــذا هو السبب إذاً. ذاك هو سبب الرعشة التي اجتاحتني بعد لقائي بـــوايان للمرّة الأولى. أردت مساعدة تلك المرأة الوحيدة وابنتها واليتيمتين الـــتي تولّت رعايتهما. أردت أن أقودهما إلى حياة أفضل. غير أنّني لم أكن أعـــرف كـــيف لي ذلك من قبل. أمّا اليوم، وفيما كنّا أنا ووايان وأرمينيا نتـــناول وجـــبة غذائـــنا وننسج أحاديثنا المعتادة نظرت إلى توتّي الصغيرة ولاحظـــت بأنّها تقوم بأمر غريب. كانت تسير حول المتجر وتحمل على كفيها قطعة بلاط سيراميك جميلة زرقاء اللون، تغنّي وكأنّها تنشد. راقبتها لـــبرهة متـــسائلة عمّا تفعل. لعبت توتّي بالبلاطة لوقت طويل، تقذفها في الهـــواء، همـــس لهـــا، تغنّـــي لها، ثمّ تدفعها على الأرض وكأنّها سيارة ماتـــشبوكس. أخيراً جلست عليها في زاوية هادئة، وأغلقت عينيها وهي تغنّي لنفسها، وكأنّها في مكان غير مرئيّ خاصّ بها.

سألت وايان ما كان هذا، فأجابت بأنّ توتّي وجدت البلاطة أمام ورشـــة بناء لفندق فخم فوضعتها في جيبها. ومنذ ذلك اليوم، لا تفتأ تقول لأمّها: "ربّما لو حصلنا على بيت يوماً ما، قد تكون أرضه ذات لـــون أزرق جمـــيل كهذه البلاطة". والآن، بحسب وايان، تحبّ توتّي الجلـــوس على تلك البلاطة الزرقاء الصغيرة لساعات، مغمضة العينين، تحلم بأنّها داخل منـــزلها.

مـــاذا يمكنني القول؟ حين سمعت القصّة، ونظرت إلى تلك الطفلة الغارقـــة في التأمّل فوق بلاطتها الزرقاء الصغيرة، قلت لنفسي: *حسناً، هذا يكفي.*

ثمّ استأذنت منهما، وخرجت لتولّي هذه المشكلة، وحلّها نهائياً.

92

قالت لي وايان مرّة أنّها تشعر وهي تعالج مرضاها أحياناً بأنّها نهر جـــار من حبّ الله، وأنّها تتوقّف عن التفكير في ما ينبغي فعله لاحقاً. يـــتوقّف العقل وتستيقظ الغريزة وكلّ ما يصبح عليها فعله هو السماح لهـــذا الحب بالتدفّق عبرها. تقول: "أشعر وكأنّ رياحاً هبّت وأخذت بيديّ".

ربّما كانت تلك الرياح نفسها هي التي دفعتني خارج متجر وايان في ذلـــك الـــيوم وخارج قلقي على ما إذا كنت جاهزة لمواعدة رجال جـــدد وقادتني إلى مقهى للإنترنت في أوبود. هناك جلست وكتبت - مـــن دون جهـــد - رسالة لجمع التبرّعات أرسلتها إلى كلّ أصدقائي وأفراد عائلتي عبر العالم.

أخبرت الجميع بأنّ ذكرى ميلادي تصادف في تّموز وأنني سأبلغ الخامسة والثلاثين تقريباً. وأخبرتهم أنّه ليس ثمّة ما أريده أو أتمنّاه في هذا العـــالم وأنّني لم أكن يوماً أكثر سعادة في حياتي ممّا أنا عليه الآن. وأنّني لو كنت في نيويورك، لأقمت حفلة كبيرة ودعوتهم جميعاً إليها ولكان عليهم أن يشتروا لي الهدايا ولأنفقنا ثروة لا ضرورة لها على الحفل. ثمّ شـــرحت لهـــم أنّه ثمّة طريقة أقلّ كلفة وأكثر جمالاً للاحتفال لو قبلوا بالتـــبرّع لامرأة تدعى وايان نورياسي لمساعدتها على شراء منـــزل في إندونيسيا لها ولبناتها.

ثمّ أخـــبرتهم بقـــصّة وايان وتوتّي واليتيمتين بأكملها وبوضعهنّ. ووعـــدت بأن أقدّم من مدّخراتي مبلغاً يساوي قيمة التبرّعات المقدّمة. وشـــرحت لهم أنّني أعي بالطبع كم أنّ العالم مليء بالعذاب والحروب وبـــأنّ الكـــلّ يحـــتاج إلى المال اليوم، ولكن ما العمل؟ هذه المجموعة

الصغيرة من الأشخاص في بالي هم عائلتي، وعلينا الاهتمام بعائلاتنا أينما وجدناها. وأنا أختم الرسالة، تذكّرت شيئاً قالته لي صديقتي سوزان قبل ذهابي في هذه الرحلة منذ تسعة أشهر. قالت يومها: "أنا أعرفك يا ليز. ستلتقين برجل يوماً ما وتغرمين به وينتهي بك الأمر إلى شراء منزل في بالي".

وكأنّها نوستراداموس.

لكن حين فتحت بريدي في اليوم التالي، اكتشفت بأنّه قد تمّ التبرّع بمبلغ 700 دولار. وفي اليوم التالي، فاقت التبرّعات ما يمكنني تقديمه.

لن أتحدّث عن دراما ذاك الأسبوع بتفاصيلها أو أحاول شرح ما أحسست به وأنا أفتح بريدي كلّ يوم لأجد رسائل من مختلف أنحاء العالم تقول، "اعتبريني من ضمن المتبرّعين!" فالجميع تبرّع بالمال. حتى أشخاص أعرف أنّهم مفلسون ومدينون، تبرّعوا بلا تردّد. ومن أولى الرسائل التي تلقيتها رسالة من إحدى صديقات صديقة مصفّف شعري، أرسلت لها الرسالة وأرادت التبرّع بمبلغ 15دولاراً. أمّا صديقي جون، فكان عليه أن يوجّه لي تعليقاً ساخراً كعادته عن رسالتي الطويلة والعاطفية ("اسمعي، في المرة القادمة التي ترغبين فيها بالبكاء على اللبن المسكوب، هلاّ حرصت على أن تكوني موجزة")، ولكنّه تبرّع بالمال على أي حال. صديق صديقتي آني الجديد (مصرفيّ من وول ستريت لم تسبق لي رؤيته) تبرّع بضعف المبلغ النهائي الذي تم جمعه. ثمّ راحت تلك الرسالة تدور حول العالم بحيث بتّ أتلقّى تبرّعات من أشخاص غرباء تماماً. كان فيضاً عالمياً للكرم. وسأختم تلك الحادثة بالقول إنّه بعد سبعة أيام فقط من إرسالي ذاك الطلب، حصلت من أصدقائي وعائلتي ومجموعة من الغرباء من مختلف أنحاء العالم على 18.000دولار تقريباً لشراء منزل لوايان نورياسي.

أعـــرف بأنّ توتّي هي التي تسبّبت بتلك المعجزة، بفضل دعواتها ورغبـــتها بـــأن تلين بلاطتها الزرقاء الصغيرة وتكبر حولها - مثل سام وحبّات الفاصولياء السحرية - لتصبح منـــزلاً حقيقياً يأويها هي وأمّها واليتيمتين إلى الأبد.

كلمة أخيرة. أشعر بالحرج للاعتراف بأنّ صديقي بوب هو الذي لاحـــظ بأنّ توتّي تعني بالإيطالية *الجميع*. كيف لم أدرك ذلك بعد كلّ تلـــك الأشهر في روما! غير أنّني لم أرَ الرابط، بل كان بوب من يوتاه هـــو الذي لفت نظري إليه. فقد أرسل لي رسالة الأسبوع الماضي مع وعـــده بالتبرع للمنـــزل الجديد: "إذاً، ذاك هو الدرس الأخير، أليس كـــذلك؟ حين تشرعين بالسفر حول العالم لتساعدي نفسك، تنتهين حتماً بمساعدة...*توتّي*".

93

لا أريـــد إخبار وايان بالأمر، ليس قبل جمع المال الكافي. يصعب علـــيَّ الاحتفاظ بسرّ كهذا، لا سيّما وهي تعيش في قلق مستمر على مستقبلها، ولكنّني لا أريد منحها الأمل قبل أن أكون أكيدة. هكذا لم أبـــح بخطّتي طيلة الأسبوع، وشغلت نفسي بالعشاء مع فيليبه البرازيلي كلّ ليلة تقريباً، فهو لم يمانع كوني أملك فستاناً جميلاً واحداً.

أعتقد بأنّني معجبة به. فبعد خروجنا عدّة مرّات، أصبحت أكيدة بـــأنّني معجبة به. فهو أعمق ممّا يبدو، *سيّد الحماقات* هذا كما وصف نفـــسه، يعـــرف جميع من في أوبود وهو دوماً مركز الاهتمام. سألت أرمينـــيا عنه، فهما صديقان منذ مدّة. قلت لها: "أجد فيليبه أعمق من الآخرين، أليس كذلك؟ كما أنّه أعمق ممّا يبدو عليه". أجابت: "أجل.

إنّـــه رجل طيّب ولطيف. ولكنّه مرّ بطلاق صعب. أعتقد أنّه أتى إلى بالي لينسى".

آه، هذا موضوع لا أعرف شيئاً عنه.

لكـــنّه في الثانية والخمسين. وهذا الأمر مثير للاهتمام. هل بلغت ســنًّا أصــبحت أجـــد فيها رجلاً بسنّ الثانية والخمسين ضمن دائرة اهتمامي؟ مع ذلك، هو يعجبني بشعره الفضّي ورأسه الذي بدأ يجتاحه الــصلع على نحو جذّاب. عيناه بنّيتان ودافئتان. وجهه لطيف ورائحته رائعة. كما أنّه رجل ناضج فعلاً، وهذا جديد بالنسبة إليّ.

يعـــيش فيليبه في بالي منذ خمس سنوات ويعمل مع صائغي الفضّة لصنع حلًى من الأحجار الكريمة البرازيلية لتصديرها إلى أميركا. أحببت كـــونه ظـــلّ متزوّجاً لعشرين عاماً قبل أن ينهار زواجه لأسباب شديدة التعقـــيد. كما أحببت كونه ربّى أطفالاً تربية جيّدة وهم يحبّونه. وأحببت كـــونه هو الذي لازم البيت واعتنى بالأطفال فيما سعت زوجته الأسترالية خلف مهنتها. (قال لي: "أردت أن أكون إلى الجانب الصحيح من التاريخ الاجتماعي"). كما يعجبني حنانه البرازيلي الفيّاض. فحين كان ابنه في الـــرابعة عـــشرة من عمره، اضطرّ إلى أن يقول له أخيراً: "بابا، بما أنّني بلغـــت الرابعة عشرة الآن ربّما يجدر بك التوقّف عن تقبيل فمي حين توصـــلني إلى المدرســـة". ويعجبني إتقانه أربع لغات أو أكثر. ومع أنّه يدّعـــي عدم إتقانه للإندونيسية، إلاّ أنّني أسمعه يتحدّث بها طيلة النهار. أحـــبّ كونه سافر إلى أكثر من خمسين بلداً في حياته وأنّه يرى العالم مكانـــاً صـــغيراً سهل الإدارة. أحبّ طريقته في الإصغاء إليّ، يتّكئ إلى الأمام ولا يقاطعني إلاّ حين أقاطع نفسي لأسأله ما إذا كنت أسبّب له الملل، فيجيب: "لديَّ كلّ الوقت لأجلك، يا حبيبتي الصغيرة الجميلة". أحببت هذا الوصف، وإن كان يطلقه على النادلة أيضاً.

قال لي في إحدى الأمسيات: "لم لا تتّخذين عشيقاً وأنت في بالي؟".

مع أنّني أعتقد أنّه ما كان ليرفض القيام بهذه المهمّة، إلاّ أنّه لم يعنِ نفسه وحسب. فقد أكّد لي بأنّ الشابّ الوسيم إيان يناسبني كثيراً، غير أنّه ثمّة مرشّحون آخرون. كان يعرف طبّاخاً من نيويورك، *شخصاً عظيماً، طويلاً، قوي العضلات وواثقاً من نفسه*، يعتقد أنّه قد يعجبني. ثمّة حقًّا أنواع عديدة من الرجال هنا على حدّ قوله، جميعهم يعيشون في أوبود، مغتربون من مختلف بقاع العالم وكثير منهم سيسرّهم *يا حبيبتي الجميلة أن تمضي هنا صيفاً رائعاً*.

قلت له: "لا أعتقد بأنّني جاهزة لذلك. لا أشعر بأنّني أقوى على خوض كلّ جهود الرومانسية مجدّداً. ولا أريد أن أروي قصّة حياتي من جديد أو أتّخذ تدابير لمنع الحمل. على أي حال، لست واثقة من أنّني ما زلت أجيد القيام بذلك. أشعر بأنّني كنت أكثر جرأة في موضوع الجنس والرومانسية في سن السادسة عشرة ممّا أنا عليه الآن".

قال فيليبه: "بالطبع، فقد كنت شابة وغبية في ذلك الوقت. وحدهم الشباب والأغبياء واثقون من أنفسهم في موضوع الجنس والرومانسية. هل تظنّين أنّ أيًّا منّا يعرف ماذا يفعل؟ هل تظنّين أنّه يمكن للبشر أن يحبّوا بعضهم من دون تعقيد؟ عليك أن تري ما يحدث في بالي، عزيزتي. فهؤلاء الرجال الغربيّون يأتون إلى هذا المكان بعد أن يكونوا قد خسروا حياتهم في بلادهم، ويقرّرون أنّهم قد اكتفوا من النساء الغربيات، فيتزوّجون مراهقة بالينيّة صغيرة، جميلة، مطيعة. ويعتقدون أنّ تلك الفتاة الصغيرة ستجعلهم سعداء وتجعل حياتهم سهلة. ولكن في كلّ مرّة أرغب بأن أقول لهم الشيء نفسه. *حظًّا سعيداً*. لأنّك ما زلت أمام امرأة يا صديقي، وما زلت رجلاً. ما زلتما كائنين بشريّين يحاولان العيش معاً، وسيكون ذلك معقّداً. والحبّ معقّد

دائماً. مع ذلك، ينبغي على البشر أن يحاولوا حبّ بعضهم. ولا مهرب مـــن أن تنفطـــر قلوبنا أحياناً. لا بل هي إشارة جيّدة لأنّها تعني بأننا حاولنا".

قلت له: "لقد فطر قلبـــي بشكل خطير آخر مرّة حتى إنّه ما زال يؤلمني. أليس غريباً أن تتألّم لسنتين تقريباً بعد انتهاء قصّة حبّ؟".

"عزيـــزتي، أنا من جنوب البرازيل. يمكنني أن أتألّم لعشر سنوات لأجل امرأة لم أقبّلها حتى".

تحدّثنا عن زواجنا وطلاقنا، ليس بطريقة سيّئة، بل لمواساة بعضنا. وقارنّـــا تجاربـــنا عـــن الإحباط العميق الذي لا قرار له والذي يعقب الطـــلاق. أكلنا وشربنا معاً وأخبرنا بعضنا أجمل القصص التي نتذكّرها عن طليقينا، لنـــزيل مرارة تلك الخسارة.

قال: "هل ترغبين بأن نفعل شيئاً معاً في عطلة الأسبوع؟" وجدت نفسي أقول نعم، سيكون الأمر لطيفاً. لأنّه سيكون كذلك.

للمـــرة الثانية، حين يوصلني فيليبه إلى البيت، ينحني ليقبّلني قبلة وداع، وللمـــرة الثانية، أقوم بالشيء نفسه، أدعه يشدّني إليه، ولكنّني أحـــني رأســـي في اللحظة الأخيرة وأضع خدّي على صدره. فأتركه يحضنني هكذا لبرهة، أطول ممّا هو ضروري بين الأصدقاء. كنت أشعر به يدفن وجهه في شعري فيما يضغط وجهي على صدره. كنت أشتمّ رائحة قميصه الكتّاني الناعم. تعجبني رائحته حقّاً. كان صدره عريضاً وعضلات ذراعيه قوية. فقد كان بطلاً في رياضة الجمباز حين كان في البرازيل. بالطبع، كان ذلك عام 1969، أي في العام الذي ولدت فيه. مع ذلك، كان جسده قويا.

حني رأسي بهذه الطريقة كلّما اقترب منّي هو نوع من الاختباء، كـــنت أتجّنب قبلة وداع بسيطة. ولكنّه نوع من عدم الاختباء أيضاً.

فتـــركه يضمّني خلال تلك اللحظات الطويلة الصامتة في نهاية الأمسية يعني أنّني كنت أترك نفسي أضمّ.

وهذا ما لم يحدث منذ وقت طويل.

94

سألت كيتوت، عرّافي العجوز: "ماذا تعرف عن الرومانسية؟".

فما كان منه إلاّ أن سأل: "وما هي الرومانسية؟".

"لا بأس، إنس الأمر".

"كلا، ما هذه؟ ما معنى هذه الكلمة؟".

رحـــت أعرّفها له: "الرومانسية، هي حين يغرم الرجال والنساء. القبل والجنس والزواج وما إلى ذلك".

"أنـــا لم أمـــارس الجنس مع كثير من الناس في حياتي، فقط مع زوجتي".

"أنت على حقّ، هذا ليس بالكثير. ولكن أتعني زوجتك الأولى أم الثانية؟".

"ليس لي سوى زوجة واحدة يا ليز، وقد توفّيت الآن".

"وماذا عن نيومو؟".

"نـــيومو ليست زوجتي فعلاً، بل هي زوجة أخي". وأمام الإرباك الـــذي علا وجهي أضاف: "هذا عاديّ في بالي". وشرح لي أنّ أخاه الأكـــبر، وهـــو مزارع أرزّ، يعيش في المنـــزل المجاور وأنّه متزوّج من نـــيومو التي أنجب منها ثلاثة أطفال. وبما أنّ كيتوت وزوجته لم يتمكّنا من الإنجاب، فقد تبنّيا أحد أبناء أخيه ليكون لهما وريثاً. وحين توفّيت زوجـــة كيتوت، بدأت نيومو تعيش في المنـــزلين، وتقسم وقتها بينهما

وتعـــتني بـــزوجها وبـــشقيقه وبعائلتي أولادها. وهي زوجة لكيتوت بالطـــريقة البالينـــيّة، أي أنّها تطبخ، وتنظّف، وتتوّلى طقوس المنـــزل الدينية، إلاّ أنهما لا يمارسان الجنس.

سألته: "ولِمَ لا؟".

أجـــاب: "نحن عجوزان جداًّ!" ونادى نيومو ليخبرها بأنّ السيدة الأميركـــية تـــريد أن تعرف لماذا لا يمارسان الجنس. فكادت نيومو أن تمـــوت من الضحك لمجرّد التفكير في الأمر. حتى إنّها اقتربت، وقرصت ذراعي بقوّة.

تابـــع كيتوت قائلا: "لم يكن لي سوى زوجة واحدة، وقد ماتت الآن".

"هل تشتاق إليها؟".

ابتسم بحزن وأجاب: "انتهى عمرها. سأخبرك الآن كيف التقيت بزوجتي. فحين كنت في السابعة والعشرين، التقيت بفتاة وأحببتها".

"في أيّ عام كان ذلك؟" سألته متلهّفة كالعادة لتقدير سنّه.

"لا أعرف، ربّما عام 1920؟".

(أي أنّـــه يبلغ مئة واثني عشر عاماً الآن. أعتقد أنّني اقتربت من حل اللغز).

"أحبـــبت تلك الفتاة. كانت جميلة ولكنّها سيّئة الطباع. لم تكن تـــريد سوى المال. لاحقت شاباً آخر. لم تكن تقول الحقيقة أبداً. أظنّ أنّها كانت تملك عقلاً سريًّا في عقلها ولا يمكن لأحد أن يعرف ما فيه. تـــوقّفت عـــن حبـــي، ورحلت مع الشابّ الآخر. شعرت بالحزن الـــشديد. انفطـــر قلبـــي. دعوت ودعوت لأرواح إخوتي الأربعة وسألتهم لِمَ لم تعد تحبّني؟ ثمّ أخبرني أحد إخوتي الأربعة الحقيقة. قال: هي ليست مناسبة لك. اصبر. فصبرت، ثمّ التقيت بزوجتي. امرأة جميلة

وطيّبة. دائماً لطيفة معي. لم نتشاجر أبداً، بل كنا منسجمين دائماً. كانت تبتسم دائماً، حتى إن لم يكن لدينا نقود. كانت تبتسم كلّ الوقت وتخبرني كم هي سعيدة لرؤيتي. وحين ماتت، حزنت كثيراً في عقلي".

"بكيت؟".

"قليلاً فقط في عينيّ. ولكنّني قمت بالتأمل لتنظيف جسدي من الألم. تأمّلت لروحها. كنت حزيناً وسعيداً أيضاً. أزورها بالتأمّل كلّ يوم، حتى لتقبيلها. إنها المرأة الوحيدة التي مارست معها الجنس. لذا أنا لا أعرف... ما هي الكلمة هذه الأيام؟".

"الرومانسية؟".

"أجل، الرومانسية. لا أعرف الرومانسية، ليز".

"لا تقع ضمن مجال خبرتك إذاً؟".

"وما هي *خبرتك*؟ ما معنى هذه الكلمة؟".

95

أخيراً جلست مع وايان وأخبرتها بشأن المال الذي جمعته لمنزلها. أخبرتها عن أمنيتي في ذكرى مولدي وأريتها لائحة بأسماء أصدقائي ثمّ أخبرتها بالمبلغ النهائي الذي تمّ التبرّع به: 18.000 دولار أميركي. صُدمت في البداية إلى حدّ أنّ وجهها اكتسى بملامح الحزن. من الغريب والصحيح أيضاً أنّ الانفعالات الحادّة تجعلنا نستجيب إلى الأخبار المزلزلة بعكس ما يمليه المنطق. تلك هي القيمة المطلقة للعواطف البشرية؛ فتسجَّل الأحداث السعيدة أحياناً على مقياس ريختر على أنّها صدمة خالصة، فيما تدفعنا الأحزان المروّعة أحياناً إلى الانفجار

بالضحك. وكانت الأخبار التي حملتها لوايان أقوى من أن تتحمّلها، فتلقّتها كسبب للحزن. لذا جلست معها لبضع ساعات وأخبرتها القصّة تكراراً وأريتها الأرقام ثانية إلى أن بدأت تقتنع بالحقيقة.

كانت استجابتها الشفهية الأولى (أعني قبل أن تنفجر باكية حين أدركت أنّه سيكون لديها حديقة) أنّها قالت بإلحاح: "أرجوك، ليز، عليك أن تخبري جميع من ساهم في التبرّع أنّ هذا ليس منزل وايان. إنّه منزل كلّ من ساعد وايان. وإن أتى أيّ منهم إلى بالي، يجب عليهم عدم الإقامة أبداً في فندق، مفهوم؟ أخبريهم أن يأتوا للإقامة في منزلي، مفهوم؟ عديني أن تخبري الجميع بذلك. سنسمّيه منزل المجموعة... منزل الجميع...".

ثمّ أدركت أنّها ستتمكن من امتلاك حديقة، فشرعت بالبكاء.

إلاّ أنّ أفكاراً أكثر سعادة راحت تحتلّ ذهنها ببطء. كانت أشبه بمحفظة نقود تهتزّ من الأعلى إلى الأسفل وتسكب العواطف في كلّ مكان. إن امتلكَت منزلاً سيكون لديها مكتبة صغيرة للكتب الطبية! وصيدلية لعلاجاتها التقليدية! ومطعم مناسب مع كراسٍ وطاولات (لأنّها اضطرت إلى بيع كلّ كراسيها وطاولاتها القديمة لتدفع أتعاب المحامي). إن كان لديها منزل، سيصبح من الممكن إدراج اسمها في كتيّبات *الكوكب الوحيد* (Lonely Planet)، وسيتمكّن الذين يرغبون منذ وقت طويل بذكر خدماتها من ذكر اسمها وعنوانها، ولكنّها لم تكن تملك عنواناً ثابتاً. إن أصبح لديها منزل، فستتمكّن من إقامة حفل بمناسبة مولد توتّي يوماً!

ثم استعادت وعيها وجدّيتها. "كيف يمكنني أن أشكرك يا ليز؟ يمكنني إعطاؤك أيّ شيء. لو كان لديَّ زوج أحبّه وكنت بحاجة إلى رجل لأعطيتك زوجي".

"احتفظي بزوجك، وايان. احرصي وحسب على أن تذهب توتّي إلى الجامعة".

"ماذا كنت لأفعل لو لم تأتي أبداً إلى هنا؟".

ولكنّني كنت *دائماً* آتية إلى هنا. تذكّرت إحدى القصائد الصوفية المفضّلة لديَّ. لم يكن ممكناً ألاّ آتي إلى هنا. ما كان ذلك ليحدث أبداً.

سألتها: "أين ستبنين منــزلك الجديد يا وايان؟".

وكالطفلــة الــتي كانت عينها على دمية جميلة في واجهة المتجر منذ زمــن طويل، أو فتاة تصمّم فستان زفافها منذ أن كانت في الثالثة عشرة، تبــيّن بــأنّ وايان تعرف بالضبط أين تقع قطعة الأرض التي تودّ شراءها. كانــت في وسط بلدة مجاورة، تصلها مياه وكهرباء البلدية، وثمّة مدرسة جــيّدة في الجوار لتوتّي وتقع في بقعة مركزية بحيث يمكن لمرضاها الوصول إلــيها ســيراً على الأقدام. ويمكن لإخوتها مساعدتها على بناء المنــزل. تعرف منذ الآن ما سيكون عليه لون جدران غرفة النوم الرئيسية.

فقــصدنا معــاً مستشاراً مالياً فرنسيًّا مغترباً يعمل أيضاً في مجال العقــارات، أرشدنا بلطف إلى أفضل طريقة لتحويل المال. فاقترح عليَّ تسهيلاً للأمور أن أقوم بتحويل المال مباشرة من حسابــي المصرفي إلى حساب وايان لتتمكّن من شراء المنــزل أو قطعة الأرض التي تريدها، وبــذلك لا أتــورّط في مسألة شراء أملاك في إندونيسيا. وما دمت لا أحــوّل مبلغاً يفوق 10.000دولار دفعة واحدة، لن تشتبه الحكومتان الأميركية والإندونيسية بأنّني أغسل أموال مخدّرات. ثمّ قصدنا مصرف وايــان الــصغير وتحدّثنا إلى المدير عن أفضل طريقة لتحويل المال عبر التلغراف. وختم مدير المصرف قائلاً: "إذاً، حين يتمّ التحويل يا وايان، وذلك في غضون بضعة أيام فقط، سيكون لديك 180 مليون روبيا في حسابك المصرفي".

نظـــرنا إلى بعضنا أنا ووايان وانفجرنا بالضحك. كلّ هذا المبلغ الهائل! حاولنا استعادة جديّتنا لأنّنا كنّا في مكتب مدير مصرف فخم، ولكنـــنّا لم نستطع الامتناع عن الضحك. خرجنا من هناك ونحن نترنّح ونمسك ببعضنا لكي لا نقع أرضاً.

قالت: "لم يسبق لي أن رأيت معجزة تحدث بتلك السرعة! كنت أطلـــب مـــن الله كلّ هذا الوقت مساعدة وايان، والله يطلب من ليز مساعدة وايان أيضاً".

أضفت: "وليز تطلب من أصدقائها مساعدة وايان أيضاً".

عـــدنا إلى المتجـــر، ووجدنا توتّي وقد وصلت للتوّ من المدرسة. فجـــثت وايـــان علـــى ركبتيها، وأمسكت بالفتاة وقالت: "منـــزل! منـــــزل! لدينا منـــزل!" فما كان من توتّي سوى أن ادّعت الإغماء، فسقطت مغشيًّا عليها على الأرض على طريقة أفلام الكرتون.

بينما كنّا نضحك جميعاً، رأيت اليتيمتين تتفرّجان على المشهد من المطـــبخ ولمحت في أعينهما نظرة تشبه... *الخوف*. وبينما أخذت وايان وتوتّي تقفزان بمرح، تساءلت في ما تفكّر الفتاتان. ممَّ هما خائفتان؟ من أن تتـــركا ربّما؟ أم أنّني أصبحت مخيفة لأنّني أتيت بكل هذا المال؟ أو ربّمـــا حـــين تكـــون حياتك هشّة مثل حياتهما، فإنّ أيّ تغيير يسبب الذعر.

حـــين هدأت الاحتفالات، سألت وايان، للتأكّد وحسب: "ماذا عـــن كيتوت الكبرى وكيتوت الصغرى؟ أهذه الأخبار سارّة بالنسبة إليهما أيضاً؟".

التفـــتت وايـــان إلى الفـــتاتين في المطـــبخ ويبدو بأنّها لاحظت اضطرابهما هي أيضاً، لأنّها أسرعت إليهما، واحتضنتهما بين ذراعيها، وهمست لهما بكلمات مطمئنة. فبدا عليهما الاسترخاء. ثمّ رنّ الهاتف،

وحاولت وايان سحب نفسها للإجابة إلاّ أنّ الأذرع النحيلة تشبّثت بها بقـــوّة ودفنت اليتيمتان رأسيهما في بطنها وتحت ذراعيها، وتعلّقتا بها بضراوة لم أشهدها فيهما من قبل.

فأجبت على الهاتف عوضاً عنها.

قلـــت: "هـــنا مركز العلاج الباليني التقليدي. قم بزيارتنا اليوم، واستفد من الحسومات لمناسبة انتقالنا!".

96

خـــرجت مجدّداً مع فيليبه البرازيلي، مرّتين خلال عطلة الأسبوع. اصـــطحبته يوم السبت للتعرّف بوايان والبنات، فرسمت له توتّي منازل فـــيما غمـــزتني وهمست: "صديق جديد؟" غير أنّني بقيت أهزّ برأسي نافـــية: "لا، لا، لا". (مـــع أنّـــني ما عدت أفكّر في الشابّ الويلزيّ) اصـــطحبت فيليبه أيضاً لزيارة كيتوت، عرّافي، فقرأ له كفّه وقال سبع مـــرات على الأقلّ (وهو يرمقني بنظرة حادّة) بأنّه "رجل طيّب، رجل طـــيّب جداً، رجل طيّب جداً جداً. ليس رجلاً سيّئاً يا ليز، بل رجل طيّب".

ثمّ ســـألني فيليبه يوم الأحد ما إذا كنت أرغب بقضاء اليوم على الـــشاطئ. فلاحظـــت أنّني أعيش في بالي منذ شهرين و لم أذهب إلى الشاطئ بعد، يا لها من حماقة! فوافقت. مرّ لاصطحابـــي من منـــزلي بـــسيارة الجـــيب وقادها لساعة إلى أن وصلنا إلى ذاك الشاطئ المنعزل الـــذي لا يزوره أيّ سائح تقريباً. كان ذاك الشاطئ أقرب ما رأيته إلى الفردوس، بمياهه الزرقاء ورماله البيضاء وظلال أشجار النخيل المنتشرة فـــيه. تحدّثنا طيلة النهار، و لم نقطع أحاديثنا سوى للسباحة أو النوم أو

القراءة، وقرأنا أحياناً بصوت عال لبعضنا. وقامت النساء البالينيات في أحد الأكواخ خلف الشاطئ بشيّ السمك الطازج لنا واشترينا الشراب والفاكهة الباردين. وفيما كانت الأمواج تداعبنا في المياه، أخبرنا بعضنا كلّ ما بقي من تفاصيل في قصة حياتنا لم نذكرها لبعضنا في الأسابيع الفائتة التي أمضينا أمسياتنا فيها معاً في أكثر مطاعم أوبود هدوءاً، نتحدّث ونتحدّث.

أعجب بجسدي حين رآه للمرة الأولى على الشاطئ، وقال لي إنّ لدى البرازيليين (*بالطبع*) عبارة تصف جسدي بدقّة، وهي *magrafalsa*، *أي نحيلة في الظاهر*، بحيث تبدو المرأة نحيلة عن بعد ولكن لدى الاقتراب منها، ترى أنّ جسدها مستدير ومكتنز، ما يعتبره البرازيليون شيئاً جيّداً. بارك الله فيهم. وفيما نحن نتحدّث ممدّدين على مناشفنا، كان يمدّ يده لنفض الرمال عن أنفي أو إبعاد خصلة متمرّدة من الشعر عن وجهي. تحدّثنا لعشر ساعات إلى أن حلّ الظلام، فجمعنا أشياءنا وقمنا نتمشّى على الطريق المتّسخ خفيف الإضاءة الذي يشكل الشارع الرئيسي في قرية الصيد البالينيّة القديمة تلك، وقد شبكنا ذراعينا تحت النجوم. وهنا سألني فيليبه بطريقة طبيعية ومرتاحة جداً (وكأنّه يتساءل ما إذا كنت أرغب بتناول الطعام): "هل ينبغي علينا إقامة علاقة معاً، ليز؟ ما رأيك؟".

أحببت الطريقة التي حدث فيها ذلك. من دون أيّ حركة، من دون محاولة تقبيل أو حركة جريئة، بل بسؤال. والسؤال الصحيح، أيضاً. تذكّرت شيئاً قالته لي معالجتي النفسية منذ عام تقريباً قبل أن أغادر لهذه الرحلة. فقد أخبرتها بأنّني أرغب بالبقاء عازبة خلال هذه السنة ولكنّني كنت قلقة: "ماذا لو التقيت بشخص أعجبني حقّاً؟ ماذا أفعل؟ هل أتورّط معه أم أحافظ على استقلالي؟ هل أمنح نفسي فترة

من الرومانسية؟" فأجابت معالجتي مبتسمة: "ليز، يمكن مناقشة كلّ هذا حين تطرأ المسألة فعلاً، مع الشخص المعنيّ".

هـــا قد طرأت؛ الزمان والمكان والمسألة والشخص المعنيّ. فرحنا نـــناقش الفكـــرة، ودار الحـــديث بسهولة خلال نزهتنا الودودة على الـــشاطئ. قلت: "كنت لأوافق على الأرجح في الظروف الطبيعية. أيًّا تكن *الظروف الطبيعية*...".

فـــضحكنا، ولكنّني أخبرته بتردّدي. فمع أنّني قد أستمتع بوضع قلبـــــي بين يدي عشيق مغترب خبير لفترة من الزمن، إلاّ أنّ شيئاً في داخلي يرجوني بجدية أن أكرّس هذه السنة من السفر بأكملها لنفسي. بـــأنّ تحـــوّلاً حيويًّا يحدث في حياتي وأنّ هذا التحوّل يحتاج إلى الوقت والمجال لكي يتمّ من دون تشويش. إنّني قالب الحلوى الذي خرج للتوّ مـــن الفـــرن وما زال يحتاج إلى بعض الوقت حتى يبرد قبل أن يدخل البراد. لا أريد أن أفقد السيطرة على حياتي مجدّداً.

بالطبع، قال فيليبه إنّه فهم وأنّ عليَّ اختيار الأفضل لي وإنّه يأمل أن أسامحه لأنّه طرح الموضوع أساساً. ("كان يجب أن أسأل، عزيزتي، آجلاً أم آجلاً"). وأكّد لي أنّه مهما يكن قراري، فهو يودّ الحفاظ على صداقتنا لأنّها ممتعة لنا نحن الاثنين على ما يبدو.

وتابع: "مع أنّه ينبغي عليك سماع حجّتي الآن".

"هذا عادل".

"أوّلاً: علـــى حـــدّ قولك، أنت خصّصت هذا العام للبحث عن التوازن والمتعة. ومن الواضح أنّك قمت بكثير من الممارسات التعبدية، ولكنّني لست واثقاً أين حصلت على المتعة حتى الآن".

"أكلت الكثير من الباستا في إيطاليا، فيليبه".

"الباستا، ليز؟ الباستا؟".

"معك حقّ".

"ثانـياً: أعـتقد أنّني أعرف ما الذي يقلقك. أنت تخشين دخول رجـل في حـياتك يأخذ كلّ شيء منك. ولكنّني لن أفعل ذلك بك، عزيـزتي. عـشت وحدي لوقت طويل أنا أيضاً وخسرت الكثير في الحبّ، مثلك تماماً. لا أريد أن يأخذ أيٌّ منا من الآخر شيئاً. كلّ ما في الأمـر أنّني لم أستمتع يوماً بصحبة أحد كما أفعل بصحبتك، وأودّ أن أكـون معك. ولا تقلقي، لن أجري خلفك إلى نيويورك حين تغادرين في أيلـول. أمّا بالنسبة إلى الأسباب التي شرحتها لي منذ أسابيع حول عدم رغبتك باتخاذ عشيق... في الواقع، لا آبه ما إذا اعتنيت بجسدك أم لا، يعجـبني كمـا هو، وقد سبق ورويت لي كلّ قصة حياتك وليس عليك أن تقلقي بخصوص منع الحمل، فقد سبق وأجريت جراحة لقطع القناة الدافقة.

"فيليـبه، هـذا العرض الأكثر إغراء ورومانسية الذي تلقيته في حياتي".

وكان كذلك فعلاً. ولكنّني رفضت مع ذلك.

أوصـلني إلى المنـزل. وحين أوقف السيارة، تبادلنا بضع قبل عذبـة، مالحة ورملية بعد يومنا على الشاطئ. بالطبع، كان الأمر ممتعاً ولكنّني مع ذلك قلت لا ثانية.

قـال: "لا بـأس، عزيزتي. ولكن تعالي إلى منـزلي مساء غد، وسأعدّ لك شرائح اللحم".

ثمّ رحل، وخلدت إلى السرير بمفردي.

لديَّ تاريخ من القرارات السريعة حول الرجال. لطالما وقعت في الحبّ بسرعة من دون قياس المخاطر. كما أميل إلى رؤية الأفضل لدى الجمـيع، ليس هذا وحسب، بل وأفترض بأنّ الجميع قادرون عاطفيًّا

علـــى بلوغ أوج قدراهم. وقد أغرمت لمرات لا تحصى بأوج قدرات الرجل أكثر ممّا أغرمت بالرجل نفسه، ثمّ تمسّكت بتلك العلاقة لوقت طـــويل (طويل جداً في بعض الأحيان) وأنا أنتظر أن يرقى الرجل إلى عظمته الخاصة. وفي كثير من المرات، وقعت ضحية تفاؤلي.

تـــزوّجت شابة وبسرعة، كنت مغرمة ومتفائلة، ولكنّني لم أناقش كـــثيراً حقـــيقة الزواج. ولم ينصحني أحد في ذلك. فقد تربّيت على الاســـتقلالية، والاكتفاء الذاتي، واتّخاذ القرارات بنفسي. وحين بلغت الـــرابعة والعـــشرين، افترض الجميع بأنّني قادرة على أن أقوم بخياراتي بنفـــسي، علـــى نحو مستقلّ. بالطبع، لم يكن العالم كذلك دوماً. فلو ولـــدت في حقبة أخرى من تاريخ المجتمع الغربـــي الأبوي، لاعتُبرت ملكاً لوالدي، إلى أن ينقلني لزوجي وأصبح ملكية زوجية. ولكان لديَّ القلـــيل لأقوله في شؤون حياتي الخاصة. ولو تقدّم أحد الشباب طالباً يـــدي، لجلس والدي معه، وأمطره بوابل من الأسئلة ليرى ما إذا كان مناسباً لي. ولأراد أن يعرف: "كيف ستعيل ابنتي؟ كيف هي سمعتك في مجـــتمعك؟ مـــا وضعك الصحّي؟ أين ستعيش معك؟ ما حجم ديونك وأملاكك؟ ما هي نقاط القوّة في شخصيّتك؟" وما كان والدي ليوافق على زواجي من أيّ شخص لمجرّد كوني مغرمة به. ولكن حين اتّخذت قـــرار الزواج في أيامنا المعاصرة، لم يتدخّل أبـــي على الإطلاق. وما كـــان ليتدخّل في هذا القرار أكثر ممّا يفعل في موضوع كيفية تصفيف شعري.

عفـــواً، أنـــا لا أحنّ إلى المجتمع الأبوي. ولكنّني بدأت أدرك أنّه حـــين تمّ تفكـــيك النظام الأبوي (وكان هذا في محلّه)، لم يتمّ استبداله بالـــضرورة بنظام حماية آخر. ما أعنيه هو أنّني لم أطرح يوماً على أيّ متقدّم لخطبتي الأسئلة الصعبة نفسها التي كان ليطرحها والدي، في زمن

مختلف. بل سلّمت نفسي مرّات عديدة لأجل الحبّ وحسب. ولو كنت أرغب بأن أكون امرأة مستقلّة، عليَّ أن أؤدّي دور وصيّي بنفسي. وقد نصحت غلوريا شتاينم النساء مرّة بأن يناضلن ليصبحن مثل الرجال الذين لطالما أردن الزواج بهم. وقد أدركت مؤخّراً أنّه ليس عليَّ أن أصبح زوجي وحسب، بل ووالدي أيضاً. ولهذا السبب، أرسلت نفسي إلى السرير وحيدة تلك الليلة. ذلك أنّني شعرت أنّه من المبكر جداً أن أتلقّى عرضاً من شابّ.

استيقظت عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا أشعر بجوع جسدي عميق إلى حدّ أنّني لم أعرف كيفية إشباعه. وكان القطّ المجنون في منزلي يموء بحزن لسبب ما فقلت له: "أعرف تماماً ما تشعر به". كان عليَّ القيام بشيء حيال ذلك. فنهضت من السرير وتوجّهت إلى المطبخ بقميص النوم. فقشّرت نصف كيلوغرام من البطاطا التي سلقتها ثمّ قطّعتها إلى شرائح وقليتها بالزبدة وملّحتها جيّداً وأكلتها كلّها وأنا أسأل جسدي ما إذا كان يقبل بالبطاطا المقلية عوضاً عن ممارسة الحبّ.

فأجاب جسدي بعد أن قضى على الطعام كلّه: "مستحيل، صغيرتي".

فعدت إلى السرير، وتنهّدت بسأم...

كالعادة، راح فكري يبحث في ملفّاته الإباحية عن الفانتازيا المناسبة للمساعدة على إنجاز المهمة ولكنّ شيئاً لم يكن ينجح هذه الليلة. في النهاية، الشيء الوحيد الذي نجح في إشباع رغبتي هو إقراري على مضض بفكرة صعود صديقي الطيّب من البرازيل معي إلى السرير...

أخيراً، غفوت. استيقظت على سماء زرقاء هادئة وغرفة أكثر هدوءاً. كنت لا أزال أشعر بالاضطراب وعدم التوازن، فتمهلت في

صباحي، وأنشدت أبيات الغوروجيتا السنسكريتية البالغ عددها 182 بيتاً بأكملها، تلك الترنيمة العظيمة المطهّرة التي تعلّمتها في المعتزل في الهند. ثمّ تأمّلت لساعة من السكون وتنميل الأطراف إلى أن شعرت أخيراً بذاك الكمال الخاصّ، الثابت، الصافي، غير المرتبط بشيء، غير المتحوّل أبداً لسعادتي الخاصة. تلك السعادة الأفضل حقًّا من أيّ شيء شعرت به في حياتي، بما في ذلك القبلات المالحة والدسمة والبطاطا الأكثر ملوحة ودسامة.

كنت في غاية السعادة لأنّني اتّخذت قرار البقاء وحيدة.

97

هكذا فوجئت نوعاً ما في الليلة التالية. فبعدما أعدّ لي فيليبه العشاء في منزله وتمدّدنا على أريكته لساعات وتحدّثنا في جميع المواضيع، وبعدما مال إليّ وأخبرني كم يحبّ رائحتي، وضع أخيراً راحته على خدّي وقال: "هذا يكفي حبيبتي، تعالي الآن"، ففعلت.

...

كنت قد فقدت صوتي في مكان ما بين الأريكة والسرير، فاكتفيت بهزّ رأسي موافقة. لم يعد ثمّة ما يمكن أن يقال. أمضيت فصلاً طويلاً وقاسياً من الوحدة، وقد أبليت حسناً، ولكنّ فيليبه على حقّ؛ هذا يكفي.

أجاب مبتسماً: "حسناً". وأبعد بعض الوسائد من طريقنا ثمّ استلقينا وقال: "فلننظّم نفسينا هنا".

وكان تعبيره مضحكاً في الواقع لأنّ تلك اللحظة وضعت حدًّا لكلّ جهودي بتنظيم حياتي.

أخبرني فيليبه لاحقاً كيف رآني تلك الليلة. قال بأنّني بدوت صغيرة جداً، ولا أشبه بشيء المرأة الواثقة من نفسها التي تعرّف بها في ضوء النهار. قال بأنّني بدوت صغيرة إلى حدّ كبير، ولكن منفتحة ومثارة في الوقت نفسه ومتعبة من كوني شجاعة. قال إنّه كان واضحاً بأنّ أحداً لم يلمسني منذ وقت طويل. فقد وجدني أضجّ بالرغبة، ولكنّني كنت ممتنّة في الوقت نفسه لفرصة التعبير عنها. ومع أنّني لا أذكر كلّ *ذلك*، إلاّ أنّني صدّقت كلامه لأنّه بدا بأنّه كان يوليني اهتماماً فظيعاً.

أكثر ما تذكّرته تلك الليلة هي الناموسية البيضاء التي كانت تحيط بنا. فقد بدت لي أشبه بمظلّة الهبوط، وشعرت بأنّني أفتحها لأترجّل عن متن الطائرة القوية المنظّمة التي كنت أطير بها خلال هذه السنوات بعيداً عن *وقت عصيب في حياتي*. غير أنّ طائرتي العنيدة أصبحت الآن مهجورة في وسط الهواء، فخرجت من تلك الطائرة أحادية الرأي، وأحادية المحرّك، وتركت تلك المظلّة البيضاء تؤرجحني عبر الفضاء الفارغ الغريب بين ماضيّ ومستقبلي، وتحطّ بي بأمان على هذه الجزيرة الشبيهة بالسرير، التي يقطنها بحّار برازيلي وسيم تحطّمت سفينته والذي كانت سعادته ودهشته كبيرتين بمجيئي (بعد أن عاش هو نفسه وحيداً لمدة طويلة) إلى حدّ أنّ لغته الإنكليزية انكمشت فجأة إلى خمس كلمات لم يردّد غيرها كلّما نظر إلى وجهي: *جميلة، جميلة، جميلة، جميلة وجميلة*.

98

لم ننم إطلاقاً بالطبع. وفي الصباح، كان عليّ *الذهاب*. كان عليّ العودة إلى منزلي بكل حماقة باكراً في الصباح التالي لأنّني كنت على موعد مع صديقي يوداي. فقد خطّطنا منذ وقت طويل للذهاب هذا

الأسبوع بالذات في رحلة بالسيارة عبر بالي معاً. خطرت لنا الفكرة خلال إحدى الأمسيات في منزلي حين قال يوداي إنّ أكثر ما يشتاق إليه في أميركا من بعد زوجته ومنهاتن كانت القيادة، مجرّد الانطلاق بسيارة مع بعض الأصدقاء والذهاب في مغامرة لمسافات طويلة على تلك الطرقات السريعة بين الولايات. قلت له: "حسناً، فلنذهب في رحلة هنا في بالي معاً، على الطريقة الأميركية".

أضحكتنا تلك الفكرة، إذ ليس من الممكن الذهاب في رحلة بالسيارة في بالي على الطريقة الأميركية. فهذه الجزيرة التي لا تتجاوز مساحتها مساحة ديلاوير، تفتقر إلى المساحات الطويلة. كما أنّ الطرقات السريعة فيها فظيعة، تزيدها خطورة الدراجات النارية العديدة التي تتنقّل بها العائلة البالينيّة بأكلمها، بحيث تقلّ خمسة أشخاص، يقودها الأب بيد ويحمل طفله حديث الولادة باليد الأخرى (وكأنّه كرة قدم) وتجلس الأمّ جانبيًّا خلفه بفستان السارونغ الضيّق حاملة سلّة على رأسها، وتحثّ ولديها الصغيرين على عدم السقوط عن الدرّاجة المسرعة، التي تسير على الأرجح بعكس السير ومن دون مصباح. ومع أنّ الخوذة لا تلبس إلاّ نادراً، إلاّ أنّهم كثيراً ما يحملونها، ولم أفهم السبب بتاتاً. تخيّل الأرقام القياسية التي تسجّلها هذه الدراجات المحمّلة بالبشر، وهي تسير مسرعة بلا هوادة، تتجاوز وتتفادى بعضها وكأنّها تقوم برقصة جنونية، على الطرقات البالينيّة السريعة الحافلة بالبشر. لا أعرف كيف لم يقتل جميع من في بالي بعد في حوادث سير.

غير أنّنا قرّرنا أنا ويوداي القيام بالرحلة على أي حال، واستئجار سيارة لمدة أسبوع وقيادتها عبر هذه الجزيرة الصغيرة وكأنّنا في أميركا بلا هموم. أعجبتني الفكرة كثيراً حين خطرت لنا في الشهر الماضي، ولكنّ التوقيت الآن لا يبدو ملائماً، وأنا ممدّدة في السرير وفيليبه يقبّل

رؤوس أصـــابعي وذراعـــيّ وكتفـــيّ ويطلب منّي البقاء. ولكن عليَّ الـــذهاب، كنت أرغب بذلك. ليس فقط لتمضية أسبوع مع صديقي يوداي، ولكن لأرتاح بعد تلك الليلة مع فيليبه، وأستوعب حقيقة أنّني، كما يقولون في الروايات: *اتّخذتُ عشيقاً*.

هكـــذا أوصلني فيليبه إلى منـــزلي، وودّعني بقبلة أخيرة شغوفة، وبالكـــاد كان لديَّ الوقت للاستحمام واستجماع شتات نفسي قبل وصـــول يـــوداي بسيارتنا المستأجرة. فنظر إلي قائلاً: "متى عدت إلى البيت البارحة يا صاح؟".

أجبت: "لم أعد إلى البيت البارحة يا صاح".

قال: "يا صاح". وغرق في الضحك، متذكّراً على الأرجح حديثنا مـــنذ أســـبوعين حين أخبرته بجدّية أنّني قد لا أمارس الجنس ثانية لبقيّة حياتي. فقال: "استسلمت إذاً؟".

"يـــوداي، دعني أخبرك قصّة. في الصيف الماضي، قبل أن أغادر الولايات المتحدة، قمت بزيارة جدتي في نيويورك. تلك السيدة اللطيفة حقّاً، وتدعى غايل، هي في الواقع زوجة جدي الثانية، وقد بلغت العقد الثامن من العمر الآن. فأخرجت ألبوم صور قديم، وأرتني صوراً أخذت لهـــا في الثلاثينيات، حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها وذهبت في رحلـــة لمـــدّة عام مع صديقتين لها ومرافقة. راحت تقلّب الصفحات وتريني صوراً قديمة رائعة لإيطاليا، فوقعنا فجأة على صورة شابّ إيطالي وسيم حقّاً في البندقية. قلت لها: "غايل، من هذا الشابّ الرائع؟" قالت: "إنّـــه ابن أحد ملاّك الفندق الذي نزلنا فيه. كان صديقي". قلت لها: "*صديقك*؟" فنظرت إليَّ زوجة جدّي الرقيقة بخبث وأصبحت غاية في الإثارة وكأنّها بيتي دايفيس وقالت: "كنت قد تعبت من النظر إلى دور العبادة في إيطاليا، ليز".

ضرب يوداي كفّه بكفّي ثمّ قال لي: "هيّا، يا صاح".

انطلقنا في رحلتنا البرية الأميركية المزيّفة عبر بالي، أنا وذاك الموسيقار الإندونيسي العبقري الشابّ المنفيّ، وكان المقعد الخلفي من السيارة ممتلئاً بالغيتارات والشراب والطعام البالي الذي يشبه طعام الرحلات البرية الأميركية: رقائق أرزّ مقلية وسكاكر بلدية ذات نكهات فظيعة. تفاصيل تبدو لي ضبابية الآن، فقد كانت مشوّشة بأفكاري عن فيليبه وبالضبابية التي ترافق أيّ رحلة برية بالسيارة في أيّ بلد في العالم. ما أذكره هو أنّنا تحدّثنا أنا ويوداي بالأميركية طيلة الوقت، وهي لغة لم أتحدّث بها منذ وقت طويل. تحدّثت بالإنكليزية كثيراً خلال هذه السنة، بالطبع، ولكن ليس بالأميركية، وبالتأكيد، ليس بلغة الهيب هوب التي يحبّها يوداي. فاستمتعنا بذلك طيلة الرحلة وتحوّلنا إلى مراهقين أميركيين حديثهما حافل بكلمات على غرار *يا صاح* وبإهانات حنونة.

لم ندخل قلب بالي، بل قدنا السيارة على الساحل، على طول الشواطئ لمدّة أسبوع. وكنّا نركب أحياناً زورق صيد صغيراً ونقصد إحدى الجزر لنرى ما يجري فيها. كانت بالي حافلة بأنواع عديدة من الشواطئ. فقضينا يوماً على شاطئ كوتا الرملي الأبيض الطويل الشبيه بجنوب كاليفورنيا، ثمّ توجّهنا إلى الشاطئ الصخري الأسود الكئيب للساحل الغربي الخلاّب، وعبرنا الخطّ البالي الفاصل غير المرئيّ الذي لا يجتازه أبداً السائح العادي ووصلنا إلى الشواطئ المقفرة للساحل الشمالي التي لا يطؤها سوى راكبي الأمواج (والمجانين منهم فقط). جلسنا على الشاطئ، وتفرّجنا على الأمواج الخطيرة وهي تتكسّر أمامنا فيما كان راكبو الأمواج ينزلقون ويختفون في قلب المحيط ليظهروا مجدّداً ويركبوا موجة أخرى، فنلتقط أنفاسنا قائلين: "يا صاح، هذا جنون تامّ".

كمــــا أردنا، نسينا لساعات طويلة أنّنا في إندونيسيا ونحن نجول بتلك السيارة المستأجرة ونتناول الطعام الجاهز ونغنّي الأغاني الأميركية ونأكـــل البيتزا أينما وجدناها. وكلّما غلب الطابع البالييني على محيطنا، نحاول تجاهله وندّعي بأنّني عدنا إلى أميركا. فأسأل مثلاً: "ما هو أفضل طـــريق لعـــبور هذا البركان؟" فيجيب يوداي: "أعتقد أنّ علينا سلوك الطـــريق أي - 95". فأضيف: "ولكنّ هذا الطريق سيقودنا مباشرة إلى لـــوس أنجلوس وسط ذروة ازدحام السير..." كانت مجرّد لعبة، ولكنّها نجحت نوعاً ما.

كـــنا نقع في بعض الأحيان على شواطئ هادئة فنمضي اليوم في الـــسباحة. صادقنا كلّ من التقينا به. فيوداي من النوع الذي إذا كان يـــسير على الشاطئ ورأى رجلاً يبني زورقاً، يتوقّف ويقول له: "كم هذا رائع! هل تبني زورقاً؟" وهو بارع في كسب ودّ الناس إلى حد أنّ باني الزورق دعانا للعيش مع عائلته لمدّة عام.

أمّـــا المساء، فكان يشهد أحداثاً غريبة. كنّا نقع على معابد تدور فيها طقوس غامضة، فنؤخذ بصوت الأناشيد والطبول. عثرنا على قرية ســـاحلية تجمّع أهلها في شارع معتم للقيام باحتفال ذكرى ميلاد. فتمّ ســـحبنا أنا ويوداي من بين الحشود (تكريماً لنا لكوننا غريبين) ودعينا للـــرقص مع أجمل فتاة في القرية. (كانت مكسوّة بالذهب والمجوهرات والـــبخور فـــيما زيّنت وجهها على الطراز المصري). كانت في الثالثة عـــشرة علـــى الأرجح، ولكنّها كانت تهزّ وركيها بثقة رقيقة ومغرية لامـــرأة تعرف بأنّها قادرة على إغراء أيّ رجل تريده). في اليوم التالي، وجدنا في القرية نفسها مطعماً عائليًّا غريباً يعلن مالكه بأنّه طبّاخ عظيم للأكـــل التايلندي، علماً أنّه لم يكن كذلك، إلاّ أنّنا أمضينا اليوم هناك علـــى أي حال، نشرب الكوكا كولا المثلجة ونتناول الطعام التايلندي

المــدهن ونلعب مع ابن المالك المراهق المخنّث. (ولم ننتبه سوى لاحقاً بأنّ ذاك المراهق الوسيم كان على الأرجح الراقصة الجميلة التي رأيناها في الليلة السابقة. في الواقع، الباليينيون ماهرون في التشبّه).

كنت أتّصل بفيليبه كلّ يوم من أيّ هاتف أجده، فيسألني: "كم ليلة عليّ الانتظار بعد إلى أن تعودي إليّ؟" ويقول: "أنا أستمتع في الوقوع في حبّك، عزيزتي. يبدو الأمر طبيعياً جداً وكأنّه يحدث كلّ أسبوعين، مع أنّني لم أشعر كذلك تجاه أيّ امرأة منذ ثلاثين عاماً".

لم أبلغ تلك المرحلة بعد، مرحلة الوقوع الحرّ في الحبّ، بل كانت تصدر عنّي أصوات متردّدة وكأنّها تذكّرني بأنّني سأغادر خلال بضعة أشهر. غير أنّ فيليبه لم يكن يكترث لذلك، بل يقول: "قد تكون هذه فكرة رومانسية غبية من أميركا الجنوبية، ولكنّني أريد أن تفهمي أنّني أريد أن أتعذّب لأجلك. مهما كان الألم الذي سيلحق بنا في المستقبل، أقبل منذ الآن، لمجرّد متعة أن أكون معك. فلنستمتع بهذا الوقت. إنّه رائع".

قلت له: "أتعلم، هذا مضحك، ولكن كنت أفكّر جدّياً قبل أن ألتقي بك في أنّني قد أمضي حياتي وحيدة وعازبة. اعتقدت أنّني سأعيش حياة تأمّل روحي".

قال: "تأمّلي في هذا، حبيبتي...". تركت الهاتف وأنا أرتعش قليلاً وركبتاي ترتجفان من هذا الشغف الجديد. أمضينا اليوم الأخير من رحلتنا أنا ويوداي على أحد الشواطئ نتسكّع لساعات، وكما يحدث معنا عادة، عدنا نتحدّث عن نيويورك وعن عظمتها ومدى حبّنا لها. قال يوداي إنّه يفتقد المدينة بقدر ما يفتقد زوجته، وكأنّ نيويورك هي شخص أو قريب فقده حين تم ترحيله. وفيما كنّا نتحدّث، مسح يوداي بقعة جميلة من الرمل الأبيض بين منشفتينا ورسم خريطة لمنهاتن

ثمّ قال: "تعالي نحاول ملأها بما نتذكّره من المدينة". استعملنا رؤوس أصابعنا لرسم جميع الشوارع والطرقات الرئيسية والفوضى التي يحدثها برودواي وهو يمتدّ على نحو مائل عبر الجزيرة والأنهار وفيلادج وسنترال بارك. اخترنا صدفة جميلة لتكون مبنى إمباير ستايت وأخرى لتحتلّ مكان مبنى كريستل. ثمّ أخذنا عودَين وأعدنا وضع برجي التجارة عند قاعدة الجزيرة، حيث ينتميان.

استعملنا تلك الخريطة الرملية لنري بعضنا مواقعنا المفضّلة في نيويورك. من هنا اشترى يوداي نظّارته الشمسية التي يضعها الآن، ومن هناك اشتريت الصندل الذي أنتعله. هذا هو المطعم الذي تناولت فيه العشاء مع زوجي السابق للمرة الأولى، وذاك هو المكان الذي التقى فيه يوداي بزوجته. هنا يعدّ ألذّ طعام فييتنامي في المدينة، وهناك أفضل بايغل، وهذا أفضل مطعم نودلز ("غير ممكن يا صاح، هذا هو أفضل مطعم نودلز"). ثمّ رسمت الشوارع المجاورة لمنزلي وقال يوداي: "أعرف مطعماً جيّداً هناك".

"تيك تويك، شايين أم ستارلايت؟".

"بل تيك تويك".

"هل جرّبت يوماً قشدة البيض لدى تيك تويك؟".

فأنّ قائلاً: "يا الله، أعرف...".

شعرت بهذا التوق إلى نيويورك بشدّة إلى حدّ أنّني اعتقدته صادراً عنّي. فحنينه إلى تلك المدينة انتقل إليّ حتى إنني نسيت للحظة بأنّني حرة في العودة إلى منهاتن يوماً، بعكسه هو. راح يحرّك العودَين ويغرزهما أكثر في الرّمل الأبيض ثمّ نظر إلى المحيط الأزرق الساكن وقال: "أعرف أنّ هذا المكان جميل... ولكن هل تعتقدين أنّني سأرى أميركا مجدّداً؟".

ماذا يمكنني أن أقول له؟

غرقنا في الصمت. ثمّ بصق الحلوى الإندونيسية كريهة الطعم من فمه قائلاً: "يا صاح، هذه الحلوى نتنة. من أين أتيت بها؟".

99

حين عدنا إلى أوبود، ذهبت مباشرة إلى منـــزل فيليبه، و لم أغادر غـــرفة نـــومه لـــشهر تقريباً. ولست أبالغ إذ أقول إنّ أحداً لم يحبّني ويعشقني هكذا من قبل، ليس بتلك اللذة والتركيز. لم يسبق لي أبداً أن استمتعت بهذا الشكل.

ممّا أعرفه عن الحميمية أنّه ثمّة قوانين طبيعية تسود التجربة الجنسية بـــين شخصين، وبأنّ تلك القوانين غير قابلة للنقاش أكثر من موضوع الجاذبية الأرضية. فالشعور بالراحة الجسدية مع جسد شخص آخر ليس قـــراراً شخصيًّا. ولا علاقة له بطريقة تفكير الناس أو حديثهم أو حتى شـــكلهم. ذلك أنّ الجاذب الغامض يكون إمّا موجوداً، عميقاً خلف عظم الصدر، أو لا يكون. وحين لا يكون (وهذا ما تعلّمته في الماضي، بوضـــوح فطر قلبـــي) لا يمكنك أن تجبره على أن يكون موجوداً تماماً كمـــا لا يمكـــن للجرّاح أن يجبر جسد المريض على قبول كلية من المتبرّع غير المناسب. واستناداً إلى صديقتي آني، يتلخّص الأمر في سؤال بسيط: "هل تريدين أن يكون جسدك ملتصقاً بجسد ذاك الشخص إلى الأبد أم لا؟".

كما اكتشفنا أنا وفيليبه: جسدانا مصمّمان لأجل ذلك. فلم يكن ثمّة أجزاء فيهما تتحسّس تجاه جسد الآخر. لم يكن ثمّة شيء خطير أو صعب أو مرفوض. كان كلّ ما في عالمنا الحسّي متكاملاً و... مجامَلاً.

قال لي فيليبه "انظري إلى نفسك، انظري كم أنت جميلة... كلّ خطوط جسدك منحنية... وكأنّك كثبان رملي...".

فيليبه هو أيضاً أستاذ في لغة التحبّب. وحين نكون في السرير، يمطرني بعبارات الحبّ البرتغالية. كنت كسولة جداً في بالي و لم أحاول تعلّم الإندونيسية أو الباليّة، إلاّ أنّ البرتغالية كانت تأتيني بسهولة. ومع أنّني لم أكن أتعلّم سوى لغة السرير، إلاّ أنّه استعمال رائع للبرتغالية. كان يقول لي: "حبيبتي، ستسأمين منّي. سألمسك وأكرّر لك كم أنت جميلة إلى أن تسأمي".

"جرّبني".

أحببت شعور عدم معرفة الوقت. فجدولي المنظّم ذهب أدراج الرياح. أخيراً، مررت بعرّافي عصر أحد الأيام بعد غيبة طويلة. فقرأ كيتوت الحقيقة في وجهي قبل أن أتفوّه بشيء.

قال لي: "عثرت على صديق في بالي".

"نعم، كيتوت".

"جيّد، ولكن احذري من أن تصبحي حاملاً".

"سأفعل".

"أهو رجل طيّب؟".

"أخبرني أنت، كيتوت. أنت من قرأ كفّه وأكّد لي أنّه رجل طيّب. كرّرت ذلك حوالى سبع مرات".

"أنا؟ متى؟".

"أحضرته إليك في حزيران. هو برازيلي، وأكبر منّي. قلت لي إنّك أحببته".

أصرّ قائلاً: "لم أره أبداً". وما من شيء كان ليقنعه بالعكس. في بعض الأحيان ينسى كيتوت بعض الأمور، كما كنت لتفعل أنت أيضاً

لو كان سنّك يتراوح بين الخامسة والستين والمئة واثني عشر عاماً. فمع أنّــه حــادّ الــذهن وذكيّ، إلاّ أنّني أشعر أحياناً وكأنّني أخرجته من مــستوى وعــي آخر، من عالم آخر. (منذ بضعة أسابيع، قال لي بلا مناســبة: "أنت صديقة جيّدة، ليز. وفية ومحبّة". ثمّ تنهّد مضيفاً بحزن: "لست مثل شارون". من تكون شارون؟ ماذا فعلت له؟ حين حاولت أن أسأله، لم يجب بشيء. وتصرّف وكأنّه لا يعلم عمَّ أتحدّث، وكأنّني أنا من ذكر شارون الماكرة في الأساس).

"لِمَ لا تحضرينه لتعرّفيني به؟".

"فعلت، كيتوت. حقًّا. وقلت لي إنّك أحببته".

"لا أذكر. أهو غنيّ؟".

"كلا كيتوت، ليس غنيًّا. ولكن لديه ما يكفي من المال".

"حالته متوسّطة؟" كان العرّاف يريد معرفة التفاصيل.

"لديه ما يكفي من المال".

بدا جوابــي بأنّه يزعج كيتوت: "إن طلبت مالاً من هذا الرجل، هل يمكنه إعطاؤك أم لا؟".

"كيــتوت، أنا لا أريد مالاً منه. لم يسبق لي أن أخذت مالاً من رجل".

"تمضين معه كلّ ليلة؟".

"أجل".

"جيّد. هل يدلّلك؟".

"كثيراً".

"جيّد. أما زلت تتأمّلين؟".

نعــم. أتأمّــل كــلّ يوم. أتسلّل من سرير فيليبه، وأجلس على الأريكة بصمت لأعبّر عن شكري على كلّ ذلك. خارج الشرفة، كان

البطّ يصيح وهو يذرع سهول الأرزّ جيئة وذهاباً ويرشّ الماء من حوله. (يقول فيليبه إنّ أسراب البطّ الباليني النشيطة لطالما ذكّرته بالنساء البرازيليات وهنّ يتبخترن على شواطئ الريو، يثرثرن بصوت عالٍ ويقاطعن بعضهنّ باستمرار ويمايلن أوراكهنّ بفخر). كنت مسترخية جداً في تلك الفترة إلى حد أنّني أنزلق في التأمّل بسهولة وكأنّه حمّام أعدّه لي عشيقي...

لِمَ كانت الحياة تبدو لي صعبة؟

اتصلت يوماً بصديقتي سوزان في نيويورك وأصغيت إليها وهي تروي لي، على الرغم من عويل سيارات الشرطة المألوف، آخر تفاصيل آخر علاقة فاشلة في حياتها. فخرج صوتي من بين أنغام الجاز الليلية الهادئة ورحت أخبرها كيف أنّ عليها أن تنسى الرجل وأنّ الله سيعوّض عليها وأنّ الكون ليس سوى سلام وتناغم...

استطعت تقريباً أن أراها وهي تنظر نحو الأعلى بسأم وترفع صوتها فوق صوت صفارات الإنذار قائلة: "تتحدّثين مثل امرأة...".

100

إلاّ أنّ كلّ المرح واللعب انتهى بعد بضعة أسابيع. فبعد كلّ تلك الليالي من السهر، تعب جسدي وأصبت بالتهاب قوي في المثانة. وهي إصابة مألوفة لفرط ممارسة الجنس حين لا تعود معتاداً عليه. أتت الإصابة على نحو مفاجئ، كالمأساة. فقد كنت أسير في البلدة صباح أحد الأيّام أقوم ببعض الأعمال حين شعرت بألم حارق وارتفعت حرارتي. سبق أن أصبت بهذا النوع من الالتهابات خلال شبابي الطائش، فعرفت على الفور سبب الألم. ذعرت للحظة، فمن شأن تلك

الإصـــابات أن تكون فظيعة، ولكن تذكّرت أنّ صديقتي المقرّبة في بالي هي معالجة، فهرعت إليها على الفور.

دخلتُ متجرها قائلة: "أنا مريضة!".

نظرت إليّ وقالت: "أنت مريضة من كثرة الجنس، ليز؟".

فدفنت وجهي بين كفّيّ وأنا أئنّ محرجة.

قالت ضاحكة: "لا يمكنك إخفاء شيء عن وايان...".

كـــنت أشعر بألم رهيب. فكلّ من سبقت له الإصابة بهذا النوع مـــن المشاكل يعرف الشعور الفظيع، ومن لا يعرفه، ما عليه سوى أن يتخـــيّل صورته الخاصة عن التعذيب ويستحسن أن يستعمل فيها سيخ نار.

إلاّ أنّ وايـــان لا تتحـــرّك بـــسرعة. بـــل باشرت بتقطيع بعض الأعـــشاب وغلـــيّ بعض الجذور وهي تروح وتجيء من وإلى المطبخ، وتحـــضر لي شـــراباً بنيًّا ساخناً الواحد تلو الآخر، طعمه كطعم السمّ وتقول: "اشربـــي حبيبتي...".

كلّمـــا وضعت الشراب التالي على النار، جلست أمامي ورمتني بنظرات خبيثة واستغلّت الفرصة للحديث في الموضوع.

"هل أنت محتاطة لعدم الحمل، ليز؟".

"غير ممكن، وايان. فيليبه أجرى جراحة قطع أنابيب".

"فيليبـــه أجرى جراحة قطع أنابيب؟" سألتني بنفس النبرة وكأنّها تقول: "فيليبه يملك فيلاً في *توسكانيا*؟" (علماً أنّني أشعر بالشيء نفسه حـــيال ذلك، للمناسبة.) "من الصعب جداً على الرجل في بالي إجراء جراحة كهذه. فمشكلة تحديد النسل تقع دوماً على عاتق المرأة".

(علـــى الرغم من صحّة ذلك، إلاّ أنّ معدّلات الإنجاب انخفضت مؤخّـــراً بفـــضل برنامج ذكي لتحديد النسل أطلق مؤخّراً. إذ وعدت

الحكـــومة بتقديم دراجة نارية جديدة لكل رجل يتطوّع لإجراء جراحة قطـــع أنابـــيب... مـــع أنّني لا أحبّ أن أتخيّل الرجال وهم يركبون درّاجاتهم عائدين إلى المنـــزل *في اليوم نفسه*).

"الجـــنس مضحك". قالت وايان وهي تراني أنقبض من الألم وأنا أشرب المزيد من دوائها المنـــزلي.

"أجل وايان، شكراً. إنّه مضحك جداً".

"كـــلا، إنّـــه مـــضحك فعلاً. فهو يدفع الناس إلى القيام بأمور مضحكة. الكلّ يتصرّفون على هذا النحو في البداية. يريدون الكثير من الـــسعادة والمتعة إلى أن يمرضوا. حتى وايان فعلت ذلك في بداية قصة حبّها. اختلّ توازنها".

قلت لها: "أنا محرجة".

قالـــت: "لا". ثمّ أضـــافت بإنكليزية ممتازة (ومنطق باليني ممتاز): "اختلال التوازن أحياناً لأجل الحبّ هو جزء من عيش حياة متوازنة ".

قـــرّرت الاتـــصال بفيليـــبه. كان لديَّ بعض المضادّات الحيوية في المنـــزل، مع الإسعافات الأوّلية التي لا أسافر من دونها، كتدبير احتياطي. فأنا أعرف، من تجاربـــي السابقة، كم يمكن لهذه الحالات أن تتفاقم، حتى إنّها قد تبلغ الكلى. و لم أشأ الوصول إلى هذا الحدّ. فاتصلت به وأخبرته بما حدث (حزن كثيراً) وطلبت منه أن يحضر لي بعض الأقراص. صحيح أنّني أثق ببراعة وايان الطبية، إلاّ أنّ الألم كان قويًّا حقًّا...

قالت وايان: "لست بحاجة إلى الأقراص الغربية".

"ربّما يستحسن أن أستعملها، للاطمئنان وحسب...".

قالت: "أعطيني ساعتين، إن لم تتحسّني، تناولي أقراصك".

وافقت على مضض. فأنا أعرف أنّ هذه الالتهابات تستغرق أياماً لتزول، حتى بالمضادّات الحيوية القوية. ولكنّني لم أرغب بخذل وايان.

كانت توتّي تلعب في المتجر وتحضر لي رسوماتها للمنازل لكي تموّه عنّي، وتربّت على يدي بتعاطف ابنة الثماني سنوات. "ماما إليزابيث مريضة؟" على الأقلّ لا تعرف سبب مرضي.

سألت وايان: "هل اشتريت منزلاً؟".

"ليس بعد، لست في عجلة".

"ماذا عن المكان الذي يعجبك؟ اعتقدت أنّك ستشترينه".

"لم يكن للبيع. ثمنه مرتفع جداً".

"هل ثمّة أماكن أخرى في ذهنك؟".

"لا تقلقي لذلك، ليز. دعيني الآن أعالجك".

وصل فيليبه ومعه الدواء والندم يعلو وجهه، ثمّ راح يعتذر منّي ومن وايان للألم الذي سبّبه لي، أو على الأقلّ هكذا كان يرى الأمور.

"حالتها ليست خطيرة، لا تقلق. سأعالجها سريعاً وستتحسّن على الفور".

ثمّ دخلت المطبخ وحضّرت كوباً كبيراً يمتلئ بالأوراق والجذور والبذور وشيء عرفت بأنّه كركم فضلاً عن كتلة شعثاء بدت وكأنّها شعر ساحرة وعين أظنّها عين سمندل ماء... كلّها تطوف في ذاك الشراب البنّي. كان في الكوب ما يقارب الغالون منه، ويبدو نتناً وكأنّه جثّة.

قالت وايان: "اشربي يا حبيبتي، اشربيه كلّه".

تجرّعته. وفي أقلّ من ساعتين... حسناً، كلّنا نعرف نهاية القصّة. في أقلّ من ساعتين، شفيت تماماً. زال الالتهاب الذي كان ليستغرق أياماً ليشفى بواسطة المضادّات الحيوية الغربية. حاولت أن أدفع لوايان شيئاً مقابل علاجي، ولكنّها قالت ضاحكة: "لا ينبغي على أختي أن

تدفــع لي". ثمّ استدارت نحو فيليبه وقالت له بجدّية: "عليك أن تكون حذراً معها الآن. لا تقتربا من بعضكما الليلة".

ســألت وايــان: "ألا يحــرجك علاج الناس الذين سيعانون من مشاكل جنسية؟".

"أنا معالجة، ليز. أعالج جميع الأمراض، النسائية والذكورية".

ثمّ نظــرت إلى فيليــبه وقالت له: "إن احتجت إلى مساعدتي، لا تتردّد في طلبها".

فــرحت أؤكّد لوايان أنّ فيليبه لا يحتاج إلى أيّ مساعدة في هذا المجــال، حــين قــاطعني لسؤال وايان ما إذا كان يمكن بيع دوائها في زجاجــات في الأســواق. أكّد لها قائلاً: "يمكننا جمع ثروة". ولكنّها شرحت له أنّ جميع أدويتها تعدّ في اليوم نفسه لتعطي مفعولاً. على أي حــال، وايــان لا تستعمل العلاج الداخلي وحسب، بل تعالج الرجال أيضاً بواسطة التدليك وهي تردّد أدعية خاصة.

مهــارات وايــان الطبية تتعدّى ذلك أيضاً. فقد أخبرتنا بأنّه يتم اســتدعاؤها أحياناً من قبل الأزواج الذين يعانون من العجز أو البرود الجنــسي، ويعجزون عن إنجاب طفل. فترسم لهم صوراً سحرية على المــلاءات وتــشرح لهــم عن الوضعيات الأنسب في أوقات معينة من الشهر.

تقــول وايــان إنّهــا تعــرف أنّ هذا جنون، ولكن هذا عملها كمعالجــة. وتعترف أنّ الأمر يحتاج إلى كثير من المراسم التطهيرية من قبل ومن بعد لتبقى روحها نقيّة.

ثمّ أخــبرتنا وايــان أمراً مثيراً للاهتمام. قالت إنّه في حال عجز الــزوجان عن إنجاب طفل، فإنّها تعمد إلى فحص الزوجين لترى ممّن العيب. إن كان من المرأة، لا مشكلة في ذلك، تستطيع علاجها بواسطة

تقنيات العلاج القديمة. أمّا إن كان من الرجل، تصبح الحالة دقيقة في مجتمع ذكوريّ كمجتمع بالي. فخيارات وايان الطبية محدودة هنا لأنّه من الخطر إخبار الرجل البالي أنّه عاقر. فالرجال ليسوا سوى رجال في النهاية. وإن لم تنجب المرأة طفلاً لزوجها سريعاً، تتعرّض إمّا للضرب أو للعار أو للطلاق.

سألتها: "وماذا تفعلين في هذه الحالة؟".

...

تقول وايان إنّها تلجأ لهذا العلاج لأنّه من غير الممكن إخبار رجل بالي بأنّه عاقر من دون المخاطرة بأن يتوجّه إلى البيت ويؤذي زوجته. لو لم يكن الرجال في بالي هكذا، لأمكنها علاج عقمهم بأساليب عديدة. ولكن، تلك هي ثقافتهم. حتى إنّ معظم الرجال في بالي لا يعرفون كيف يمارسون الحبّ مع المرأة، بل يتصرّفون بخشونة وفظاظة.

فاقترحت عليها قائلة: "ربّما يجدر بك إعطاء دروس في التربية الجنسية. يمكنك تعليم الرجال كيف يلمسون المرأة برقّة، وهكذا ستحبّ نساؤهم الجنس أكثر. لأنّه إن لمسك الرجل بلطف ولاطف بشرتك وقال لك كلاماً رقيقاً وقبّل جسدك بأكمله وأخذ وقته... سيكون الجنس جميلاً".

فجأة غزا الاحمرار وجهها. وايان نورياسي، تلك المعالجة الجريئة، شعرت بالخجل.

"تجعلينني أشعر بالخجل حين تتحدّثين هكذا. هذا الحديث يشعرني أنّني... *مختلفة*. حتى بملابسي الداخلية أشعر بأنّني مختلفة! اذهبا إلى البيت أنتما الاثنان، لا مزيد من الحديث عن الجنس. اخلدا إلى النوم، ولكن النوم وحسب، مفهوم؟ النوم وحسب!".

101

خلال رحلة العودة، سألني فيليبه: "هل اشترت منـــزلاً؟".

"ليس بعد. ولكنّها تقول إنّها تبحث".

مضى أكثر من شهر منذ أن أعطيتها المال، أليس كذلك؟".

"أجل، ولكنّ المكان الذي أرادته لم يكن معروضاً للبيع...".

"كوني حذرة يا حبيبتي. لا تتركي الموضوع يطول أكثر من ذلك وينقلب عليك".

"ماذا تعني؟".

قـــال: "أنا لا أحاول التدخّل في شؤونك، ولكنّني عشت في هذا الـــبلد خمـــس سنوات، وصرت أعرف كيف تجري الأمور. من شأن الأحـــداث أن تتعقّد هنا. وفي بعض الأحيان، تصعب معرفة حقيقة ما يجري".

سألته: "ماذا تحاول أن تقول، فيليبه؟" وحين لم يجب على الفور، كرّرت له أحد أقواله: "إن أخبرتني ببطء سأفهمك بسرعة".

"ما أحاول قوله ليز، هو أنّ أصدقاءك تبرّعوا بمبلغ هائل من المال لـــتلك المرأة، والمال كله يقبع الآن في حساب وايان المصرفي. احرصي على أن تشتري به منـــزلاً بالفعل".

102

حلّت نهاية تمّوز ومعها ذكرى ميلادي الخامسة والثلاثين. أعدّت لي وايـــان حفلة في متجرها تختلف عن كلّ الحفلات التي حضرتها حتى الآن. ألبـــستني وايـــان ثوباً بالينيًّا تقليديًّا لمناسبات الميلاد - سارونغ

أرجـــواني زاهـــي اللون مع سترة بلا كمين وقطعة طويلة من القماش الذهبـــي لفّتها بشدّة حول صدري حتى عجزت تقريباً عن التنفّس أو حتى تناول كعكة ذكرى ميلادي. وفيما كانت تلفّني كالمومياء في غرفة نومها الصغيرة المعتمة (المزدحمة بممتلكات الفتيات الثلاث اللواتي يعشن معهـــا)، سألتني وهي تلفّ القماش وتغرز الدبابيس من دون أن تنظر إليّ: "هل تنوين الزواج من فيليبه؟".

"كـــلاّ، ليس لدينا أيّ نية بالزواج. لا أريد مزيداً من الأزواج، وايـــان. ولا أعتقد بأنّ فيليبه يريد مزيداً من الزوجات. غير أنّني أحبّ أن أكون معه".

"يـــسهل إيجـــاد رجل وسيم المظهر، ولكن من الصعب إيجاد من يتمتع بوسامة الشكل والخلق، مثل فيليبه".

وافقتها على ذلك.

ابتـــسمت قائلـــة: "ومن أحضر لك هذا الرجل، ليز؟ من صلّى لذلك كلّ يوم؟".

قبّلتها وقلت: "شكراً لك وايان، أحسنت عملاً".

توجّهـــنا إلى مكـــان الاحتفال. كانت وايان قد قامت والفتيات بتـــزيين المكـــان بالـــبالونات وسعف النخيل فضلاً عن رسائل مركبة مكتوبة بخطّ اليد، مثل: "ذكرى مولد سعيدة للرقيقة والحبيبة ليز، أختنا العزيزة، لحبيبتنا الليدي إليزابيث، ذكرى مولد سعيدة لك، حفظك الله وذكـــرى مـــولد سعيدة". وكان أولاد أخ وايان راقصين موهوبين في الاحـــتفالات الدينـــية، فأتوا ورقصوا لي في المطعم، وأدّوا عرضاً رائعاً مخصّصاً عادة للكهنة. كان جميع الأولاد يعتمرون أغطية ذهبية ضخمة علـــى رؤوسهم، مزيّنة برسم ملكة شرسة ذات قدمين قويتين وأصابع أنثوية جميلة.

تنظّم الحفلات البالينيّة عادة على مبدأ أن يقوم الناس بارتداء أجمل ثـــيابهم، ومـــن ثمّ الجلوس والتحديق إلى بعضهم. وهذا شبيه بحفلات نيويورك إلى حدٍّ كبير في الواقع. (تذمّر فيليبه حين علم أنّ وايان ستقيم لي حفلة ذكرى مولد، وقال: "ستكون سهرة مملة جداً..") ولكنّها لم تكن مملّة، بل هادئة وحسب. ومختلفة أيضاً. أوّلاً ارتداء الملابس، ومن ثمّ العرض الراقص، تلاه الجلوس وتحديق كلّ من الحاضرين إلى الآخر، ولم يكن هذا سيّئاً. فالجميع بدوا جميلين. وكان جميع أفراد عائلة وايان حاضـــرين، وقد قضوا الوقت وهم يبتسمون لي ويلوحون لي بأيديهم وأنا أبادلهم الابتسام والتلويح لهم.

أطفـــأت الشموع مع كيتوت الصغيرة التي قررت منذ بضعة أســـابيع أن تكون ذكرى ميلادها في نفس يوم ذكرى ميلادي، 18 تمـــوز، لأنّـــه لم يسبق لها أن احتفلت بذكرى ميلادها. بعد إطفاء الشموع، قدّم فيليبه لكيتوت الصغيرة لعبة باربـــي. ففتحت الغلاف ونظـــرت إلـــيها بدهشة من حصل على تذكرة سفر بصاروخ إلى المـــريخ؛ شيء ما كان لها أن تتخيل الحصول عليه ولو بعد ملايين السنوات الضوئية.

كان كلّ ما في الحفلة غريباً نوعاً ما. فقد كان الحضور عبارة عن مـــزيج غير متناسق من الجنسيات والأعمار لزمرة من أصدقائي، فضلاً عن عائلة وايان وبعض زبائنها ومرضاها الغربيين الذين لم يسبق لي أن التقـــيت بهم من قبل. أحضر لي صديقي يوداي صندوقاً من الشراب، كمـــا حضر الكاتب التلفزيوني الشابّ الآتي من لوس أنجلوس، ويدعى آدم. كـــنّا قد التقينا به أنا وفيليبه في إحدى الحانات ودعوناه. أمضى آدم ويـــوداي الـــوقت في الحديث مع صبـــي صغير يدعى دون، أمّه تعالجـــت لدى وايان، وهي مصمّمة ملابس ألمانية متزوجة من أميركي

ويعشون في بالي. وجون الصغير - الذي يبلغ السابعة من عمره ويقول بأنّــه أميركي *نوعاً ما* لأنّ أباه أميركي (مع أنّه لم يسبق له الذهاب إلى أميركـــا أبداً)، ولكنّه يتحدّث الألمانية مع أمّه والإندونيسية مع أولاد وايـــان - قد أعجب بآدم لأنّه من كاليفورنيا ويتقن ركوب الأمواج.

ســـأله جـــون: "مـــا هو حيوانك المفضّل، سيدي؟" أجابه آدم: "البجع".

سأل الصبـــي: "ما هو البجع؟" فهبّ يوداي قائلاً: "يا صاح، ألا تعـــرف مـــا هو البجع؟ عليك أن تذهب إلى البيت وتسأل أباك عنه. البجع، يا صاح!".

ثمّ اســـتدار جـــون، الـــصبـــي الأميركـــي نوعاً ما ليقول شيئاً بالإندونيـــسية لتوتّـــي (وربّما سألها على الأرجح ما هو البجع) بينما كانـــت توتّي جالسة في حجر فيليبه تحاول قراءة بطاقات المعايدة التي وصلتني، وكان فيليبه يتحدّث الفرنسية مع رجل متقاعد من باريس أتى لعـــلاج كليتـــيه لدى وايان. في هذا الوقت، كانت وايان قد شغّلت الراديو وراح كيني رودجرز يغنّي *جبان البلدة*. وفيما كنت أدعو ثلاث فتيات يابانيات لتناول بعض من كعكة ذكرى ميلادي، كانت اليتيمتان تـــزينان شـــعري بدبابيس ملونة وفرتا كلّ مصروفهما لشرائها لي. أمّا أولاد أخ وايـــان، راقصو المعبد وأبناء مزارعي الأرزّ، فجلسوا ساكنين يحدّقـــون إلى الأرض بملابـــسهم الذهبية التي بدوا فيها وكأنّهم تماثيل صـــغيرة من الذهب. في الخارج، صاحت الديوك في غير وقتها. وفيما كـــان ثوبـــي البالبني التقليدي يعصرني وكأنّه عناق حارّ، شعرت بأنّ هـــذه الحفلـــة هي بالتأكيد أغرب حفلة ذكرى ميلاد لي، إلاّ أنّها قد تكون الأكثر سعادة.

103

مـــع ذلك، ما زالت وايان بحاجة إلى شراء منـــزل، وبدأت أقلق مـــن تأخّـــر ذلك. لم أكن أفهم السبب، ولكن ينبغي عليها الإسراع. تدخّلـــنا أنا وفيليبه ووجدنا سمسار عقارات اصطحبنا في جولة لاختيار منـــــزل، ولكنّ أيًّا منها لم يعجب وايان. قلت لها مراراً: "وايان، من الضروريّ أن نشتري شيئاً. سأغادر في أيلول ويجب أن أخبر أصدقائي بـــأنّ المـــال قد استعمل فعلاً لشراء منـــزل لك. كما أنّك بحاجة إلى سقف يحميك قبل أن يتمّ إخراجك من هذا المتجر".

إلاّ أنّها كانت تجيب دوماً: "ليس من السهل شراء أرض في بالي. ليس كمن يدخل متجراً ويشتري زجاجة من العصير. الأمر يحتاج إلى الوقت".

"ليس لدينا كثير من الوقت".

غير أنّها كانت تكتفي بهزّ كتفيها. فتذكّرت مجدّداً مفهوم *الوقت المطـــاط* في إندونيـــسيا، حـــيث إنّ الوقت هو فكرة نسبية وغير ثابتة لديهم. *أربعة أسابيع* لا تعني بالنسبة إلى وايان ما تعنيه لي. واليوم لديها لـــيس بالضرورة أربعاً وعشرين ساعة، قد يكون أكثر أو أقلّ، استناداً إلى طبيعة ذاك اليوم الروحية والعاطفية. وكما هو الحال مع عرّافي وسنّه الغامض، في بعض الأحيان يعدّ الأيام، وفي أحيان أخرى يزنها.

في تلـــك الأثناء، تبيّن لي أيضاً أنّني أسأت تقدير مدى ارتفاع ثمن الأمـــلاك في بالي. فنظراً إلى انخفاض ثمن كلّ شيء، افترضت بأنّ الأمر يـــسري أيضاً على العقارات، ولكنّني أخطأت. فثمن العقار في بالي، لا ســـيّما في أوبـــود، قد لا يقلّ عن ثمن عقار في ويستشستر كاونتي في طوكـــيو أو على روديو درايف. وهذا ليس منطقيًّا لأنّك حين تتملّك

العقار لا يمكنك أن تستردّ مالك من خلاله بالشكل التقليدي والمنطقي. فقـــد تدفـــع 25.000 دولار لقاء قطعة صغيرة من الأرض، تبني عليها متجـــراً صغيراً تبيع فيه سارونغاً واحداً في اليوم لسائح واحد في اليوم لبقـــية حياتك، مقابل ربح لا يتجاوز خمسة وسبعين سنتاً في كلّ مرّة. هذا عبثيّ.

مـــع ذلك، يقدّر البالينيون قيمة الأرض على نحو يتجاوز المنطق الاقتصادي. فبما أنّ الملكية هي تقليديًّا الشيء الوحيد الذي يعترف به البالينـــيون كثـــروة شرعية، فإنّهم يقدّرون الأملاك كما يقدّر شعب الماســـاي المواشـــي أو كما تقدّر ابنة أختي ذات الخمس سنوات أحمر الشفاه: أي أنّهم لا يتخلّون عنها متى أصبحت بين أيديهم.

كمـــا اكتـــشفت أيـــضاً في شهر آب، خلال بحثي في تعقيدات العقارات الإندونيسية، أن من المستحيل تقريباً معرفة متى تكون الأرض معروضـــة للبـــيع. فالبالينيون الذين يرغبون ببيع أرضهم، لا يحبّون أن يعـــرف الـــناس بـــأنّهم يعرضون أرضهم للبيع. ومع أنّ الإعلان عنها يساعدهم، إلاّ أنّهم لا يرون الأمور من هذا المنظار. فحين يبيع المزارع البالـــيني أرضه، هذا يعني بأنّه يحتاج إلى المال، وهو أمر مخجل بالنسبة إلـــيهم. وفي حـــال علـــم الجيران والأقارب أنّه باع جزءاً من أرضه، سيفترضون بأنّه أصبح يملك مالاً وسيحاول الجميع الاستدانة منه. لذا، لا تعرض الأرض للبيع إلاّ عبر... الإشاعة. وكلّ صفقات بيع الأراضي تتمّ تحت غطاء غريب من السرّية والخيبة.

حين سمع المغتربون الغربيون الذين يعيشون هنا بأنّني أحاول شراء أرض لـــوايان، تجمّعـــوا حـــولي وراحوا يخبرونني قصصاً عن تجارهم المؤسفة. فحذّروني من أنّني لا يمكن أبداً أن أكون أكيدة ممّا يحدث حين يـــتعلّق الأمر بالعقارات في بالي. فالأرض التي *تبتاعها* قد لا تنتمي فعلاً

للشخص الذي *يبيعها*. الرجل الذي يريك العقار قد لا يكون المالك حتى، بل ربّما ابن أخيه الذي يحاول مضايقة عمّه بسبب نزاع عائلي قديم. ولا تتوقّع أن تكون حدود أرضك واضحة. لا بل إنّ الأرض التي قد تشتريها لبناء منزل أحلامك قد تعتبر *قريبة جداً من أحد المعابد* لتحصل على رخصة بناء (ومن الصعب في هذا البلد الصغير الذي يضمّ ما يقارب العشرين ألف معبد، إيجاد أرض غير قريبة جداً من أحد المعابد).

عليك أن تأخذ أيضاً في الاعتبار أنّك تعيش ربّما على سفح أحد البراكين وأنّ منزلك قد يكون مبنيًّا فوق صدع. والصدع قد لا يكون جيولوجيًّا وحسب. على المرء أن يتذكّر أنّ إندونيسيا ليست مستقرّة سياسيًّا، وأنّ الفساد متغلغل فيها من أعلى وزرائها وصولاً إلى الرجل إلى يملأ سيارتك بالوقود ويدّعي وحسب بأنّه ملأها فعلاً. ومن الممكن في أيّ لحظة أن تقوم ثورة هنا وأن يضع الفريق الظافر يده على أملاكك، على الأرجح بقوّة السلاح.

ومع أنّني خضت دعوى طلاق في نيويورك، إلاّ أنّني لست ضليعة في أمور كهذه. فالقضية مختلفة تماماً هنا. وفي هذه الأثناء، ثمّة 18 ألف دولار في حساب وايان المصرفي، تبرّعت بها أنا وعائلتي وأعزّ أصدقائي، حوّلت إلى العملة الإندونيسية، التي عرفت تاريخاً من الانهيارات من دون سابق إنذار وتحوّلت إلى رماد. ويفترض بوايان أن تخلي متجرها في أيلول، أي تقريباً في الوقت الذي سأغادر فيه البلاد، في غضون ثلاثة أسابيع تقريباً.

لكن تبيّن أنّه من المستحيل على وايان إيجاد قطعة أرض مناسبة برأيها لتبني عليها بيتاً لها. فبغضّ النظر عن جميع الاعتبارات العملية، عليها أن تفحص *تاكسو* (takso)، أي روح المكان. وإحساس وايان،

كمعالجـــة، بالتاكـــسو حادّ جداً حتى بالنسبة إلى المعايير البالينيّة. فقد وجـــدتُ مكاناً اعتقدته ممتازاً، ولكنّ وايان قالت إنه مسكون من قبل عفاريت غاضبة. ورفضت قطعة الأرض التالية لأنّها قريبة جداً من أحد الأنهـــار، فكما هو معروف، الأشباح تعيش في الأنهار. (في الليلة التالية الـــتي رأت فـــيها ذلك المكان، حلمت بامرأة جميلة ترتدي ثياباً ممزّقة وتبكـــي، فأخذت قرارها، لا يمكنها شراء تلك الأرض). ثمّ عثرنا على متجر صغير وجميل قرب البلدة، مع حديقة أيضاً، ولكنّه كان في زاوية، ووحـــده من يرغب بأن يفلس ويموت شاباً يعيش في منـــزل واقع في زاوية. كما هو معروف.

نـــصحني فيليبه قائلاً: "لا تحاولي النقاش معها. ثقي بـــي حبيبتي، لا تتدخّلي بين البالينيين و*التاكسو*".

ثمّ عثر فيليبه في الأسبوع الماضي على مكان بدا أنّه يفي بالغرض تمامـــاً: قطعـــة أرض صغيرة وجميلة، قريبة من وسط أوبود، تقع على طـــريق هـــادئ قريب من سهل أرزّ، ومساحتها كافية لأجل الحديقة، كمـــا أنّهـــا ضمن ميزانيتنا. ولكن حين سألت وايان: "هل نشتريها؟" أجابـــت: "لا أعرف بعد، ليز. لا نأخذ هذه القرارات بتلك السرعة. أحتاج إلى التحدّث مع كاهن".

شـــرحت لـــنا أنّ عليها استشارة كاهن لكي يخبرها بيوم ميمون مناســـب للشراء، هذا إن قررت شراءها أساساً. ذلك أنّ البالينيين لا يقومـــون بـــشيء هـــام من دون اختيار يوم ميمون لذلك. ولكنّها لا تـــستطيع سؤال الكاهن عن اليوم حتى تقرّر بأنّها ترغب فعلاً بالعيش هـــناك. وهذا التزام ترفض القيام به ما لم ترَ حلماً يبشّر بالخير. ونظراً لأيامي المعدودة في البلاد، سألت وايان على طريقة النيويوركيّين: "بأيّ سرعة يمكنك ترتيب رؤية حلم يبشّر بالخير؟".

أجابت وايان، على طريقة الباليني: "لا يمكن الإسراع في ذلك".
فمــع أنّها فكّرت كثيراً، إلاّ أنّه قد يكون من المفيد الذهاب إلى أحد المعابــد الكــبرى في بــالي لتقديم قربان والتضرع لرؤية حلم يبشّرها بالخير...

قلــت لها: "حسناً. غداً يصطحبك فيليبه إلى أحد المعابد الكبرى لتقدّمي قرباناً وتتضرعي".

قالت وايان بأنّها كانت لتتمنّى ذلك. فهي فكرة رائعة. ولكن ثمّة مشكلة واحدة. لا يسمح لها بدخول أيّ معبد طيلة ذاك الأسبوع.

فقد كانت... حائضاً.

104

ربّما لم أذكر بالضبط كم أنّ كلّ هذا كان ممتعاً. أو ربّما كنت أســتمتع كــثيراً بتلك اللحظة السريالية في حياتي لأنّني كنت أقع في الحبّ، وهذا ما يجعل العالم يبدو بهيجاً، مهما كانت الحقيقة جنونية.

لطالما أعجبني فيليبه. ولكنّ الطريقة التي تعاطى فيها مع موضوع منــــزل وايــان، قــرّبتنا من بعضنا خلال شهر آب، وكأنّنا زوجان حقيقــيان. طــبعاً، لا يعنيه ما يحدث لتلك المعالجة البالينيّة. فهو رجل أعمــال، وقد تدبّر أمره وعاش في بالي خمس سنوات من دون التدخّل كثيراً في حياة البالينيين الشخصية وطقوسهم المعقّدة، ولكن ها هو الآن يجــول بين سهول الأرزّ الموحلة ويحاول إيجاد كاهن يخبر وايان بتاريخ ميمون...

كــان يــردّد دومــاً: "كنت سعيداً جداً بحياتي المملّة قبل أن تظهري فيها".

كان يشعر بالملل في بالي. كان يتكاسل ويقتل الوقت، مثل إحدى شخصيات رواية غراهام غرين. إلاّ أنّ ذاك التراخي انتهى حين تعرّفنا على بعضنا. والآن وقد اجتمعنا، تمكّنت من سماع روايته لكيفية لقائنا، وهي قصّة ممتعة لا أملّ أبداً من سماعها، حيث يخبرني كيف رآني في الحفل تلك الليلة، أقف وظهري إليه، وكيف أنّه أدرك في أعماقه، من دون حتى أن يرى وجهي: "تلك هي امرأة حياتي. سأفعل أيّ شيء للحصول على تلك المرأة".

ويتابع قائلاً: "وكان من السهل الحصول عليك. ما كان عليَّ سوى التوسّل إليك لأسابيع".

"أنت لم تتوسّل إليّ".

"لم تلاحظي بأنّني كنت أتوسّل إليك؟".

تحدّث عن الليلة التي ذهبنا للرقص فيها، وكيف رآني أنجذب إلى ذاك الشابّ الويلزيّ اللطيف، وكيف غاص قلبه وهو يفكّر: "أنا أبذل كلّ جهدي لإغراء تلك المرأة ليأتي هذا الشابّ الوسيم ويأخذها منّي ويعقّد حياتها. لو أنّها تعرف الحبّ الذي يمكنني أن أقدّمه لها".

وقد فعل. كان محبًّا بطبيعته، وكنت أشعر به وهو يتحوّل إلى فلك يدور من حولي، ويجعلني محوراً له ويتحوّل ليكون فارساً لي. في الواقع، فيليبه هو من النوع الذي يحتاج بشدّة إلى امرأة في حياته، ليس لتعتني به، بل ليكون لديه من يعتني هو به ويكرّس نفسه لها. وبعد أن افتقر إلى علاقة كتلك منذ طلاقه، كان تائهاً في الحياة، ولكنّه بدأ الآن ينظّم نفسه حولي. ومن اللطيف في الحقيقة أن يعامَل المرء بهذا الشكل. إلاّ أنّ الأمر يخيفني أيضاً. أسمعه أحياناً وهو يحضّر لي العشاء في الطابق السفلي فيما أكون ممدّدة أقرأ في الأعلى، وهو يصفر بموسيقى السامبا البرازيلية السعيدة ويناديني قائلاً: "حبيبتي، هل ترغبين بكأس آخر من

الشراب؟" فأتساءل ما إذا كنت أستطيع أن أكون شمساً في حياة شخص ما، كلّ شيء في حياته. هل أصبحت مستقرّة الآن بما يكفي لأكون مركز حياة شخص آخر؟ ولكن حين فتحت معه الموضوع في إحدى الليالي، قال: "هل طلبت منك أن تكوني كذلك، حبيبتي؟ هل طلبت منك أن تكوني مركز حياتي؟".

شعرت على الفور بالخجل من غروري، من افتراضي بأنّه أراد منّي البقاء معه إلى الأبد ليدلّلني إلى الأبد.

قلت له: "أنا آسفة. كان هذا غروراً من قبلي، أليس كذلك؟".

أقرّ قائلاً: "قليلاً". ثمّ قبّل أذني وأضاف: "ولكن ليس كثيراً. بالطبع علينا مناقشة ذلك، حبيبتي، لأنّني في الحقيقة، مغرم بك بجنون". شحب وجهي عند سماعي ذلك، فأسرع بممازحتي وحاول طمأنتي قائلاً: "أعني بشكل افتراضي، بالطبع". ثمّ قال بجدّية تامّة: "اسمعي. أنا في الثانية والخمسين من عمري. صدّقيني، لقد خبرت الحياة. صحيح أنّك لا تحبّينني كما أحبّك، ولكنّني لا أهتمّ بذلك. لسبب ما، شعوري تجاهك هو نفس شعوري تجاه أولادي حين كانوا صغاراً؛ إنّهم ليسوا مجبرين على حبي، ولكنّ واجبي أن أحبّهم. أنت حرّة في شعورك تجاهي، ولكنّني أحبك وسأفعل دوماً. حتى لو لم نرَ بعضنا ثانية، أنت أعدتني إلى الحياة، وهذا كاف. بالطبع، أودّ أن تشاركيني حياتي، ولكن لست واثقاً أيّ حياة يمكنني أن أقدّم لك هنا في بالي".

أنا أيضاً فكّرت في هذه المشكلة. كنت أشاهد خلال إقامتي في مجتمع المغتربين في أوبود، وأدركتُ أنّ حياتهم لا تناسبني على الإطلاق. فالنموذج الذي تراه هنا واحد؛ غربيون عاشوا حياة صعبة، فانسحبوا منها، وقرّروا المكوث هنا في بالي لوقت غير محدّد، بحيث يعيشون في منزل جميل مقابل 200 دولار في الشهر، ويتّخذون شريكة أو شريكاً

باليناً، يعيشون على هواهم ويجنون بعض المال من تصدير شيء من الأثاث لشخص ما. ولكنّهم عموماً يحرصون على ألاّ يُسألوا القيام بشيء جدّي مرة أخرى. وهؤلاء المغتربون هم للمناسبة من وسط اجتماعي رفيع، متعدّد القوميات، موهوبون وأذكياء. ولكن يبدو لي أنّ الجميع كانوا شيئاً في الماضي، إمّا *متزوجين* أو *موظّفين*، والآن يجمعهم غياب الشيء الوحيد الذي يبدو بأنّهم تخلوا عنه تماماً وللأبد، ألا وهو *الطموح*.

بالطبع، ليست أوبود مكاناً سيّئاً لتضيع حياتك فيه، وتنسى مرور الأيام. فمعظم المغتربين لا يعرفون كم مضى عليهم هنا بالضبط. وربّما كانوا غير واثقين من أنّهم يعيشون هنا فعلاً. فهم لا ينتمون إلى أيّ مكان. فبعضهم يحبّون أن يتخيّلوا أنّهم يمضون هنا بعض الوقت، وكأنهم أطفأوا المحرّك حين توقّف السير عند إشارة المرور وينتظرون أن تضيء الإشارة ثانية لينطلقوا. ولكن، بعد سبعة عشر عاماً تبدأ بالتساؤل... هل ثمّة من *يغادر* على الإطلاق؟

مع أنّه ثمّة الكثير للاستمتاع به بصحبتهم في أيام الآحاد الطويلة الكسولة، إلاّ أنّني حين أكون على مقربة منهم أشعر وكأنني دوروثي في حقول الأفيون وأقول لنفسي: *كوني حذرة! لا تنامي في هذا المكان وإلاّ غفوت هنا لبقية حياتك!*

إذاً ما الذي سيحصل لنا أنا وفيليبه؟ بما أنّه أصبح هنالك على ما يبدو *أنا وفيليبه*. قال لي منذ وقت غير بعيد، "أتمنّى أحياناً لو كنت فتاة صغيرة ضائعة، عندها لاحتضنتك وقلت لك، تعالي للعيش معي، دعيني أعتني بك إلى الأبد. ولكنك لست فتاة ضائعة. أنت امرأة، ولديك مهنة وطموح. مثل سلحفاة، تحمل بيتها على ظهرها. عليك التمسك بهذه الحرية أطول وقت ممكن. ولكن ما أريد قوله لك هو التالي: إن أردت هذا البرازيلي، يمكنك الحصول عليه. أنا ملكك أساساً".

أنـــا لست واثقة ممّا أريده. أعلم أنّني لطالما رغبت بسماع رجل يقول لي: "دعيني أعتني بك إلى الأبد"، و لم يسبق لأحد أن قالها لي من قـــبل. وفي السنوات الأخيرة، توقّفت عن البحث عن ذاك الشخص، وتعلّمت قول هذه الجملة المشجّعة لنفسي، لا سيّما في أوقات الخوف.

ولكن أن أسمعها الآن من شخص آخر يقولها بصدق...

رحـــت أفكّـــر في هذا الأمر في الليلة الفائتة بعدما غطّ فيليبه في الـــنوم، وأنا ممدّدة بقربه، وأتساءل ما الذي سيحلّ بنا. ما هي أشكال المـــستقبل الممكنة؟ ماذا عن المسافة الجغرافية بيننا، أين سنعيش؟ وماذا عن فارق السنّ أيضاً؟ مع أنّني حين اتصلت بأمّي لأخبرها بأنّني تعرّفت على رجل لطيف جداً، ولكن – تمالكي أعصابك، أميّ – *إنّه في الثانية والخمـــسين من عمره*، لم يرفّ لها جفن. بل اكتفت بالقول: "حسناً، أودّ إخـــبارك شيئاً، ليز. أنت في الخامسة والثلاثين". (ملاحظة ممتازة، مامـــا. أنا محظوظة لإيجاد رجل في تلك السنّ المتقدّمة). مع ذلك، أنا حقًّا لا أمانع بوجود فارق في السنّ بيننا. لا بل أحبّ كون فيليبه أكبر منّي بهذا القدر. فالأمر مثير. يجعلني أشعر وكأنّني... فرنسية.

ماذا سيحلّ بنا؟

لِمَ يشغلني الأمر على أي حال؟

ألم أتعلّم بعد بأنّه لا جدوى من القلق؟

هكـــذا تـــوقّفت عـــن التفكير في الموضوع بعد برهة واكتفيت باحتضانه وهو نائم. *أنا أقع في حبّ هذا الرجل*. ثمّ استغرقت في النوم بقربه ورأيت حلمين لا يمكنني نسيانهما.

كان الحالمان عن مرشدتي. في الأوّل أخبرتني بأنّها ستقفل معتزلها ولن تتحدّث بعد الآن أو تعلّم أو تنشر الكتب. بل ألقت على تلاميذها خطاباً أخيراً قالت فيه: "حصلتم على ما يكفي من التعليم وعلى كلّ ما

تحـــتاجون إلـــيه لتكونوا أحراراً. حان الوقت لكي تخرجوا إلى العالم وتعيشوا حياة سعيدة".

أمّـــا الـــثاني فكان أكثر تأكيداً من الأوّل. كنت آكل في مطعم خـــلاّب في نيويورك مع فيليبه. كنّا نتناول وجبة رائعة من لحم الضأن والأرضي شوكي ونحتسي الشراب اللذيذ ونتحدّث ونضحك. نظرت عـــبر القاعة ورأيت سواميجي، معلّم مرشدتي الذي مات سنة 1982. ولكنّه كان حيًّا يرزق تلك الليلة، هناك في مطعم نيويوركي راقٍ. كان يتـــناول العـــشاء مع مجموعة من أصدقائه وبدا عليهم أنّهم يستمتعون بوقـــتهم هم أيضاً. التقت أعيننا عبر الغرفة فابتسم لي سواميجي ورفع كأسه.

وبعـــدها سمعت بوضوح هذا الغورو الهندي قصير القامة الذي لم يتفوّه سوى بكلمات إنكليزية نادرة وثمينة خلال حياته، يقول لي كلمة واحدة عبر المسافة التي تفصلنا:

"استمتعي".

105

مـــضى علـــيَّ وقـــت طويل لم أرَ فيه كيتوت لاير. فبين علاقتي بفيليبه وسعيي إلى إيجاد منـــزل لوايان، ولّى عهد جلساتنا الطويلة من الحـــديث عن الروحانيات منذ زمن. مررت بمنـــزله عدّة مرات لأسلم علـــيه وأحـــضر الفاكهـــة لزوجته، ولكنّنا لم نمضِ وقتاً هامًّا معاً منذ حزيـــران. وكلّمـــا حاولت الاعتذار له عن غيابـــي، يضحك كمن عُرِضَـــت عليه مسبقاً إجابات كلّ الاختبارات في هذا الكون ويقول: "كلّ شيء على ما يرام، ليز".

مــع ذلــك، اشتقت إلى العجوز، فمررت به للجلوس معه هذا الــصباح. حيّاني كعادته قائلاً: "تشرّفت بلقائك!"، لم أتمكّن أبداً من تغيير هذه العادة لديه).

أنا أيضاً سعيدة *لرؤيتك*، كيتوت".

"سترحلين عمّا قريب؟".

"أجــل، كيــتوت. في أقلّ من أسبوعين. لذا أردت المجيء اليوم. أردت أن أشــكرك على كلّ ما أعطيتني إياه. لولاك، لما أتيت إلى بالي على الإطلاق".

"مــا كــان لك ألاّ تعودي إلى بالي"، قال من دون أيّ شكّ أو دراما، ثمّ سألني: "أما زلت تتأمّلين مع إخوتك الأربعة كما علّمتك؟".

"أجل".

"أما زلت تتأمّلين مثلما علّمتك الغورو في الهند؟".

"أجل".

"أما زلت ترين أحلاماً مزعجة؟".

"كلاّ".

"هل أنت سعيدة الآن؟".

"كثيراً".

"هل تحبين صديقك الجديد؟".

"أجل، أعتقد ذلك".

"إذاً، عليك أن تدلّليه. وعليه أن يدلّلك".

وعدته قائلة: "حسناً".

"أنــت صــديقة جيدة. بل أفضل من صديقة. أنت مثل ابنتي". (*لست مثل شارون...*) "حين أموت، ستأتين إلى بالي، لحضور مراسم

إحـــراق جـــثتي. المراســـم البالينـــيّة لإحراق جثث الموتى ممتعة جداً؛ ستحبينها".

وعدته قائلة: "حسناً"، ولكنّ الغصّة كانت تخنقني الآن.

"دعـــي ضميرك يقودك. وإن أتى أصدقاؤك إلى بالي، أحضريهم لأقـــرأ لهم الكفّ. فأنا مفلس جداً في مصرفي منذ التفجير. هل تريدين المجيء معي اليوم لحضور مراسم طفل صغير؟".

هكـــذا انتهى بـــي الأمر إلى المشاركة في مباركة طفل بلغ شهره السادس وأصبح الآن مستعدًّا للمس الأرض للمرّة الأولى. فالباليون لا يـــسمحون لأطفالهم بملامسة الأرض قبل بلوغهم الشهر السادس. لذا، يحمـــل البالينـــيون أطفـــالهم في تلك الأشهر الستة الأولى ويحترمونهم وكأنّهم أسياد صغار. وإن توفّي طفل ما قبل الشهر السادس من عمره، تقـــام له مراسم إحراق خاصة ولا يوضع الرماد في مقبرة بشرية لأنّه لم يـــصبح بشراً بعد، بل ظلّ سيداً وحسب. ولكن إن عاش الطفل ليبلغ الـــشهر السادس، يقام له احتفال كبير وتطأ قدماه الأرض أخيراً ويتم الترحيب بدخول الطفل في الجنس البشري.

أقـــيم هـــذا الاحتفال اليوم في منـــزل أحد جيران كيتوت. كانت الطفلـــة فتاة أعطيت لقب بوتو. كان أبواها مراهقين جميلين، الأب حفيد ابـــن عـــم كيتوت، أو شيء من هذا القبيل. ارتدى كيتوت أجمل ثيابه؛ سارونغ من الساتان الأبيض المزركش بالخيوط الذهبية وسترة بيضاء طويلة الكمـــين مع أزرار ذهبية وقبّة نيهرو، جعلته يبدو أقرب إلى حمّال في محطّة قطار أو موظّف في فندق فخم. كما لفّ عمامة بيضاء على رأسه. وأراني بفخـــر أصـــابعه التي وضع فيها حوالى سبعة خواتم ذهبية كبيرة ومرصعة بالأحجـــار الكريمة. كانت تمتاز جميعها بقوًى خارقة. وحمل جرس جدّه النحاسي البراق لاستحضار الأرواح وطلب مني أخذ صور عديدة له.

سرنا معاً نحو منزل جاره. كانت المسافة بعيدة واضطررنا إلى السير على الطريق الرئيسي لبعض الوقت. ها أنا في بالي منذ أربعة أشهر تقريباً، ولم يسبق لي رؤية كيتوت يغادر مسكنه حتى الآن. شعرت بالارتباك وأنا أراه يسير بين السيارات المسرعة والدراجات النارية المجنونة. بدا صغيراً وضعيفاً وفي غير مكانه أمام هذه الخلفية العصرية من ازدحام المرور وأبواق السيارات. شعرت بالرغبة في البكاء، لسبب ما، ولكنني كنت منفعلة أكثر من العادة في ذلك اليوم.

كان ثمّة أربعون ضيفاً تقريباً حين وصلنا، وكان مذبح العائلة مليئاً بالقرابين: سلال من سعف النخيل حافلة بالأرزّ والأزهار والبخور وبعض الإوزّ والدجاج المذبوح وجوز الهند وقليل من النقود التي كانت ترفرف بفعل النسيم. كان الجميع في غاية الأناقة، بملابسهم الحريرية والمخرّمة. وعلى الرغم من ملابسي العادية والعرق الذي يتصبّب مني بسبب ركوبي الدراجة، تم الترحيب بي تماماً كما يرحّب بفتاة بيضاء دخلت من دون دعوة. ابتسم لي الجميع بحرارة، ثمّ تجاهلوني وانتقلوا إلى الجزء الذي يجلس فيه الجميع للتحديق إلى ملابس الآخرين.

استغرق الاحتفال ساعات، وكان كيتوت هو الذي يترأسه. وحده عالم اجتماعي مع فريق من المترجمين كان ليخبرك بما جرى بالضبط. إلاّ أنّني تمكّنت من فهم بعض الطقوس بفضل شرح كيتوت والكتب التي قرأتها. فقد حمل الأب الطفلة خلال القسم الأوّل من المباركة، وحملت الأمّ تمثالاً للطفلة، كان عبارة عن جوزة هند ملفوفة لتبدو وكأنّها طفل. تمّت مباركة التمثال ورشّه بالماء المبارك وكأنّه طفل حقيقي، ثمّ وضع على الأرض قبل أن تلامس قدما الطفلة الأرض للمرة الأولى. كان هذا يهدف إلى خدع الشياطين لكي تهاجم الطفل المزيف وتترك الطفلة الحقيقية وشأنها.

تبع ذلك ساعات من الإنشاد قبل أن تلامس قدما الطفلة الحقيقية الأرض. ثمّ قـــرع كيـــتوت جرسه وغنّى المانترا إلى ما لا نهاية وأشرق وجـــه الأبـــوين بالسعادة والفخر. أتى الضيوف وغادروا، تحدّثوا معاً وتفرّجوا على الاحتفال، ثمّ قدموا هداياهم، ورحلوا للذهاب إلى موعد آخـــر. كـــان الأمـــر عاديًّا على نحو غريب وسط كلّ تلك الرسميات والطقوس القديمة. كانت المانترا التي غناها كيتوت للطفلة جميلة، كانت مـــزيجاً من الدين والحنان. وفيما حملتها الأمّ، راح كيتوت يمرّر أمامها عيـــنات مـــن الأطعمة والفاكهة والأزهار والماء والأجراس وجانحاً من الدجاج المشوي وقطعة من جوز الهند... ومع كلّ صنف، كان ينشد شيئاً. وكانت الطفلة تضحك وتصفق براحتيها فيضحك كيتوت ويتابع الغناء.

تخيلت ترجمتي الخاصة لكلماته:

"يـــا أيـــتها الطفلة، هذا دجاج مشوي لتأكليه! يوماً ما ستحبين الدجاج المشوي وتتمنى أن تحبـــي أكل الكثير منه! يا أيتها الطفلة، هذا قليل من الأرزّ المطبوخ، أرجو أن تحصلي على كلّ الأرزّ الذي ترغبين فـــيه في حياتك، فليرشّ عليك الأرزّ دائماً. يا أيتها الطفلة، هذا جوز الهـــند، ألـــيس منظره مضحكاً؟ يوماً ما ستأكلين الكثير منه! يا أيتها الطفلـــة، هذه عائلتك، ألا ترين كم تحبّك؟ يا أيتها الطفلة، أنت غالية علـــى الكـــون كلّه! أنت تلميذة مجتهدة! أنت فتاتنا الرائعة! أنت بطّة لذيـــذة! يـــا أيـــتها الطفلة، أنت ابنتنا المدلّلة، أنت كلّ شيء بالنسبة إلينا...".

تمّـــت مباركة الجميع تكراراً بأوراق الورد المبللة بالمياه المباركة. وتبادلت العائلة بأكملها الطفلة وهدهدتها فيما أنشد كيتوت المانترات القديمـــة. حـــتى إنّهم سمحوا لي بحمل الطفلة قليلاً، وإن كنت أرتدي

الجينـــــز، فهمست لها بمباركتي الخاصة بينما كان الجميع يغنّي. قلت لهـــا: "حظّـــا سعيداً. كوني شجاعة". كانت الحرارة حارقة، حتى في الظلّ. كان العرق يتصبّب من الأم التي ترتدي سترة مثيرة تحت قميصها المخـــرّم. وكذلك الأب الشابّ الذي بدا وكأنّ وجهه لا يعرف تعبيراً آخـــر غير الفخر. أمّا الجدّات فكنّ يحرّكن مراوحهنّ اليدوية لتخفيف شـــعورهنّ بالحر، وكان يبدو عيلهنّ الملل أحياناً، فيجلسن أو يقفن أو يحمـــن حـــول القرابين المشوية أو يطردن الكلاب. أمّا الباقون فكانوا يبدون اهتمامهم أحياناً وعدم اكتراثهم أحياناً أخرى، ويتبدل شعورهم بـــين الـــتعب والمرح والجدية. أمّا كيتوت والطفلة، فبدوا غارقين في تجربتهما الخاصة معاً، واهتمام كلّ منهم مركّز على الآخر. فالطفلة لم ترفع عينيها عن العراف العجوز طيلة اليوم. من سمع من قبل عن طفلة في شهرها السادس لا تبكي أو تنام لأربع ساعات متوالية تحت الشمس الحارقة، بل تكتفي بالنظر إلى شخص ما بفضول؟

قام كيتوت والطفلة بوظيفتهما على أكمل وجه. وكانت الطفلة حاضـــرة تمامـــاً في أثناء مراسم انتقالها من منـــزلة الأسياد إلى منـــزلة البـــشر. كانـــت تتولى مسؤولياتها كما يجب، مثل فتاة بالينيّة أصيلة، منغمسة في الطقس، واثقة من معتقداتها، مطيعة لمتطلبات ثقافتها.

عـــند انـــتهاء الغـــناء، تم لفّ الطفلة بملاءة بيضاء طويلة تتجاوز ساقيها الصغيرتين بكثير، وتجعلها تبدو طويلة وملكية. ثمّ رسم كيتوت علـــى قعر إناء فخاري الاتجاهات الأربعة في الكون، وملأ الإناء بالماء المـــبارك ووضعه على الأرض. وبرسمه اليدويّ حدّد البقعة المقدّسة من الأرض التي ستطؤها قدما الطفلة للمرة الأولى.

ثمّ اجـــتمعت العائلة كلها حول الطفلة و - *هوب! ها هي ذا!* - قامـــوا بغمس قدميها قليلاً بالمياه المباركة، تماماً فوق الرسم السحري

الــذي يــشمل العالم بأسره، ثمّ لامسوا أخمص قدميها بالأرض للمرة الأولى. وحــين رُفعت الطفلة في الهواء مجدّداً، بقيت آثار مبللة لقدمين صــغيرتين تحتها على الأرض، لتدخلا الطفلة أخيراً في الشبكة البالينيّة العظيمة، وتحدّدا من تكون عبر تحديد *أين* تكون. صفّق الجميع بسعادة. أصــبحت الطفلــة واحدة منّا الآن، أصبحت كائناً بشريًّا، مع كلّ ما ينطوي عليه هذا التجسّد المعقّد من مخاطر ومخاوف.

نظرت الطفلة إلى الأعلى ثمّ نظرت حولها وابتسمت. لم تعد سيدة بعد الآن. ولم يبدُ عليها أنّها تمانع ذلك، كما أنّها لم تكن خائفة أيضاً. بل بدت راضية عن كلّ قرار اتخذته في حياتها.

106

فــشلت الــصفقة مع وايان ولم تتمّ عملية شراء الأرض التي عثر علــيها فيليبه. حين سألتها أعطتني إجابة غير واضحة عن فشل ضياع صــكّ الملكــية. أعتقد أنّها لم تخبرني بالسبب الحقيقي. وقد بدأ القلق يــتملكني من هذه القصّة. حاولت أن أشرح لوايان سبب استعجالي: "أنا أغادر بالي بعد أقلّ من أسبوعين. لا يمكنني مواجهة أصدقائي الذين قدموا كلّ هذا المال وأقول لهم إنّك لم تجدي منــزلاً بعد".

"ولكن ليز، إن لم يكن للمكان *تاكسو* جيدة...".

كلّ يغنّي على ليلاه.

ولكــن اتصلت وايان بعد بضعة أيام بمنــزل فيليبه وقالت بأنّها عثــرت علــى قطعة أرض مختلفة وأنّها تعجبها حقًّا. كانت عبارة عن حقل أرزّ واقع على طريق هادئ تقريباً من البلدة. وهي تتمتع بتاكسو جــيدة في أرجائهــا كافــة. وقالت بأنّ الأرض تعود لمزارع متلهّف

للحـــصول على المال. لديه سبعة آرو يريد بيعها، ولكن بسبب حاجته الملحـــة إلى المـــال، لن يمانع في بيعها اثنين آرو لأنّ هذا كلّ ما يمكنها شراؤه. أعجبتها الأرض، وأعجبتنا أنا وفيليبه وتوتّي التي راحت تدور عبر العشب ويداها منبسطتان وكأنها جولي أندروز بالينيّة.

قلت لوايان: "اشتريها".

ولكـــنها بقيت مترددة بعد بضعة أيام: "أتريدين العيش هناك أم لا؟".

تـــرددت أكثر، ثمّ غيرت قصتها مجدّداً. أخبرتني هذا الصباح أنّ المـــزارع اتصل بها وقال إنّه ليس واثقاً ما إذا كان يستطيع بيع جزء من الأرض، بـــل يـــرغب ببـــيع مساحة السبعة آرو كلها...زوجته هي المشكلة... وهو يحتاج إلى التحدّث معها ليرى ما إذا كانت توافق على تجزئة الأرض...

يـــا الله، تريدني أن أعطيها المال لتبتاع الأرض كلها. حتى إنّني لا أعـــرف كيف يمكنني جميع مبلغ 22 ألف دولار أميركي إضافي. قلت لها: "لا يمكنني ذلك يا وايان. أنا لا أملك المال. ألا يمكنك التوصل إلى اتفاق مع المزارع؟".

عـــندها حبكت لي وايان، التي لم تعد عيناها تنظر في عينيّ، قصّة معقّدة. أخبرتني أنّها زارت ناسكاً وأن الناسك دخل في نشوة وقال لها إنّ عليها من كلّ بدّ شراء الأرض بأكملها لكي تبني عليها مركز علاج جـــيد... هـــذا هو القدر... وعلى أي حال، قال الناسك أيضاً إنّه لو تمكـــنت وايان من شراء الأرض بأكملها، لربما أمكنها بناء فندق فخم عليها يوماً ما...

فندق فخم؟

آه.

عـــندها فقـــط أحسست فجأة بأنّني أصبحت صمّاء، وتوقّفت الطيور عن الغناء، وصرت أرى فم وايان يتحرّك من دون أن أصغي لما تقوله لأنّ فكرة واحدة اجتاحت رأسي وكتبت فيه هذه الجملة: "إنّها تعبث معك يا بُقول".

وقفت وودعتها، ثمّ عدت إلى البيت وسألت فيليبه عن رأيه: "هل تظن بأنّها تعبث معي؟".

لم يسبق له أن علّق أبداً على ما بيني وبين وايان.

قال بلطف: "حبيبتي، *بالطبع* هي تعبث معك".

غاص قلبـــي من الذعر.

فأضاف بسرعة: "ولكن ليس عن قصد. عليك أن تفهمي كيف يفكـــر الناس في بالي. فنمط عيشهم يقوم على سحب أكبر قدر ممكن مـــن المـــال مـــن السياح. هكذا يعيش الجميع. وهي تلفق لك بعض القصص الآن عن المزارع. ولكنّ منذ متى يحتاج الباليني إلى التحدث مع زوجـــته قـــبل أن يعقد صفقة؟ اسمعي، الرجل متلهف لبيعها جزءاً من أرضـــه، وســـبق أن وافق على ذلك. ولكنّها تريد الأرض كلها الآن. وتريدك أن تشتريها لها".

أخافتني الفكرة لسببين. الأوّل هو أنّني أكره التفكير في أنّ وايان قد تفعل أمراً مماثلاً. والثاني هو أنّني أكره المعاني الضمنية الثقافية الكامنة خلف حديثه، تلك الأفكار الاستعمارية التي تملأ رأس البيض وحجّة أنّ *تلك هي حال الناس هنا*.

لكنّ فيليبه ليس استعماريًّا، بل برازيلياً. شرح لي قائلاً: "اسمعي، لقد نـــشأت فقيراً في جنوب أميركا. تظنين أنّني لا أفهم ثقافة الفقر تلك؟ لقد أعطـــيت وايـــان مبلغاً من المال ما كان لها أن تراه في حياتها. أنت بالنسبة إليها صنعت معجزة وأمامها فرصة أخيرة لتحصل على ما تريده. لذا تريد

أن تسحب منك أكبر قدر ممكن من المال قبل أن تذهبي. حبًّا بالله، منذ أربعة أشهر، لم تكن المرأة تملك قوت طفلتها والآن تريد *فندقًا*؟".

"ماذا أفعل؟".

"لا تغضبي، مهما حدث. إن غضبت فستخسرينها، مع أنّها شخص رائع وتحبّك. هذه خطتها للبقاء، اقبلي بذلك. لا تعتقدي بأنّها امرأة سيّئة وأنها لا تحتاج حقًّا إلى مساعدتك هي والأولاد. ولكن لا تسمحي لها باستغلالك. لقد رأيت هذا يحدث مراراً هنا. فالمغتربون الذين يعيشون هنا لمدة طويلة ينتهي بهم الأمر إلى حالتين. نصفهم يستمر بتأدية دور السائح قائلاً: آه، هؤلاء الباليينيون، كم هم لطفاء وكرماء... ويتركونهم ينهبون مالهم كالمجانين. أمّا النصف الآخر فيغضب من كثر تعرضه للنهب ويبدأ بكره الباليينيين. وهذا مخجل، لأنّهم يخسرون أصدقاء رائعين".

"ولكن ماذا أفعل؟".

"عليك أن تستعيدي السيطرة على الوضع. العبي معها كما تلعب معك. هدديها بشيء يحفزها على التحرك. وبذلك تؤدين لها خدمة، فهي تحتاج إلى منزل".

"لا أريد اللعب، فيليبه".

قبّل رأسي قائلاً: "إذاً، لا يمكنك العيش في بالي".

في الصباح التالي، وضعت خطّتي. لا أصدّق أنّني بعد سنة من تعلّم فضائل النضال لعيش حياة صادقة، أعمد إلى تلفيق كذبة كبيرة. فأنا أنوي الكذب على صديقتي المفضلة في بالي، على مَن هي كأخت لي، على مَن نظّفت كليتيّ. أنا أنوي الكذب على أمّ توتّي!

دخلت منزلها فقامت لاحتضاني. دفعتها نفسي بعيداً عنها وادّعيت بأنّني غاضبة.

"وايان، أنا بحاجة إلى التحدّث معك، لديَّ مشكلة خطيرة".

"مع فيليبه؟".

"كلاّ، بل معك".

بدت وكأنها على وشك الإغماء.

"وايان، أصدقائي في أميركا غاضبون منك كثيراً".

"منّي؟ لماذا حبيبتي؟".

"لأنّهم منذ أربعة أشهر، أعطوك كثيراً من المال لتشتري منـــزلاً، ولم تفعلي بعد. وهم يرسلون لي الرسائل الإلكترونية كلّ يوم ويسألون عـــن منــــزلك وعمّـــا حـــلّ بمالهم. ويعتقدون بأنّك سرقت المال وتستعملينه لشيء آخر".

"أنا لم أسرق!".

"وايان، أصدقائي في أميركا يعتقدون بأنّك...حثالة".

شـــهقت المـــرأة مـــن أثر المفاجأة، وبدت مجروحة إلى حدّ أنّني ضـــعفت للحظـــة، وكـــدت أحتضنها وأقول لها: "لا، لا، هذا ليس صـــحيحاً! أنـــا التي حبكت الكذبة!" ولكن لا، عليَّ الانتهاء من هذا الأمـــر. إلاّ أنّهـــا بدت مصعوقة فعلاً. فكلمة حثالة دخلت في الثقافة البالينـــيّة أكثر من أيّ كلمة إنكليزية أخرى. وهي من أكثر الكلمات المـــستعملة لـــنعت الـــناس هنا. وفي هذه الثقافة، التي ينعت بها الناس بعـــضهم عشرات المرات قبل الفطور، حيث تعتبر الكلمة رياضة، فنًّا، عادة، تكتيكاً يائساً للبقاء، فإن نُعت شخص بها فهو عمل مروّع. أمر كان من شأنه في أوروبا القديمة أن يضمن لك مبارزة.

قالت بعينين دامعتين: "حبيبتي، أنا لست حثالة".

"أعـــرف ذلـــك وايـــان، ولهذا السبب أنا منـــزعجة. حاولت إخبارهم بأنّك لست كذلك ولكنهم لا يصدّقونني".

وضعت يدها على يدي: "أنا آسفة لوضعك في هذا المأزق".

"هـــذا مأزق كبير، وايان. أصدقائي غاضبون. يقولون إنّه لا بدّ لـــك مـــن شـــراء أرض قبل أن أعود إلى أميركا وإلاّ... *سيستعيدون نقودهم*".

هنا، لم يبدُ عليها أنّها على وشك الإغماء، بل على وشك الموت. شـــعرت وكـــأنّني كاذبـــة كبيرة وأنا أحوك هذه القصة لتلك المرأة المـــسكينة، الـــتي بدت أنّها لا تدرك أنّني لا أستطيع استعادة المال من حـــسابها أكثر مما أستطيع أخذ جنسيتها البالينيّة. ولكن، كيف لها أن تعلـــم؟ ألم أجعل المال يظهر فجأة في حسابها؟ يمكنني إذاً بكل سهولة استعادته.

قالـــت: "عزيزتي، صدقيني. سأجد قطعة أرض الآن، لا تقلقي، ســـأجد أرضـــاً بسرعة. لا تقلقي أرجوك... ربّما أنهي الأمر في الأيام الثلاثة القادمة، أعدك بذلك".

قلـــت لها: "لا بدّ من ذلك، وايان"، بجدّية لم تكن سوى تمثيل. ولكـــن، علـــيها أن تتحـــرّك. فبـــناقما بحاجة إلى منـــزل قبل أن يتم إخراجهنّ من المتجر. الوقت ليس مناسباً للمماطلة.

قلـــت لهـــا: "أنا ذاهبة الآن إلى منـــزل فيليبه. اتصلي بـــي ما إن تـــشتري شـــيئاً". ثمّ غادرت متجرها وأنا واثقة بأنّها تنظر إليَّ ولكنّني لم اســـتدر للنظـــر خلفي. وقطعت الطريق كلّه وأنا أدعو الله بدعاء غريب: "أرجو أن تكون نصابة". لأنّها إن لم تكن نصابة، وإن كانت فعلاً عاجزة عـــن إيجـــاد مكـــان لتعيش فيه على الرغم من 18 ألف دولار موجودة بحـــوزتها، فـــنحن في ورطة حقيقية ولا أعرف كيف يمكن لهذه المرأة أن تخرج نفسها من الفقر. أمّا إن كانت مخادعة، فثمة بصيص أمل. فهذا يعني أنّها تملك بعض الشرّ وستكون بخير في هذا العالم المتقلّب.

وصلت إلى بيت فيليبه وبدوت في حالة مزرية: "فقط لو تعلم وايان بأنّني كنت أكذب عليها...".

"تكذبين لأجل سعادتها ونجاحها".

بعد أربع ساعات فقط رنّ هاتف فيليبه. كانت وايان. أخبرتنا وهي تلهث من أثر الانفعال بأنّها أتمت الأمر، واشترت للتوّ قطعة الأرض من المزارع (الذي لم تمانع *زوجته* تجزئتها). وتبين أنّه لم يكن ثمّة حاجة إلى أي أحلام سحرية أو إلى تدخّل أيّ كاهن أو إلى أيّ اختبارات *تاكسو*. حتى إنّ وايان تملك صك الملكية بين يديها! وهو مصدّق لدى كاتب عدل! كما أكدت لي أنّها طلبت مواد البناء وأنّ العمال سيبدأون بالبناء في الأسبوع القادم، قبل أن أرحل. هكذا يمكنني رؤية المشروع. وكانت تأمل ألاّ أكون غاضبة منها. أرادتني أن أعلم بأنّها تحبّني أكثر مما تحبّ جسدها وحياتها وهذا العالم بأسره.

أخبرتها بأنّني أحبها أنا أيضاً وأنني متشوقة لأحلّ ضيفة عليها في منزلها الجديد يوماً ما، وأنّني أريد نسخة عن صكّ الملكية.

حين أغلقت الخطّ، قال لي فيليبه: "فتاة طيبة".

لا أعلم مَن قصد بيننا. ثمّ قال: "هل لنا أن نذهب في عطلة الآن؟ أرجوك".

107

كان المكان الذي قصدناه في العطلة جزيرةً صغيرة تدعى جيلي مينو، واقعة أمام ساحل لومبوك، وهي المحطّة التالية شرق بالي في الأرخبيل الإندونيسي الكبير. وبما أنّني زرتها من قبل، أردت أن يراها فيليبه، الذي لم تسبق له زيارتها.

وجزيـــرة جيلي مينو هي من أهمّ الأماكن في العالم بالنسبة إليّ. فقـــد أتيت إليها بمفردي حين زرت بالي للمرة الأولى. كنت في تلك المهمـــة للمجلة، أكتب عن عطل اليوغا، وكنت قد أنهيت للتوّ دروس اليوغا التي امتدّت على أسبوعين وجدّدت نشاطي. ولكنني قرّرت تمديد إقـــامتي في إندونيسيا بعد انتهائي من المهمة، بما أنّني قطعت كلّ تلك المـــسافة إلى آسيا. ورغبت بإيجاد مكان بعيد جداً أنعزل فيه لعشرة أيام من الوحدة والصمت التامّ.

وحـــين أنظر الآن إلى السنوات الأربع التي تفصل بين انهيار زواجي ويـــوم حـــصولي على الطلاق، لا أرى سوى العذاب التام. واللحظة التي أتيت فيها إلى تلك الجزيرة الصغيرة كانت الأسوأ في تلك الفترة بأكملها. كانـــت في قعـــر العـــذاب ووسطه. فعقلي الحزين كان عبارة عن ساحة معـــركة مـــن الشياطين المتصارعة. وحين اتخذت القرار بقضاء عشرة أيام وحـــيدة في الـــصمت في مكان لا أعرفه، قلت لأجزائي القلقة والمرتبكة الـــشيء نفسه: "نحن الآن هنا جميعاً معاً يا شباب، وحدنا. وسيتحتّم علينا التوصّل إلى اتفاق لكي نستمرّ وإلاّ فسنموت جميعاً معاً، عاجلاً أم آجلاً".

قـــد يبدو كلامي حازماً ومليئاً بالثقة، ولكن عليَّ الاعتراف أيضاً أنّـــني لم أعـــرف في حياتي الرعب الذي شعرت به وأنا أبحر إلى تلك الجزيـــرة الهادئة بمفردي. حتى إنّني لم أحضر معي كتباً تصرف انتباهي. بـــل كـــنّا أنا وعقلي وحسب، على وشك أن نواجه بعضنا في ساحة خالية. أذكر بأنّ ساقي كانتا ترتجفان فعلاً من الخوف. إلاّ أنّني كرّرت لنفـــسي أحد الأقوال المفضّلة لمرشدتي: "الخوف، من يهتمّ له؟" ونزلت من المركب وحيدة.

اســـتأجرت حجرة على الشاطئ مقابل بضعة دولارات في اليوم، وأغلقت فمي، ونذرت ألاّ أفتحه قبل أن يتغيّر شيء في داخلي. كانت

جزيرة جيلي مينو جلسة الحقيقة والمصالحة الكبرى. فقد اخترت المكان المناسب لذلك، كان هذا واضحاً. كانت الجزيرة نفسها صغيرة، بدائية، رملية، مياهها زرقاء صافية، وتنبت في أرضها أشجار النخيل الباسقة. كانت عبارة عن دائرة كاملة فيها طريق واحد يمتد حولها، ويمكن المشي حولها خلال ساعة تقريباً. تقع الجزيرة على خطّ الاستواء تقريباً، وبالتالي لا تشهد دورة الليل والنهار سوى تغييراً طفيفاً. إذ تشرق الشمس من إحدى جهات الجزيرة عند الساعة السادسة والنصف صباحاً وتغيب في الجهة المقابلة عند السادسة والنصف مساءً، على مدار أيام السنة. كان يقطن في الجزيرة زمرة صغيرة من الصيادين مع عائلاهم. ولم تكن تحتوي على بقعة لا تسمع فيها صوت المحيط. كما كانت تخلو من السيارات ذات المحرّكات، وتصل إليها الكهرباء عن طريق مولّد يتم تشغيله لبضع ساعات في المساء فقط. كانت أكثر الأماكن التي زرها هدوءاً.

اعتدت أن أمشي حول الجزيرة كلّ صباح، ثمّ أعيد الكرّة عند المغيب. أمّا بقية الوقت، فكنت أكتفي بالجلوس والمراقبة. راقبت أفكاري، وعواطفي، والصيادين. يقول حكماء اليوغا إنّ الألم الذي يعانيه البشر ناتج عن الكلمات، تماماً مثل الفرح. نحن نضع الكلمات لوصف تجربتنا وتلك الكلمات تحضر معها عواطف مرافقة تعذّبنا. فتغرينا المانترات التي نصنعها نحن (*أنا فاشل... أنا وحيد... أنا فاشل... أنا وحيد...*) ونصبح معابد لها. والتوقف عن الكلام لفترة من الزمن هو محاولة لتجريد الكلمات من قوّها والتوقف عن خنق أنفسنا بها وتحرير أنفسنا من المانترات الخانقة.

استغرقت وقتاً لأغرق في الصمت الفعلي. وحتى بعد أن توقفت عن الكلام، وجدت بأنّني لا أزال أهمهم باللغة. فأعضاء

وعضلات النطق - دماغي، حلقي، صدري، مؤخر عنقي - كانت لا تـــزال ترتجّ من أثر التكلّم حتى بعد وقت طويل من توقّفي عن إصدار الأصوات. كان صدى الكلمات يتردّد في رأسي مثلما يتردد صدى الأصوات والصراخ لوقت طويل في حوض سباحة داخليّ بعد مغادرة الأطفال. واستغرقت الأصداء والأصوات وقتاً طويلاً لتهدأ. ربّما ثلاثة أيام.

بعـــدها بـــدأ كلّ شيء يطفو إلى السطح. فحالة الصمت تلك أوجدت مكاناً.

كـــان السياح الوحيدون الآخرون على الجزيرة زمرة من الأزواج الذين يقضون عطلة رومانسية. (فالجزيرة جميلة جداً ونائية جداً ليزورها مجـــنون بمفـــرده). راقـــبت هؤلاء الأزواج وحسدهم على الأوقات الرومانـــسية التي يمضونها معاً، ولكنني عرفت أنّ وضعي لا يسمح بأيّ رفقـــة. لديَّ مهمة مختلفة هنا. بقيت بعيدة عن الجميع، وتركني الناس وشـــأني. أظنّ أنّ ذبذبات مخيفة كانت تصدر عنّي. فلم أكن بخير طيلة الـــسنة. ولا يمكـــن لأي شخص أن يخسر كلّ هذا النوم والوزن وأن يبكي بتلك القوّة من دون أن يبدو وكأنه مريض نفسي. لذا لم يقترب منّي أحد.

في الواقـــع، هـــذا ليس صحيحاً. شخص واحد تحدّث معي كلّ يوم. كان ولداً صغيراً بين عصابة من الأولاد الذين يركضون على طول الـــشاطئ لبـــيع الفاكهة الطازجة للسياح. ربّما كان يبلغ التاسعة من عمـــره وبـــدا بأنّه قائد المجموعة. بدا قويا، وكنت لأسميه *فتى الشارع الذكـــي* لو كان في جزيرته شوارع. أفترض بأنّه *فتى الشاطئ الذكي*. ويـــبدو بأنّه تعلّم الإنكليزية جيّداً من كثرة مضايقته للسياح الغربيين. وهـــذا ما فعله معي. إذ إنّ أحداً لم يسألني من أنا أو يزعجني، أمّا هو

فكــان يأتي للجلوس بقربـــي على الشاطئ كلّ يوم ويسألني: "لِمَ لا تتكلمين؟ لِمَ أنت غريبة هكذا؟ لا تدّعي بأنّك صمّاء، أعلم أنّك قادرة علـــى سماعي. لِمَ أنت وحيدة دائماً؟ لِمَ لا تسبحين؟ أين صديقك؟ لِمَ لست برفقة زوج؟ ما خطبك؟

وفكّرت بأن أصرخ في وجهه، *اذهب أيّها الولد! من أنت، نسخة عن أسوأ أفكاري؟*

حاولـــت كلّ يوم الابتسام في وجهه بلطف وصرفه عنّي بحركة مهذّبـــة، ولكـــنّه لم يكن يرحل عنّي. وكان غضبـــي يثور في النهاية. أذكر أنّني انفجرت فيه يوماً: "أنا لا أتحدّث لأنّني في رحلة روحية لعينة أيّها الولد المزعج؛ والآن، ارحل عنّي!".

فـــركض وهو يضحك. وهذا ما كان يفعله كلّما نجح في دفعي على الكلام. فأضحك أنا أيضاً ولكن بعد أن يغيب عن نظري. كنت أخـــشى هـــذا الـــصبـــي، وأتطلّع إلى قدومه في الوقت نفسه. كان الاستراحة الكوميدية الوحيدة خلال رحلتي القاسية.

أظنّني أعرف ما كان هذا الولد الشقيّ الذي كان ينجح دوماً في انتزاع ضحكة منّي.

في اليوم التاسع من الصمت، جلست للتأمّل في إحدى الأمسيات على الشاطئ في أثناء مغيب الشمس ولم أقم قبل منتصف الليل. أذكر أنّـــي فكّرت: "هذا هو الوقت، يا ليز". وقلت لعقلي: "هذه فرصتك. أرني كـــلّ مـــا يسبب لك الحزن. دعني أراه كلّه. لا تحتفظ بشيء". فـــراحت الأفكار والذكريات المحزنة ترفع أيديها وتقف للتعريف عن نفسها. نظرت إلى كلّ فكرة ومكمن حزن وأقررت بوجودها وشعرت – مـــن دون أن أحاول حماية نفسي – بألمها الفظيع. ثمّ قلت لها: "لا بأس. أنا أحبّك وأقبل بك. ادخلي قلبـــي. انتهى الأمر". وكنت أشعر

في الواقع بأنّ الحزن يدخل قلبـــي وكأنّه كائن حيّ وكأنّ قلبـــي غرفة حقيقـــية. ثمّ قلـــت: "التالي؟" فيطفو حزن آخر. أنظر إليه، أشعر به، أباركـــه ثمّ أدعوه لدخول قلبـــي هو أيضاً. فعلت الأمر نفسه مع كلّ فكرة محزنة أحسست بها، وفتشت في سنوات من الذكريات، ولم يتبقّ شيء.

ثمّ قلت لعقلي: أرني غضبك الآن". فراحت أحداث حياتي المثيرة للغـــضب تظهـــر وتعـــرّف عن نفسها. كلّ ظلم، وخيانة، وخسارة، وغـــيظ. رأيتها كلّها، واحدة تلو الأخرى واعترفت بوجودها. رأيت كـــلّ فكـــرة غضب بأكملها وكأنّها تحدث للمرة الأولى ثمّ قلت لها: "ادخلـــي قلبـــي الآن. يمكنك أن ترتاحي فيه. أنت بأمان، انتهى كلّ شـــيء. أنـــا أحبك". استمرّ ذلك لساعات وساعات وتأرجحت بين هـــذين القطبين من الأفكار المتضاربة، ينتابني الغضب الجامح للحظة ثمّ أبـــرد تماماً مع دخول الغضب إلى قلبـــي وكأنه يدخل باباً ثمّ ينـــزل ويتقوقع بقرب إخوته ويتوقّف عن القتال.

ثمّ وصـــلت إلى الجـــزء الأصعب. قلت لعقلي: "أرني خزيك". فرأيت الفظائع. كان عرضاً مثيراً للشفقة لكلّ مشاعري، وأكاذيبـــي، وأنانيتي، وغيرتي، وغروري. ولكنّني لم أتراجع أمام أيّ منها. بل قلت لـــه: "أرني الأسوأ". ثمّ حاولت دعوة تلك الأفكار المخزية إلى قلبـــي، فتردّدت عند الباب قائلة: "كلا، أنت لا تريدينني هناك... ألا ترين ما فعلت؟" فأقول لها: "بلا أنا أريدك. حتى أنت. أريدك. حتى إنني أرحّب بـــك هنا. لا بأس، لقد سامحتك. أنت جزء منّي ويمكنك أن ترتاحي الآن. لقد انتهى كلّ شيء".

وحـــين انتهـــيت من كلّ هذا، صرت فارغة. لم يعد ثمّة أفكار تتصارع في عقلي. نظرت إلى قلبـــي، إلى طيبتي، ورأيت مدى سعته.

وجدته لم يقارب حتى على الامتلاء، على الرغم من إدخالي جميع تلك الأفكـار الفظيعة من الحزن والغضب والعار. كان بإمكان قلبـي أن يستوعب ويسامح المزيد. كان حبّه غير متناه.

عـندها عـرفت كيف يحبّنا الله ويقبل بنا كلّنا. فإن كان بوسع كـائن بشري واحد منهار ومحدود مثلي أن يشعر بالقليل وحسب من الغفران والتسامح إزاء نفسه، فما عليك سوى أن تتخيّل كم يمكن لله، برحمته الواسعة والأبدية، أن يغفر ويسامح.

كما عرفت أيضاً بأنّ فترة السلام تلك ستكون مؤقّتة. عرفت أنّـني لم أنته تماماً من آلامي وأنّ غضبـي وحزني وعاري ستتسلّل من قلبـي مجدّداً وتعود إلى عقلي. وعرفت أنّني سأحتاج إلى التعامل مـع تلك الأفكار مراراً وتكراراً قبل أن أنتهي منها تماماً حين أغيّر حياتي كلها. ولن يكون هذا سهلاً، غير أنّ قلبـي قال لعقلي: "أنا أحبك، لن أتخلّى عنك أبداً، بل سأعتني بك دائماً". طار ذاك الوعد مـن قلبـي فحبسته في فمي ورحت أتذوّقه وأنا أغادر الشاطئ عائدة إلى الكوخ الصغير الذي أقيم فيه. وجدت دفتراً صغيراً خالياً، ففتحته على الصفحة الأولى وحينها فقط فتحت فمي، ونطقت بتلك الكلمـات وحرّرتها في الهواء. تركت تلك الكلمات تكسر صمتي، وجعلـت قلمـي يدوّنها على الصفحة: "أنا أحبّك، لن أتخلّى عنك أبداً، بل سأعتني بك دائماً".

كانـت تلـك الكلمات الأولى التي دوّنتها على دفتر ملاحظاتي الخـاصّ الـذي حملته معي منذ تلك اللحظة، ولجأت إليه كثيراً خلال الـسنوات التالية طلباً للعون، *الذي وجدته دائماً*، حتى في أكثر أوقاتي حـزناً أو خـوفاً. وكان الدفتر، الذي ضمّ وعد الحبّ ذاك، السبب الوحيد لبقائي على قيد الحياة في السنوات التالية من حياتي.

108

هـــا أنـــا الآن عائدة إلى جيلي مينو في ظروف مختلفة تماماً. فمنذ زيـــارتي الأخيرة، جبت العالم، أتممت طلاقي، تجاوزت قضية انفصالي عن ديفيد، نظّفت جسدي من جميع الأدوية التي تؤثّر في المزاج، تعلّمت لغـــة جديدة، مررت بلحظات لا تنسى من الروحانية في الهند، درست عـــند قدمي عراف إندونيسي، واشتريت منـــزلاً لعائلة كانت بأمسّ الحاجة إلى سقف تحتمي تحته. أنا سعيدة وأتمتّع بالصحة والتوازن. ولا يمكنني ألاّ ألاحظ بأنّني أبحر إلى تلك الجزيرة الاستوائية الخلاّبة بصحبة عـــشيقي البرازيلـــي. وأقرّ بأنّها نهاية سخيفة لهذه الرواية تشبه نهايات القـــصص الخرافية، وكأنّها صفحة من أحلام زوجة (ربّما صفحة من أحلامـــي أنا منذ بضع سنوات). إلاّ أنّ ما يمنعني من الانغماس في وهم القـــصص الخرافية هي تلك الحقيقة الأكيدة التي أمدّتني بالقوة على مرّ السنوات الماضية: لم ينقذني أمير، بل كنت أنا مديرة عملية إنقاذي.

تحـــوّلت أفكاري إلى ما قرأته مرّة، عن معتقدات بوذيّي الزن. إذ يقولـــون إنّ شـــجرة السنديان تنتج بقوّتين متلازمتين. بالطبع، هنالك البزرة التي منها يبدأ كلّ شيء والتي تحمل الوعد والقدرة وتنمو لتصبح شـــجرة. الكلّ يعرف ذلك. إلاّ أنّ قلة يقرّون بوجود قوة أخرى تعمل في الوقت نفسه، ألا وهي الشجرة نفسها التي تريد أن توجد بكلّ قواها والـــتي تدفع البذرة إلى الحياة وتشدّها إلى الأمام من العدم وتقودها إلى النضوج. وبذلك، يعتقد بوذيّو الزن بأنّ شجرة السنديان هي التي تنتج البذرة التي تولد منها.

الآن أفكّـــر في المـــرأة التي أصبحت عليها مؤخّراً وفي الحياة التي أعيـــشها الآن، وكم أردت أن أكون هذه المرأة وأن أحيا هذه الحياة،

حرّة من الادّعاء بأنّني شخص آخر غير الذي أنا عليه. أفكّر في كلّ ما عانيته قبل أن أصل إلى هنا وأتساءل ما إذا كنت *أنا* - أعني هذه المرأة السعيدة والمتوازنة الممدّدة الآن على متن قارب الصيد الإندونيسي الصغير هذا - مَن دفع أنا الأخرى، الأصغر سنًّا والأكثر ارتباكاً وكفاحاً إلى الأمام خلال تلك السنوات الصعبة. أنا الصّغرى كانت البذرة المليئة بالقدرة، ولكن أنا الكبرى، السنديانة الموجودة أصلاً، هي التي كانت تقول طيلة الوقت: "أجل، اكبري! تغيّري! تطوّري! تعالي وقابليني هنا، حيث أنا موجودة كاملة وناضجة! أحتاج إلى أن تكبري بداخلي!" وربّما كانت *أنا* الحالية هي التي حامت حول تلك الزوجة الشابة التي كانت تبكي على أرض الحمّام، وربّما كانت هي من همس بحنان في أذن الفتاة اليائسة: "عودي إلى سريرك، ليز..." فقد كانت تعرف أساساً بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، وأن كلّ شيء سيجمعنا معاً *هنا*، في هذه اللحظة، حيث كنت أنتظر دوماً بسلام ورضًى لكي تصل وتنضمّ إليّ.

ثمّ استيقظ فيليبه. كنّا نحن الاثنين ممدّدين طيلة عصر ذلك اليوم بين ذراعي بعضنا، على متن مركب الصيد الإندونيسي. كانت الأمواج تؤرجحنا والشمس ترسل فوقنا أشعتها اللامعة. وفيما تمدّدت هناك ورأسي متكئ على صدره، قال لي فيليبه بأنّ فكرة رائعة خطرت في ذهنه وهو نائم. قال: "كما تعلمين، من الواضح أنّني مضطرّ إلى العيش في بالي بسبب عملي هنا، ولأنّها قريبة من أستراليا التي يعيش فيها أولادي. كما أنّني أحتاج إلى الذهاب إلى البرازيل غالباً، لإحضار الأحجار الكريمة ولأنّ جزءاً من عائلتي يعيش هناك. ومن الواضح أنّك بحاجة إلى أن تكوني في الولايات المتحدة، لأنّك تعملين هناك ولأنّ عائلتك وأصدقاءك يعيشون هناك. لذا خطر لي... بإمكاننا ربّما أن

نحـــاول بـــناء حـــياة لنا معاً موزّعة بين أميركا، وأستراليا، والبرازيل، وبالي".

فما كان منّي إلاّ أن ضحكت وفكّرت، لِمَ لا؟ قد تكون الفكرة مجـــنونة لتنجح. فبعض الناس قد يصدمون لهذه الفكرة، ولكنّها تشبهني كـــثيراً. بالطبع هكذا يجب أن تكون الأمور. كما أنّني أحبّ شاعرية الفكـــرة. فـــبعد هذه السنة التي قضيتها وأنا أحاول استكشاف نفسي الجسورة، اقترح عليَّ فيليبه نظرية سفر جديدة:

أستراليا، أميركا، بالي، البرازيل = أ، أ، ب، ب.

وكأنها قوافي قصيدة غربية كلاسيكية.

رســـى مركب الصيد الصغير أمام شاطئ جيلي مينو. لم يكن ثمّة أحـــواض لرسو السفن في الجزيرة، بل كان على الزائر أن يرفع بنطاله ويقفـــز مـــن القارب ويجتاز الأمواج على طريقته. ولكن ما من سبيل لـــذلك من دون التعرّض للبلل أو حتى الارتطام بالشاطئ المرجاني، إلاّ أنّ الأمـــر يـــستحقّ التعب لأنّ الشاطئ رائع الجمال. هكذا خلعنا أنا وعشيقي أحذيتنا وحملنا حقائبنا الصغيرة على رؤوسنا واستعددنا للقفز من القارب معاً في البحر.

ولكنّ الأمر كان مضحكاً. فاللغة الرومانسية الوحيدة التي لا يبدو بـــأنّ فيليبه يتقنها هي الإيطالية. مع ذلك، قلت له على كل حال ونحن على وشك أن نقفز:

"*Attraversiamo*".

فلنعبر الشارع.

الخاتمة

بعد بضعة أشهر من رحيلي عن إندونيسيا، عدت لزيارة أحبابي والاحتفال بذكرى الميلاد وعطلة رأس السنة. حطّت طائرتي في بالي بعد ساعتين فقط من موجة التسونامي التي ضربت جنوب شرق آسيا وألحقت به دماراً واسعاً. فراح معارفي يتصلون بي من مختلف أنحاء العالم ليطمئنّوا على سلامة أصدقائي الإندونيسيين. وبدوا قلقين جداً وهم يسألون: "هل وايان وتوتّي بخير؟" والجواب هو أنّ التسونامي لم تؤثّر في بالي إطلاقاً (ما عدا عاطفيًّا بالطبع). كان الجميع بخير وكان فيليبه بانتظاري في المطار (لأول مرّة من المرات العديدة التي سنلاقي بعضنا فيها في مطارات مختلفة). كان كيتوت لاير جالساً على شرفته، كالعادة، يصنع الأدوية ويتأمّل. وكان يوداي قد حصل على عمل في العزف على الغيتار في منتجع محلّي راق وكان بخير. أمّا عائلة وايان فكانت تعيش سعيدة في منزلها الجديد، بعيداً عن الساحل الخطر، بين سهول الأرزّ في أوبود.

أودّ أن أوجّه امتناني (بالإضافة إلى امتنان وايان) إلى جميع من ساهم في التبرع بالمال لبناء ذاك المنزل.

في سياق آخر، أتمنّى لو أجد طريقة مناسبة لشكر عمّي تيري وعمّتي ديبورا الحبيبين للمساعدة الكبيرة التي قدّماها لي خلال هذا العام

مـــن الـــسفر، والتي من دونهما ما كان لي أن أكتب هذه الرواية. ولا أعرف في الواقع كيف أردّ لهما جميلهما.

في النهاية، وعوضاً عن محاولة ردّ الجميل لمن دعمنا في حياتنا، قد يكـــون مـــن الحكمة الاستسلام أمام عظمة كرم الإنسانية والاكتفاء بتوجيه الشكر الصادق إلى الأبد.

الكتاب الأكثر مبيعاً والذي يتكلم عنه الجميع

إليزابيث في العقد الثالث من عمرها، تسكن في منزل فاخر مع زوج محبّ يريد أن ينشئ عائلة. ولكن هذا المشروع ليس من ضمن أولوياتها، فيحصل الطلاق المرّ لتصفع تردّداته العنيفة إليزابيث، التي تنهض بعد وقت محطَمةً ولكن مصممة على البحث عن كل ما تفتقده.

هنا يبدأ البحث. في روما تغرق في ملذات الطعام والحفلات فيزداد وزنها عشرين كيلوغراماً دفعة واحدة. في الهند تنير الهِدايةُ روحها وهي تحفّ أرض المعابد. وأخيراً في بالي تكتشف على يدي عراف سقطت أسنانه الطريق إلى السلام الذي يقودها إلى الحب.

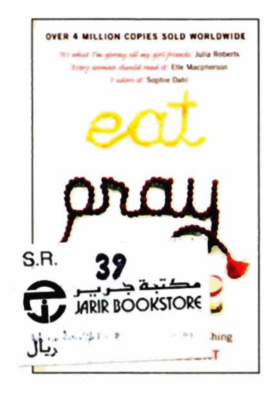
«أجمل سيرة شخصية قرأتها أبداً. إنها لذيذة» طوني كوليت

«لقد أحببت طعام، صلاة، حب» هيلاري كلينتون

«مدهشة ورائعة» ميني درايفر

«لقد أحببته... لقد تفهمت حاجتها إلى كتابة الكتاب ورغبتها بالشفاء» ميغ رايان

«صاخب، متألق وروحاني بلا خجل» استر فرويد





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com





ISBN 978-9953-87-602-3
9 "789953"876023"